

المركز القومي للترجمة



المشروع القومي للترجمة

روزيتا فوربس

سر الصحراء الكبرى: الكفرة

ترجمة وتقديم: صبرى محمد حسن

مراجعة: يوسف فايد

1920





هذه هى الرحلة التى قامت بها روزيتا فوريس فى شتاء عامى ١٩٢٠-١٩٢١، وعبرت فيها الصحراء الليبية على ظهر جمل؛ بحثاً عن واحة الكفرة التى كانت تقع ضمن سيطرة السيد إدريس السنوسى، الذى أصبح فيما بعد ملكاً لليبيا، وقد سافرت روزيتا فوريس بصحبة أحمد باشا حسانين الرحالة المصرى، الذى كانت معارفه وخبراته عاملاً حيوياً فى نجاح هذه المغامرة.

سر الصخراء الكبرى: الكُفرة

المركز القومي للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1920
- سر الصحراء الكبرى: الكفرة
- روزيتا فوربس
- صبرى محمد حسن
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة كتاب:

The Secret of the Sahara :Kufara

By: Rosita Forbes

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com

Tel: 27354524

Fax: 27354554

سر الصحراء الكبرى: الكفرة

تأليف: روزيتا فوربس

ترجمة وتقديم: صبرى محمد حسن

مراجعة: يوسف فايد



2013

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

فوربس، روزيتا

سر الصحراء الكبرى: الكُفرة: تأليف: روزيتا فوربس ،

ترجمة وتقديم: صبرى محمد حسن ، مراجعة: د/يوسف فايد

ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٣

٤٨٠ ص ، ٢٤ سم

١ - الصحراء الكبرى

(أ) حسن ، صبرى محمد (مترجم ومقدم)

(ب) فايد ، يوسف (مراجع)

٩١٦/٢٢٧

(ج) العنوان

رقم الإيداع ١٣٤٢٨ / ٢٠١٢

الترقيم الدولى: 0-185-216-977-978 I.S.B.N

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

7	إهداء
9	مقدمة الترجمة: روزيتا فوريس وسر الصحراء
21	تصدير
27	الفصل الأول: الإقدام على المغامرة الكبرى
53	الفصل الثانى: ترتيبات الهروب
77	الفصل الثالث: الهروب من إجدابيا
109	الفصل الرابع: عبر الصحراء بصحبة الشيب
141	الفصل الخامس: نجاحنا فى الوصول إلى جالو
171	الفصل السادس: عيد الميلاد فى الصحراء
189	الفصل السابع: مرشد زائف فى طريق خال من الماء
217	الفصل الثامن: البحيرة التى فى الصحراء
249	الفصل التاسع: الخيانة فى هوارى
265	الفصل العاشر: ولاتم المكان المقدس
291	الفصل الحادى عشر: "مدائن" الكفرة
319	الفصل الثانى عشر: الهرب من تاج
357	الفصل الثالث عشر: خلال الجبال
379	الفصل الرابع عشر: الكتبان الخادعة
405	الفصل الخامس عشر: نهاية الرحلة

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلي محمد بك حسنين

تذكارا لساعات خطرة ومرحة، ومعارك يائسة أو مضحكة، وعن
الفشل والنجاح في الصحراء الليبية

مقدمة المترجمة

روزيتا فوربس وسر الصحراء

جرت أحداث ووقائع هذه الرحلة في منطقة متاخمة لحدود مصر الغربية، التي قال خبراء ذلك الزمان (١٩٢٠) العسكريون إنها "شبيهة بأبى ذنيبة"، فالدلتا هي رأس مصر، أقصد رأس أبى ذنبيه، أما الذيل فهو وادى النيل الطويل الملتوى. وعليه فإن مصر - من بين كل الدول - هي الأكثر تعرضاً للهجوم... ولن تستطيع مطلقاً الدفاع عن حدودها" وعليه ومن باب الاسترضاء والمهادنة "قدم محمد على باشا الدعم والمعونة لمشايخ أولاد على لكي يقوموا بحراسة حدوده"

فمن هي صاحبة هذه الرحلة وما هي وقائعها وأحداثها؟

اسمها بالكامل جوان روزيتا فوربس؛ وهي رحالة وكاتبة ولدت في اليوم السادس عشر من شهر يناير من العام ١٨٩٣ في لينكولن Lincoln، التي تربت ونشأت فيها تنشئة تقليدية، تمتعت خلالها بالقراءة والكتابة. وقد تزوجت روزيتا فوربس من العقيد رonald فوستر فوربس وترحلت معه في الهند، والصين وأستراليا، وجنوب أفريقيا. لكنهما طلقا في العام ١٩١٧، وفي العام ١٩١٩ - أى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى - قامت روزيتا فوربس بجولة حول العالم؛ انتهت هذه الجولة في شمال أفريقية، وهو ما يعد أول ملقأ لروزيتا بالعالم العربى. عاشت هذه السيدة مع الشخصيات المحلية واختلطت بهم وكانت تتردد على الأسواق الشرقية وتصادق العرب والأفغان والهنود، والطبكيك، والأوزبك والقازاق والتقت هذه السيدة ببعض الشخصيات البارزة في كل من القاهرة، ودمشق، وبيروت، وأبدت اهتماماً بالعرب دام معها بقية حياتها. ويصف الكتاب المعنون "جاولون بلا مرشد" الذى صدر فى العام ١٩١٩ تلك الرحلة التى قامت بها هذه السيدة حول العالم.

روزيتا وآرثر توماس

فى العام ١٩٢١ تزوجت روزيتا من العقيد آرثر توماس ماكجراث، لكنها واصلت الاحتفاظ بالاسم روزيتا فوربس، ليكون اسماً مهنيًا لها، وواصلت ترحالها مثلما كانت تفعل من قبل، غير أن خططها التى وضعتها للسفر إلى جنوب الجزيرة العربية بصحبة والد كيم فيلبى باءت بالفشل، والسبب فى ذلك أن سلطات عدن رأت أن الرحلة تمثل خطورة عليها، وكبدل عن هذه الرحلة، قامت بالتجوال خلال أراضي الحبشة، بصحبة هارولد جونز، وهو مصور سينمائى. قامت روزيتا فوربس هى وزوجها الثانى آرثر توماس ماكجراث بكثير من الأسفار، وعندما كانا فى لندن حظيا باهتمام كبير. وترحلت روزيتا فوربس فى العام ١٩٣٠ فى بلاد إيران التى سافرت إليها عن طريق المرور خلال كل من سورية وفلسطين والعراق والأردن. كما ترحلت أيضا فى أمريكا الجنوبية وروسيا، وكينيا وساحل العاج.

وفى أثناء الحرب العالمية الأولى كانت روزيتا فوربس تقود سيارات الإسعاف فى فرنسا وحصلت على ميداليتين من الحكومة الفرنسية، وأثناء الحرب العالمية الثانية ساعدت فى المجهود الحربى عن طريق إلقاء المحاضرات فى أمريكا. واستقرت خلال السنوات الأخيرة من عمرها مع زوجها فى جزر البهاما وتوفيت فى برمودا فى اليوم الثلاثين من شهر يونيو من العام ١٩٦٧. ولم تحظ بالشهرة التى حظيت بها جرتروود بل Bell فى العالم العربى، لكنها كانت رحالة واسعة الحيلة جرى تسجيل حياتها المليئة بالمغامرات فى كتابين من كتب السيرة.

روزيتا فوربس فى عيون الآخرين

اشتهرت هذه السيدة بحق بترحالها فى الأجزاء الخطيرة من العالم. واقع الأمر أن هذه المرأة الإنجليزية الجسورة اعتادت - على امتداد سنوات طويلة - زيارة الأماكن النائية والخطيرة. وخطرت أيضًا بالذهاب إلى أماكن أخرى ممنوعة.

هناك من يقول: إن أفغانستان جرى غزوها مرات عدة: الاسكندر الأكبر، - على سبيل المثال - سيطر قواته الإغريقية بين جبالها، وجنكيز خان هرول خلال شوارعها هو وجحافل قواته. وجاء بعد ذلك الراج Raj البريطانى القوي ليأمر طائراته الحربية بالتحليق فوق مملكة الناسك المعزولة. وعلى الرغم من ذلك كله، لم يستطع أى أحد تجريد الأفغان من أسلحتهم بلا مجهود سوى روزيتا فوربس.

روزيتا فوربس وبيشاور

بدأت روزيتا رحلتها من بيشاور، تلك المدينة الساحرة، الخارجة فى معظمها على القانون، والتي تقع مثل بيضة الحمام على قاعدة ممر خيبر القريب منها. تعين على روزيتا فوربس بطبيعة الحال المغامرة بالدخول إلى أسواق العاديات فى المدينة، حتى تتحرى الشائعات الدائعة عن "أسرار بيشاور التى يعرفها الناس جميعًا". ومع ذلك، فإن رغبة روزيتا كانت تذهب إلى ما وراء الخطيئة الثقافية لتلك البلدة الحدودية سيئة السمعة. من هنا استأجرت هذه الرحالة الشجاعة سائقًا وسيارة، وألقت بحقائبها فى شنطة السيارة، وارتدت قفازها، ووضعت قبعتها الرائعة على رأسها، وركبت السيارة، متجهة إلى كابول، ثم مزار شريف لتصل فى نهاية المطاف إلى سمرقند البعيدة. وأسفرت هذه الرحلة عمّا يعد أبهج الرحلات التى أجربت فى فترة الثلاثينيات من القرن العشرين. والسبب فى ذلك أن عيني روزيتا فوربس الفاحصتين لم يرغب عنهما شيئًا على الإطلاق. تحدثت روزيتا فوربس مع البدو الرحّل، وتناولت الطعام مع أفراد الأسر المالكة، وكشفت عن

قصص ملأت كتابين. ومن يمن الطالع أن صورها وأحسن قصصها لا تزال تجمع هنا في الكتاب المعنون "الطريق الممنوع". هذا الكتاب البهيج، لا يزال عامراً بالحياة، وله سحره الخاص، شأنه في ذلك شأن مؤلفته المغامرة الجميلة.

أسفرت هذه الرحلة في عشرينيات القرن العشرين عن سفر يعد من أشهر أسفار المغامرة في ذلك التاريخ، بحكم أن الكتاب عامر بالملاحظات السياسية والمقابلات المهمة التي جعلت من هذه المرأة رحالة شهيرة بحق وفوق ذلك أن هذه السيدة تقدم للقارئ أيضاً مقطوعات شعرية عن جمال عالم الصحارى التي تجولت خلالها.

سر الصحراء: الكفرة

في شتاء العام ١٩٢٠-١٩٢١ وضعت روزيتا فوربس خطة للقيام بعبور الصحراء الليبية على ظهر جمل بحثاً عن واحة الكفرة التي كانت تقع ضمن حدود السيد إدريس السنوسي (الذي أصبح فيما بعد الملك إدريس السنوسي) وحتى ذلك الوقت كان جرهارد رولفز Rohlfs، هو الأوربي الوحيد الذي زار واحة الكفرة؛ كان ذلك في العام ١٨٧٩. تنكرت روزيتا فوربس في زي مسلمة، وأطلقت على نفسها اسم خديجة، لكن لغتها العربية لم تكن بجودة لغة السيدة/ أن بلنت، صاحبة كتاب الحج إلى نجد^(*)، وأحست روزيتا فوربس أنها مضطرة إلى الادعاء بأن أمها شركسية الأمر الذي يبرر عيوبها اللغوية. سافرت روزيتا فوربس بصحبه أحمد حسانين، الرحالة المصري، الذي كانت معارفه وخبرته أمراً حيوياً في نجاح هذه المغامرة. كانت رحلتها التي قاما بها بواسطة الإبل شاقة وخطرة في بعض الأحيان. الرواية التي أوردتها روزيتا فوربس عن الرحلة في كتابها: سر الصحراء: الكفرة، الذي صدر في العام ١٩٢١ تدل على صدق مزاعم هذه السيدة بأنها مستكشفة جادة.

(*) هذا الكتاب من منشورات المركز القومي للترجمة في جمهورية مصر العربية، وترجمه إلى العربية الدكتور صبرى محمد حسن.

محتويات الكتاب

ينقسم الكتاب إلى خمسة عشر فصلاً، إضافة إلى خريطة وأربعة ملاحق.

أوردت المؤلفة الفصل الأول تحت عنوان: 'الإقدام على المغامرة الكبرى'؛ وخصصت الفصل الثاني لما أسمته 'ترتيبات الهروب'، لكن 'الهروب من إجدابيا' كان عنوان الفصل الثالث. وأوردت المؤلفة الفصل الرابع تحت عنوان 'عبر الصحراء بصحبة شيب'. 'نجاحنا في الوصول إلى جالو' هو عنوان الفصل الخامس. وأعطت المؤلفة الفصل السادس عنواناً هو 'عيد الميلاد في الصحراء'. 'مرشد زائف في طريق خال من الماء' هو عنوان الفصل السابع. أما 'البحيرة التي في الصحراء' فهو عنوان الفصل الثامن. وأعطت المؤلفة الفصل التاسع عنواناً هو 'الخيانة في هوارى'. 'الولائم في المكان المقدس' هو عنوان الفصل العاشر. وأفردت المؤلفة الفصل الحادي عشر لـ - 'مدائن الكفرة'. وأوردت المؤلفة الفصل الثاني عشر تحت عنوان 'الهرب من تاج'. 'خلال الجبال' هو عنوان الفصل الثالث عشر؛ ويتناول الفصل الرابع عشر 'الكتبان الرملية الخادعة'. والفصل الخامس عشر هو 'نهاية الرحلة'.

تتهى المؤلفة فصول الكتاب بخريطة توضح خط سير الرحلة، وتتبع هذه الخريطة بأربعة ملاحق هي بحد ذاتها وثائق مهمة من الناحية التاريخية، أول هذه الملاحق يتناول المذهب السنوسى، وكيف نشأ، وكيف حاد عن أهدافه وتحول إلى أهداف أخرى؛ وتورد المؤلفة ذلك كله مدعوماً بالوثائق.

وفى الملحق رقم ٢ تورد المؤلفة نص رسالتى الترحيب اللتين صدرتا فى كل من بسيمة وتاج ترحيباً بمقدم روزيتا فوربس.

وفى الملحق د تورد المؤلفة ترجمة لمخطوط الرسالة التى وجهها سيدى بن على السنوسى مؤسس المذهب السنوسى إلى أهل واجنجا ودارفور فى السودان.

أحمد حسنين

ترى لماذا اختارت روزينا فوربس رفيقاً لها في هذه الرحلة؟ هل كان الرجل صاحب خبرة عن السنوسيين؟ وهل صحيح أنه اكتسب هذه الخبرة خلال عمله في سكرتارية تالبوت في العام ١٩١٦؟ وهل من الصحيح أن الرجل كان "أخلص محالف لها طوال هذه الرحلة"؟ أم أن كياسة الرجل ولباقة وفصاحته كانت تنقذ الموقف في كثير من الأحيان عندما كانت "لغتي العربية تخونني؟" وهل صحيح أن أحمد حسنين كان أحد أبناء علماء الأزهر الشريف؟

استفادت روزينا فوربس من الخبرة التي اكتسبتها من رحلتها إلى الحبشة، وزودت الكتاب بست وستين صورة، زادت الرحلة وضوحاً، ولا أبالغ إن قلت إنها أصبحت الآن في عرف الوثائق شديدة الأهمية في هذه الرحلة الثمينة، وبخاصة في ضوء مصاعب النقل والتنقل في ذلك الوقت على ظهور الإبل حاملين معهم ماءهم، ومؤنهم وعلف ماشيتهم.

قطعت روزينا فوربس هي وقافلتها ورفيقها أحمد حسنين هذه الرحلة في ستة وستين يوماً منها اثنان وعشرون يوماً في شهر ديسمبر، وواحد وثلاثون يوماً في شهر يناير وثلاثة عشر يوماً في شهر فبراير. قطعت القافلة ١٥٦٢ كيلو متراً طوال هذه الفترة منها: ٥٢٣ كيلو متراً في شهر ديسمبر، ٥٧٥ كيلو متراً في شهر يناير ثم ٤٦٤ كيلو متراً في شهر فبراير، أي بمتوسط سير يومي حوالى ثلاثة وعشرين كيلو متراً في اليوم الواحد، في أرض وعرة التضاريس، وطقس شديد الحرارة نهاراً شديد البرودة ليلاً.

خط سير الرحلة

بدأت الرحلة من إجدابيا فى اليوم الثامن من شهر ديسمبر عند الساعة السادسة صباحاً وتوقفت القافلة عند الساعة التاسعة والنصف واستأنفت مسيرتها ثانية عند الساعة الحادية عشرة والنصف للتوقف من جديد عند الساعة الثانية بعد الظهر. وبذلك تكون القافلة قد قطعت المسافة من إجدابيا إلى الوادى الفارغ فى ثلاثة أيام قطعت خلالها ستة وخمسين كيلو متراً، أى بمتوسط سير مقداره ١٧,٥ كيلو متراً.

وتتحرك القافلة من الوادى الفارغ فى اليوم الحادى عشر من شهر ديسمبر لتصل إلى عجيلة بعد حوالى سبعة أيام قطعت خلالها ١٦٨ كيلو متراً، أى بمتوسط سير يقدر بحوالى ٢٨ كيلو متراً فى اليوم.

ومن عجيلة، تتحرك القافلة فى ١٨ ديسمبر قاصدة بطّافل لتصلها فى اليوم الرابع والعشرين من الشهر نفسه قاطعة بذلك أربعة وعشرين كيلو متراً.

وفى اليوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر تتحرك القافلة قاصدة بسيمة لتصلها بعد أحد عشر يوماً قطعت خلالها ٣٠٨ كيلو مترات.

وتتحرك القافلة فى اليوم السادس من يناير، من بسيمة قاصدة ناج، فى منطقة واحة الكفرة لتصلها فى اليوم الثالث والعشرين من شهر يناير، أى بعد ثمانية أيام قاطعة بذلك ١٥٢ كيلو متراً.

وتنطلق القافلة من تاج يوم الثالث والعشرين من يناير لتصل إلى هواويرى فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يناير، قاطعة بذلك خمسة وثلاثين كيلو متراً.

وتستأنف القافلة سيرها بعد ذلك قاصدة منطقة بنر ذاكار لتصلها بعد أربعة أيام قاطعة بذلك ١٦٢ كيلو متراً.

وتواصل القافلة سيرها من بنر ذاكار على امتداد أربعة عشر يوماً لتصل إلى واحة جغبوب فى يومى الحادى عشر والثانى عشر من شهر فبراير قاطعة بذلك مسافة ٥٦٦ كيلو متراً.

وفى اليوم الثالث من شهر فبراير تبدأ القافلة رحلتها إلى واحة سيوة المصرية. كانت هذه، هى المحطات التى انطلقت القافلة منها وإليها، لكن المؤلفة حرصت منذ البداية على تحديد ارتفاعات هذه المحطات عن مستوى سطح البحر، وتوقيع زوايا هذه المحطات عن طريق استعمال البوصلة. ترى ما سبب ذلك؟ أهو تَوَخَّى الدقة فى المعلومات؟ أم أن ذلك لتسهيل مهمة أعضاء الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية الذين سيقومون بدراسة هذه المعلومات والاستفادة منها؟ ولماذا حاولت المؤلفة جاهدة إحصاء عدد الأبيار، وتحديد نوعية مياهها ومدى صلاحيتها؟ وما هو السبب وراء تحديد المؤلفة لعدد الزوايا التابعة للطريقة السنوسية، على امتداد خط سير الرحلة؟ وهل كان ذلك من باب العلم بالشيء؟ ألم يستند الفرنسيون من هذه المعلومات الدقيقة والموثقة، عندما شرعوا فى تهديد تجارة السنوسيين فى العبيد والسلاح؟ وكيف نجح الفرنسيون فى العام ١٩٠١ فى قتال السنوسيين، بغية تقليل الضغط الواقع على الفرنسيين من ناحية الجنوب؟ الرحلة فيها إجابات على كل هذه التساؤلات.

لغة الكتاب

استعملت المؤلفة كلمات عربية كثيرة: مثل Gherds (غرود) التى وردت فى السطر العاشر من الصفحة رقم ١٤١ من النص الإنجليزى، وهى تعنى "الكثبان الرملية"؛ واستعملت أيضا كلمة 'جبل' Gebel فى السطر الثانى عشر من الصفحة رقم ١٤٢؛ وكلمة 'زمزميه' Zemzimaya فى السطر التاسع عشر من صفحة ١٤٣؛ وكلمة 'قبة' فى السطر الخامس عشر من صفحة ١٤٣؛ وكلمة 'نبات الحلفا' Halfa فى السطر ٣٥ من الصفحة ١٥٧؛ كما استعملت كلمة 'خطب' Hattab فى السطر رقم ١ من الصفحة رقم ١٥٨. واستعملت أيضا كلمة 'قارة'.

Gara، وهى فصيحة، وتعنى 'قسم من الأقسام الرئيسية التى ينقسم إليها اليابس'. واستعملت أيضا كلمة 'بعيد' ودونتها بأحرف رومانية Bayid. واستعملت أيضا كلمة 'ضرب'، بضم الضاد وضم الراء، على أنها كلمة ليبية، وأظن أنها فصيحة فقد قرأت فى المعجم الوسيط 'ضرب الشيء عليه: ألزمه إياه، ويقال: ضرب عليه خراجا ونحوه: فرضه وقدره'. واستعملت المؤلفة أيضا كلمات مثل 'فلل'، 'أذان' Azzan. 'منبر'، 'عصيدة' Asida، 'زيت' Zeit، 'بقسماط' Bucksumat، 'ليف' بمعنى 'ليف النخل'. استعملت المؤلفة أيضا كلمة Kismet المأخوذة عن الكلمة التركية عربية الأصل Qisma بمعنى 'القسمة والنصيب'. على الصعيد التركيبى أوردت المؤلفة فى السطر الثانى عشر (عدا من نهاية الصفحة) من الصفحة رقم ٢٧٣ التعبير Girba water على لسان يوسف الطباخ، بدلا من التعبير Water Gieba، فى إشارة ذكية منها إلى أن هذه الشخصية لا تتقن الإنجليزية.

استعملت المؤلفة أيضا تراكيب يغلب عليها الطابع المصرى مثل: 'هى مجنونة' Heya Magnuna، 'مين دا؟' التى تستعمل ردا على من يطرق بابا من الأبواب.

المفردات الليبية

استعملت المؤلفة مفردات ليبية كثيرة، تعد مفاتيح مهمة فى فهم مضمون الرحلة.

بركان: بتشديد الراء وفتحها، كلمة عامية ليبية تعنى 'رداء قطنيا أو حريريا طويلا ترتديه النساء وهو قريب من الملس أو الشال المصرى'.

زاوية: Zawia: يمكن أن تكون دعو، ويمكن أن تكون الجماعة القائمة على أمر الدين والعقيدة وقد تشير أيضا إلى إخوانية من الإخوانيات السنوسية.

مكرون: حلوى بشكل البسكويت تصنع من دقيق اللوز وبياض البيض والسكر.

تبّه: Tobh بضم التاء وتشديد الباء وفتحها: الثوب النسائى اليدوى عند الليبيين

جِرْدُ:	بكسر الجيم وتسكين الراء: زى وطنى ليبي مصنوع من الصوف.
يُفاضل:	يجالس ويتسامر، عامية ليبية
نُجَّة:	بضم النون وتشديد الجيم وفتحها: خيمة.
الجُبْلَى:	بكسر الجيم وتسكين الباء، ويصح فيه أيضا 'القبلى' وهى الريح الجنوبية القوية المحملة بالرمال
البلاد:	عامية ليبية بمعنى 'القرية' أو 'الموطن'.
زربية:	Zariba أو Zareba، وهى عربية الأصل، وتدل على 'حظيرة مرتجلة تقام من بعض النباتات الشائكة فى السودان وغيره من البلاد الإفريقية'.
هاتيا:	مفردة ليبية عامية تعنى 'منخفض يحتوى على أشجار متشابكة'.
المرباط:	عامية ليبية إذا ما استعملت صفة دلت على 'القداسة' ، وإذا ما استعملت اسما أعطت معنى 'قبر'
قُبَّة:	القبر الذى تعلوه قبة.
الفيشه:	كلمة ليبية، تدل على حبة من قرع القل تستخدمها المرأة الليبية تعويذه بغية الإبقاء على حب الرجل لها.
الداريايان:	صيحة ليبية تستخدم عند توقيف الإبل وهى تعنى 'لقد وصلنا أيها الكسالى'.
اللغبي:	عامية ليبية بمعنى 'عصير التمر المتخمّر' ، والذى يتخمّر بعد أربع وعشرين ساعة مكونا بذلك مشروبا روحيا قويا جدا.
واجد:	كلمة بدوية بمعنى 'كثير'
مركاس:	عامية ليبية بمعنى 'مقر'
تُوكَل:	عامية ليبية بمعنى 'كوخ مستدير'
جنتك:	نوع من الحلوى يعد من اللبن المختر المضاف إليه المنفعة

الموغن: عامية ليبية بمعنى 'قُمع'.

حاوية: عامية ليبية بمعنى 'فتحة واحدة من فتحتي سرج حمل الأمتعة'.

باسور: عامية ليبية بمعنى 'هودج'.

الحملة: بفتح الحاء وتسكين الميم 'الإبل المخصصة لحمل الأمتعة'.

أوردت المؤلفة كلمة Jarfa في السطر التاسع من الصفحة ٢٥٤ من النص الإنجليزي، وصحيحها Jaata وهي تعني 'الجوال المصنوع من الجلد'.

استعملت المؤلفة في السطر التاسع من الصفحة ٦٩ كلمة Specs، وهي كلمة إنجليزية عامية لتدل بها على 'النظارات'. كما استعملت الكلمة Inferno التي استعملها دانتي في ملحمة 'الكوميديا السماوية' للدلالة على 'جهنم'، في وصفها للحرارة الشديدة التي لقيتها وهي في الأراضي الليبية.

وفي إطار هذا السياق هل الاسم الصحيح هو 'الكفرة' أم 'الكفارة'، بضم الكاف وفتح الفاء، لتلك الواحة التي كانت تسمى 'تازير' في الماضي؟ الليبيون يردون على هذا السؤال في ثلثي الرحلة.

وهنا أراني أتساءل: هل قصة هذه الرحلة مجرد "سرد بسيط" لما حدث؟ أم أنها تعد - بشكل أو آخر - سجلاً علمياً من سجلات الاستكشاف؟ وهل تغيرت روح هذه القصة بتغيير حالة مؤلفتها النفسية، التي دونت بعض أحداثها حيناً عند الغروب وتحت أغصان أدغال ذكية الرائحة، أو عندما كانت تكوم نفسها داخل كيس نومها في الليالي شديدة البرودة؟ أو في حال انفعالها وهي راكبة على جمل؟ وهل يمكن اعتبار هذه الرحلة يوميات من النجاح والإخفاق طوال ستة وستين يوماً، في عالم غريب على من قامت بها؟

وقائع هذه الرحلة تعطى من يجيد قراءتها إجابات شافية عن هذه التساؤلات.

الدكتور/ صبرى محمد حسن

تصدير

أحس أن هذه القصة الليبية بحاجة إلى شيء من التوضيح؛ لأن هذه القصة - في ظل الظروف العجيبة التي اكتنفها - ليست هي ذلك الكتاب الشامل الذي تبلور بعد العودة من هذه المهمة، التي يستطيع الرحالة بعدها استعراض الأمور كلها بشكل شامل. قرأتى لكتب الرحلات تجعلنى فى كثير من الأحيان أسائل نفسى، "وماذا حدث بعد ذلك؟" أو "أتعجب، وماذا كان إحساسه فى تلك اللحظة؟" حسن، الكتاب الذى نحن بصددده هو مجرد سرد بسيط لما حدث بعد ذلك". الكتاب لا يدعى - بأى حال من الأحوال - أنه سجل علمى من سجلات الاستكشاف، وسبب ذلك، فى ظل الظروف المشددة للسرية والتكرار، هو أن استعمال القسم الأكبر من الأدوات يعد ضرباً من الأمور المستحيلة.

روح هذه القصة تتغير تتغير الحالة النفسية من ناحية وأسلوب أو طريقة تطوير القصة من ناحية أخرى. لقد كتبت هذه القصة بطرق غريبة - وفى أوقات كثيرة غير الأوقات العادية - تحت أغصان دغل زكية الرائحة عند الغروب ساعة أن كان العبيد ينصبون خيمتنا، أو عندما كنت أتكوم داخل كيس الوقاية من البراغيث، فى الليالى شديدة البرودة. كنت أكتب فى بعض الأحيان، عندما أنفعل، وأنا راكبة على جمل وأحتمى ببركان^(*)! لقد جرى إتمام الفصل الأخير من هذه القصة، مرتين فى أسوأ الأحوال، فى ظل ظروف إنسانية صعبة على أمل عودة كراسات المذكرات بصورة أو أخرى إلى الحضارة من جديد، وأن يعرف الناس تفاصيل هذه الرحلة إلى آخر لحظة من لحظاتها. الرحلة عبارة عن يوميات من

(*) البركان: بتشديد الراء وفتحها، كلمة عامية ليبية تعنى 'رداء قطنيا طويلا ترتديه النساء'.
(المترجم)

النجاح والإخفاق. بضعة أشهر في عالم غريب، وتوضح مدى تشربي واستيعابي لروح ذلك العالم. ونظراً لأن الأشياء الكبيرة والصغيرة في الحياة، لا يمكن فصلها عن بعضها، بحكم تداخلها مع بعضها البعض، فقد كنت مهمومة وأنا في ليبيا، من منطلق أن حذائي الوطني كان مليناً بالنقوب، وكنت أعجب أيضاً من طول المدة التي سأظل أرتدى فيها هذا الحذاء. هذه القصة تسجل هاتين الحالتين النفسيتين السابقة واللاحقة، لأن هاتين الحالتين كانتا مهمتين في ذلك الوقت على وجه التحديد.

من الطبيعي لهذه الرحلة الشاقة غير المنطقية أن تجعل صاحبها مديناً للأناس كثيرين ويصعب تحديد من هو صاحب الفضل الأكبر.

لقد أهديت قصة مغامرتنا إلى أحمد بك حسانين رفيقي في هذا الكشف الجغرافي، نظراً لأن الخبرة التي اكتسبها ذلك الرجل عن السنوسي - خلال عمله في سكرتارية بعثة تالبوت Talbot في العام ١٩١٦ - كانت لا تقدر بثمن؛ إضافة إلى أن أحمد بك حسانين كان أخلص محالف لي طوال هذه الرحلة. كانت كياسة الرجل ولباقته وفصاحته تتخذ الموقف في كثير من الأحيان، عندما كانت لغتي العربية تخونني، وكنا نضحك ونشاجر مع بعضنا خلال المصاعب التي كانت تواجهنا.

كان كثير من الضباط الذين كانوا يخدمون في الصحراء الغربية، قد أمدوني قبل وقت طويل من تحول رحلتي إلى الكفرة من حلم مستحيل إلى حقيقة محتملة، بقدر كبير من معارفهم عن واحة السنوسي، تلك المعارف التي جمعوها من حواراتهم الواعية مع شيوخ البدو والتجار، في الوقت الذي جاءتني فيه - من الخرطوم، ومن الفاشر، ومن القاهرة - خرائط وتقارير عن الطرق، كانت مفيدة إلى أبعد الحدود.

أدركت عندئذ أنه كان بوسعنا الاستفادة على نحو كبير من كتابات رولفر Rohlfs الواعية والقيمة عن موضوع ترحاله في الشمال الإفريقي، لكن الحظ لم

يكن حليفنا إذ لم يكن معنا سوى ما كتبه عن "الكفرة" Kufra، والذي لم يكن يحتوي على وصف كبير لهذه الواحة، و كان رولفز أول أوروبي يزورها. أورد هذا المستكشف الألماني الكبير، في أحد أعداد مجلة الجمعية الإفريقية الطريق الدقيق الذي سار فيه بدءاً من جالو Jalo. لو كنا عرفنا ذلك الطريق، لوصلنا إلى تيسربو Taiserbo على الرغم من الخطأ في طبيعة الحياة النباتية المذكورة في الخريطة^(١). اقتفينا أثر رحلة رولفز في بلدة بُسَيْمَة Buseima، حيث كان بعض سكانها يذكرون رولف باسم مصطفى بك. وفي هوارى Hawari حكى لنا شيوخ كثير قصصاً عن مغامراته هناك وفي بوما Buma، لكننا لم نستطع العثور في أي مكان، على أي أثر يدل على زيارة سِكر Stecker لتلك الواحات. وعلى العكس من ذلك، تأكد لنا بصورة قاطعة من كل من الشيخ محمد المدني، والشيخ بورجيا Bu Regea، وسيدى عمر في بلدة بُسَيْمَة، والشيخ موسى سكويرين Squaireen، والشيخ منصور بو بدر Badr، والشيخ موسى غارibel Gharibeel والشيخ سيدى زروق Zarrug في هوارى، أن رولفز لم يكن معه شخص أوروبي آخر. كان سكر يشغل منصب مسّاح الجماعة، وفي ضوء الفارق الذي حدده لموقع بلده بوما Buma، وما كنا نراه نحن بشأن هذا الموقع، كان علينا القيام بتحريات واسعة عن الأفراد الذين شاركوا في البعثة (الرحلة) الألمانية؛ لكن في الوقت الذي جمعنا فيه معلومات قيمة كثيرة عن رولفز Rohlf's، فإن كل الدلائل التي قُدمت لنا أكدت أن الرجل لم يكن معه سكر في كل من هوارى، وبوما، أو حتى عندما عاد إلى بُسَيْمَة. كان الرجل يوصف في تلك المناسبات كلها على أنه كان "بصحبة طبّاخه المدعو على، وحصان كبير".

(١) توضّح خريطة مصلحة المساحة المصرية (مقياس ١ : ٢٠٠٠٠٠٠) الصادرة في العام ١٩١٢، والتي أعيدت طباعتها في العام ١٩١٦، منطقة تيسربو الخضراء على أنها تمتد عبر خط طول ٢٢° وتلامس خط عرض ٢٦°. وسوف يتضح من خريطة طريقنا أننا سرنا عبر هذه الزاوية دون العثور على كوسوبيا Kusobeya أو أي أثر من آثار الحياة النباتية.

هذا الاستقبال الحافل الذى لقيته من صاحب السعادة السيناتور دى مارتينو، حاكم مستعمرة سيرنايكا (ليبيا حالياً)، جعلنى أحس بالندم لعدم بقائى فترة أطول فى مستعمرته العجيبة. وأنا مدينة بالفضل للسيناتور مارتينو، وللجنرال داي فيتا Vita، وكافاليري كوبرولو، رئيس المكتب السياسى فى بنغازى، ومدينة لهم أيضا بالفضل فى الرحلة البهيجة التى قمت بها إلى إجدابيا Jedabia وكمية المعلومات التى لا تقدر بثمن، عن البلد الذى سهلوا لى زيارته تسهيلاً كبيراً.

كل من سيقراً هذه الرحلة، سيدرك على الفور وبصورة واضحة، أن نجاح الرحلة بكاملها بعد المساعدة السخية التى قدمها لى الإيطاليون فى مستعمرة سيرنايكا (ليبيا حالياً)، كان يعتمد على حسن نية الأمير محمد إدريس السنوسى وأخيه سيد رضا Rida. إذ يستحيل تماماً على أى أوروبى أن تطأ أقدامه أرض ليبيا بدون إذن من الأمير أو وكيله. رَحَبَ بنا السادة ترحيباً كريماً ذكرنا بالتحية العربية التى تُقال للضيف "ملكى هو ملكك". لقد لبوا كل ما طلبناه، مضاعفاً مائة مرة. كان سيدى إدريس وشقيقه مسرفين فى إكرامنا، ومبالغين فى مساعدتنا، وهو ما يجعلنا نحس بأننا مدينون لهم إلى الأبد.

ونظراً لتعبير الناس عن دهشتهم جراء حتمية مواجهتنا لأى شكل من أشكال المعارضة فى ليبيا، لمجرد حصولنا على جواز سفر من قبل سيدى إدريس، فأنا يتعين علىّ هنا أن أوضح أننا لم نحصل على أى إذن من الأمير شخصياً. الرسالة المشار إليها هنا فى هذه الرحلة كانت مجرد رسالة عابرة، رسالة شخصية تعرب عن استعداد الأمير للقائنا واستقبالنا. يزداد على ذلك، أنه كان معنا جواز سفر من سيد رضا، يرخص للست خديجة، تلك المسلمة التى تعمل لصالح الإسلام، ولصالح السنوسى، هى وأحمد محمد بك حسانين، بزيارة البلاد. هذه الوثيقة ضمنت لنا أحسن الترحيبات من الطبقات الرسمية على الرغم من المؤامرات التى حاكتها أسرة بازاما وأسرة عبد الله، والتى أحسب أنها كانت سبباً فى المغامرات التى قمنا بها فى هذه الرحلة.

وبفعل حسن نية هؤلاء السادة، عثرنا على الكثير من الأصدقاء والمحالفين في بلادهم، وبخاصة محمد قميش، ويوسف الحمري، اللذان صحبانا على امتداد ألف ميل من الصحراء، إلى أن وصلنا مكانا ما يقع إلى ناحية الشرق من ممر مناسب Munasib، في قبضة إدارة مناطق الحدود، وهنا تتوتر الأحداث، لأن قلة قليلة من البريطانيين هم الذين يعرفون مدى مسئولية إدارة مناطق الحدود في الخارج!

مصر شبيهة بأبي ذنيبة، وإن شئت فقل: أبي رأس؛ فالدلتا هي رأس مصر، أقصد رأس أبي ذنبيه، أما الذيل فهو وادي النيل الطويل الملتوى. وعليه فإن مصر - من بين كل الدول - هي الأكثر تعرضا للهجوم... ولن تستطيع مطلقا الدفاع عن حدودها! لذا قدم محمد على باشا الدعم والمعونة لمشايخ أولاد على لكي يقوموا بحراسه حدوده. وقبل الحرب قام حرس الحدود المصري ببناء قلاع على طول شاطئ البحر المتوسط والبحر الأحمر، ثم قام بدفع مواقعه الخارجية جنوبا إلى الصحراوات، لكن ظهرت أثناء الحرب قوة أكثر كفاءة من حرس الحدود. والآن تعد إدارة مناطق الحدود مملكة داخل مملكة، وتعد إدارة مناطق الحدود مسئولة عن سلامة "كل الأراضي التي لا يروبوها النيل"، الواقعة فيما بين السودان والبحر المتوسط، والبحر الأحمر وبرقة. وهذه المنطقة مقسمة إلى أربع مقاطعات، ويحكمها حاكم عسكري في القاهرة، هو العميد هنتر الذي يقوم الحكام والمسئولون بالمهام المتشابهة والمعقدة التي يقوم بها المدافع، والقاضي، والمرشد، والمعلم، والصديق لعشرات الآلاف من البدو، الذين يمكن أن يشكلوا في أى وقت من الأوقات شوكة في ظهر مصر. هذه المنظمة الكفلة للغاية، أو بالأحرى ذلك الجزء من هذه المنظمة الذي يعمل في الصحراء الغربية، هو الذي أدار باله علينا قبل أن نصل إلى سيوة، ونحن مدينون لهذا القسم من هذه المؤسسة، وبخاصة العقيد ماكدونيل، حاكم الصحراء الغربية، والعقيد فورث، قائد سلاح الجمال، بما هو أكثر مما يجرى التعبير عنه في إشارة من هذا القبيل.

واقع الأمر، أنى اكتشفت - على غير وعى منى - أنى أورد قائمة طويلة
لأنسب الفضل لأهله، من منطلق أنى دونت أسماء أصحاب هذا الفضل عبر
الصحراء الشرقية، وأن أصحاب الفضل هؤلاء، وهذا من حسن حظى، قد حذفوا
بصورة مؤقتة الكفرة من قائمة اندفاعاتهم السريعة داخل الأراضى الجرداء، والتى
جرت العادة أن تضيف إلى الخريطة الإفريقية المعروفة حوالى مائتى ميل أو ما
يقرب من ذلك.

هناك اسم واحد مرتبط باسم أصحاب الفضل هؤلاء، لأنه يظهر على كثير
من الطرق الصحراوية- إنه اسم الدكتور بُول Ball، مدير المساحة فى مصر،
وبعد أن تشجعنا بفضل تعاطفه معنا، وبفضل خبرته، وضعنا أمامه كل الملاحظات
والرسوم التى جمعناها، وقد صنع الرجل منها خريطة للرحلة التى قمنا بها. وأنا
هنا أرى أن شكر قرائى وامتنانهم لما حدث سيكون مثل شكرى وامتنانى لكل
هؤلاء!

روزيتا فوربس

أبو مينيس،

مارس ١٩٢١

سر الصحراء الكبرى: الكفرة

الفصل الأول

الإقدام على المغامرة الكبرى

بدأت المغامرة من إجدابيا، التى تبعد حوالى ١٩٠ كيلو متراً عن بنغازى فى اتجاه طيران الغراب. وإجدابيا عبارة عن مجموعة مبعثرة من المنازل الرملية، تحيط بها جدران الشرق الغربية الخالية من النوافذ، ومع ذلك تعد إجدابيا مقراً لأسرة السنوسى العريقة. وصلنا إجدابيا فى اليوم الثامن والعشرين من العام ١٩٢٠ الميلادى، بعد تجربة طرق وأساليب متعددة عبر تلك الرقعة الحجرية من الصحراء الواقعة فى الجنوب الغربى من بنى غازى، عاصمة برقة Cyrenaica. وإجدابيا عبارة عن رقعة من الأرض المسطحة المهجورة حمراء الرمال، تتخللها صخور، وخزَم من عشب خشن رمادى اللون، هو بمثابة غذاء لقوافل الإبل النادرة، ويستخدمه البدو وقوداً لنيرانهم. ولا وجود للطرق الممهدة فى إجدابيا، لكن المدقات الوعرة هى التى تربط القلاع الإيطالية المبعثر بعضها عن بعض، والتى تقوم على أمرها سرايا من الارتريين الأقوياء والجماعات العربية غير العادية. ويرتفع الألبانيانو Altipiano فى الجنوب وسط تكوينات من الصخر الوردى اللون، وهو ما يثير الذكريات العجيبة أثناء غروب الشمس. فيما عدا ذلك يصبح ذلك المشهد البعيد مملاً ورتيباً للغاية اللهم باستثناء مخيمات الأواغير Auwaghir التى تطالعنا بين الحين والآخر. مخيمات الأواغير، على العكس من "بيت الشعر"، الذى لدى العرب السوريين والجزائريين، هى أفقر المخيمات، فهى مصنوعة من رقع الخيش مختلف الألوان؛ هذه الخيام منخفضة الأسقف تماماً، إلى حد أن الإنسان لا يستطيع الوقوف منتصب القامة حتى عندما يكون فى وسط الخيمة.

وفى موسم الجفاف، وحيثما توجد الآبار، تُشاهد حشود من قطعان الأغنام والماعز والإبل، تقدر أعدادها بالآلاف. أما بعد فصل الأمطار فيتجمع ماء كثير على الأرض الصخرية وتستطيع الحيوانات الشرب منه، وعليه فإن هذه المنطقة تكشف عن شكلها المهجور.

أما بنغازى فهي بلدة بيضاء صغيرة تقع على حافة كاسرات أمواج البحر المتوسط، ولا يحميها الميناء أو الحاجز المبنى لحماية البلدة من أمواج البحر. وقد أودى الجوع والمرض بحيوانات قسم كبير من سكان هذه البلدة أثناء الحرب كما أن أسواق البلدة تكاد تكون مهجورة ويمر من حين لآخر، حمار عليه شراريب قرمزية اللون ويحمل حملاً من التمر الطازج خلال منطقة سيدى شابي، حيث توجد المستودعات والمحلات الأوروبية هي والدكاكين الوطنية المحلية بجوار بعضها البعض. وهذه بضعة إبل قادمة من الريف وهي تكاد تكون مدفونة تحت جوانات الحبوب الضخمة التى تحملها على ظهورها. وفى المساء، يتجمع عدد من التجار الملتحين فى مقهى صغير قريب من المسجد، فى حين يمر العسكر الممقوتون بطرابيشهم قرمزية اللون، وأغطية رؤسهم المتأرجحة وهم يدخنون السجائر الإيطالية، لكن حياة البلدة تقتصر على الحى الأوروبى الذى يحتوى على الفندق ومكاتب الحكومة.

وأكبر البنايات البيضاء شرقية الطابع، هي منزل الحكومة الذى يزين واجهته الفخمة عقدان مغربيان. على الرغم من اختلاف هذا المنزل اختلافاً تاماً عن بنايات إجدابيا الخالية من النوافذ، فإن هذا المكان هو الذى رأيت فيه لأول مرة السيد محمد إدريس بن السيد الميذى السنوسى، ذلك الرجل الذى يستشعر الناس سلطته وراء حدود ليبيا ومستعمرة برقة وكان الإيطاليون هم والسنوسى قد أقروا قبل ذلك بأيام قلائل المعاهدة المؤقتة لعام ١٩١٦، وكانت هناك فى بنغازى احتفالات بتتويج الأمير الجديد، الذى كان يمضى أياماً قلائل فى العاصمة وهو فى طريقه إلى إيطاليا لزيارة ملك إيطاليا.



THE AUTHOR AS A BEDUIN SHEIKH.

كان هناك استقبال رسمي، وكانت تتحرك على درج السلم العريض مجموعة كبيرة من مرتدى الأزياء الرسمية الإيطالية السوداء، المزينة بالأوشحة الإيطالية الزرقاء الزاهية، والميداليات اللامعة المتألّنة زاهية الشرائط. في البداية، دخل الحاكم، السيناتور دى مارتنو، وهو يرتدى الزى الأخضر الذهبى لفارس من فرسان مالطة، ومعه الجنرال دى فيتا، بزيناته الرائعة الفخمة. كان يمشى بين هذين الرجلين شخص يهيم على المجموعة لكنه أوجد لدينا انطباعاً بأنه بعيد تماماً عما يجرى. كان ذلك الشخص يرتدى ملابس بيضاء، كان يرتدى قفطاناً من الحرير، وبرنسا^(*) يجرر من خلفه، والكوفية الفاخرة تتدلى من تحت عقاب ذهبي. خال من المجوهرات أو التطريز ممثلاً لمكانة الرجل، إنه سيدى إدريس الذى تقدم إلى الأمام ببطء متكئاً على عصا لها مقبض من الفضة. غمغم ضابط إيطالى فى أذنى، "زىدى عليه لحية أطول من لحيتي، وبعدها تصبح صورته مثل صورة المسيح!". كان الضابط الإيطالى على صواب فيما قال. هذا الزعيم المتكشف لواحدة من أعظم الإخوانيات الدينية على مستوى العالم، كانت عيناه الحالمتان مثل عيني نبي من أنبياء الماضى. كان فى وجهه الطويل تجاوير تحت عظمى الخدين. وكانت شفاه شاحبتين، فى حين كانت بشرته الزيتونية مثل الشمع. نظر إلى الأمام، نظرة حالمة، كاشفاً عن جبهته العريضة؛ كانت تلك النظرة أبعد بكثير عن الاحتفال الذى جرى إعداده تكريماً له، كانت تلك النظرة ترمى إلى عوالم أبعد بكثير عن صحراواته المهجورة. ربما كان مثل الناصرى^(**) الذى كان يسير بين محاربى روما القدماء!

التقيت الأمير فى اليوم التالى فى مأدبة غداء أقامها عمر باشا على شرف الأمير. كنا قد تحدثنا، قبل وصول الضيوف الآخرين، أنا بعامية مصرية غير متقنة، وهو بعربية الحجاز الفصيحة. كان الأمير يجلس فى الثياب البيضاء

(*) البرنس Burnus ويصح فيه أيضاً Burnious عبارة عن ثوب فضفاض ذو قلنسوة. (المترجم)

(**) البروتستانتى الناصرى: أحد أفراد طائفة بروتستانتية ظهرت عام ١٩٠٨. (المترجم)

الفضفاضة نفسها، على كرسى فى مقدمة الغرفة، وكان الإخوان يجلسون بجانبه على شكل صف طويل، وهم الذين سيرافقونه إلى إيطاليا. كان شكلهم يسترعى الانتباه وهم يرتدون ثيابهم متعددة الألوان بمناسبة هذا الاحتفال. وكان يبرز من بينهم الجنرال على باشا العبدية، تلك الشخصية الملتحية المبهجة، بطقم أسنانه الذهبى، تلك اللصة من الحداثة، التى تتباين تبايناً غريباً مع قفطانة قرمذى اللون، وبرنسه الفخم غامق اللون المطرز بالفضة. كان المكرّم شاروف باشا الغريام يجلس بجوار الجنرال على باشا؛ معروف أن شاروف باشا كان مدرساً لسيدي إدريس، لكنه أصبح الآن مستشاره المقرب. كان لون ثوبه الوطنى Jerd بنياً غامقاً، وكان طرف الثوب يغطى رأسه من فوق مُعَرَّقة Ma-araka، لكن قفطانة دا الكمين الطويلين المطرزين، كان وردى اللون. وكان وجهه جاداً يوحى بالصرامة وكان يولى المحيطين به اهتماماً أكثر من الآخرين.

تَعَثَّرَتْ فى اختيار كلمات التحية، ورحت أستمعها بصيغة الجمع غير المألوفة، وكنت أعجب فيما إذا كان ذلك الرجل الشارد إلى بعيد وغير المهتم، يصغى إلى ما كنت أقوله. رفعت العينان المتأملتان فجأة وتهلل وجه الرجل مبتسماً. إذا كانت الرحمة والرقّة هى رمز الحضرة الملكية، فإن تاج سيدي إدريس يتمثل فى ابتسامته! والبدوى فى مقابل هذه النظرة يسجد لى يُقَبِّلَ التراب الذى داست عليه هاتان القدمان! تكلمنا بعد ذلك عن رحلتى ودعا الرجل بالبركة بصوته الواهن، وكان لا يزال يبتسم ويقول "أدعو الله أن يحقق لك ما تبتغين!". حاولت أن أحكى له عن حبى للصحراء، وعن سعادتى الغامرة، عندما كنت أستطيع من خلال سرير المخيم الضيق، النظر إلى الرقعة المثلثة من ضوء النجوم التى إلى الخلف من باب خيمتى. قال: "أنا، أيضاً لا أطيق البقاء فى مكان واحد أكثر من شهر. وبعده يتحتم أن أنتقل إلى مكان آخر، لأننى أحب عبق الصحراء". صحيح أن الصحراء لها عبق، على

الرغم من عدم وجود زهر أو شجر أو حتى عود من العشب على بعد أميال. هذا هو جوهر الأرض غير المطروقة التي لها بريق خاص!

تغذينا على أكوام من الطليان المشوية بكاملها والمحشوة بكل أنواع الأشياء- الأرز، الزبيب، اللوز- وعلى مكسرات لزجة غريبة أحببتها، وعلى أطباق من الحلوى المعدة من الحليب المخثر بالمنفحة والسكر، والأحسن من ذلك كله هو القهوة العربية اللذيذة غليظة القوام، لكن الأمير أكل القليل وتحدث أقل من ذلك القليل. التعاليم المنوسية، تحرم الشراب، وتحرم التدخين، كما تحرم استعمال الذهب كزينة للرجال، وعليه جرى بعد تناول الغداء، توزيع كاسات الشاي الحلو المنعنع على الإخوان، الذين لم يلقوا بالأبى شكل من الأشكال لإخوانهم الضيوف، المكونين من الحاكم، والجنرال، وقبطان الطراد الصغير الذى تقرر له نقل السنوسى وأنا معه إلى إيطاليا. أجلسنى عمر باشا بجوار الأمير، الذى تحول فجأة إلى أتباعه الموقرين، 'تعلموا وحيوا هذه السيدة"، قال هذا الكلام، وفى الحال وبطاعة بلا نقاش مثل طاعة الأطفال، هبوا واقفين من كراسيهم المنخفضة وتحركوا على شكل مجموعة فى اتجاهى. غمغموا قائلين "السلام عليكم" وهم يصافحون يدى دون أن يرفعوا أعينهم، لكنهم كانوا يحيونى تحية مسلم لمسلم!

كانت بنى غازى فى عيد فى تلك الأيام. كانت هناك احتفالات كثيرة- استعراض، وليمة غداء كبيره فى قصر المحافظ على شرف حليف جديد لإيطاليا- وعليه لم أتمكن من رؤية سيدى إدريس مرة ثانية حتى الليلة الأخيرة من مقامه فى بنغازى، عندما أقيم حفل استقبال عام جلب سيولاً من أعيان العرب فضلاً عن عدد كبير من الأوروبيين لمشاهدة الألعاب النارية التى كانت تطلق من الشرفات الواسعة فى مسكن سعادته. رأيت الأمير واقفاً على انفراد بعيداً عن الجماهير التى تتجاذب أطراف الحديث، وكان إخوانه قريبين منه، وكانوا يتسألون فيما بينهم وبين أنفسهم عن رأيه فىنا. كان نصف الضيوف من عرقه وسلالته، لكن مملكته الحقيقية لم تكن

هنا، وإنما بين عشرة آلاف بدوى، يمتطون صهرات جيادهم أو يركبون جمالهم بناء على أمر منه، هؤلاء من بين مائة ألف حاج يتعلمون الشريعة في زواياها! وقفت مع الأمير في شرفة تغمرها نسيمات الهواء ورحنا ننظر من عل على رقصة بدائية كان الجنود الأحباش يؤدونها. كان هناك حوالى ألف شخص أسود، وكان كل واحد منهم ممسكاً بشعلة موقدة، وكان الجميع يصيحون صياحاً مجنوناً فى ضوء القمر، ويترنمون بأغاني النصر والشجاعة. والأشياء الثلاثة التى يتباهى بها أى رجل فى الحبشة هى قتل الأسد، أو قتل الفيل، أو قتل عدوه! هذه الرقصة التى شاهناها، ربما كانت تحتفى بشيء أو آخر من هذه الأشياء. وبالتدريج، راح الراقصون يتشكلون فى دوائر عاصفة وصاخبة، وهم يكومون شعلاتهم على شكل أكوام مشتعلة فى وسط المكان، وارتفع غناؤهم أكثر من ذى قبل، فى ظل هبوب الريح. كان سيد إدريس منشراح الصدر، وقال: "سترين احتفالات من هذا القبيل فى بلدى، لكن لن تكون هناك منازل. لن تفوتك هذه الاحتفالات".

جاء موعد إطلاق المدفع الأخير، إيذاناً برحيل الأمير إلى إيطاليا، وبعدها ركب حسانين بك وأنا معه فى السيارة التى أعارتها الحكومة إياها. عندما وافق أحمد محمد حسانين، فى بداية الأمر، على مرافقتى إلى الصحراء الليبية، التى كانت معرفته للغة والدين والعادات والتقاليد فيها لا تقدر بثمن، كان قد أكد لى أنه جاء للاستفادة من الراحة بوصفها علاجاً. تقمص الرجل بعد ذلك شخصيات كثيرة وعلى نحو يصعب معه إحصاء هذه الشخصيات. كان أحمد محمد حسانين دوماً هو ضابط إمداد وتموين حملتنا الصغيرة، واعتاد الرجل إحضار المكرونة فى أصعب اللحظات المستحيلة، من أماكن أخرى هى أيضاً شبه مستحيلة! كان أحمد محمد حسانين مرافقاً لى، عندما كان الشيوخ الكبار يطلبون الزواج منى، وكان أيضاً شديد التطرف عندما كان يود إحداث انطباع على العقل المحلى، كما أنه كان أمامى عندما كنا نصلى أمام الجميع. وكان مثل الطفل عندما ضاع منه شبيهه



AHMED MOHAMED BEY HASSANEIN,
MY FELLOW EXPLORER.

أحمد محمد بك حسانين زميلي المستكشف

أصفر اللون المائل إلى اللون الوردى، وكان طباخاً أيضاً عندما سرقنا زجاجة من المرسالا من آخر القلاع الإيطالية، وعندما طاردنا يأساً دجاجة نحيفة، إلى أن وضعت بيضة استعملناها فى عمل الزابليونية(*)! يزداد على ذلك أن أحمد حسانين كان يدبر أسوأ الخطط التى يقوم بها الوغد، وقتل كل من يتدخل فى شىء عونا، وكنت أستمع وأنا متعصبية عن حكايات الاختفاءات المفاجئة فى الصحراء.

يزاد على ذلك أن سيدى إدريس فى يوم رحلتنا عن بنغازى كان لطيفاً بشكل واضح، لأنى عندما كنت أنظر أكوام أدوات مخيمنا، وإلى حقيبتى ملبسى الصغيرتين جدًّا، لاحظت فجأة عديداً من الحقائق الكبيرة عن المعتاد المصنوعة من الجلد والثقيلة. سألت وأنا مرعوبة عما إذا كانت تلك الحقائق من مستلزمات راحته الشخصية. أكد لى قائلاً: "حقاً! إنهما ضروريتان حقاً. واقع الأمر أن نصفيهما فارغان. ظننت أن هاتين الحقيبتين قد تكونان مفيدتين فى وضع الأشياء فيهما." ما أن خرجت الكلمات من فمه، حتى انزلت إحدى الحقيبتين من يد واحد من الخدم العرب، وجرى فتحها ووضع عند قدمى قارورة كبيرة تحمل ماركة Heure Bleue التى هى نوع من أملاح الحمام، كما وضعت عند قدمى أيضاً لفائف عدة من اللوز المملح وكتله لزجة من الشيكولاتة، والمسكرات، وحذاء من الجلد الطبيعى وسترة رائعة. خانتنى كلماتى! وغمغت "ضروريتان!" وأنا أسير فى اتجاه الشاحنة لأرى أن صناديق المؤن الثقيلة لم يجر وضعها فوق الأكياس الهشة القابلة للكسر المخصصة لحمل الماء.

بعد عشر دقائق فقط من مغادرتنا بنغازى، اختفت البلدة البيضاء بمآذنها المستدقة متحولة إلى رمل، وراحت شاحناتنا تحبو كما لو كانت خفافس كبيرة على أرض خراب تسلطت عليها أشعة الشمس، وكنا نشاهد هنا وهناك خطأ أسود من

(*) الزابليونية: مزيج من البيض والسكر والخمر أو عصير الفاكهة يخفف بالماء الحار ويقدم ساخناً أو بارداً فى كأس. (المترجم)

الإبل عند الأفق. كان الوقت مصادفًا لموسم البذر، وكانت القبائل مبعثرة ومنتشرة هنا وهناك، تزرع الشعير الذى يكفى حياتها الهشة فى العام التالى. كنا نشاهد هنا وهناك، ونحن نتوغل فى الأرض، شخصنا منحنيًا، يلبس اللباس الوطنى الضيق، ويمسك بالمحراث الذى يجره جمل، فى الوقت الذى كان صديق له يحرس عُماله وقد علق بندقيته على ظهره. فى بعض الأحيان، كنا نصادف مسافرًا يركب بغلاً مسرجًا بسرج بهيج الألوان، ولباسه القومى Jerd منسدلاً على رأسه مغطينا الصدُيرى قرمزى اللون الموجود تحته، ويروح الرجل يحيننا بحرارة "مرحبًا! تصحبكم السلامة!" أمضينا ليلة فى سلوك Soluk، التى جذبت الأبيار فيها قطيعًا هائلًا من الأغنام سوداء وبنية اللون التى يصل عددها إلى حوالى ألف نعجة. قطعنا فى اليوم التالى الثلاثين كيلو مترًا المتبقية على بلدة غماينز Ghemines، على ظهور خيول عربية نحيلة لكنها قوية، لها أفواه مثل الحديد من تحت الشكيمة، ومُسْرَجَة بِسْرُجٍ عاليه مركبة فوق جلود أغنام سوداء. رافقنا فى هذه الرحلة ثلاثة من الخارجين على جماعة الأواغير، كانوا يجرون من حولنا على شكل دوائر من باب استعراض فروسياتهم.

كان هناك مخيم صغير مكون من حوالى ست خيام، على جانب الطريق الذى كنا نسير فيه، ولذلك عرّجنا على المخيم عليهم يُسوِّون لنا شيئًا من الشاي. رفضوا ذلك فى البداية لأنى مسيحية. بعد ذلك جاءت كلنفيتش علينا امرأة كانت ترتدى ثوبًا وطنيًا Barracan فيه أقلام حمراء وصفراء، وعقدًا ثقيلًا من الفضة المنقوشة. قالت للآخرين: "كل شيء على ما يرام. إنها شيء لطيف صغير وبصحبته مسلم" - ويرجع فضل ذلك إلى كوفية حسانين بك البيضاء المقصّبة. فرشوا لنا كليما مصنوعا من وبر الإبل كى نجلس عليه، لكنهم لم يكونوا مقتنعين تمامًا بحسن نوايانا. بدأ رفيق ترحالى يسأل الرجال عما إذا كانوا أدوا فريضة الحج إلى مكة. ورد أكبرهم "ليس بعد، المكتوب مكتوب. إذا أراد الله ذلك، سوف أحج."

كنا قد بدأنا نتصادق بشكل سريع، عندما ظهر لنا شخص قاسى الملامح، وجهه متأثر تمامًا بفعل الطقس وعيناه حادثان. كان ذلك الشخص يحمل الشاي والسكر، لكنه ساوم عليهما مساومة كبيرة وعنيفة، ظنًا منه أننا نحن الاثنين من النصارى الملاعين. عندما أبلغناه أننا عرفنا سيد إدريس، ابتسم في وجهينا. قال: "سيدنا إدريس على سفر." قلت: "هل تود أن تطلع على رسالة منه؟" ظهر الرعب على وجوههم جميعًا، وراحت أعينهم تتابع حسانين بك في كل تحركاته وهو يخرج المظروف شبه المهلهل من جيبه. قرأوا الرسالة بوقار وإجلال، وقبلوها كلهم الواحد بعد الآخر، بشغف وود بل ووضعوها على جباههم. وأعادوا لنا الرسالة في صمت تام. وتغير الجو العام على الفور. وراح الشخص الحاد الملامح ينظر إلينا نظرة متواضعة فيها ودٌ وحنان. والتمعت عينا الرجل كبير السن. كنا نعرف أننا كان بوسعنا أن نطلب من هؤلاء الرجال الثلاثة النهوض ومتابعتنا إلى مكان مجهول، وأنهم كانوا سيطيعون ذلك بلا جدل أو نقاش. قلت: "لقد ذهب سيدى إدريس لزيارة ملك إيطاليا. لقد نُصّب سيدى إدريس أميرًا." وافقوا جميعًا على العبارة التى قلناها. كيف يمكن لملك أن يكرم رجلاً اصطفاه الله وميزه على كل البشر الآخرين؟ وعندما ركبنا خيولنا، قَبَّل الرجل كبير السن يدى بعينين حانئيتين، وهو يغمغم قائلاً: "إن شاء الله ما تموتى إلا مسلمة"، ورحنا نعدو بخيولنا وسط زغاريد النساء وصخب الأطفال.

كان الذهاب من غماينز إلى زيتونة، يعنى قطع ١٢٠ كيلو مترًا في شاحنة فى مدق رملى شديد السوء، لكن فى تلك الليلة نمت فى خيمة للمرة الأولى منذ ستة أشهر. كانت السماء عامرة بالنجوم وكان القمر بدرًا، وجاء شيخ من شيوخ السنوسى راكبًا لزيارتنا والوقوف على حالنا، كان الرجل يركب حصانًا رائعًا رمادى اللون عليه سرج قرمزى اللون. كانت مقدمة السرج ومؤخرته العاليتان هما والركاب العريض من الفضة، وكان اللجام ذو الشراريب وردية اللون مرصعًا



SAYED RIDA ES SENUSSI.

سيد رضا السنوسي

أيضا بكمية كبيرة من الفضة. هذا هو سيد محمد هلال السنوسي ابن عم سيدي إدريس، وهو شقيق سيد أحمد الشريف الذي هرب إلى تركيا بعد انتهاء الحرب. سيد هلال السنوسي هذا شخصية مبتهجة، والواضح أنه ابتعد عن قواعد نظامه الصارمة ووجد شيئا من الجاذبية والسحر في الحياة الأوروبية. كانت لغة سيد هلال عامرة بالزهور والمحسنات البديعية، إلى حد جعل من الصعب على فهم هذه اللغة، لكنه أعارني حصانا ممتازا في رحلتي إلى جديبا. طلب الرجل مني أيضا، أن أحمل لابن عمه، سيد رضا، رسالة شعرية رسمية أنيقة تبدأ "يانن عيني، أسعد الله صباحك بالسلام والمرح."

أسلمتنا كئبان الزيتون الرملية إلى أرض جرداء منبسطة عديمة اللون تتخللها أدغال رمادية اللون من الأشجار المقطوعة. وعندما حولنا رعوس خيولنا صوب الداخل تبعثت الجرايع الصغيرة داخله إلى ججورها عند مقدمنا، وكان هناك أيضا صقر كبير يحوم فوق رعوسنا بين الحين والآخر. فيما عدا ذلك لم تكن هناك أية إشارة أو علامة من العلامات الدالة على الحياة اللهم باستثناء خيال وحيد كان يرتدى ثوبا وطنيا Jerd ويركب حصانا أبيضنا، وصبي جالس على كومة من الأحجار يعزف لحنا قصيرا غريبا على ناي خشبي. كانت ركوباتنا رمادية اللون متعبية عندما صعدنا في نهاية الأمر واحدا من المرتفعات الخفيضة، ورأينا أمامنا صفاً من الخيام البدوية المرقعة. كانت تلك الخطوة الأولى على طريق طويل. كل الأشياء كانت غير مؤكدة. كانت هناك مصاعب كبيرة يتعين التغلب عليها، لكننا كنا نحس، أننا كنا في أضعف الأحوال نخلف وراءنا أثرا أوروبيا. تنفسنا مزيدا من الحرية. كلانا يحب الصحراء وسكان الصحراء، وأحسنا أنه يتعين عليهم فهم تعاطفنا وأن يستجيبوا لهذا التعاطف. استمرت إلى حسانين بك عندما بدأ المدق الرملي يمر بين الجدران الطينية الخالية من النوافذ، والتي شاهدها في كثير من البلدان. قلت لأحمد حسانين "أحس وكأني خلفت ورائي آخر قصاصة من قصاصات

الحضارة. لقد بدأت أتشبع ببساطة الحياة. أعتقد أن بركة ذلك البدوي كبير السن، ملكت على أنفاسي وسحرتني. سوف أعتنق الإسلام بعد أن أترك الصحراء."

أرسلنا نسال ما إذا كان سيد رضا المهدي السنوسي - شقيق ووكيل سيدي إدريس - سيستقبلنا ورحنا ننتظر الرد عند حافة السوق، حيث كان يقف رجال وقورون، ملتحون، مع أولئك المتلهفين الذين ينظرون إلى الأفاق؛ كان هؤلاء الرجال على شكل جماعات ترتدى ثياباً بيضاء. كانت هناك مجموعة من الإبل باركة بجوار أكوام الحبوب، لكن فيما عدا ذلك كانت الفراغات الواسعة بين الأحواش المسورة مربعة الشكل، وهنا توجد منازل العرب، كلها مهجورة وخالية من البشر. كان علم عائلة السنوسي - الذي هو عبارة عن هلال فضي ونجمة على أرضية سوداء - يرفرف فوق منزلين من هذه المنازل، وكان الضجيج الصادر عن الإبل المحملة يأتي من واحدة من الأحواش الكبيرة، المملوكة لسيد صفي الدين، ابن عم سيدي إدريس وشقيق أحمد المطرود، والذي كان مسافراً في اليوم التالي إلى داخل البلاد ومعه كل أسرته وستون دابة من دواب الحمل.

جاءنا جندي من الحرس العربي حاملاً إلينا نبأ مفاده أن سيد سوف يستقبلنا على الفور ونزلنا عن مطايانا في واحد من الأحواش الكبيرة الخالية من النوافذ أمام باب منزل كبير أبيض اللون. أدخلونا إلى غرفة الاستقبال العربية المعتادة، التي فيها صف من الكراسي والأرائك الموضوعة حول الجدران ومقصفة بلون قرمزي، وفي الوسط طاولة مغطاة بمفرش من القماش الجميل المطرز. جاء سيد رضا في البداية وقد انعكست على محياه ابتسامة أخيه. استلطفته على الفور. قيمت على الفور حنانه الدافئ وكرمه. سيدي إدريس متصوف تحيط به كرامة واحترام عالم آخر غير عالمنا، لكن وكيه صغير السن، تلقائي ومتعاطف، وأسلوبه بسيط وخال من التكلف. قدم لنا على الفور منزلاً نعيش فيه أثناء مقامنا في إجدابيا ووضع تحت تصرفنا طبائخاً وخادمين آخرين. جعلني أتحدث إليه باللغة العربية وكان يصحح أخطائي وهو

يبتسم ابتسامة عريضة. وظهر الشاي الحلو، المنعنع، فى أكواب زجاجية بهيجة الألوان عليها رسوم، وسرعان ما أحسست وكأنى أعرف مُضيفنا منذ سنين. كان الرجل مسروراً ومهتمًا برحلاتنا المتنوعة. ووضع خطة كى نشاهد صيدا بالصقور. كان يود إعطائنا كل شىء على الفور بدءًا من الخيول إلى التمر. واقع الأمر، أنى أحسست وكأنى فى حضرة ساحر بوسعه تحريك عصاه فيحقق كل ما يتمناه قلبى! من حيث المظهر يعد سيد رضا رجلاً ضخماً يبعث على الاحترام له وجه مستدير زيتونى اللون، وعينان شديداً السواد، ورققتان مثل القطيفة، وترتفعان إلى أعلى مرحاً عندما يبتسم ابتسامة عريضة، كاشفتان بذلك عن أسنان بيضاء قوية. كان سيد رضا يرتدى جلابية سوداء من تحت ثوبه الوطنى الحريرى المقلم، الأبيض بياض الثلج، وعمامة بيضاء ملفوفة من فوق مُعرّكه حمراء اللون. الضيافة العربية شهيرة فى كل أنحاء العالم، لكننا تركنا حضرة سيد رضا ونحن نحس أننا مغلوبون على أمرنا بفضل استقباله الكريم لنا.

سحرنى منزلنا المؤقت. هناك باب وحيد يخترق ذلك الاتساع العجيب من الجدار الأصفر الذى بنى من الكتل التى جرى تجفيفها فى الشمس، وهذه الكتل مختلفة الأشكال والألوان والأحجام. هناك باب يودى من خلال حوش صغير مسقوف، إلى فناء واسع تضيئه أشعة الشمس، وتضمن جدرانه العالية الخصوصية التامة للأسرة العربية. أما حسانين بك فكانت له غرفة صغيرة فى نهاية المنزل، أما أنا فكانت لى غرفة فخمة عالية، مزينة بنصوص قرآنية. كنا مملكة بحد ذاتنا، إذ كان توجد بئر تحت نافذتى مباشرة، كما كان هناك أيضاً فحم نباتى. فى بيت مجاور للمنزل، وفناء كبير فى الخلف يمكن أن نضع فيه الإبل والخيول. والذى حدث هو أننا وضعنا فى هذا الفناء أشياءنا البسيطة، نظراً لأن فترة المساء كانت جافة وكان الجو صحواً. كنا نعرف منذ البداية أننا يتعين علينا التنقل والسفر خفافاً، وأن نجاحنا فى النهاية يعتمد على قدرتنا على الركوب فترات طويلة وإلى مسافات بعيدة. عرفنا

أيضاً أننا قد نترك أمتعتنا على جانب الطريق، ونتنكر في زى جمّالة من البدو،
وندلف أثناء الليل، إلى أراضٍ غير موقعة على الخريطة، لا يتبعنا فيها أحد.

وعليه كان معنا، علاوة على جالات الأرز - الشاي والسكر - فقد كنا
ننتوي تقديم الاثنين الأخيرين على سبيل الهدايا للبدو الذين ساعدونا في رحلتنا -
خيمة خفيفة واحدة، طولها أحد عشر قدماً وعرضها ثمانية أقدام، يمكن تقسيمها إلى
قسمين بواسطة ستارة من قماش قلاع المراكب، وكان معنا أيضاً مفرش للأرض
لا يسمح بنفاذ الماء، فضلاً عن سريرين كانا يدخلان في أكياس النوم السمكية
المبطنة بالصوف، بالإضافة إلى مقصّف حربي صغير بلغ من الثقل حدّاً جعل
الشكوك تراودنا حول مصيره في نهاية المطاف، وكان معنا أيضاً طشت غسل من
خيش الجفافي، وشمعدان كامل ومعه كمية كبيرة من الشموع، إذ كنت أتوقع
استهلاك كمية كبيرة من الشموع في أثناء تدوين الملاحظات وعمل الخرائط. قللنا
مؤننا إلى أقل حد ممكن، وبما يكفينا طوال أربعة أشهر، مثل القهوة، ومعلّبات
الجيش، وقالب الشيكولاته، وعلب الكاكاو، المخلوط بالحليب فعلاً، ولحم البقر
المعلّب، والخضراوات، كما كان معنا أيضاً أقراص من الحليب المجفّف، لكن
تعييننا اليومي كان صغيراً للغاية وبصورة مضحكة، لأننا كنا على ثقة من إكمال
هذا التعيين اليومي بشيء من التمر والأرز.

كنا نسلك طريقنا، على ضوء كشاف حسانين بك الكهربائي، عبر الصخرة
البيضاء المسطحة والرمل قاصدين منزل سيد رضا لتناول العشاء. وجدنا مضيفنا
في هذه المرة بصحبة سيد صفى الدين، "المحارب الصغير"، وهذا هو الاسم الذي
يعرف به هذا الرجل بين القبائل. هو صبي له وجه شاحب ينبض بالحياة، وله
أسلوب جذاب، وسريع البديهة وذكي، وهو أكثر من الآخرين اهتماماً بالأساليب
الأوروبية. قال: "أظن أننا سنتفاهم تفاهماً جيّداً؛ وسبب ذلك أني مشغوف بك وأنت
أيضاً مشغوفة بي!"

سوف تسيطر ذكريات هذا العشاء على فؤادى طوال فترة طويلة، نظراً لأنه كان مكوناً من اثني عشر صنفاً، منها ثمانية أصناف من اللحم بشكل أو بآخر. بدأنا نتناول العشاء عند الساعة السابعة والنصف، وعند الساعة العاشرة والنصف قدم لنا الشاى الجميل المعطر بأعواد النعناع وأوراقه. تناولنا طوال هذه الساعات الثلاثة الحساء، والدجاج، وشرائح من لحم الضأن المشوى، كما تناولنا أيضاً الباذنجان المحشو باللحم المفروم، وأكلنا أيضاً شرائح من اللحم المحمر، وأكلنا أيضاً كتف الضأن مطبوخاً فى عجينة سائلة من الدقيق والبيض والحليب، وأكلنا يخنه الضأن مع الخضراوات، وأكلنا الطماطم المحشوة، والضأن المسلوق، والنخاع، وأكلنا الأرز الشهى، وأكلنا الأومليت الحلو. وهنا يمكن فى سهولة ويسر تخيل أن حفل العشاء أسفر عن جعلنا صامتين بعض الشيء، ونحس شيئاً من الفتور والخمول، وذلك على العكس من مضيفنا. كان الرجل يفيض حناناً وروية. أما أنا فكانت أعانى فى ذلك الوقت خللاً شديداً فى إحدى قدمي، لم يتحسن بفعل ركوبى دابتي مسافات طويلة، مما اضطرني إلى ارتداء فردة حذاء واحدة، وشبشب مطاط فى القدم المصابة بمساعدة عصا. انسحب سيد رضا مدة دقيقة أثناء العشاء، وعندما غادرنا منزله، فوجئت بحصان ينتظرني خارج الباب. كان حنان سيد رضا بسيطاً وطبيعياً تماماً مثل سمعه أيضاً. سأله عن أسفاره وأجابنا قائلاً: "ليس لدى متسع من الوقت. لدى أعمال كثيرة. أنت تعرفين أن عملى هنا مثل زراعة حديقة من الحقائق. الأشياء تكبر وتكبر إلى أن ينشغل وقت الإنسان بالكامل!" هذا هو كلام وكيل الأمير، الذى تنتقل كلمته عبر صحارى العالم إلى كل من نيجيريا، والسودان، لتصل إلى المواقع الخارجية فى المغرب، وإلى أبواب "بيت الله" (مكة المكرمة).

أذكر أنى فتحت شيش نافذتى فى تلك الليلة على شعاع صاف من ضوء القمر الذى كان مثل رابعة النهار. أحسست بنسيم محمل برائحة أشجار السنط، بارد مثل الثلج، قادم من الصحراء، جاعتنى تلك النسمة وأنا أفكر فيما إذا كانت قد هبت على

الواحات المجهولة التي نتطلع إلى الوصول إليها. دار بيننا في ذلك المساء حديث طويل عن الصعوبات الماضية وخطط المستقبل. تُمثل واحة الكفرة - عند الإيطاليين - هدفاً لكثير من الآمال - في برقة هي مطمع لكثير من الموظفين السياسيين الجريئين - إلى حد أنه من الصعب إدراك أن الكفرة في إنجلترا تعد اسماً غير معروف. هذا المكان الصحراوي المقدس، تلك الواحة البعيدة، التي تبعد عن جالو Jalo مسافة ستمائة كيلو متر، والتي تبعد مسافة رحلة تقدر بمسيرة سبعة أيام بدءاً من الحدود الخارجية لل عمران والحضارة، يجرى الحديث عنها في بنغازي بشوق وخوف. قال الرائد الإيطالي الذي أمضى يومين مع سيدي إدريس في جغبوب، والذي اخترق مئات الكيلو مترات في الداخل، أكثر من أي رفيق آخر من رفاقه "سأقول لك سرّاً كبيراً. أود أن أذهب في يوم من الأيام إلى الكفرة. لم يذهب إليها أحد من قبل سوى رولفز، قبل أربعين عاماً، ولم ير شيئاً - لم ير شيئاً على الإطلاق!"

يمكن أن أوضح قبل التعمق في قصة الجماعة السنوسية، أن مؤسس هذه الجماعة هو سيدي محمد بن علي السنوسي، الذي دعا إلى الإسلام الحق الزاهد في المنطقة من المغرب إلى مكة، لكن دعوة هذا الرجل أصابت نجاحاً كبيراً للغاية في برقة التي انحرف البدو فيها عن عقيدة آبائهم. وسرعان ما أخذت زاويته^(*) Zawia في الانتشار على طول الساحل، كما اعترف سلطان واداي Wadai بسلطته، وجعله مسئولاً عن القوافل التي تعبر صحاري واداي الكبرى، وفزان، وبحيرة تشاد. من هنا انتشرت وذاعت معتقدات السنوسي مع كل القوافل المتجهة صوب الداخل. توفي محمد بن علي - ذلك الرجل الذي بلغ من الورع حداً جعله لا يكشف مطلقاً وجهه المقنع لأتباعه، والذي بلغ من التكريم حداً جعل أتباعه يسجدون لتقبيل أثار قدميه - في جغبوب في العام ١٨٥٠ الميلادي، وخلف وراءه محمد



BEDUIN WOMEN AT A MUD OVEN, JEDABIA

بدویات یجوار فرن طینی فی جدابیا

المهدي زعيم واحدة من أعظم وأقوى الجماعات الدينية في العالم. كانت تعاليمهم قاسية - وصلت إلى حد أن من يشم رائحة الدخان قد يفقد يده اليمنى! كانت كراهيتهم شديدة للكفار. لقد طردوا الزوايا Zouia والتيب Tebu من مواطنهم القديمة في كبابو Kebabo، وأنشئوا قدس أقداسهم في تلك الواحة، التي حفظتها الطبيعة بأن أحاطتها بحزام من الكثبان الرملية الضخمة علاوة على مائتين وخمسين ميلاً من الصحراء الخالية من الماء.

تقع الكفرة - التي كانت تسمى كبابو في قديم الزمان - على بعد حوالي ستمائة كيلو متراً في اتجاه الجنوب، أو بالأحرى في الجنوب الشرقي تقريباً من جالو، تعد الكفرة قلب الصحراء الشرقية، وهي مركز تجارة هذه الصحراء، نظراً لأن طريق القوافل الوحيد القادم من السودان ووادي متجهاً إلى الشمال من خلال الكفرة، ومع ذلك فإن الرحلة تبلغ من الصعوبة حداً لا يجروء على تحمله سوى أعتى القوافل وأقواها. المسافة من بطفال Buttafal، التي تقع على بعد مسيرة يوم واحد في جنوب جالو، والتي تقدر بمسيرة سبعة أيام قاسية بلا ماء توصل الرحالة إلى زايفين Zieghen، حيث توجد بئر، بلا واحة أو علف للحيوان. بعد ذلك، يتعين على الرحالة مواصلة سيرة خمسة أيام أخرى، اثنان منها خلال الكثبان الرملية، قبل أن يصلوا إلى هوارى Hawari، التي تشكل الحدود الخارجية لتجمع الكفرة، التي ينظر العرب إليها في بعض الأحيان على أنها واحة مستقلة نظراً لأنها مفصولة عن التجمع الرئيسي بسلسلة من الجبال. وهذا هو الطريق الرئيسي والأسهل أيضاً. هذا الطريق يوصل أيضاً إلى وادى Wadai.

تقع في الناحية الغربية من هذا المدق ثلاث واحات أخرى. أولى هذه الواحات، تيسربو Taiserbo، على مسيرة سبعة أيام بلا ماء من بطفال Buttafal، ويندر الوصول إليها، لأنها ليست لها أهمية دينية أو تجارية، لكن أنقاض التبو Tebu قد تجعلها مهمة من الناحية التاريخية. بعد تيسربو بحوالى مائة

وخمسين كيلو متراً في اتجاه الجنوب الغربي تقع واحة بُسَيمَة Buseima، الشَّهيرة بتمرها، والتي تزورها القوافل خصيصاً طلباً لذلك التمر، في حين تقع واحة ريبانة Ribiana، على بعد مسافة أكبر نحو الجنوب أيضاً بعد واحة بُسَيمَة؛ واحة ريبانة هذه بكل الأوصاف تعد مكاناً خارجاً على القانون، تتطلق منه العصابات الغازية الأمر الذي يجعل المنطقة المجاورة لواحة بُسَيمَة خطرة للغاية.

وفي واقع الأمر، أن هذه المعلومات جرى الحصول عليها في تاريخ لاحق. وأنا عندما وصلت إلى إجدابيا لم أكن أعرف شيئاً عن الجغرافيا الليبية. لم أكن أعرف أن القرية الرئيسية في الكفرة هي قرية الجوف Jof، وأنها هي مقر الحكومة، ولم أكن أعرف أن قرية تاج Taj، هي قُدس أقداس العقيدة السنوسية. لم أكن أعرف أني سوف أعرّ على جبال وبحيرات، وحقول من أشجار الأثل وأشجار السنط؛ وأشجار الخوخ، والعنب، والتين في جنة عدن هذه الضائعة بين الرمال التي لا يمكن اختراقها، بين صحراء الداخلة في الشرق، والتي لم يعبرها الأوربيون، ومن ناحية الغرب الأرض الخراب الوعرة الممتدة إلى أونو سيزير Unu Szerir حتى حافة طرابلس Tripolitania، والتي أودع سجنها البعيد بعض من أولئك التعساء الذين بقوا على قيد الحياة من طابور ميانى Miani. وأنا شخصياً كنت أرى الكفرة على أنها سراب. كانت الكفرة تمثل ذلك السر الذي حفظته الصحراء وحرسه حراسة مشددة فترة طويلة من الزمن، من أن تنظر إليه الأعين المسيحية. أشعلت القصة المأساوية - التي حدثت للرحلة التي قام بها رولفز - حماسي وجعلتني أتحرق شوقاً للوصول إلى هذا المركز من مراكز أكثر الجماعات الدينية تشدداً، ذلك البلد المجبول، الغامض، الذي لم تطرق أقدام الغرباء أرضه، سواء أكانوا مسيحيين أم مسلمين.

بعد أن وضعنا في حسابنا وأخذنا بعين اعتبارنا المصاعب المدهشة للرحلة والكراهية شبه المجنونة التي يلقاها الغرباء، يصبح طبيعياً - باستثناء واحد فقط -

ألا يستطيع أحد من الأوروبيين مطلقاً الوصول إلى مجمع الزوايا المقدسة والمرابطين في بلدة تاج. أمضى سجين فرنسي فترة زمنية قصيرة في الكفرة أثناء الحرب؛ لقد أرسل من أونو سيزير Unu Szerir إلى الكفرة بأمر من السيد أحمد. قبل حوالي أربعين عاماً، حاول مستكشف ألماني كشف غموض تلك الواحة البعيدة. كما أرسل القيصر Kaiser ولهم الأول، في العام ١٨٧٠ الميلادي بعثة علمية إلى ليبيا مكونة من أربعة رجال: رولفز، ستير، إكهارت Eckhart وهوبنر. كانت تلك البعثة من قبل السلطة التركية وكانت تحمل معها هدايا قيمة من الإمبراطور. فقد كانت محملة بأكياس مليئة بالذهب والفضة. جرى احتجاز الرهائن في بنغازي، في الوقت الذي قاد رولفز جماعته إلى الصحاري الجنوبية. غادر رولفز قرية جالو في اليوم الخامس من شهر يوليو، ومعه مائة جمل ومجموعة كبيرة من الزوايين Zouias الراكبين على خيول، من بينهم شيوخ عدة، أهمهم هو الشيخ بُو جَطَّين Bu Guettin. حقق رولفز شيئاً مدهشاً بوصوله إلى تيسربو، في غضون أربعة أيام ونصف، بأن كان يواصل المسير عشرين ساعة في اليوم. ويروي رولفز في كتابه بالغ الأهمية عن أسفاره في شمال أفريقيا - والذي لم يترجم، من سوء الحظ - إلى الإنجليزية، أن تيسربو، ربما كانت هي موقع سلطنة التبو Tebu، نظراً لأنه شاهد أنقاضاً يحتمل أن تكون هي أنقاض قلعة أو معقل في ديرانجيدى Diranjedi. واصل رولفز سيره في اتجاه الجنوب عن طريق بُسِيمة إلى أن وصل إلى هواويري، التي ألقته واحد من أصدقائه الشيوخ هو، كُرَيْم عبد ربو Abd Rabu، بالتخيم في بيارة النخيل الموجودة خارج القرية، وذلك من باب تجنب الاحتكاك بالقرويين، الذين رفضوا دخول النصراني بلادهم.

ويصف تيوتون Teuton الجسور التجمع الذي حدث خارج خيمته والنقاش الطويل حول ما إذا كان هو ورفاقه يتعين قتلهم أم لا، وفي اليوم التالي المصادف لليوم الرابع عشر من شهر أغسطس، أُنْعِمَ بوجَطَّين هو والزوايون الخونة، الذين

كانوا يعارضون وجود الغرباء معارضة شديدة، ويطمعون فى تقاسم غنائم هذه القافلة الغنية، بمغادرة هواويرى، وأن يسيروا على الحدود الخارجية للواحة، حتى يعزلوا أنفسهم فى بويما، تلك البقعة الوحيدة شديدة الانعزال فى المجموعة كلها. ومن الواضح أن رولفز وافق على هذه الخطة نظراً لخطورة المناطق المجاورة للقرى الرئيسية وكان على الرجل أن يعارض الكراهية الشديدة للإخوان والتلاميذ أتباع هذه الزوايا المتشددين، أولئك القرويون الذين كانوا يغارون على حراسة خصوصية بلادهم، وحراسة قوافل الحجاج والتجار التى تمر ببلادهم أيضاً. وبعد احتجاز رولفز فى السجن مدة شهر تقريباً فى هذا المخيم المنعزل - وسط خوفه اليومى على حياته، ساعده صديقه الأصيل كُريم، على الهرب بأن أخذه أثناء الليل، هو ورفاقه الثلاثة، إلى مخيم زوج ابنته الذى يوجد فى مكان ما بالقرب من زُرُوق Zuruk. جرى فى تلك الليلة الهجوم على المخيم الألمانى وسلب ونهب كل ما فيه. وقام الغزاة بتدمير كل كراسات المذكرات، وكل الخرائط، والرسوم والأدوات العلمية، وعليه عجز رولفز عن الإفاضة فى وصف رحلته حتى فى هواويرى.

ويخصص رولفز فى كتابه المعنون "الكفرة"، فصلاً للأخطار التى واجهته والمعارك التى خاضها فى تلك الواحة الطاردة، لكنه بعد إنقاذه بواسطة كُريم - الذى التقينا ولده فى قرية تاج - تصبح روايته مفككة وغير مترابطة. جرى نقل رولفز إلى مكان آخر قبل أن يُسمح له بمغادرة الواحة. هو نفسه يعتقد أن ذلك المكان هو الجوف، لكن من وصفه للرحلة يبدو هذا القول مستحيلاً. أمضى رولفز أربعة عشر يوماً أخرى فى رعاية كُريم - وهو يروى أنه لم يكن مسموحاً له بالتحرك بدون حرس مكون من عشرين بندقية - يبدو أنه واجه خلالها كل أشكال القهر والتهديد فى صبر وهدوء. وفى اليوم السابع والعشرين من شهر سبتمبر غادر رولفز الواحة بصحبة كُريم، الذى رافقه طوال الطريق إلى بنغازى، التى لقي الشيخ فيها ربه. وبناء عليه، هناك أسطورة تقول: إن رولفز هو الذى قتل الشيخ

بالسم. ومن واقع خبرتى بجشع المرافقين لنا، توصلت إلى نتيجة مفادها أن الألمانى الشاكر للجميل أعطى الشيخ الكثير من مخزوناتة القيمة وأن العربى أفرط فى تناول الطعام!

بعد هذه الحملة المشىءومة، لم يحدث أن رأت قداسة الكفرة وعزلتها أى ظل من ضلال الأجانب إلى أن أرسل السيد أحمد، سجينة إلى الكفرة. جرت محاولات كثيرة من واحة سيوه لاختراق أول حاجز من حواجز الكتبان الرملية، لكن باءت هذه المحاولات بالفشل. وبذلك بقيت الأسرار التى كشف عنها رولفز مدفونة فى سراب الصحراء الكبرى والكفرة، لتصبح أسطورة أكثر منها حقيقة.

يزاد على ذلك أن العلاقات الطيبة فى الوقت الحالى بين إيطاليا والسنوسى، وكذلك الصداقة الحقيقية التى تربط بين السيناتور دى مارتينو والسيد إدريس، هما اللتان سهلتا علينا الوصول إلى إجدابيا، ضيوفاً على حكومة السيناتور دى مارتينو المضيفة، لكنهم منذ ذلك الحين فصاعداً تركوا لنا مسألة درء الخطر عن أنفسنا. لم نتمكن من أخذ رهائننا فى بنغازى فى حوزتنا وليكونوا تحت رعايتنا، نظراً لأنهم كانوا مذهولين من فكرة قيام امرأة شابة وحدها بمغامرة فى منطقة لم يجر استكشافها بعد. كانت المعاهدة التى جرى مؤخراً توقيعها مع سيدى إدريس تعطيهم حق السيطرة على برقة بالكامل، وبذلك أمكن ضمان مستقبل باهر لازدهار المستعمرة، لكن المعاهدة تركت الصحراء الليبية الكبيرة بدءاً من عَجيلة Aujela إلى جغبوب، هى والكفرة التى تقع على بعد حوالى ستمائة كيلو متر فى الجنوب، فى يدى سيد إدريس، ليكون حاكماً مستقلاً تحت الحماية الإيطالية.

هناك أيضاً تعقيد مضحك أدى إلى تقاوم مصاعبنا بشكل كبير. لما كان أحمد حسانين بك سكرتيراً فى البعثة الإيطالية البريطانية التى رتبّت لعقد معاهدة ١٩١٦ مع السنوسى، فقد بدأت الشكوك تحوم حوله ظناً أن لديه أسوأ النوايا تجاه الحركة الإسلامية. فقد عشنا طوال أسبوع كامل فى ترقب وقلق فى بنغازى. فاحت راحة

التأمر وكان الجميع يتشككون فى دوافع بعضهم البعض. كنا كلما تعطلت شاحنة تقرر أن لن يسمح لنا بالوصول إلى جديبا. وإذا ما تحدث حسانين مع بدوى مستخدماً تحية الإسلام كانت عينا مترجمنا المزعوم تبدوان كما لو كانتا ستخرجان من رأسه اهتماماً وخيبة أمل. كان أفراد المناوبة الطيبون يولون تاريخنا، وخططنا، وأفكارنا، وممتلكاتنا أقصى اهتماماتهم. جرى "استنزافنا" إلى أنه لم يعد لدينا ما نقوله؛ وقمنا نحن أيضاً "باستنزاف" كل فرد محب وجواد ممن كانوا يسألونا فى أدب ودون مبالاة عن مقصدنا! كان يتعين علينا فى بعض الأحيان التعبيرات الحادة والمؤلمة إلى حد أنى تعجبت من عدم ارتياهم فى بلشفتنا فى أضعف الأحوال. تمثل القسم الأكبر من هذه المسألة فى أولئك الجواسيس الذين كانوا يحيطون بنا بصورة مستمرة والذين كانوا يشعرون بأهميتهم إلى حد أنى وحسانين بك كانت تدور بيننا يومياً مشاجرات فى محاولات منى لمنعه من لعب أدواره الكوميديّة الصغيرة التى تستثير هؤلاء الجواسيس وتزيد فضولهم، أكثر وأكثر.

وفوق ذلك، أننا بدأنا نحس بالمزيد من السعادة فور وصولنا إلى إجدابيا. كانت الصحراء المفتوحة الواسعة أمامنا وسحر المدقات الكبيرة فى الجنوب وسر الصحراء كامناً فى تلك الواحة التى تقع فى مكان ما بعيد خلف خط الأفق الأرجوانى الشاحب، تلك الواحة التى أصبحت هدفاً لكل المستكشفين، بدءاً من ضباط حرس السواحل المتحمسين الذين كانوا يحلمون بشق رمال الصحراء عنوة على ظهر هجن (جمل) جبرى، وانتهاء بالحكومات التى فشلت شاحناتها ودوريات سياراتها الخفيفة فى اختراق تلك التراكمات الرملية الخالية من الماء. تقول الحكايات الغربية التى يرويها الطوارق المقنعون، أولئك الراكبون الذين يهددون القوافل المتجهة صوب الجنوب: إن هناك عرفاً أبيضاً، أزرق العيون، أشقر الشعر، تعيش نساؤه بلا حجاب مع رجاله. وتعرّو الأساطير موطن هذا العرق إلى تلك الواحة الغربية التى يختلف موقعها باختلاف نزوات راسم الخريطة. تنفست وأنا أنظر إلى النجوم، وأهمس للريح أنى سوف أصل إلى تلك الواحة "إن شاء الله".

الفصل الثانی

ترتیبات الهروب

نمت بالقرب من نافذة بلا زجاج تفتح على فناء خالٍ، وأنا أتعجب ما إذا كان بوسعنا شراء الطعام الضروري من السوق، أم أننا ينبغي علينا البدء في استعمال المؤن التي نحتفظ بها. صحوت على مشهد غوغانى ورحلت أفرك عيني في دهشة. رأيت في ركن من الأركان خيمة ناقوسية الشكل، كان ينبعث منها دخان صادر عن احتراق الفحم النباتي. وشاهدت في ركن آخر جواذا مُسرجاً ممتازاً عليه سرج أوروبي. وشاهدت ستة من الخدم كانوا مشغولين في إعداد وجبه ضخمة. ناديت حسانين بك "يا الله عليك، من أين جئت بكل هذا؟"

أجابني مندهشاً "تسأليني؟ تسأليني أنا؟ هذا كله من سيد رضا. هل تعلمين أن هذا الجواد سيبقى هنا لتركيبه في الوقت الذي تحبين، وأن الخيمة عبارة عن مطبخ مجهز وأنت أصبحت لك طبّاخ ولا أعرف عدد الخدم الذين معه؟ ذكرتى أمس أنك تحبين التمر. حسن، هذا هو جوال كبير من التمر وصلنا هذا الصباح، فضلاً عن اللحم، والخبز، والشاي، والسكر، والله وحده يعلم ماذا سيجيئنا بعد ذلك. نحن ضيوف على سيد رضا، وأنا أستحلفك بالله ألا تقولى أنك تحبين شيئاً آخر، وإلا سوف يجيئك ذلك الشيء في غضون ساعة!"

توقف حسانين بك لالتقاط أنفاسه، في الوقت الذي رحلت أطيل خلاله النظر إليه وأنا بلا حول أو قوة. المرء عندما يعود من مستعمرة إيطالية يكون معتاداً كرم الضيافة، إذ إن الجميع بدءاً بالمحافظ وانتهاء بمن هم أقل من ذلك يكونون مشغوفين علينا بشكل يدعو إلى الدهشة، لكن الذي يحدث شيء أكثر من الخيال. أحسست أن حديقة كاملة من البلاغة الوردية لن تكون كافية للتعبير عن شكرى وامتنانى.

خرجنا راكبين دوابنا وسرنا خلال رفح متصحرة من الصخر الأبيض والرمل لنرى قطعاناً كبيرة يجرى سقيها. شاهدنا أشكالاً برونزية عارية اللهم باستثناء سائر اللعورة قرمزي اللون، كانت تلك الأشكال تصيح وتغنى قافيه رثيية وهى تدلى جلود الماعز المربوطة إلى طرف جبل ثم تجذبها إلى الأعلى وهى مليئة بالماء ثم يصبون ما فيها من الماء فى غدران بدائيه. كان هناك قبر مرابط أبيض ونخلة واحدة ميزان وسط مجموعة من المنازل التى لها لون الرمال. وفيما عدا ذلك، كانت المنازل مبعثرة على مساحة واسعة، فى حين كانت دكاكين السوق على شكل خط فى المنتصف. أحدثنا جلبة وقلقاً كبيرين فى السوق، الأمر الذى جعلنى أقرر أن معطفى الرمادى الخاص بالركوب هو وقيعتى المصنوعة من اللباد لم يكونا مناسبين للمكان. أخبرنا مصطفى - ذلك الفرد المتألق الذى ينتمى إلى واحدة من العصابات غير العادية - والذى تعطف علينا الضابط السياسى فى بنغازى بإعارتنا إياه، أن يذهب ويكتشف أنه كان هناك أحد يود بيع بعض الملابس الوطنية. عاد إلينا بعد حوالى نصف ساعة وعلى وجهه تعبير يوحى بالحيرة والخوف، وبصحبتة أمين سر سيد رضا، الذى كان وجهه الأسود سواد الفحم يطل علينا من بين ثنيات كوفيته البيضاء الضخمة. قال أمين السر "أنتم ضيوف سيد؛ وما تريدونه سأحضره لكم على الفور." ثم قدم لى حزمة كبيرة. كانت تلك الحزمة تحتوى على أجمل ثوب وطنى Jerd أبيض مصنوع من الحرير، ومقلم مثل ذلك الثوب الذى أبديت إعجابى به فى الليلة الماضية، وكان مع الثوب عقال أخضر من الفضة، وكان مع العقال كوفية غمرت قلبى بالفرح، لأنها كانت عبارة عن خليط من الألوان الجميلة- اللون الأرجوانى واللون الوردى، واللون الأزرق على أرضيه فضية، ولها شرابيب طويلة. كان فى الحزمة طربوش أيضاً وشبشب أصفر اللون بديع الشكل. وقبل أن تتطلق الكلمات المتلثمة من فمى كان حسانين بك قد انتقض على الشبشب الأصفر. كان التعبير الذى ظهر على وجهه يوحى بأنه كان مثل طفل صغير عندما تُعاد إليه لعبة يحبها. قال حسانين بك متعجباً: "الحمد لله"، ثم انصرف بعد ذلك ممسكاً بهديته.



THE AUTHOR AT JEDABIA.

المؤلفة فى جدابيا



THE AUTHOR ON CAMEL-BACK.

المؤلفه تركب جملا

أعترف بأني أمضيت نصف ساعة من السعادة وأنا أحاول فهم التشابكات العويصة لذلك الثوب الوطني، وفي تخيل نفسي وأنا أرتدى اليدية الرائعة التي أهداني إياها سيد رضا، وتقديم هذا الرجل الشاى المنعنع للشيوخ المحترمين. محونا بعد ذلك من مفرداتنا كل الأفعال المعبرة عن الرغبة والطلب، لكننا لم ننجح في تحاشي كرم مضيئنا. كنا بحاجة إلى جوالين صغيرين نضع فيهما مخزوناً من الأرز والدقيق يكفي استهلاكنا لمدة أسبوع، وكان السبب في ذلك أننا فور مغادرتنا إجدابيا سوف تستمر رحلتنا لمدة سبعة أو ثمانية أيام إلى أن نصل إلى الواحة التالية، وكنا قد وضعنا خطة تقضى بأن تسبقنا إبل الأمتعة، وأن نركب أسرع المواشى المتيسرة. وفي ضوء ما انتوينا أرسلنا مصطفى مرتدى الثوب زاهى الألوان إلى السوق. وبعد ذلك بعشر دقائق أعيد مصطفى بطريقة حاسمة بواسطة رئيس الشرطة، ذلك الرجل القوى المتين أسود البشرة، صاحب الوجه الصارم الجامد. كان تابعنا يحتج احتجاجاً شديداً، لكن لم يكن هناك من مستمع أو أذن صاغية لما يقول، إذ جاء في أثره أمين السر أبنوسى البشرة، الحاج عبد السلام. قال لى الحاج عبد السلام بنعمة الأب الذى يعاتب طفلاً أحمق: "سوف أرسل لك الجوالين. السيد يود أن يعطيك كل ما تحتاجين." وفوق ذلك أن بلاغة حسانين بك خانته أيضاً، فى الوقت الذى رحلت أنا أتساءل فيما بينى وبين نفسى حول ما إذا كنا نعيش حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة.

على كل حال، كان سلامنا قصير الأجل؛ إذ كنا طوال الأيام القلائل الأولى فى جدابيا، فى سعادة وهمية. كانت الصحراء تحيط بنا من كل جانب. بدت لنا مسألة استئجار عدد قليل من الإبل ومرشد ثم الاختفاء بعد ذلك عند حافة الأفق، وكأنه أمر سهل. وبحلول اليوم الرابع بدأنا نكتشف بعضاً من المصاعب المهمة. أولاً، لم تكن الإبل متوفرة. كان الحصاد وفيراً أيضاً فى ذلك العام. بالإضافة إلى ذلك أن البدوى كان ثرياً ولم يكن يرغب فى العمل. وكان من المستحيل تفسير

القصد الحقيقي للثقافة، نظراً لأن الواحة المقدسة، تتجاوز أحلام الجمالة في المقام الأول، وفي المقام الثاني، يتعين القيام بالعمل كله في السر، نظراً لأن كل من كانوا معنا كانوا جواسيس، باستثناء الطباخ الأسود، على. يضاف إلى ذلك أنه كان يعمل في المكتب السياسي الإيطالي Ufficio Politico، ومن باب الطاعة والولاء، كان يقوم بالإبلاغ عن أصغر الأعمال التي كنا نقوم بها. زد على ذلك أن مبارك- رئيس الشرطة القوى - لم يكن ممانعاً للذهب اللاتيني، ولذلك زرع أخاه كسانس للخيل ليراقبنا، وظناً منه أن ذلك لم يكن كافياً، أرسل لنا خادماً عجيباً، أطل علينا برأسه فجأة من النافذة الخالية من الزجاج، كلما كنت أنا وحسانين بك ندرس القرآن أو ندون الملاحظات. لم نستطع مطلقاً التقليل من يقظتنا ولو لثانية واحدة. كان من عادتنا التحدث طويلاً باللغة العربية عن مدى انشراح صدورنا بالحياة في جديبا، وأتينا يجب أن نبقى فيها أسبوعين قبل عودتنا إلى بنغازي. كنا على يقين من أن كل كلمة سيجري استراق السمع إليها وتكرارها.

أفسدت شائعة سوقية خطتنا الأولى، التي كانت شديدة البساطة. كنا قد انتوينا إقناع أحد الإخوان بمرافقتنا لزيارة قرية من القرى القريبة، التي سيجري فيها زواج وهمي أو احتفال، ثم نقوم بعد ذلك بمواصلة رحلتنا من هناك. لم تكن على معرفة يقينية بتشدد ذلك المسلم. كانت حكايات المرأة المسيحية الثرية التي كانت على وشك الترحال في داخل البلاد، قد انتشرت مثل انتشار النار في الهشيم. جاعني مصطفى بحكايات عن قطع الرقاب على مرأى ومسمع من في السوق. أوضح لي سيد رضا بنفسه أن حياة المسيحي غير مضمونة فيما وراء حدود برقة، وأن كل من يقال إن بحوزته نقود، يصبح فريسة واضحة للعصابات الخارجية على القانون، التي تجتاح الصحراء كلها، وتلقى القبض على فرائسها ثم تختفي في الرمال التي لا حدود لها مثلما يختفي النمل في العشب. تعلمنا أشياء كثيرة في ذلك اليوم. اكتشفنا أن مانيسمان Mannismann الألماني، قتل بيد حارسه العربي، بعد

بضع ساعات قلائل، خارج البلدة؛ لأن مانيسمان كان معه اثنا عشر ألف جنيه من الذهب. سمعنا أيضًا أن قبائل التيب التي تعيش في مجموعة الواحات التي تعرف باسم الكفرة Kufra (الاسم الحقيقي كُفاره Kufara) لم تخضع خضوعًا تامًا لحكم السنوسى، وعليه ظلت تلك القبائل تهاجم القوافل التي تتجاوز تيسربو. قلت "أنا لست فاهمة. تيسربو جزء من الكُفاره Kufara، أليس كذلك؟ هى موقعه على الخريطة بهذا الهجاء." أجابنى راوينا مندفعًا "لا! لا! تيسربو قريبه. ويمكنك الذهاب إليها بسهولة. تيسربو ليست مهمة. ليس فيها سِكّه (طريق). الكُفاره أبعد منها بكثير. الجزء الخطير يبدأ بعد تيسربو. إذا ما ذهبتِ إلى بُسيمة فقد يتعين عليك الدخول فى قتال."

بدأنا بعد ذلك حملة جادة ومنظمة لتصحيح انطباع أو فكرة المرأة المسيحية الثرية. استغنيت عن قبعتى واستبدلت بها لكوفية الجميلة التى أهدانى سيد إياها. عودت الناس على الاستماع إلىّ فى الصباح وفى الساعات المتأخرة، وأنا أتلو آيات من القرآن. كنت قد عرفت بالفعل الفروض الخمسة الأساسية، وحرصت على أداء الصلاة بصورة صحيحة. يزداد على ذلك أنى أعنت على التجوال خلال مخيمات البدو التى تحيط بجدايبا، والتحدث مع النساء البدويات مما جعلنى أكتسب ثقتهم بطريقة متكرجة. فى البداية كانت النساء ينظرن إلىّ نظرة شك وارتباب بالغين، ولكن ذلك بدأ يقل عندما بدأت أحيى الناس بتحية الإسلام، وعندما كنت أعبر لهم عن سعادتى بأن أعيش حياة العرب بين العرب. عندما كان يزورنا شيخ من الشيوخ، أو حاج من الحاج، كنت أحرص على النطق أمامه "بالشهادة": "أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله"، وعقب ذلك كان الشيخ أو الحاج يدعو لى بالبركة دعاء حارًا. بعد أيام قلائل، أصبح الناس يرحبون بى ترحيبًا حارًا وحماسيًا، وراحوا يقدمونى للأطفال ذوي الوجوه الوقورة المزينة بأحجية وتعاويز من الفضة واللاتى يعرفن كيف يخزن خبزًا مسطحًا (مفروذا) ثقيلًا فى أفران من الطين.



BEDUIN WOMAN AT JEDARIA.

بدوية فى جداليا

كانت مسألة منظومة التراسل اللاسلكى فى الصحراء تعد أمراً عجيباً جداً. لاحظت ذات ليلة - ونحن نتناول العشاء مع سيد رضا - أنى كنت سعيدة لعدم وجود تيار كهربى، كما لاحظت أيضاً إعجابى بتأثير الألوان المحلية والإضاءة البدائية على المنازل العربية. وقد ترجم هذا الإعجاب فى السوق إلى "هى مسلمة. إنها تكره الأشياء الأوروبية كلها. هى تود الاحتفاظ بالتقاليد القديمة كما تركها لنا أبائنا".

عرفت أن حملتى أصابت نجاحاً فى اليوم الثامن من وصولى، عندما وجدت الجاسوس الرئيسى، بعد أن ينس من رؤيتى بأية طريقة أخرى، يقوم بإحضار هدية عبارة عن طائر أسود أصلع الرأس يثير الضحك، كما وصل إلينا أيضاً شقيق من أشقاء على الطباخ قادماً من خيمته المصنوعة من وبر الإبل. حيانا الرجل وأخبرنا أن البدو كانوا متعاطفين معنا، وأنهم عرفوا أننا مسلمون ومن دمهم.

وعليه أحسنا بأننا فعلنا شيئاً للتخلص من الموت المفاجئ قبل أن نقطع مائة ميل من الطريق الذى ينبغى أن نسير عليه، لكن الترتيبات الأخرى لم تكن على ما يرام بأى حال من الأحوال. كان الحاج فطاطر Fetater، أكثر الإخوان تقديراً واحتراماً والذى سبق له القيام بالرحلة الكبيرة خلال الكفار Kufara ومنها إلى وادى Wadai، هو الشخص الوحيد القادر على مساعدتنا فى الطريق الذى سنسلكه. كان الحاج فطاطر من قبيلة المجابرة Mojabara ولذلك كان كارهاً "لنصرانى" إلى حد أنه لم يكن يطبق الوجود فى غرفة واحدة مع شخص مسيحى. لست أعرف ما إذا كانت فصاحة حسانين بك، أو اكتشافه المفاجئ أن سيدى السنوسى نفسه قد تنبأ بدخول الإنجليزية فى الإسلام بصورة متدرجة، هو الذى أقنع الحاج فطاطر وجعله يعد بمرافقتنا فى رحلتنا. "نحن خدم للسيد. قال: إذا ما قال لى أذهب، فسوف يتعين على الذهاب". لكن عندما أثارت النبوة حماسه، ألقى برأسه الكبير إلى الخلف وقال متعجباً "سأحميها. سأخذها إلى الكفرة Kufara، وسوف تقبل القبة الشريفة وتصبح مسلمة!"

كان عمر الحاج قطاطر حوالى ثمانين عامًا، لكنه قرر فى الحال إنه سوف يتولى أمر إدارة القافلة كلها وأنه سوف يدرّبنا ويتقننا على الترحال فى الصحراء. كان الرجل قد ألقى على نظرة خاطفة عندما كانوا يستعجلون خروجى من المنزل مخافة أن يؤدى وجودى فيه إلى تلوّثه. لم ير منى سوى تلك الشابة الصغيرة الخجولة للغاية، كسيرة العينين، التى ترتدى بدله زرقاء باهته وتركب على حصان صغير بشكل مضحك، وتتدلى قدمها المتورمة وفيه فردة حذاء محلى، لكن الواضح أن الرجل وقر فى ذهنه أنه يستلطفنى. انتهز حسائين بك موافقة الحاج قطاطر قائلاً: "الفاتحة". يقصد "سورة" الفاتحة من القرآن الكريم. هذه الفاتحة لا تُقرأ إلا فى المناسبات شديدة الأهمية، وهى تشكل مباركة لما تم الاتفاق عليه وقسمًا فى آن واحد.

مع كل ذلك، لم يكن مُضَيِّفُنَا راضياً تمام الرضا لكنه أصر على إرسال مرافق معنا، وعشرة من جنود حرسه، المكون من عبيد سود سواد الفحم، وبقيادة قائد يدعى عبد الرحيم. وقرر مضيفنا أيضاً تسوية مسألة الإبل تسوية نهائية، عن طريق إرسال قافلة من قوافله إلى الكفرة لتحضر له بعض مقتنياته وبذلك تسمح لنا بالسفر معها. وإلى كل من لا يعرفون الشرق، تبدو المسألة عند هذه المرحلة وكأن الأمور أصبحت على ما يرام. أبداً، لم يحدث ذلك! كان الجنود فى زوتينه Zuetina، على بعد حوالى ٢٤ ميلاً. وكانت الإبل على بعد مسيرة يومين فى أضعف الأحوال، أى على بعد حوالى ٦٠ كيلو متراً. كان الناس يقولون: إن الإبل فى منطقة أنتيلات Antelat، مقر أسرة سيد رضا. كنا نراقب الأفق كل يوم بعيون قلقة. كنا نعد كل يوم كل صف من صفوف البقع السوداء التى كانت تظهر وسط العشب والصخر التى أحرقتها الشمس وحولتها إلى اللون البنى، لكن لم تظهر الإبل ولا الجنود. كنا قد قررنا أن القافلة يجب أن تعلن أن بدء تحركها سيكون عند الظهيرة، وأن طابور الإبل الطويل سوف يتجاوز بابنا عند الساعة الثالثة صباحاً. قررنا أيضاً أن بعض الإبل سيجرى سحبها بالقرب من جدار مناسب حيث جرى

تحميلها على وجه السرعة، بكل أشيائنا، ثم نركب الإبل بعد ذلك ونكون قد قطعنا مسافة ٥٠ كيلو متراً قبل أن يعرف أحد برحيلنا! وبوسعنا ترك بعض الرسائل التي تفيد أن ما أقدمنا عليه كان من باب انتهاز فرصة عارضة، ومن باب قرار مفاجئ اتخذناه، على أن نقوم بعد ذلك بإرسال المزيد من المذكرات من كل واحدة من الواحات التي تصادفنا في طريقنا.

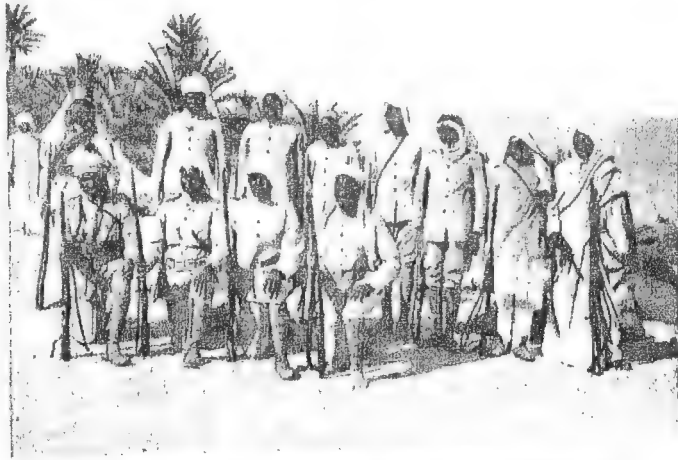
ومن سوء الطالع، أن ذلك كان سباقاً مع الزمن، نظراً لأن الجميع بدءوا يتشككون في رغبتى غير المبررة، في البقاء فترة طويلة في قرية طينية على حافة العالم. كان عمر، مترجمنا الحكومى، مصمماً على العودة إلى بنغازى لحضور عيد رأس السنة. كان ضابط الخيالة بهي الطلعة، ضابطاً سياسياً في زوتينه، متضايقاً بطبيعة الحال من تكليفه بقيادة سيارة النقل الثقيلة ثلاث أو أربع مرات كل أسبوع بدءاً من معسكره الصغير القريب من المحيط ليرى ذلك الذى تفعله هذه المرأة الإنجليزية العجيبة فى بلد على حافة الحضارة يدور من حوله جدل كبير. حاولوا بكل الطرق، مع مرور الأيام إقناعى بالخروج من إجدابيا، لكن قدامى المتورمة أسدت لى خدمة كبيرة. أوضحت لهم الأمر قائلة: "إن الركاب يؤذى قدامى المتورمة بدرجة كبيرة نتيجة تكرار الركوب إلى حد أنى لست على استعداد للتضحية بقدمى مرة أخرى قبل أن يكتمل شفاؤها." فاقترحوا على استعمال سيارات النقل، ولكنى قلت لهم إن لى أعمالاً كثيرة يتعين القيام بها، وأنى كنت جد سعيدة بهدوء وسلام منزلى العربى الذى سوف أقوم فيه بهذه الأعمال.

كان الموقف سخيفاً. اعتاد خمسة شبان على الاجتماع فى منزل الطبيب حتى يشاركوا فى زبليونية السيد عمر اللذيذة، لم يحدث قط أن نطق أحد منهم بالحقيقة! كان كل واحد منهم يحس بأن الآخر يكذب عليه، لكن أحداً منهم لم يعرف إلى أى مدى بالضبط كان يكذب ويلف ويدور. ربما كنا نحن أفضل حالاً منهم، نظراً لأننا كنا نعرف لعبتهم، ومن سوء الحظ أنهم فشلوا فى فهم خطتنا. كانوا



NOMAD TENTS, NEAR JEDABIA.

خيام بدوية بالضرب من جوابيا



OUR SOLDIER SLAVES AND THE GUIDE, ABDULLAH.

جنود من العبيدهم والمرشد عبد الله

يركزون دوماً على الجانب السياسى. فى ظل انشغالهم بمعرفة ما إذا كان حسانين بك يخطط لإقامة إمبراطورية إسلامية مع المصريين الثلاثين الذين كانوا يعملون من قبل فى حرس السواحل، والذين لجنوا إلى السنوسى أثناء الحرب، أغفلوا الاحتمالات الأخرى. مبلغ علمى أن هذه الفكرة، وأنهم ظنوا أنى أود التعمق فى الصحراء إلى مسافة غير ما يسمحون لى به، لكنى أشك فى أن الشكوك راودتهم حول هدفنا الحقيقى. كان ذلك يدهشنى إلى حد كبير فى ذلك الوقت. وأنا عندما أسترجع ما حدث، أجد أنه كان من الصعب عليهم تصور أن المرأة التى رأوها وهى ترتدى ثوباً فارهاً، وتضع فوق رأسها قبعة فرنسية مزينة بالدانتيل، وتلبس حذاء بكعب عال يناسب حمرة عبايتها المقلمة، يمكن أن تتحول إلى بدوية وتقوم برحلة شاقة - من وجهه نظرهم - على أى شخص أوروبى وبالغة الصعوبة على أى شخص عربى.

أحسنا أن لدينا ورقة واحدة يجب أن نلعب بها حتى لا يتشككون فىنا - الهرب عند منتصف الليل. لم نكن راغبين فى لعب هذه الورقة. كنا نصبر فى قلق على الإبل التى لم تصل حتى ذلك الحين، وكنا قلقين أيضاً بشأن مسألة الوقت. ومن يمن الطالع أن الخصوم خدعهم ذلك البرود الذى كان بينى وبين حسانين بك. كنا قد بدأنا نتصنع الخلاف فيما بيننا، وكنا نتحين الفرص للكشف عن مظالمنا واستياءاتنا بين الحين والآخر وذلك على مسمع من الأذان المتعاطفة. وفجأة بدءوا يضعون معنا رقيقاً محلاً لنقتهم، الأمر الذى سهل علينا أموراً كثيرة. وبدأوا يتفقون مع بعضهم على تعقيد الأمور حتى يجعلونى أغادر إجابيا، الخالية من مقاهى المبيت Café Chantant أو فندق من 'فنادق نوبيل!' يزداد على ذلك، أننا على الرغم من هذا التحرك، بدأنا نحس المزيد من القلق الشديد. فقد بدأ الجواسيس يضاعفون من يقظتهم. ولم تظهر أية دلائل عن الإبل وقام مبروك - رئيس الشرطة - بتقديم شخص إلينا فى منزلنا قال عنه إنه من الإخوان فى الكفرة، وكان

واضحاً أنه يريد منا أن نسأل هذا الشخص عن رحلته. لم نتطرق إلى هذا الأمر من قريب أو بعيد، يضاف إلى ذلك أن هذا الإخواني كان غيباً إلى حد جعلنا لا نتصور أن يكون مثل هذا الرجل ذا فائدة في أية خدمة من الخدمات السرية!

كان ذلك موقفنا في اليوم الرابع من شهر ديسمبر، الذي شاهدنا فيه - أثناء تجوالنا الصباحي في المخيمات المجاورة - طابوراً من الإبل قادماً من أنطيلات. وعلى الفور قفزنا إلى استنتاج مفاده أن هذه هي إبلنا. كان أحد الجواسيس يقود حصاني الذي كنت متوازنة فوقه حمايةً لقدمي التي تعرج، وعليه لم نكشف عن علامات فرحنا، اللهم باستثناء بضع ساعات قلائل رحنا خلالها نرسم الخطط تَمَتُّعاً بحرية الصحراء. كنا قد انتهينا للتو من تناول غداء من الأرز، والسُضْآن والشاي المنعنع عندما حدثت الواقعة. جاءنا الوزير الأسود في حالة من التشوش الكبير. لم يقتصر الأمر على عدم وجود أخبار عن إبلنا أو جنودنا، لكن خصومنا كانوا على علم تام بأن قافلة سوف تتجه إلى الكفرة في غضون وقت قصير وأنها ستتطلع إلى السفر مع هذه القافلة "مدة يوم أو يومين". عاد إلى حسانين بعينين متقدتين في وجه أبيض اببيضاض الطباشير. قال حسانين: "لقد وصل الأمر إلى حد القتال، وأنا سعيد بما يدور". كنت قد تعودت على الانبساط في بعض الأحيان، من طريقة معالجة حسانين الصغيرة للأشياء حتى اللحظة الأخيرة، لكن قوة وطاقة الرجل بكاملها كانت تتجلى في الطوارئ المفاجئة، الأمر الذي جعلني لا أفضل عليه أحداً من رجال العالم في الوقوف إلى جانبي. كان حسانين يسارع إلى القيام بالضروريات تاركاً لي التفاصيل الصغيرة. قال حسانين "هو هروب على جملين وعندها يتعين على القافلة أن تتبنا!" وكالعادة، رحت أدرس الاحتمالات العملية في الوقت الذي خرج هو فيه لتصيد المزيد من الأخبار.

أظن أنني سوف أتذكر دوماً ذلك المساء الطويل. في ذلك المساء، كانت الريح محملة بالتراب، لكني ركبت الحصان وقصدت مخيماً من المخيمات ولدي إحساس

بأنى لا أود الابتسام. أحسست باليأس، والحصار كما لو كانت شبكة تطبق علىّ، وتضيّق علىّ الخناق، وبدأت أحسّ ألماً خدرًا فى قلبى. وفوق ذلك أنى لم أطق مبادلة البدويات ابتساماتهن، وهن متجمعات حولى، وهن يرتدين بركانات^(*) فيها بقع من الألوان الزاهية برتقالية اللون، واللون الأسود، أو اللونين الأحمر مع الأسود، وقد نقشن العلامات المميزة للقبيلة على جباههن، وحوالى ستة أقرط فضية تتدلى من أذانهن من تحت صفائر شعورهن. ضحكت إحداهن من يدى البيضاءين وهما بجانب بشرتها السوداء. قالت: "لديك صابون تغتسلين به، أما نحن فلا". كانت الأشكال البيضاء المتكئة فى السوق تطيل النظر إلى فضولاً وأنا أمر عليها، لكنها لم تحتج أو تتذمر. كانوا قد ألقوا الحجارة "على كلب مسيحى" من زوتينه Zuctina فى اليوم السابق، لكنى كنت ضيفة على سيد رضا وبالتالى كنت مُكرّمة. حيّانى واحد من الشيوخ المحترمين. كان ذلك الشيخ حاجًا وقال لى: "نحن كلنا نخضع لأوامر سيد رضا. بوسعك التقل بسلام بيننا حيثما شئت، لأن هذه هى رغبة سيد رضا". كان مصطفى يصغى بشغف لما يدور. قال: "هذا صحيح. السيد شخصية عظيمة. الناس كلهم يخشونه. وإلا فإنهم سيقتلون كل المسيحيين الذين فى هذا البلد."

وهنا بدأت أفهم المشكلة الكبيرة التى تواجهها إيطاليا، وبدأ يزيد إعجابى بطريقة تعامل إيطاليا مع هذه المشكلة العويصة. أوروبا ليس لديها فى الوقت الحالى رسالة توجهها إلى المتشددى فى ليبيا، لكن الشريط الخصب من برقة الذى لا يبعد سوى أميال قليلة عن البحر، سيكون له مستقبل باهر. لقد عملت العائلات الإيطالية الكثير من أجل بناء رفاه كل من مصر وتونس. المجال الواسع مفتوح أمام هؤلاء العائلات بدءًا من زوتينه إلى طبرق، التى قد تفيد صناعتهن ببلادهن فيهما. ليبيا، كانت فى يوم من الأيام مخزن غلال الإمبراطورية الرومانية، وسوف

(*) واحدة "بركان": ثوب طويل من القطن ترتديه النساء الليبيات. (المترجم)



WELL AT JEDARIA.

بئر في جداليا

يجرى احتلالها بواسطة خلف أولئك المقاتلين القدماء، الذين خلفوا وراءهم آثارهم في المنطقة من سيرين Cyrene إلى مسدا Misda البعيدة. هذه المستعمرة الناشئة لابد أن يكون لها مستقبل زراعي زاهر، كما أن الصداقة بين إيطاليا والسنوسي، التي جرى دعمها مؤخرًا في رجيما Regima، لابد وأن تؤدي إلى فتح طرق القوافل الصحراوية القديمة. يزداد على ذلك أن السلطان تعود الوثوق من وضع أعلى أعماله التجارية في حماية سيدي بن علي السنوسي وبخاصة عندما تكون هذه التجارة في طريقها إلى واداي. لماذا لا تتخذ هذه الترتيبات نفسها بين محافظ ليبيا والوريث الأمير السنوسي؟

كانت الشمس تغرب وأنا أغادر السوق، وميض برتقالي اللون شديد العمق، لا نراه مطلقًا في أوروبا. كانت السماء منصهرة في بودقة. أطلقت سراح الحصان وجلست القرفصاء على الرمل، كي أراقب ذلك الغروب العظيم. مر جمل أو اثنان كما لو كانا ظلالاً ضخمة مشوهة عبر الغرب المحترق. مرت بالقرب مني بعض الأشكال المنتثرة وهي تقول بصوت ناعم "بسم الله!" كنت أتحرق شوقًا إلى حصان، جمل، أو أي شيء يمكن أن ينقلني إلى الفراغات الواسعة الموجودة خلف إجدابيا. خفت حدة ذلك التوتر بعض الشيء في المساء، والسبب في ذلك أننا من خلال لعبة من لعبنا التي لعبناها في منزل الطبيب اكتشفنا أن خصومنا كانوا ينتون منعنا من مرافقة القافلة لسبب مفاده أن أحدًا من الإخوان لن يسافر مع القافلة. كان واضحًا أن هؤلاء الخصوم لم يشككوا بعد في مقصدنا النهائي، لكننا لم نكن متأكدين تمامًا أنهم أرسلوا برقية إلى بنغازي يطلبون فيها إرسال الشاحنات. سهرنا إلى ساعة متأخرة في تلك الليلة في الحوش الصامت مع النجوم من فوقنا، والجدران الحارسة، التي تعلمت أحبها، متناسية استرقاق السمع بكل أشكاله. تراجع الجواسيس كلهم بعد تناول العشاء الخفيف، وكان علي Ali ممنونًا بصورة مستمرة لقضاء الليل في خيمة العائلة. وهنا قررنا الالتزام بخطة بسيطة لكنها يائسة إلى حد



NOMAD ENCAMPMENTS ROUND JEDABIA.

مخيمات بدوية حول جوايبيا

أننا أحسنا أننا ينبغي أن يسمح لنا بيومين أو ثلاثة أيام آخر في إجدابيا بلا صراع علفى، ولم نكن والتقين من الإبل العشرين المطلوبة للقافلة. وعليه قررنا ترك متاعنا كله خلفنا، ونذهب لحال سبيلنا عند منتصف الليل، أن تيسر لنا ذلك مع الإخوان. وسوف يقول الناس فى صبيحة اليوم التالى إننا ذهبنا لزيارة بعض المخيمات المجاورة وقد نعود خلال يوم أو يومين. ومن باب تأكيدنا لهم أنهم سيرون كل ملابسنا معلقة على الشماعات المعتادة، قمنا ببعثرة حقائب ملابسنا كلها فى أنحاء الغرفة، وكومنا جوالات وصناديق المون فى أركان مختلفة، بما فى ذلك كرسى وطاولة المخيم اللذان كنت أستعملها فى الكتابة.

أنجزنا فى صباح اليوم السادس من شهر ديسمبر عملاً شاقاً. بعد تناول إفطار من التمر والبيض، جلست بعد ذلك مع القرآن (الكريم) ومع كراسات المذكرات خلف الأبواب المغلقة، وقلت إنى لا أريد أن يزعجنى أحد. وبعد أن عادت حاشيتنا إلى الخيمة البيضاء ناقوسية الشكل التى كانت تُستخدَم مطبخاً، بدأت العمل على صناديق المون والتموينات. أفرغت الصناديق من محتوياتها وملأتها بأحجار ثقيلة قمنا بجمعها من الفناء الداخلى والمتبقية من عمليات البناء. وضعنا على قمة الصناديق طبقات من القش وبعض العلب التى يمكن رؤيتها بعناية فائقة على إنيا فتحات أو فرج مرتبة. صنفنا أيضاً مون أسبوع إضافى زيادة على ما سبق أن أعدناه ووضعنا باقى المون فى جوالات كبيرة، على أمل إرسال هذه الجوالات عند منتصف الليل، عندما يكون الجواسيس نائمين، إلى مكان ما ليجرى تخزينها انتظاراً لوصول الإبل المتأخرة وبدء تحرك القافلة. وسيجرى تحميل هذه الجوالات بلا بهرجة أو إعلان مع سائر الأحمال الأخرى، وعندما ننضم إلى القافلة بعد أن تكون قد قطعت أياماً قلائل على الطريق إلى عجبيله Aujela، سوف يتحتم علينا استعادة أهم مؤننا. ومعنا الخيمة ولفتان من فرش المتاع، ومون تكفيها لمدة

أسبوعين، وحقيقياً ملابسى اللتان تحتويان أصلاً على أقلام، ودواء، وأجهزة، وشموع، وصابون، ألخ ومن ثم الاختفاء فى الليلة التالية ونحن نرتدى لباس البدو. ولا بد أن أعترف بأنى أحسست بازدياد ضربات قلبى عندما تيقنت أنى يتعين على ترك كل الألبسة الأوروبية ورائى اللهم باستثناء زوج من أحذية ركوب الخيل، وسروال ومعرق من الصوف. قال حسانين إن ما نفعله يعد درباً من دروب الوصول بالواقعية إلى أبعد الحدود. فهمت السبب، عندما أصررت فى حزم على أن نضع فى حقيبة ملابسى نصف الأجهزة، ومعها أبسط ضروريات الحياة، ولم يكن لحقيبة ملابس حسانين استيعاب سبع زجاجات من ماء عطر الكولونيا، ومجموعة من الألبسة المتجانسة التى تصلح لشارع بوند ولا تصلح للصحراء. وتحتّم على الإشراف على حزم الحقائق مخافة أن يتجاهل حسانين أقراص حليب المولت، والفوط، والملابس الصوفية الداخلية مفضلاً عليها القمصان المقلمة وثوب الخروج المصنوع من الحرير! كنت أتساءل حول ما إذا كنا سنرى مرة ثانية الملابس التى تركناها معلقة لتزين الجدران لكى تشير إلى حتمية عودتنا مرة ثانية، أو أن تلك الملابس سوف تحدث موضحة جديدة فى الأزياء فى إجابيا!

جاء الترتى عند تناول الغداء لكى يقوم بضبط ملابسى الغربية. اتضح أن سيد رضا كان يود إعطائى ما لا يقل عن أربعة أطقم من الثياب، لكنى أكدت له أنى بحاجة إلى ثوب واحد لكى أتصور به وأعرض الصور على أصدقائى فى إنجلترا. وصلنا إلى حل وسط يقضى بحصولى على طقمين بدلاً من أربعة؛ وصل من الطقمين فى تلك الليلة طقم واحد، وهو عبارة عن سروال غريب الشكل، ضيق جداً عند الساقين، ومصنوع من البفنة البيضاء المزينة بأوراق خضراء، والقطعة الثانية عبارة عن قميص واسع من القطن لونه أحمر غامق وفيه زخارف زرقاء. قيل لنا إن الإبل جاهزة لكن الإخوانى نادم على لحظة الحماس الذى تملكه. "هل سيكون مستعداً لبدء الرحلة غذا عند منتصف الليل؟" تمثلت كل الإجابة التى حصلنا

عليها في "إن شاء الله!" كانت خطتنا بسيطة، لكنها اعتمدت على الكتمان لمدة ليلتين، والسرية أمر مستحيل بين العرب!

يزاد على ذلك، أننا تظاهرنّا بعدم الاكتراث. قلنا: "المكتوب مكتوب!"، لكنى أمسكت بحسانين وهو يفتح المصحف قلقاً ليرى ما إذا كانت الآية، التي سيقع عليها بصره بطريقة عشوائية يمكن أن تكون فالاً حسناً. انشرح صدر حسانين عندما وقع بصره أول مرة على "تصر من الله وفتح قريب". أما فيما يتعلق بى شخصياً، فلم أكن متماسكة تماماً، لأنى عندما كنت أكرر الدعاء الطويل المعتاد في عصر ذلك اليوم، أدركت من الرعب الذى بدا على وجه رفيقى أنى كنت أعزو إلى الله تهنّيات، وصلوات و- طيبعات! (كنت أقول 'تاهبات' بدلاً من 'طيبات' Ta- hi- bat).

أخذنا سيد رضا فى جولة فى سيارته فى فترة العصر. لا توجد طرق أو حتى مدقات خارج إجدابيا، لكن الرمل جامد وناعم. ظن السيد رضا أن من الأفضل أن يكشف علانية عن وجوده معنا، وقد زادت شهرتنا بطبيعة الحال، بعد هذه الجولة. وعندما عدنا كان أهل المنزل قد ارتدوا جميعاً ملابس بيضاء نظيفة، وكانت هناك لحظة خوف عندما راحوا جميعاً يقبلون يد السنوسى فى شىء من التقدير والإجلال. لم يجرؤ على الاقتراب كثيراً من الرجل وهم يقومون بتقبيل يده، مخافة أن تلمس ملابسهم سيدهم الطاهر، لكن كان جميلاً حقاً أن أرى التعبد والوقار الذى تتطوى عليهما هذه العملية. هذا يعنى أن هؤلاء الناس كانوا بمثابة ممتلكات منقولة فى يد السيد رضا. لما كان السيد رضا وكيلاً لسيدى إدريس، فقد كان يمثل لهم، هم وآلاف آخرين من أمثالهم، ذلك المخلوق الصوفى الذى اختاره الله يحميهم ويرشدهم. فهو الذى يتحكم فى حياتهم. وهو قاضيه الأسمى فضلاً عن كونه أيضاً مرشدهم والمدافع عنهم. يصعب على أوروبى استيعاب فكرة السلطة التى لدى عائلة السنوسى، نظراً لعدم وجود مثيل لهذه الأسرة أو هذه السلطة فى أوروبا. هذه السلطة تعد انعكاساً للبابوية الروحية المؤقتة فى ذروتها.

من ذلك على سبيل المثال، أن سيدى إدريس قد يصدر أمرًا لواحد من أنبل الإخوان وأكبرهم سنًا، بالبداية في القيام برحلة إلى بحيرة تشاد، ونرى هذا الرجل يطيع ذلك الأمر بلا نقاش، أو استعداد أو حتى مفاجأة. كان يقول وهو يلف برنسه حوله ومستعدًا لمواجهة البيداء الخالية من الماء "نحن خُدّام السيد."

عندما قررنا الهرب من إجدابيا باعتبار ذلك هو الوسيلة الوحيدة لمغادرة هذه البلدة، طلبنا من سيد رضا أن يوفر لنا مرشدًا. أعطانا سيد رضا كلا من يوسف الحمزى ومحمد قميش، وقال لهما على مرأى ومسمع منا، أنه إذا ما حدث شيء لنا، سواء أكان ذلك أم لم يكن بطريق الخطأ من جانبهما، فإنهما سيقتلان على الفور، وقبل الرجلان هذا التصريح حقيقة مسلمة. ومع ذلك. وبينما كان سيد رضا جالسًا على كرسي المخيم الوحيد الذى معنا، فى غرفتي الكبيرة الخالية من الأثاث؛ يحتسى شيئًا من الشاي الحلو ويأكل آخر ما مع حسانين من فطائر^(*)، كان من الصعب تصديق الحقيقة التى مفادها أن مصير هذا البلد فى يدى هذا الرجل القدير. هذا السيد قادر على إعلان حرب مقدسة غداً على الكفرة، وهنا سوف يستجيب للإسلام بدءًا من واجنجا Wajanga إلى البحر المتوسط، لكن مضيفنا ظل يتكلم طوال فترة العصر ببساطة شبيهة ببساطة الأطفال. كنا نحاول التعبير له عن شكرنا وامتناننا لضيافته المدهشة، وللتصريح الذى أعطانا إياه بالسفر إلى مصر عن طريق الصحراء الكبرى، وقد اشتمل ذلك التصريح على عدد من الإبل، والمرشدين ومجموعة من الجنود المرافقين، علاوة على هدايا هائلة من الطعام والملابس الوطنية.

ونظرًا لأننا كنا قادمين من مستعمرة إيطالية. فقد كان ذلك يعنى اعتيادنا على الضيافة الكريمة، لكن كرم سيد رضا كان طاغيا. لقد ترحلت فى نصف بلاد

(*) حلوى بشكل البسكويت تصنع من دقيق اللوز وبياض البيض والسكر. (المترجم)

الدنيا؛ وحللت ضيفة على موظف روثيني، وعلى سائق من سائقي الإبل على الحدود، وحللت ضيفه أيضا على أمير في الهند، وعلى مسئول في جزر فيجي، ونزلت ضيفة أيضا على الشرطة الراكبة في الشمال الغربي، ونزلت أيضا ضيفة على كل الأعراق، لكنى لم أحظ عند كل هؤلاء بما حظيت به عند هذا الأمير العربى العظيم. وقر فى ذهنى أن أحذا لا يمكن أن يضاهى أو يتساوى مع هذا الأمير العظيم من حيث الحنان، لكن هنا فى إجابيا عثرت على نظير لهذا الأمير فى شريف من أشرف الإسلام الذين ينحدرون من سلالة النبى ﷺ.

طلبنا من السيد رضا إن كان يريد منا إرسال شىء من القاهرة، وكان فكرى سارحا فى حلية أو بندقية مزينة بالذهب. طلب السيد رضا منا ببغاء وبعض أسطوانات الجرامفون، وكانت تعلقو شفتيه ابتسامة مثل ابتسامة أخيه.

قال سيد رضا. "حياتى، كما ترين، هى حياة وحدة إلى حد ما". ليس من الحكمة الخروج كثيرا أو أن أعرض نفسى كثيرا على شعبى. أسرنا أسرة من الأولياء، ويتحتم علينا أن نحيا حياة عزلة. قد لا نشاهد الرقص أو نستمع إلى الغناء. لن يفهم شعبنا ذلك، لكنى عندما أكون وحدى فى بعض الأحيان فى ساعة متأخرة من الليل، أقوم بتشغيل الجرامفون، لأنى أحب الموسيقى جدا جدا. وهنا أضاءت وجهه الحانى ابتسامة عذبة، وراح يتذكر نغمة خيالية. قال: "أنا لا أحب الضوضاء الكثيرة. وأنا أفضل الألحان الناعمة الحزينة. وأنا أرى أن الموسيقى كلها يجب أن تكون حزينة."

وفى لحظة واحدة، بدا سيد رضا كما لو كان طفلا يفكر تفكيرًا حزينًا فى لعبة من اللعب، وعندما دخل علينا على منحنيا احترامًا على صينية الشاي التى كان يحملها، استعاد السيد رضا وقاره الصارم الذى يتمشى مع لباسه المهيب-جلابية مطرزة أرجوانية اللون، من تحت جبة من الحرير خضراء، ومعها كوفية عجيبة من اللونين القرمزى والأزرق، فيها خيوط من الذهب ولها شراشيب كبيرة من الذهب.

انتهى يوم انشغالنا بمشهد مضحك للغاية. بعد أن ذهب على هو وجواسيسه عن طيب خاطر للسمر أو الراحة التي ييغونها، قمنا بسحب الجوانات الست الثقيلة من المؤن، الواحد بعد الآخر إلى خارج غرفتي عبر الفناء لنضعها بعد ذلك في الفناء المظلم القريب من الباب الرئيسى. لم يكن القمر مضيئاً، وكان وزن الطعام المملب ثقيلًا جدًا. سرنا على رقعة من الحصى السائب وتصورنا أننا أحدثنا ضوضاء كثيرة. على كل حال، فإن الشكل الغريب للمسكن العربى يستبعد مسألة استراق السمع. قمنا بعد ذلك بجمع بعض الأحجار والرمل من الحفرة التى لم تكتمل فى المنزل، وملأنا بعض الجوانات بذلك الرمل وتلك الأحجار، ووضعنا تلك الجوانات مكان الجوانات الحقيقية. وعند الساعة الحادية عشرة مساء حدث لنا صدمة من الصدمات غير المتوقعة، التى تصيب ظير المرء بالبرودة وتجعل مشاعر اليأس تتسرب إلى ذهن الإنسان كأن هناك طرق مفاجئ على الباب. كان الوقت لا يزال مبكراً على قيام المتأمرين علينا بالبحث عن الأمتعة. تساءل حسانين ببرود، وكنت أحس الدهشة فى صوته "مين دا" (*) رد عليه صوت كبير الجواسيس "مبروك"؛ وتلا ذلك حديث طويل حول رغبته فى رؤية الملابس الوطنية التى وصلتنا بالفعل، حتى يمكن أن تكون نموذجاً للملابس الأخرى التى تخططها أخته الخياطة. واقع الأمر أن الطلب كان فى محله تماماً. كنا قد طلبنا من الوزير أمين انسر التعجيل بعمل ملابسنا وقام بهذه المهمة على أحسن وجه، قال: أن تلك كانت رغبة السيد، الأمر الذى جعل الخياطة التعيسة تعمل طول الليل، لكن هذا الأمر كان مثيراً للشكوك فى ضوء أذاننا الواعية. كنت سعيدة لأن حسانين لم يكن معه مسدس. أخبرنى حسانين فيما بعد أنه خطر على ناله قتل الرجل على الفور ودفنه

(*) تعبير عامى مصرى معناه "من انطارق؟". (المترجم)

بعد ذلك مباشرة! وبدلاً من ذلك غمغم حسانين قائلاً: "السّت" نامت، وتلا ذلك
بالكلمة السحرية التي تؤخر تقدم الإسلام "بُكرة!" (بمعنى غذا).
عند الساعة الواحدة صباحاً ارتدى حسانين لباساً وطنياً (جرذاً) أبيض غطاء
من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وكان ينتظر خارج الباب الرئيسي، وبعد ذلك
بدقائق قلئل حدثت خريشه ضعيفة على الخشب. وقبل أن يفتح حسانين الباب،
ظهرت سبعة أشكال سوداء، ملثمة حتى العينين، ولا يمكن التعرف عليها بأى حال
من الأحوال، دخلوا القناء. لم ينطقوا بكلمة واحدة. وحملوا جالات المون بخفه
ومهارة، واختفوا في الظلام دون أن ينطقوا بكلمة واحدة. واقع الأمر أن هؤلاء
الأشخاص كانوا يتلذذون بغموض وسرية هذا الأمر، لكننا كنا نتعجب من سرعة
وصول الشائعة إلى منطقة السوق!

الفصل الثالث

الهروب من إجدابيا

طلع علينا فجر اليوم السابع من شهر ديسمبر وكان صحوا تماما. استيقظنا من فراش المخيم ونحن نحس بالفرح لمضى ست وثلاثين ساعة علينا دون أن ننام خلالها. حفل صباحنا بزيارة صديقين أو ثلاثة لنا من أصدقائنا في المخيمات المجاورة. جاءنا الشيخ الحاج محمود ليقول لنا إننا زوار مُرحَّب بهم في أى مخيم من مخيمات البدو. شرب الحاج محمود ثلاثة أكواب من الشاي الحلو على ثلاثة بلعات، وطلب سيجارة بطريقة هامسة غريبة، وسارع إلى وضع علبة السجائر في جيبه، وطلب منى أن أقرأ عليه بعض سور القرآن. فعلت ذلك على أفضل نحو ممكن وحدث عنده انطباع طيب إلى حد بعيد. كنا قد انتوينا النوم في فترة العصر، لكن السيد المتيقن قد أصدر أوامر لعبيده للقيام برقصه من باب تشريفنا، وعليه وعند الساعة الثالثة عصرًا سمعنا قرع الطبول وجاء على يستدعينا وهو منفعل انفعالا شديدا. جلسنا على كرسيين أمام بابنا، وأخذ كل سكان إجدابيا من الذكور يتجمعون حولنا، صفا وراء صف من الشخصيات المنتحبة باللون الأبيض وجالسة على الرمل. كان العبيد السودانيون السود من وادى يرقصون على شكل دائرة غير منتظمة، حول طبلتين من الجلد، وقد جرى شراء هؤلاء العبيد من السوق في الكفاره، وكانت هناك أيضا هدايا من الحكام المحليين المطلقى السلطة لعائلة السنوسى، أو أطفال العبيد المرسلين من قبل على دينار، سلطان دارفور، العبودية فى الشرق مؤسسة كلها عطف وحنان، وهى على العكس تماما من كابينه العم توم". السود، فى الشرق، تجرى معاملتهم على أنهم جزء من الأسرة. والسود يتفخرون بسادتهم ويخلصون لهم. السود أمناء ومحط للثقة. وعليه جاءنا على ذات مساء وهو حزين حزنا شديدا. قال على: "هذا المصطفى رجل سيئ. هو يذهب إلى



SAYED RIDA ES SENOSSI.

سید رضا السنوسی

منزل الطبيب ويقول: إنه لا يجد كفايته من الطعام هنا. وهذا الكلام ليس صحيحًا. السيد كريم. كل شيء موجود هنا. وليس من صالح السيد أو سمعته أن يُقال مثل هذا الكلام."

تمتع السود بالرقصة أكثر منا، فقد تناهى إلى مسامعنا أنه ربما يكون هناك نوع من التعليق للترتيبات من جانب حلفائنا بسبب الحماس الكبير. وصلت أخيرًا، الإبل المطلوبة للقافلة، والتي طال انتظارها. وجاء الجنود أيضًا من زوتينه Zuctina. آثرنا جميعًا أن تبدأ القافلة تحركها عند منتصف الليل، طبقًا لما قاله أمين سرنا وهو يتباهى بالانتصار. كل من يعرف الشرق يدرك تمامًا مدى صعوبة إفلات اثنين أو ثلاثة من البشر سرًا. هذا يعني أن شأن كل إنسان معروف من الألف إلى الياء. ويجرى مناقشة المشروعات فى الأسواق وهي لا تزال مجرد أفكار فى أذهان المتأمرين. يزداد على ذلك أن فكرة قيام قافلة فى السر من إجابيا مكونة من عشرين جملاً، واثنى عشر جنديًا، ومعها أمتعة وخيام، وموئن ومرشدون.. ألخ هي بحد ذاتها فكرة سخيفة وتدعو إلى الاستهزاء. كانت هناك شائعة بالفعل فى الأسواق مفادها أننا ذاهبون إلى الكفرة، وقد نتجت تلك الشائعة عن إشارة غير موفقة إلى أننا سنرافق القافلة مدة يوم أو يومين! وعليه، وبينما كنا نطيل النظر إلى دائرة السود الذين يصيحون، ويلقون أنفسهم فى أوضاع فيها قدر كبير جدًا من المبالغة، وينشدون أغانيهم الرتيبة وهم يضربون عصيًا قصيرة بعضها ببعض، كنا قد أرسلنا على وجه السرعة ما يؤدى إلى تغيير الأمور. وصلنا خبر مفاده أن ضابط الخيالة بهي الطلعة قد جاء من زوتينه، قبل يومين من الموعد المحدد لوصوله.

قلت لحسانين بطريقة حاسمة "أرى أن أذهب لتناول الشاي فى منزل الطبيب. سأتبقى معهم حوالى ساعتين، وسوف يتيح ذلك لك فرصة تأجيل قيام القافلة."

كان الجواسيس ملازمين لنا فى ذلك اليوم. انحنى مبروك على كتفى وأنا أتكلم، وهو يشير إلى مبتسماً ابتسامة مصطنعة إلى أكثر الراقصين شراسة. ومع ذلك، كنت مصممة على إفساد جهده الصغير، وأصررت على حتمية أن يرافقتى مبروك ومصطفى أثناء ذهابى إلى منزل الطبيب. قلت: "أنا لا أود التحرك وحدى بين كل هؤلاء البشر." وهنا تعين عليهما اصطحابى وهما مترددان.

سئظل فى ذاكرتى لعبة الأغراض المتضاربة التى لعبناها أنا وحسانين، والسبب فى ذلك، أنى وأنا أتحسب للوقت، كنت أستفيد فى كل ما أفعل من كل ذرة من ذرات الذكاء. سمحت لنفسى بالافتتاح بالعودة بسيارة النقل إلى بنغازى فى الأسبوع التالى. تساءلت عن سبب عدم وجود أحد من الإخوان لمرافقتى فى هذه الرحلة الصغيرة التى ستقوم بها القافلة. أكدوا لى أن أحداً من الإخوان لا يود السفر مع مسيحية، إضافة إلى أن أحداً من أصحاب العقيدة لا يود أو بالأحرى لا يستطيع تجاوز إجابيا. انتهزت هذه الفرصة وأكدت على هذه النقطة فى شىء من الإلحاح، لأن ذلك سوف يودى فى النهاية إلى استبعاد فكرة ملاحظتهم لنا. حاولت الكشف أمام الجميع عن خيبة أملى وإحباطى، وأخيراً حاولوا تهدئتى وروّحوا عنى بوعد بزيارة كل المخيمات التى على الطريق عند العودة. افترقنا عن أفضل الأصدقاء وسوف أحتفظ دوماً بذكريات طيبة عن عطف وحنان واهتمام هؤلاء الأصدقاء. كنت أشتاق فى كثير من الأحيان إلى أن أسيرُ لهؤلاء الأصدقاء بكل خطى. كنت متأكدة من تعاطفهم معى، لكن كرم هؤلاء الأصدقاء ربما يكون هو الذى حال بينهم وبين السماح لضيفتهم السابقة بالمخاطرة بحياتها فى رحلة برية وخطرة من هذا القبيل.

كنت قد تحدثت قبل ذلك بستة أشهر مع أمير عربى عن مشروعى. وتعجب ذلك الأمير قائلاً لوكلانه "هى مجنونة" (*)! إذا ما استطاعت الوصول إلى الكفرة، فسوف تستطيع الوصول إلى أى مكان فى الأرض أو السماء! وعليه تعين علينا منذ

(*) تعبير عربى ورد كما هو: Heya magnuna. (المترجم)

البداية أن نخفي هدفنا الحقيقي عن أصدقائنا الإيطاليين الكرماء. ولو لم يفكروا في أن حسانين في أضعف الأحوال، كان له هدف سياسي، من مجبئه إلى إجدابيا، فلربما زاد الندم من متاعبنا الذهنية، لكن من يمن الطالع أن حقيقة مراقبتهم لنا بصورة واضحة حولت الأمر إلى لعبة وبررت لنا الاحتفاظ لأنفسنا ببعض الأسرار.

إذا ما قرأ مُضيفي الكرماء في برقة هذا الكتاب، فأنا أعتقد أنهم سيسامحوني على الدور الذي اضطرني حنانهم وأفكارهم المسبقة، على لعبه على غير رغبة مني. هم جميعًا لديهم روح رياضية. وهم أيضًا رحالة ومحبون للصحراء الكبرى. وهم الذين وضعوا حجر الأساس لرحلتي بفضل الأعوام الطويلة التي أمضوها في العمل في شمال إفريقية. وسيجنون الثمار عندما يجرى توطيد الصداقة بين أوروبا والسنوسى، وعندما يرحب البدو بتدفق التجارة والاستكشاف فيما وراء البحار.

عدت عند الساعة السابعة مساءً إلى منزلنا العربى المسوّر، لكن الوهم والخيال كانا لا يزالان مستمرين في ذهني. كانت الهدية التي تمثلت في آخر علبة من علب السجائر التي معنا قد حثت المؤدين على المزيد من التّهيج وكانوا على استعداد لتمضية الليل كله في الرقص والغناء الماجن. من الطبيعى، أن أراقب وأشاهد تلك الحيوية البربرية، بل إنى كنت ممنونة تمامًا للسيد رضا ذلك الرجل دائم التأمل، الذى أقام هذا الحفل على شرفي، لكن كانت لا تزال أماننا استعدادات كثيرة يتعين القيام بها، وبناء على ذلك شكرنا المؤدين ونحن آسفون، وطلبنا منهم العودة إلى منازلهم. خرج حسانين بعد الوجبة السريعة التى تناولناها، لعمل الترتيبات النهائية الخاصة بتغيير أوراق النقد الإيطالية إلى مجيديات فضية، تلك العملة المعدنية الثقيلة المتعبة فى هذا البلد، واشترينا خبزًا وبيضًا، وجمعنا الملابس الوطنية وبعض الأشياء الأخرى التى يتعين عملها فى اللحظة الأخيرة مخافة إثارة الشكوك. أرسلت ملاحظة لمترجمنا الإيطالي، الذى أثبت وجوده كمرشد أيضًا، وفيلسوف وصديق، ووضحت فى هذه الملاحظة أنى لا يمكن أن أحرم تمامًا من

رحلتى الصحراوية أولاً وقبل كل شيء، لأننى استطعت فى اللحظات الأخيرة مرافقة واحد من الإخوان، كان مسافراً إلى أحد المخيمات التى تبعد مسيرة يوم أو يومين. قمت بعد ذلك بإعداد شىء من الشاى الأخضر فى غلاية غير مناسبة وملأت ترؤسينا بالشاى، كما ملأت زجاجات الماء أيضاً.

كانت الساعة قد اقتربت من التاسعة مساءً، وهو الموعد الذى حدده حسانين لعودته، لكن الدقائق مرت رتيبة ولم يعد الرجل. بدأ القلق يساورنى عند الساعة العاشرة. لم أقو على الانتظار أكثر من ذلك، ورحت أقطع الغرفة الكبيرة جيئة وذهاباً، على ضوء شمعة موضوعة على حافة النافذة. جاعنى علىّ ليسألنى، عما إذا كان بوسعه هو والخادم، الذى كان هو أيضاً جاسوساً، أن يعودا إلى منزليهما. قلت له: إنه ينبغي أن ينتظر لحين عودة حسانين بك، وسبب ذلك أنى لم أرد لذلك الولد أن ينتهز الفرصة ويروح يتحرى ذلك الذى يقوم به رفيقى، لكن مع مرور كل ساعة، كانت مسألة هربنا تزداد صعوبة، والسبب فى ذلك أننا لم نبدأ فى حزم أمتعتنا، إلا بعد أن خلا المنزل من البشر. وعند الساعة الحادية عشرة كدت أصاب بالجنون. لا أعتقد أنى مررت بساعتين أسوأ من هاتين الساعتين. كنت أتساءل عما إذا كان الجواسيس قد اكتشفوا مؤامرتنا، وأنهم قرروا إحباط هذه المؤامرة بأى ثمن، بأن اتخذوا الترتيبات اللازمة لإفقاد حليفى وعيه وهو يعبر منطقة الحجر الرملى الأبيض الموجودة بين منزلنا وبين البنايات المبعثرة فى إجدابيا.

عند الساعة الحادية عشرة والنصف، وبينما كنت أستعد للقيام بالبحث عن حسانين، وبينما كنت ألفت نفسى بالتوب الوطنى (جيرد) حتى لا يرانى أحد فى الظلام، وصل حسانين، وهو يترنح من ثقل حمل المجدييات المعدنية، نظراً لأن المبلغ المعقول من هذه المجدييات يكون وزنه ثقيلًا. أنزل البيض والخبز، والملابس على شكل كومة وأوضح لى أن المغطلين العرب هم الذين أخروه. لم



THE AUTHOR IN BEDUIN DRESS.

المؤلفة وهي مرتديه لباساً بدوياً

تكن الخطابات الموجهة لشيوخ الزوايا^(*) جاهزة بعد، ولم يكن البيض مسلوفاً، ولم تكن الملابس مشطبه تشطيبيًا جيدًا. يزداد على ذلك، أننا لم نضع وقتًا كثيرًا في الكلام. أعدنا الخدم إلى منازلهم وأعطيناهم تعليمات دقيقة عن عمل الغد. الجاسوس العربي ماهر في بعض النواحي، لكنه لم ينظر إلى الأمام قط. ولذلك يمكن وإلى حد ما تهدئه شكوكه.

في اللحظة التي أغلقنا فيها الباب خلفهم ألقينا بأنفسنا على الأمتعة. نصارعنا في البداية مع الأسرة وأكياس البراغيث، التي رحنا ندسها في جوانات قديمة كي تبدو صررًا وطنية. وكان لابد من إخفاء الخيام بالطريقة نفسها - فقد لفنا أعمدتها في سجادة صلاة حمراء اللون وأخفينا قماش الخيمة في لفافات وطنية محلية. لم نكشف عن أي دليل أو أثر لأي شيء من الأمتعة الأوروبية. كانت حقيبة ملابسى قد جرى حزمها بالفعل ولم يكن الأمر يستغرق سوى دقيقة واحدة لوضع هذه الحقيبة داخل جوال مقلّم من جوانات الدقيق، لكن قلبي انخلع عندما رأيت غرفة حسانين. كانت الغرفة لا تزال عامرة بأشياء أسماها حسانين الضروريات. حزمنا ونقلنا وكوّمنا الأمتعة، الأمر الذي جعلنا نحس بالحرارة ونشعر بالتعب، لكننا، بعد أن تمكنا، بفضل هذا الجهد غير العادى، من حزم لفة كبيرة، تذكر حسانين - بعد دقيقة واحدة، أنه نسى وضع شيء مهم بداخلها، وأنه لابد من فك الصرّة مرة أخرى. وعندما وجدنا أنه لم يعد يتبقى لنا من الوقت سوى نصف ساعة على رحيلنا، أحسست باليأس وتوليت أنا الأمور كلها. حزمت الطعام كله فى جربنديه^(**) واحدة. وقسمت الضروريات على جربنديتين أخريين. وأغلقت حقيبة ملابسه بإحكام على معظم الأشياء المفيدة، التى استطعت جمعها من بين الركّام.

(*) الزوايا: المقصود بها هنا الجماعات القائمة على أمر الدين والعقيدة. (المترجم)

(**) الجربنديه: حقيبة من القماش تحمل على الظهر. (المترجم)

راقبته بدقة أيضاً وهو يضع القماش المبطن المانع للماء، والسجاد والثياب الوطنية داخل الفراش. أحكمت شد الأحزمة قبل أن أسارع إلى ارتداء ملابسى.

أمل ألا يستهين أحد مسألة ارتداء الزى الأثنوى البدوى لأول مرة. كان السروال الأبيض الضيق يشكل بعض المصاعب عند الركوب. يزداد على ذلك أن الثوب الأحمر النسائى (تُبّه Tobh)^(*) كان ضيقاً عند منطقة العنق. كان البركان بحاجة أيضاً إلى الضبط. طرف من أطراف البركان يكون حراً فوق الرأس، المعصوب بالفعل بمنديل أسود لكى يغطى الشعر كله، فى حين يجرى لف الطرف الآخر من البركان لفتين على شكل تنورة، ليصل بعد ذلك إلى الكتف الأيسر مشكلاً بذلك الجزء الأمامى من الصدرية. يجرى تثبيت كل هذه الأشياء فى مكانها بواسطة "حزام" سميك من الصوف أحمر اللون، ولا يقل طوله عن اثنى عشر قدماً، يجرى لفه مرة بعد أخرى إلى أن يصبح وسط المرأة شبيهاً بالمومياء ويجرى ربطه من جانب واحد إلى الأطراف المتدلية. كنت أرتدى حزام مسدسى تحت كل هذه الملابس، ومعه مسدسان أمريكيان خاصان معمران بالطلقات، فضلاً عن بوصله منشورية داخل علبة.

عندما ألقيت نظرة على غرفتى وأنا أرتدى ذلك الشبشب الأصفر الذى ليس له كعب، قر فى ذهنى أن الغرفة كانت تبدو تمامًا كما لو كانت صورة طبق الأصل من مسكن جرى التخلي عنه على عجل بصورة مؤقتة. هذا هو تويدى (ردائى) الحبيب معلق على مشجب من المشاجب، وهذا هو مُعَرِّق وردى اللون معلق على مشجب آخر. وهذه بعض الكتب، والأوراق، ومعها زجاجة من زجاجات الماء الساخن، وبعض الجوارب، مبعثرة على بعض الكراسى. وهذه هى حقائب وجالات الأحجار مركونة على الجدران. وهذه هى قارورة من قوارير

(*) تُبّه: بضم الداء: الثوب النسائى البدوى عند الليبيين. (المترجم)

سائل البشرة موضوعة بشكل واضح على رف من الأرفف، وهذه هى أحذيتى الأوروبية موضوعة فى مكانها المعتاد. تنفست الصعداء وسحبت الجوال الذى يحتوى على حقيبة ملابسى لكى أضمه إلى أشياء المخيم المموهة والموضوعة عند الباب الرئيسى، وأطفأت الشمعة التى فى غرفتى، وأغلقت باب الغرفة لآخر مرة.

تبدد سرورى بسرعة عندما عبرت الفناء إلى غرفة حسانين. كانت المهملات فى الغرفة أمراً لا يمكن تصوّره. فقد أنفتح من جديد كل شيء سبق أن أغلقناه قبل عشرين دقيقة. وكان حسانين نفسه بشعره الأشعث، لا يزال يرتدى قميصاً وسروال ركوب الخيل. كان حسانين يبدو للملاحظ العابر وكأنه يلعب لعبه الضفدعة القافزة مع مختلف الحزم واللفائف التى أمامه، وكان الهدف من ذلك كله قلب أكبر عدد ممكن من الأشياء. قلت له بصوت مخيف "أمامك ست دقائق ينبغى أن تكون بعدها على أهبة الاستعداد". سقط أحد الكراسى محدثاً صوتاً مما أدى إلى كسر زجاجة من زجاجات العطر، فضلاً عن الإطاحة بمجموعة من الأنايب الصغيرة، والزجاجات والصناديق التى راحت تتدحرج عند قدمي. تلت ذلك عشر دقائق من التزامم والاندفاع على الطريقة الأمريكية. وعلى الرغم من إحساسى وكأنى طفلة صينية مَقْمَطة فى الثياب التى أرّديها، فقد رحلت أهاجم الغرفة بغیظ شخصى كان له تأثيره على الجماد من حولى، ذلك أن حقيبة الملابس انغلقت بلا احتجاج على تلك الكتلة الكبيرة من أكياس المجدييات التى كانت بارزة داخل الحقيبة وكأنها قمة إفرست Everest. لا أعرف ذلك الذى قلته على وجه التحديد. تخيلت فى تلك اللحظة أن الأمر لا يسمح بالعفو أو الصفح بأى حال من الأحوال، لكن حسانين أحسن الناس مزاجاً فى هذه الدنيا. فقد رأيت الرجل يستسلم للدفع والسحب لكى يرتدى الملابس البيضاء التى يتعين عليه ارتداؤها فوق ملابسهِ الأوروبية، التى هى عبارة عن سروال أبيض واسع، وقميص أنسيابى طويل، ولباس وطنى (جيرد) Jerd من الصوف. أعتقد أنى ألقيت بكوفيه بيضاء على رأسه، وقذفت له العقال قبل أن أندفع خارجة من الغرفة لأحتل مكانى خلف الباب

الرئيسى وفى يدى فانوس صغير معتم الضوء كشف لى عن أكوام الجوالات المكتنزة. بعد ذلك بدقائق قليلة، وعندما جاءتتى شخصية بيضاء وقورة، ترتدى ثيابا إنسابية اللهم باستثناء أحزمة المسدس المتعامدة، ابن حقيقى لشيخ من شيوخ الأزهر الشريف، لم أستطع التعرف على ذلك العربى على أنه الفرد البرأوى الذى كان يتلاعب بالأشياء قبل دقائق قليلة.

صحيح أن شركاءنا فى المؤامرة تأخروا! فقد انتظرنا مدة ساعة تقريبا قابعين على الجوالات، فى الوقت الذى أنكسر فيه صمت الليل بواسطة نهيق حمار بالقرب من السوق. عند الساعة الواحدة وخمس وأربعين دقيقة بعد منتصف الليل سمعنا صوت زمجرة خفيفة صادرة عن الإبل، وهنا تسارعت ضربات قلوبنا. بعد ذلك بحوالى عشر دقائق سمعنا صوت أقدام تقترب منا خلسة. تلت ذلك خربشه بسيطة على الباب، وجرى تكرار عملية الليلة السابقة، ولم يكن أمامنا فى هذه المرة سوى ربع ساعة فقط خرج الحمالون بعدها وهم يحملون الجوالات الأولى، قبل أن يتمكنوا من العودة لحمل الجوالات الأخيرة. إتكا أمين سرنا على الباب، فى هدوء وبلا حراك، وهو ينظر إلى السماء التى تضيئها النجوم. غغم الرجل قائلا "باهى!"، عندما ظهرت الأشكال الغامضة من جديد، وكانت تلك الكلمة الوحيدة التى قالها الرجل على امتداد الوقت كله. وضعت حقيبة الظهر على كتفى، وحملت زجاجة الماء، والترموس، وآلة التصوير، وخرجت من الممر المظلم إلى الليل الخالى من القمر. التفتنى ربح قوية باردة، وتعجبت وأنا أرتعد، من الأسباب التى لا تجعل المرأة البدوية تتجمد حتى الموت. لم يحدث أن رأيت النساء مطلقا وهن يرتدين أكثر من مجرد البركان (الثوب الوطنى) المصنوع من القطن. وحتى عندما كنت أعرج عبر الرمال البيضاء الواسعة، نظرا لأن الإبل كانت مخبأة على بعد مسافة ثلاثمائة ياردة، بالقرب من الجبانة التى تحيط بقبر سيدى حسن المهجور، أحسست بأنى بحاجة إلى معطف خارجى أكثر من إحساسى برغبتي فى الذهاب إلى الكفرة!

على الرغم من ذلك كله، كانت الحرية والإثارة هما اللتين أطربتانا. تلت ذلك لحظة صمت من جانب مرشدنا الحائر عندما كان الظلام الدامس من حولنا يحول بيننا وبين تحديد اتجاهنا. تلت ذلك ضوضاء فهمنا منها أن جملاً كان على يسارنا وأن الصوت الناعم الصادر عنه يوحي بأنه ربما كان هناك أحد جالساً على رأس هذا الجمل. بعد ذلك بلحظة ظهرت كتلة معتمة بجوار جدار مهدوم. وأنا أشكر الله لأنى ارتكنت على كومة من الأحجار. ليس هناك طائل من وراء مناقشة الجمال فى حمولة جملة. وإذا ما حاولت استعجاله فإن ذلك لن يكون سوى مضيعة للوقت. الجمال معتاد على وزن الأحمال وزناً دقيقاً، ومعتاد أيضاً على ترتيب هذه الأوزان ببطء على النحو الذى يرتضيه هو. لهذا، كنت مستعدة للانتظار مدة ساعة كاملة فى الوقت الذى راح فيه أفراد الحاشية المرافقة لنا، يقطعون الحبال، ويجهزون "الأطراف" والأركان المطلوبة للجالات التى بداخلها الحجارة، ويتناقشون فى الأحمال، وضاعت منهم الإبل، وأمسكوا بها مرة ثانية، ولم يكونوا أكفاء بالقدر المطلوب. اندهشت بحق، عندما جرى خلال عشرين دقيقة، حزم كل شىء بلا جلبة أو ضوضاء، وأصبحت الإبل جاهزة للسير: جرى تقديم كل من يوسف الحميرى ومحمد قميش، خادمينا الأمينين، لى فى الظلام وتبادلنا بعض الجمل المفردة فى التتميق التى كونت الكلمتان "مبسوط" و "ممنون" القسم الأكبر منها.

ركبت جملى بعد ذلك، وهو جمل ضخم أشقر، ليس عليه سرج مناسب. كان هناك وتد بارز من الأمام ومن الخلف، وكان سنام الجمل ظاهراً بصورة مؤلمة فيما بين القش الملفوف الخاص بقماش لف الأمتعة. كانت هناك حصيرتان وطنيتان مطويتين، جثمت عليهما وأنا أرتدى ملابسى الممقطة وغير المريحة، التى جعلت عملية الركوب أمراً صعباً وخطراً. وعلى الرغم من ذلك كله، عندما وقف حيوانى الضخم منتصب القامة، وراح يمشى فى جوف الليل، انتابتنى موجه من البهجة. كان قد مضى على ثلاثة أشهر لم أركب خلالها جملاً، وما أنذا الآن على ظهر

"هجين" من هجن السودان جميئة الخطى. كانت تلك مجرد أمتعة صغيرة، لكن تيجين كان مناسباً للصحراء، ولليل ومشروعنا البرى المستحيل. كنت سعيدة. يضاف إلى ذلك أن البداية كانت رائعة. وهذا هو السير رتشارد بيرتون يكتب كلاماً حكيمًا مفاده أن الرحالة الأفريقى يجب أن يكون مستعداً دوماً لثلاثة بدايات- البداية الطويلة، البداية القصيرة، ثم البداية الحقيقية أو الواقعية. أدركنا فيما بعد مدى صدق كلام بيرتون؛ لكننا الآن، وبعد أن دلف طابور إيلنا الصغير مبتعداً عن القبر (المقام) الأبيض، أحسنا أننا قد هربنا بالفعل.

تعجبت كم هو مدهش أن يستطيع هؤلاء البشر شق طريقهم فى ظلام دامس من هذا القبيل! وعندما ظهر كوكب الجبار (الجوزاء) فى أربعة اتجاهات مختلفة، عندئذ فقط بدأت أتساءل عما إذا كانوا يستطيعون شق طريقهم بحق! كنا قد بدأنا تحركنا قبل الساعة اثنتالئة بقليل، ويممنا مسيرنا صوب الشمال، الأمر الذى أدهشنى تماماً، نظراً لأننا نعرف أن عجيله Aujez تقع فى الجنوب. هذان أنفسنا بالفكرة التى مفادها أن مرشدنا كانوا يتحاشون عن قصد المدق الرئيسى، وتحملنا أيضاً فى صبر الريح الباردة برودة الثلج والتغيير المستمر للاتجاه. وبعد ساعة من المسير، وعندما درنا دورة كاملة قررنا أن من الضرورى التدخل فيما يجرى. هذا هو يوسف، الذى رفض عندما أريته البوصلة المضيفة، تصديق أن الشمال هو ذلك الاتجاه الذى يشير إليه عقرب البوصلة. أبرزنا أيضاً الحركة غير العادية للنجوم، لكنه ظل على عدم قناعته. وينظر يوسف نظره إشفاق إلى السماء ويسأل مصرّاً على "الجدى" Jedi ذلك النجم الذى اهتدى به فى كثير من تجواله فى نصف إفريقيا. ومن سوء الطالع أننا لم نستطع العثور على "الجدى" على الرغم من توضيحنا للقسم الأكبر من المجرات بدءاً من الدُّب الأكبر إلى طريق اللبّانة.

واصلنا مسيرنا العشوائى مدة ساعة أخرى. ونظراً لأننا كنا نصف دوائر غير منتظمة فإننا لم ندهش عندما طالعنا قبل الساعة الخامسة بقليل نباح الكلاب



UNLOADING ON THE SECOND DAY FROM JEDABIA.
(Hassanein Bey with wrist watch.)

حسانين بك أبو ساعة يد

ليعلن اقترابنا من جدابيا. قال يوسف: "هذا مخيم من المخيمات. وأنا أعرف أين نحن الآن!" وفي هذه اللحظة نهق الحمار الموجود في السوق وكأنه على مقربة منا! لم أتمالك نفسي عن الضحك. وفي خلال دقائق قليلة، سيؤدي بنا هروبنا اليائس الذي قمنا به عند منتصف الليل، إلى أبواب المنزل الذي نجحنا في الهروب منه قبل ثلاث ساعات. وهنا قرر يوسف المحزون، بعد أن فشل في الاهتداء إلى نجمة، التّخيم في هذا المكان وننتظر طلوع الفجر، لكن تحسبي من أن تكشف الشمس عند طلوعها عن مجموعة شعّاء، هو الذي جعلني أتولى عملية القيادة بطريقة حاسمة. سيرت الجماعة عن طريق اليوصلة في اتجاه الجنوب من نهيق الحمار لمدة حوالى نصف ساعة. وذلك من باب الابتعاد عن الأنظار عند طلوع الفجر، في أضعف الأحوال، ثم نمشى بعد ذلك في الطريق الصحيح.

كانت الرياح أبرد مما كانت عليه من قبل عندما قمنا "بتبريك" إيلنا على الأرض الجرداء الرملية المنبسطة. كنا متجمدين وبلا مأوى. وقد تضافرت الإثارة، هي والقلق مع المجهود البدنى على إرهاقنا. تورمت قدمي والتهبت بعد هذا المجهود غير العادى. أصيب حسانين بروماتيزم في ظهره. كان علينا الانتظار مدة ساعة واحدة لحين طلوع الفجر. وأنا أشك في وجود ثنائي أتعس من ذلك الثنائي الذى لف نفسه فى عرّاقات الجمل الرقيقة الوسخة ورقدا على الرمل القاسى ووضعاً رأسيهما على بعض الحشائش المدببة. لم أنم. فقد كان الجو شديد البرودة. بحثت الرياح عن كل ركن من أركان جسمى الذى كان يؤلمنى. بدأت أحس التوتر الناجم عن الليالى التى لم نذق فيها طعم النوم، وأيام الحيرة والقلق. يزداد على ذلك أن إحساسى الفكاهى ذهب عني. كانت خمسة أسابيع قد مضت على مغادرتى إنجلترا، لم نتحرك خلالها إلى أبعد من تلك الكومة الرملية الموجودة خارج إجدابيا! عند الساعة السادسة ظهر فى السماء ضوء أرجوانى باهت، وفى اتجاه أذهل يوسف. استيقظنا، ونحن نرتعد ونصطك أسناننا على فجر عامر بالريح! كان محمد

يغمغم قائلاً "الله أكبر" مستقبلاً القبلة في اتجاه مكة. حذونا حذوه وتيممنا بالرمل، لعدم وجود الماء. من حسن الحظ، أن الأمر لا يتطلب سوى قراءة "الفاتحة"، وأداء "الركعات" المحددة. السجود يؤذى قدمي ويؤلمني، وأصبح صعباً على وضع قدمي في الحذاء الأصفر الضخم مرة ثانية.

حدد الرجال هدفاً لأنفسهم. وفي غضون خمس دقائق بعد "السلام عليكم ورحمة الله"، التي قيلت لتحية الملائكة الذين يقفون على الجانبين لكي يسجلوا حسنات الإنسان وسيناته، تم تحميل الإبل وكنا نبعد فعلاً عن قبة سيدى حسّان البيضاء، وعن المباني الطينية المبعثرة التي بدت لنا عن كثب. لم يكن هناك متسع من الوقت لتناول الطعام. حاولت دس بيضة مسلوقة في حلقى أثناء المسير، لكنني لم أتمكن من ذلك. تزايدت آلام حسانين الروماتيزمية في حين حاولت أنا بكل الوسائل الممكنة التخفيف من آلام قدمي. كانت يداي تشعران بالخدر وأنا أمسك بالبركان (الثوب الوطني) صارخ اللون (الأحمر، والأزرق، والبرتقالي) الملفوف حولي، ودعوت أن تشملني الشمس بدفئتها.

كنا ننظر إلى الخلف، كل بضع دقائق، لنرى ما إذا كانت إجدابيا قد اختفت، لكن لا بد أن إجدابيا تقع على ارتفاع قليل نظراً لأن مقام سيدى حسّان ظل واضحاً ومرئياً على امتداد ثلاث ساعات. معروف أن المساحة تكون مضللة في الصحراء. الأشياء كلها تبدو أقرب مما هي عليه في الواقع. يستطيع المرء في الصباح الباكر رؤية نخيل واحدة من الواحات، ويخطط للوصول إليها قبل الظهر، ويكون محظوظاً إذا وصلها عند الغروب. على كل حال، لقد اختفت عند الساعة العاشرة والنصف كل العلامات الدالة على الحياة البشرية، ولم نعد نرى من حولنا سوى سهل رملي منبسّط، تتخلله الأعشاب القصيرة رمادية اللون، التي يتراوح ارتفاعها بين بضعة بوصات وقدم واحد. توقفتا ونحن نعرب عن حمدنا وشكرنا، وأطلقنا الإبل ترعى، وفرشنا السجاد قرمزي اللون المنسوج، واستعدينا لتناول الطعام.

تهددنا المزيد من المتاعب عندما اكتشفنا أن حاشيتنا المكونة من يوسف، ومحمد، واثنين من الجنود السودانيين السود سواد الفحم، لم يحضروا معهم أية مؤن من أى نوع كان. كانوا على ثقة من أننا سنقوم بهذا الدور، أو أننا سوف ننضم إلى القافلة المتجهة إلى الجنوب خلال ساعات قلانل. تملكنا شعور بالامتعاض. ومن باب التخفف في السفر كنا قد أحضرنا معنا أقل كمية ممكنة من الطعام المطلوب لفردين لمدة أسبوع- أى علبة واحدة من اللحم فى اليوم الواحد، مع شيء قليل جداً من الدقيق، والأرز، والتمر، والشاي. كيف يمكن لنا أن نغذى ستة أفراد لمدة أسبوعين على هذه الكمية؟ فى هذه اللحظة كنا متعبين على نحو حال بيننا وبين التفكير. أعطينا الحاشية الأرز، والشاي، والقسم الأكبر من البيض المسلوق الذى كنا قد جهزناه لأنفسنا، وبعد هذه الوجبة السريعة، أصررنا على الرحيل فوراً. حدث قدر كبير من الهمهمة والغممة. كانوا جميعاً متعبين ويريدون النوم فوراً. أعلن السود عن تمردهم بصورة صريحة. قالوا: "نحن لسنا عبيدك. ونحن لن نرهق أنفسنا أكثر من اللازم." ومع ذلك، استطعنا عن طريق التهمك القوى، والتشجيع والإضحاك، أن نجعلهم يقومون بتحميل الإبل.

الناس فى ليبيا، لا يحزمون سُرُج الأمتعة مطلقاً. وهم يكتفون بموازنة الباللات طبقاً للوزن على بردعة من القش على جانبي سنام الجمل. وعليه، إذا ما تعثر الجمل تعثرًا شديدًا أو إذا ما خاف وجرى بضع خطوات، فإن الأمتعة تفقد توازنها وتسقط على الأرض، مما يسفر عن إخافة الحيوان وجعله يعدو عدوًا مجنوناً. وأنا أرى أن إبلنا كانت مُحَمَّلة تحملاً مهملاً، نظرًا لأن الخيمة سقطت من فوق الجمل ثلاث مرات، وأدى ذلك إلى تعكير صفو الأمزجة.

فى حوالى الساعة الواحدة، وصلنا إلى مجموعة صغيرة من الخيام المصنوعة من وبر الإبل، كانت منصوبة فى حماية ارتفاع طفيف، وغمغت الحاشية طلباً لقضاء الليل فى ذلك المكان. العربى طماع بطبيعته، فى حين يكون

السودانى أكلوا بالدرجة الأولى. السودانى يأكل فى الوجبة الواحدة ما يكفى أسرة أوروبية مدة يوم. بعد أن رأيت الحاشية مؤننا الهزيلة، ظنوا أنهم يمكن أن يحصلوا على عشاء أفضل فى هذه الخيام البدوية. احتجوا وجادلوا جدالاً عنيفاً، لكنى صمدت وكنت قاسية. كان الخوف يملكنا تحسباً لمطاردتنا أو التعرف علينا. كان يوسف يضع يديه فوق بعضهما فى الصلاة. قال: "سوف نقول إنك زوجة واحد من الإخوان؛ وأنتا تقوم بنقلك إلى جابو Jabo". لكن توسلات الرجل ضاعت هباءً. واصلنا سيرنا وتبعونا مجبرين، على شكل بدو لفحتهم الشمس، يرتدون جُرُذاً^(*) صوفيه، وينادقهم معلقة فى أكتافهم.

بدأت انطباعات الطفولة تختفى من ذهنى بصورة متدرجة. فقد اعتدنا على الاستماع إلى ما يقال عن قدرة البدوى التى لا تكل أو تمل على التحمل، وما يقال أيضاً عن أجره الزهيد. كنت أعتقد أن البدوى يوسعه أن يركب راحلته أياماً عدة دون أن ينام ويقتات بشيء من التمر أو الجراد. قد يلجأ إلى أكل الجراد إذا ما اضطر إلى ذلك، لكن جرت العادة أن تكون شهيته مفتوحة وأن حلاوة معشره تعتمد على طعامه. وفيما يتصل بقدرة البدوى على التحمل، فقد التقيت الطوارق الذين أنجزوا بعض السباقات السريعة المدهشة، لكن فى الصحراء الفرنسية، وفى سوريا أو فى ليبيا - كما هو الحال فى السودان - لم أعثر مطلقاً على عربى لم يرغب فى التخميم قبل أن أرغب بساعات عدة. حدث أن كان معى فى جنوب توجيورث Touggurt، مرشد أنيس يدعى على، وكان أزرق العينين، متورد الشعر، وهو أصلاً من الطوارق، ولا بد أن تكون أصوله ونداليه^(**)، كان ذلك المرشد بعد تسع ساعات من الركوب يبدو مرهقاً وممتنع العينين.

(*) واحدة 'جرذ' وهو زى وطنى مصنوع من الصوف. (المترجم)

(**) قبيلة الوندال التى أغارت على وسط أوروبا وجنوبها فى القرن الخامس. (المترجم)

لم نستطع بعد الساعة الثانية والنصف، حث حاشيتنا على التقدم إلى أبعد مما وصلت إليه. كان واضحاً أنهم جميعاً كانوا متعبين، لكنى أشك في كونهم متعبين أكثر منى، نظراً لأننا عملنا بكل ما أوتينا من قوة في اليوم السابق طوال الليل والنهار، في الوقت الذي كانوا فيه جالسين في السوق "يفاضلون" (*). يزداد على ذلك أن يوسف أمسك بسرج جملى. وقال: "هذا مكان جيد. لابد أن نرتاح هنا." لم يكن هناك طائل من وراء الضغط عليهم. كنا قد سرنا حوالى ست ساعات. والجمل يقطع ميلين ونصف الميل في الساعة الواحدة، وعليه تخيلنا أننا نبعد مسافة خمسة عشر ميلاً عن إجدابيا وأنا في مأمن من الملاحقة.

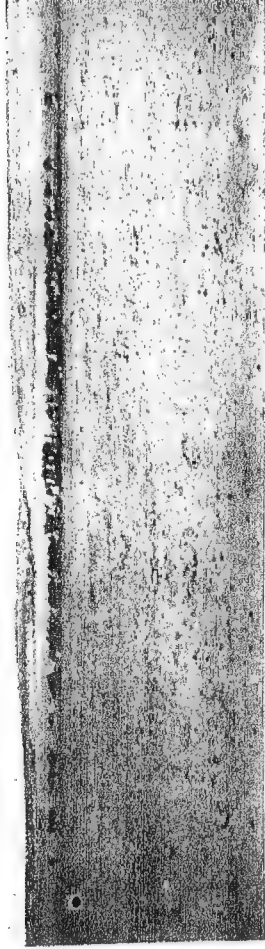
قبل أن نوشك على إنزال الجوانات من فوق ظهور الإبل، كان محمد قد لف نفسه في جرده (لباسه الوطنى) وراح فى نوم عميق. ساعدنا يوسف من قبيل المجاملة فى نصب الخيمة، لكننا قمنا بفرد الفراش، وفرد مشمعات الأرضية، وقمنا بتوزيع المؤن، وتنظيم وفرش أسرة المخيم بأنفسنا. راح السودانيون يجمعون الحطب، وهم يتناهبون وكانوا مرهقين تماماً. أعدنا الشاى وشربناه بلا سكر، وسبب ذلك أن الحاشية لديهم عادة حب السكر المعتادة. نظرت إلى نفسى فى قطعة صغيرة من مرآة، وشكرت الله على أنى أعدتها إلى مكانها، إذ كان من الصعب على تعرف ذلك الوجه الملطّخ، الأصفر، الذى أحرقته الشمس وخططته، والذى كان يظهر من تحت منديل ثقيل موضوع بين طيات البركان. هبت عاصفة قوية فجأة وكادت تقتلع خيمتنا، لكن ذلك لم يفت فى عضدنا. نمنا نوماً منقطعاً، واستيقظنا لنطهو شيئاً من الأرز على نار شبيبناها فى شئ من خشب الأدغال. ودخلنا لننام عند الساعة السادسة مساءً ونحن شاكرون شكرًا تعجز عنه الكلمات. الحشيات المصنوعة من الريش، والمخدات الفاخرة والأسرة التى من طراز لويس الخامس

(*) يفاضلون كلمة ليبية عامية بمعنى "جالسين يتسامرون". (المترجم)

عشر، كل هذه الأشياء لها سحرها ومباهجها، لكن لم يحدث أن شعرت مطلقاً بالامتنان لأي شيء، مثلما حدث مع كيس براغيثي ومخدتتي الهوائية في تلك الليلة. أيقظنا يوسف في صبيحة اليوم التالي عند الساعة السادسة بصياحه "الفجر"، وبعد أداء الصلاة المعتادة بدأنا العمل في تقويض المخيم. أبلغنا الحاشية أننا انتوينا الوصول إلى الوادي الفارغ Farig في ذلك اليوم وعليه يجب ألا يعولوا كثيراً على وقفة عند الظهيرة. وبناء عليه أصروا على إشعال نار وطبخ نصف تموينات الأسبوع على الفور! بدأنا التحرك عند الساعة الثامنة صباحاً وواصلنا سيرنا في اتجاه الجنوب الشرقي ثم الانحراف أكثر إلى ناحية الجنوب طوال النهار.

يبعد الوادي الفارغ عن إجدابيا ستين كيلو متراً فقط، لكن كنا فسي يومنا الأول قد انحرفنا عن المسار نحاشياً للطريق الرئيسة، نظراً لأنه لم يظهر أمامنا سراب عند الأفق إلا عند الساعة الثانية بعد الظهر؛ وقد ظهر ذلك السراب على شكل لوح من الماء الفضي تحيط به مرتفعات وجبال أرجوانية اللون، وبذلك يكون قد حدد لنا مكان الوادي. قال محمد: "إنه بعيد، بعيد! لن نستطيع الوصول إليه قبل غروب الشمس. هيا بنا نأخذ قسطاً من الراحة!" نحن لن نتوقف هذه المرة لقد تقاسمنا الشاي وتقاسمنا أيضاً التمر بالتساوي عند الظهر، وأحسنا بعد النوم الجيد، أننا لو تمكنا من الركوب مدة عشر ساعات، فإن الحاشية بوسعها أن تفعل الشيء نفسه. كان يوماً كاملاً بمعنى الكلمة، خالياً من السحب، وهادئاً لكن الشمس كانت شديدة الحرارة عند الظهيرة. كانت الحرارة شديدة بين طيات البرقان الرقيقة الذي كنت أرتيه وجعلتني أتساءل عن الأسباب التي دعت أوروبا وليس أفريقيا أن ت اخترع المظلات النسائية الخفيفة.

بقيت طبيعة المنطقة بلا تغيير. لا نرى أمامنا وحولنا وخلفنا سوى أرض رمئية فيها نباتات كثيفة قصيرة تمتد حتى مرمى البصر. كانت الجرابيع أو السحالي تدلف داخله إلى جحورها عندما تقترب منها. حدث ذات مرة أن هرب من



WADI FARIG: CAMELS AT THE WELL.

الوادی الفارغ: إبل عند البئر

أمامنا سنة من الغزال عبر الطريق الذى كنا نسير فيه. حاول محمد فتح النار على الغزال، لكنه أبطأ أكثر من اللازم. وفى مرة أخرى مررنا على جحر كبير للأرانب، وشاهدنا ذيلين طويلين يختفيان فى متاهة من الجحور. مشينا فى المدق الرئيسى عند الظهر تقريباً ولاحظت أجمة من الأشجار مغطاة بقطع من الخيط مختلف الألوان. يبدو أن كل عابر سبيل يضيف إلى هذه الأجمة قطعة من القطن أو الصوف من ملابسه لى يثبت أن ذلك "طريق" صحراوى وأن القوافل تمر من هذا الطريق. أضاف يوسف إلى الخيوط خيطاً أبيضاً أخذه من حزامه، فى حين أضفت أنا خيطاً أحمر أخذته من حزامى الطويل.

لم نلتق طوال ذلك اليوم سوى مسافرين. غطيت وجهى على الفور عندما راحا يتبادلان التحية مع حاشيتنا. بدأ هاتف (تليفون) الصحراء يعمل من جديد. لقد جاء بأخبار من جالو تبادلها بحكايات من إجابيا. لم يكن هذان المسافران مهتمين بنا. لقد اختفت السيدة فوربس فى الفضاء، وحلت محلها امرأة مسلمة تدعى خديجة، وهى تترحل مع قريب من أقاربها، أحد بكوات مصر، ولد شيخ من شيوخ الأزهر. كانت ترتدى ملابس بدوية، تقمصت عاداتهم وتقاليدهم، وصلت لربهم، وعاشت حياتهم. كانت لغتها مختلفة تماماً، لكن اللغة العربية تتباين تبايناً كبيراً بين بغداد ومراكش إلى حد أن محادثتى المتعثرة كانت تعزى إلى اعتيادى فقط على العربية الفصحى. حتى حساني نفسه، لم يكن يفهم اللهجة التى يستعملها البدو الليبيين إلا بصعوبة بالغة. المسألة لا تقتصر على مجرد اللفظة أو النطق. كل المفردات تقريباً مختلفة.

أنا لا يمكن أن أتخيل الأسباب التى أدت إلى توقيع الوادى الفارغ على الخارطة على شكل بقعة خضراء وارفة الظلال عبر صحراء عديمة اللون. هذا المنخفض البسيط الذى يمتد شرقاً وغرباً بين سلسلتين صغيرتين من المرتفعات الجبلية يصل ارتفاع كل سلسلة منهما إلى حوالى ١٥ متراً، لا ينخفض بأى حال من الأحوال عن الأرض المحيطة به. هذا الوادى خال من أى عود من أعواد

الحشائش أو الأعشاب الخضراء حتى يمكن أن تتزين به. ليس هناك شيء يكسر ذلك الحطب والأشجار المتشابكة المملة وذلك الرمل رمادي اللون سوى تلك البئر مالحة الماء. وصلنا الوادي الفارغ أثناء غروب الشمس ووجدنا صعوبة في جعل الإبل تتجاوز البئر حتى نتمكن من التخيم على الأرض المرتفعة الموجودة خلف البئر. كان حسانين يركب ناقه عصبية، لم يحدث أن أبقت مطلقاً على رأسها في اتجاه واحد أكثر من دقيقة أو دقيقتين. بدأت تلك الناقة تتسابق على الوصول إلى البئر، وهذه أيضاً ناقه أخرى شقية نفضت عنها بالة أو بالنتين، وأخلت بتوازن الباللات الباقية، تعثرت في جوال من الجوالات الهاوية وفرت هاربة مبعثرة حملها أدرج الرياح. أما حيواني الوقور، فكانت تغمره حالة من الحب، وعليه راح الجمل وهو يصدر قرقرة من حلقه، يشارك في ذلك العراك العام الذي يختلط فيه الحابل بالنابل. تعين على النزول من فوق الجمل. أخرج إلى أن وصلت الأرض المرتفعة، وأنا أسحب الجمل غضباً خلفي، في الوقت الذي راح الرجال فيه يجمعون متعلقاتنا ويعيدون تحميلها. كنا نسابق الشمس، لكننا كسبنا ذلك السباق. وعندما بدأ الوهج القرمزي الأخير في الاختفاء في الغرب المتوهج، وبعد أن رفع محمد المتدين أنفه المغبر بالرمال نتيجة عمله التيمم، كان قد تم دق آخر وتد من أوتاد الخيمة. التمتعت ألسنة النيران المشبوبة في الحطب على الأرض المرتفعة المقابلة للبئر؛ وسبب ذلك أن وجود البئر في الصحراء يؤدي إلى تناثر خيام البدو من حولها، نظراً لأن خيام البدو تنتقل مع تغير الموسم وتغير المرعى.

أحدثنا محرقة، وشبينا نارها وجلسنا حولها على شكل دائرة من سرج ظهور الإبل. عثر يوسف على نجم جدي^(*) Jedi الحبيب، وراح يشير إليه فرحاً وانتصاراً في السماء - كان يقصد النجم القطبي! كان صمت الصحراء يلفنا وكانت

(*) جدي: كلمه عاميه ليبية قصد بها صاحبها "النجم القطبي". (المترجم)

هناك رائحة خافته من عطر الزعتر تتسلل خارجة من الرمل البارد. وهنا بدأ أفراج (كان السودانيان يحملان الاسم فـرّاج) يتلو آيات من القرآن- صوت جميل فى ليلة تضئها النجوم. ويقف فراج بعد ذلك فجأة منهياً تلاوته وراح يؤذن للصلاة بصوت عال: "الله أكبر. الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله!" خرجت الشهادة رائعة، وقاطعة من بين شفثيه وارتفع صوته أكثر وهو يقول: "حى على الصلاة! حى على الفلاح!" إلى أن بدأنا جميعاً نقول: "الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر!"

عندما كنت أخلع ملابسى فى الجزء المخصص "للحریم" من الخيمة، التى أحدثت انطباعاً كبيراً لدى المرافقين لنا، رحت أفكر ملياً فى طبيعة هؤلاء الرجال الذين سنعيش معهم حياة اتصال مألوف طوال أشهر عدة. وإذا ما نحينا جانباً تشدهم الفطيم، الذى يحتم عليهم قتل الكافر والنصرانى مثلما نقتل نحن الحيوانات أو الهوام الطفيلية البوائية، نجد أن هؤلاء الرجال برينون وبسيطون براءة وبساطة الأطفال. ظننت أن السود الذين يمكن أن يسرقوا كل طعامنا فى يوم من الأيام إذا ما جاعوا ويدافعوا عنا ببسالة فى اليوم التالى. هم عاجزون تماماً عن توفير ما يحتاجونه للغد. تقتهم بالله ثقة عمياء لا تحاول مساعدة نفسها، ومع ذلك يقول القرآن (الكريم) مامعناه "اسع وأنا أسعى معك". تحدثنا إليهم مراراً عن ندرة الطعام. وأريناهم محدودية مؤننا التى يرثى لها. قالوا: "القافلة قادمة غداً، إن شاء الله!"

لما كنت عارفة بالعوادات التعطيلية والتأخيريه فى الشرق، فقد كنت لا أصدق مسألة وصول القافلة هذه قبل أسبوع فى أضعف الأحوال، لكنى وافقت على طلبهم الملح بالتخيم مدة يومين فى الوادى حتى نهى للقافلة فرصة اللحاق بنا والانضمام إلينا. وإذا لم تصل القافلة مساء اليوم الحادى عشر، جالبة معها كل مؤننا، فسوف يحتم ذلك علينا إعادة الأسودين، ونواصل السير على عجل إلى عجيله مع كل من

يوسف ومحمد. ومن باب الاستعداد لذلك، وضعنا فى جوال أصغر كمية من الطعام تناسب أربعة أفراد مدة خمسة أيام- كان ذلك الطعام عبارة عن علبه من اللحم أو السردين لكل شخص فى اليوم الواحد، بالإضافة إلى الين والتمر. وبعد أن انتهينا من ذلك، أصابنا الرعب والفرع جراء ما تبقى. كان الأسودان يودان خبزاً أرغفة كبيرة مفرودة من الخبز غير المخمور صباحاً ومساء ولم يكن لدينا سوى كمية صغيرة جداً من الدقيق. بدأت أدرك أنه فى حال عدم وصول القافلة فإن ذلك يمكن أن يؤدى إلى وفاتنا بسبب الإرهاق والإجهاد ونحن فى طريقنا إلى عُجيلة. آه لو ضللتنا طريقنا، وآه لو عطلتنا عاصفة من العواصف، وآه لو أثبت المرافقون لنا أنهم لا يمكن الاعتماد عليهم وأصروا على أن يأكلوا كمية أكبر من التعيين اليومى الهزيل، إن حدث ذلك، فهذا هو الضياع بعينه! ومع ذلك، صممنا على شيء واحد فقط هو عدم العودة بأى حال من الأحوال.

خطر ببالي وأنا ذاهبة للنوم "فى كل الأحوال، نحن ننعم براحة البال وهدوء الصحراء"، لأصحو بعد ذلك بساعات قلائل على ضوضاء وجلبة لم أستطع تمييزها. لقد سمعت وأنا فى روديسيا زئير أسد فى العراء بلا قفص، لكن لم يحدث قط من قبل أن سمعت مثل هذا الجئير المجنون الذى يعبر عن الغضب والذى جعل الليل مخيفاً. وقلت وأنا ألتقط أنفاسى أثناء خروجى من الخيمة لقد هاجت الإبل وماجت". لقد انطلق صوت راعد من كتلة سوداء لاحت لنا على بعد ياردات قليلة من جدراننا المصنوعة من الخيش. جاء الصباح من كل من يوسف ومحمد، اللذين ظهر أنهما كانا يرقصان بلا هدف حول الحيوانات الهائجة، وتتهار الكتلة بعد ذلك وهى تجار واقفة على أرجلها، ويندفع جملان هائجان ويتجاوزانى مبتعدين مسافة قدم واحدة عن الخيمة. وجدت حسانين شبه مستيقظ على بعد متر منى. قال حسانين فى شيء من البله "ماذا يفعلان؟" يتحول خيال الإبل فى فصل الربيع تحولاً طفيفاً نحو أفكار الحب! قال "لكن الوقت ليس ربيعاً!" "ما عليك. يا إله! إنهما

عاندان!" انسحبنا بسرعة من داخل الخيمة. سبق أن رأيت في سوريا جملاً هائجاً من هذا القبيل، لكن خطرت على بالي رؤية الأعمدة المكسرة هي والخيش المقطع، وقد اختلط ذلك كله بالأمّعة المهشّمة هي وأسرة المخيم سويت بها الأرض. اتخذت لنفسى موقعا حاكماً فى الخارج، لكن الحيوانين الهائجين ابتعدا مرة ثانية، وراح جنيرهما يخف كلما ابتعدا عنا. سألت يوسف "هل يحدث ذلك فى كثير من الأحيان؟" رد علىّ بلا مبالاة "نعم، عندما يكون الجو بارذاً. شىء ان يزيدان فى فصل الشتاء: الإبل والبحر!"

تمنعنا بترف النوم إلى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالى واستيقظنا على يوم آخر حافل بالأحداث. كان ماء البئر غير صالح للشرب تماماً- إذ كان مالحاً ومحملاً بالطين- لكننا اغتسلنا فيه بسعادة بالغة. من سوء الطالع أن حسانين أغرى على غسل شعره من ماء البئر، الأمر الذى أسفر عن وقوف شعر الرجل بعد ذلك كما لو كان خصلة خشنة من ريش النعام. كل الأشياء تجف فى الصحراء بشكل مخيف. بشرة المرء تتشقق وتتخطط بعد أيام قلائل. الأظافر تتقصف. يجف شعر الإنسان ويصبح هُشاً. ومع ذلك لا يهتم الإنسان بذلك. الصحراء لها سحر وقوة غامضان. الصحراء تدمر فى الوقت الذى تسحر فيه الألباب. هى المرأة الفاتنة التى لا مهرّب منها. تكتب سينثيا Cynthia ستوكلى، التى ألقيها قبل سنوات فى بولاوايو Bulawayo، فى قصة من قصصها الحية عن الحياة الإفريقية أن الصحراء إذا ما نشبت مخلصها فى واحد من البشر، فإنه لابد أن يعود إليها؛ لأنها هى الوحيدة التى تشفى الجرح الذى أحدثته.

كان الوادى خالياً فى الليلة السابقة. وهو مزدحم فى صباح هذا اليوم. هذه هى أشكال شبه عارية تجلب الماء لقطيع كبير من الإبل تراحمت حول جدران البئر الطينية المنخفضة. وهذا مزيد من الإبل التى تمشى ببطء صاعدة المطلع،

وترعى أثناء سيرها. جاءت بعض الأشكال البيضاء لتحتيتنا، والبنادق معلقة على ظهورهم. أنهم سكان النجاة^(*) التى شاهدنا نيرانها فى الليلة السابقة. لقد أبلغهم برق^(**) الصحراء عن احتمال وصولنا قبل أن نغادر إجدابيا! تحلقوا حول النار التى أشعلناها فى الحطب وشربوا شايًا محلى بالتمر الميروس، نظرًا لعدم وجود السكر. تركهم حسانين وأنا معه "يتفاضلون"^(***) مع حاشيتنا وجلسنا على تلة رملية ورحنا نحلم بالقافلة، التى يمكن أن تنهى متاعبنا كلها، وبمجيئها من ناحية الارتفاع المقابل لنا. بدلاً من مجيء القافلة رأينا "قراج" وهو ينزل إلى الوادى لشراء شىء من لبن الإبل المَحْمَض، وشىء من العجوة، التى تحتوى على نسبة عالية من الرمل. من سكان الخيمة. عندما بدأ غروب الشمس يكسو الأرض باللون القرمزى، عدنا إلى مخيمنا ونحن جائعون تمامًا، نظرًا لأننا لم نأكل شيئًا منذ الساعة الثامنة صباحًا، ولم نتناول شيئًا سوى الأرز والخضار المعلب الذى لا يستسيغه المرافقون لنا. كان الأسودان يلعبان السَّيَّجَه على الرمل مستخدمين فى ذلك الأصداف البيضاء. قال محمد مبتسمًا "فضل! فضل!" قال يوسف: "لا نحاولى العيش وحدك دومًا. أختلطى بنا بعض الشىء. لن ننسى من هو السيد." من هنا عرفت أن حسانين قد حقق انتصارًا آخر من انتصاراته الشخصية. حسانين لديه طريقه جذابة تكسبه ثقة العرب وتعاطفهم، بدءًا من السادة وانتهاء بالبدو المتعصبين.

لم يكن الجو الذهنى للمرافقين لنا مبشرًا تمامًا بالخير طوال اليومين الأولين. فقد فهمنا أن رحلتنا يمكن أن تكون ضربًا من ضروب المستحيل، إلا إذا تغيرت، لكن حسانين من باب التعقل والحكمة لم يكن يتعجل الأمور. لقد أثمرت الكلمات

(*) النجَّة: كلمة ليبية بمعنى "خيمة". (المترجم)

(**) برق: بمعنى "التلغراف" مع الفارق. (المترجم)

(***) يتفاضل: كلمة ليبية بمعنى "يتسامر ويتحدث إلى". (المترجم)

التي كان حسانين يلقيها هنا وهناك، هي والتأنيب السريع، أو الامتداح الصادق، أو إبداء التعاطف مع الأهداف السنوسية، وكذلك الحكايات عن الصداقة القديمة مع السادة، وكذلك الحكايات الصغيرة عن الحرب في الخيمة الخارجية، كل ذلك أثمر وكانت له جدواه. أحسنا بأثر ذلك كله في تلك الليلة، ونحن نحمص أنفسنا حول النار، ونحن نراقب فراج وهو يعجن خبزه الثقيل ويسويه في رماد النار. وعندما انتهى من تسوية الخبز، ألح علينا بشيء منه وهو يبتسم ابتسامه كشفت عن ضياع أسنانه. كان الخبز حاراً، وثقيلاً وعسر الهضم، لكنه كان لذيذ الطعم مع اللحم المحفوظ. الشيء الوحيد الذي فسد هو الكاكاو لأن الماء كان مالحاً بشدة، سريع.

وضعت نفسي في تلك الليلة داخل كيس البراغيث الصوفى المزدوج وأنا أحس بالهدوء والطمأنينة. ارتفع الترمومتر ارتفاعاً كبيراً عند الظهيرة، لكن الليل كان بارداً بصورة مستمرة، وكنا ممنونين تماماً لأكياس نومنا المانعة للمطر، التي قمنا برشها بالمسحوق المضاد للحشرات، الذي لم يكن له تأثير على البراغيث بأي حال من الأحوال. أمضيت في اليوم الثالث من وجودنا في إجدابيا نصف ساعة سعيدة رحت أطارد فيها الحشرات سريعة الحركة حول فراشي. دخل حسانين ومعه طعام الإفطار وأنا في عز مطاردتي للحشرات، وفي الوقت الذي حاصرت فيه كبرى تلك الحشرات. علت وجه حسانين ابتساماً عريضة. قال "هناك عشرات الحشرات في غرفتي؛ لكن هذا لا يهم. لقد عثرت أخيراً على فائدة لمسدسي الصغير. لا تسخر مني مرة ثانية بسبب أمتعتي عديمة النفع!" خطر ببالي ذلك وأنا أستمع إلى سرير ينقلب على الجانب الآخر من الحاجز الموجود داخل الخيمة، لكن كان الأمر يتعلق بفأر من فئران الغيط كان يبحث عن جحره، الذي كان في مكان ما تحت مشمع الأرضية.

استمعت بعد ذلك إلى القرآن وهو يُرثل آية آية، ورحت في النوم على أثر هذه الغمغة، وأنا أتعجب من سر الصحراء الذي غير "خريجة" أكسفورد إلى بدوية

خالصة، ومخلصة مثل المتشددین الذين ترفع صلواتهم خمس مرات فی اليوم إلى الله یمؤ، كل ذلك وأنا بمعزل عن الآخرين مثل البدوی الذي تتطلع عیناه دوماً إلى أفق الصحراء، الذي لا یمکن اختراقه مثل الجیرد (الثوب الوطنی) الذي یلغه من قمة رأسه إلى أخمص قدمیه.

زوّدنا اليوم السابع من شهر ديسمبر بريح قبليه^(*)، قوية، تلك الريح الجنوبية المحملة بالرمال، التي خلعت أوتاد خيمتنا، وغطت كل الأشياء التي نأكلها بطبقة سمیكة صفراء اللون. كان يوم السابع من شهر ديسمبر واحداً من تلك الأيام التي لا تسر الخاطر أو تشرح الصدر. لقد امتلأ الشعر، والأعين والبشرة أيضاً بالرمل. كانت كل الأشياء التي نأكلها لها طعم الرمل. كانت فرشة الغبار غارقة إلى عمق ثلاثة أقدام فی الرمل. كان الرمل ينساب من المخذات ومن كل جزء من أجزاء ملابسنا. اخترق الرمل أيضاً كل صندوق وكل جوال. كانت أصوات هفافة قماش الخيمة، وانخلاع الأوتاد، تشكل توتراً دائماً، ووسط هذا التوتر جاعنا رسول من جديابا، یحمل رسالة من بنغازی أرسلها خصومنا، ومکتوب على ظهرها رسالة تقول:

نرسل لك مع هذه الرسالة التي نعبر لك فیها عن إعجابنا الصادق باستعدادك الفطري لاتخاذ القرارات على وجه السرعة، ونعرب لك أيضاً عن أفضل تمنياتنا لك برحلة صحراوية طويلة جداً^(**)!

أعتقد أن هذه اللغة الفرنسية نابعة من ضابط الخيالة التي يتمتع بحس مرح. ربما يكون ذلك الضابط قد راوده الشك فی مشروعنا بكامله، لكنه باعتباره لاعباً مرموقاً من لاعبي السلاح، فقد كان ماهراً أيضاً فی استخدامه للكلمات مهارته فی استخدام سيف المبارزة. یزاد على ذلك، أننا نعرف أيضاً أن المراسل الذي اعترف

(*) 'الجبلی بكسر الجیم وتسكين الباء، ویصح فيه أيضاً "القبلى" هی الريح الجنوبية القوية المحملة بالرمال. (المترجم)'

(**) وردت هذه الرسالة باللغة الفرنسية، وهی من ترجمة المترجم. (المترجم)

بأنه أبلغ بمتبعنا حتى وإن وصل الأمر إلى جالو Jalo، لا يمكن أن يكون قد أرسل
لمجرد توصيل رسالة غير ميمة مثل هذه الرسالة. المقصود من إرسال هذا
المراسل هو معرفة مقصدنا على وجه التحديد وبصورة مؤكدة، من هنا أثرنا بقاء
هذا المراسل معنا لحين وصول القافلة أو إلى أن نغادر نحن هذا المكان إلى جالو.
كان فرّاج مصدراً كبيراً من مصادر تسليتنا، لأنه ما إن وقر في ذهنه أن الرجل
كان جاسوساً، حتى قرر أن يفتح عليه نيران بندقيته في الحال. وقد تطلب الأمر
منا القيام بقدر كبير من الإقناع لمنع هذا العمل من أعمال سفك الدماء. قال فرّاج
بصورة مستوحشة: "لقد أمرني السيد بحمايتك. وأنا إذا لم أقتل هذا الرجل، فإن
السيد سيقتلني بكل تأكيد." هذأناه بأن طلبنا منه مراقبة ذلك الرجل ومنعه من
الهرب بأي حال من الأحوال، لكن بدون أذى، ومع ذلك وعندما كان حسانين نائماً
عصر ذلك اليوم، وعندما سمعت صوت ترباس البندقية، اندفعت خارجة كي أتأكد
أن الرجل لا يزال بخير. هذا المراسل، جاء هو الآخر بلا طعام. بدأت أغضب من
هذا الشكل من أشكال التذير. ولو نزل علينا الطعام من السماء، فأنا على يقين من
أنهم سيأكلون حتى الشبّع ولا يدخرون شيئاً للغد!

قمنا بنشر هذا الخبر على المرافقين لنا، وقلنا إنه يتعين علينا ترك الأسودين
عند النجّات (الخيّام) كي يكونوا في انتظار القافلة ويستعجلوها عندما تصل، وأننا
سوف نواصل السير إلى عجيلة. قلنا لهم أيضاً: إننا سنركب راحلتنا في ساعة
مبكرة من الصباح وسوف نسير بمعدل عشر، أو إحدى عشرة ساعة في اليوم وأننا
سوف لا ننصب خيامنا وذلك من باب توفير الجهد، وأننا سوف نتقاسم معهم الطعام
بالتساوي، لكن ينبغي عليهم أن يتوقعوا أن يجوعوا جوعاً شديداً لمدة أربعة أو
خمس أيام. حدث قدر كبير من الاحتجاج، نظراً لأنهم كانوا ينظرون نظرة ساذجة
إلى مجيء القافلة، ولم يفهموا أننا إذا ما بقينا أربعة أيام ولم تصل القافلة، فإن
الجوع سيعيدنا ثانية إلى إجدابيا. على كل حال، لقد كشف ذلك الاحتجاج عن أن

الأمر كانت تسير سيراً حسناً. بدأ المرافقون لنا ينظرون إلينا على أننا أصدقاء لهم وهذا يعنى أن وصول الجاسوس أوجد بيننا رابطة من نوع ما. قالوا: "نحن نعرف أنكم تضررتما من مجيء هذا الرجل. لكنكما فى مأمن مادمتما معنا. وهذا شرف لنا أيضاً." بدأنا نشرح لهم مشكلة الغذاء، وهنا رأينا محمد يكشف عن أصله العريق ومعدنه النفيس. قال: "أنا أشعر بالخجل، أننا أكلنا طعامكم لمدة ثلاثة أيام، وأننا طلبنا منكم شيئاً من السكر فى الوقت الذى لم يكن معكم بشيء منه. كنت أود تقاسم طعامى معكم، وهذه هى عادتنا، لكننا أمرنا فى اللحظة الأخيرة بمصاحبيتكم. طلبنا السماح لنا بالعودة إلى منازلنا. وقيل لنا "لا، ستتبعكم القافلة ومعها كل ما تحتاجون إليه." الخطأ لم يكن خطأنا، ونحن نشعر بالآلم الشديد لأنكم تحرمون أنفسكم من أجلنا."

هذه هى روح الولاء والإخلاص التى يعمر بها كل قلب من قلوب هؤلاء البدو. قد يكون البدوى جشعاً فى الطعام، وقد يكون الغريب الذى يحمل معه ذهباً غير آمن عندما يكون بصحبة البدوى، لكنك عندما تصادقه فإنه لن يخونك مطلقاً. هؤلاء الرجال كانوا قد بدعوا يفهمون ويدركون تعاطفنا مع عرفهم، وحبنا لعاداتهم وتقاليدهم وبلدهم. لقد أكلوا عيشنا وملحنا. لقد تقاسمنا معهم كل ما كان معنا ووثقنا بهم إلى أبعد الحدود. كنا ضيوفاً على سيدهم، السيد المقدس، المبارك من الله تعالى. كنا أصدقاء لدمهم ودينهم. ينبغى ألا نعيدنا الإيطاليون إلى الورا. لقد أقسموا على حمايتنا باعتبارنا من عائلاتهم. لقد كسبنا معركة أخرى. قال يوسف: "سوف نجد طعاماً بشكل أو آخر فى النجاة (الخيام)! العربى لا يموت فى الصحراء بسبب الجوع." أطلعناهم على رسالة تيننة بسيطة من سيدى إدريس. لقد سجدوا لكى قبلوا الكتابة المقدسة. هذا هو انولاء الحقيقى نفسه الذى شاهدناه بين الأواغيسر المتواضعين الذين زرنا خيامهم فيما بين سلوك Soluk وغماينز Ghemines.

حياتهم ملك للسيد. من هنا كانوا تحت إمرتنا. يزداد على ذلك أن إيمانهم لم يكن
وأننا لأنهم كانوا جوهر البساطة.

وهنا يمكن أن نؤكد أن العراقة العرقية التي يمكن أن تفصح عن نفسها بلا
حد أو ضغينة، لا تكون مقتصرة على الماضي فقط. التاريخ العظيم (لسيدنا) عمر،
وابن النبي موسى، وهارون الرشيد وصلاح الدين يمكن أن يتكرر. هناك قادة
عظام يفهمون ما يدور في قلوب شعوبهم، لكنهم ربما يعرفون أن لديهم قوة، دون
أن يعرفوا طريقة استعمال هذه القوة. إن سياسة الدول الأوروبية تهدف دوماً إلى
تفتيت الجماعات العربية، وخلق النزاعات بين أمرائهم، وإغراء شيوخهم على
معارضة بعضهم البعض. ألا يعد ذلك شكلاً من أشكال السياسة قصيرة النظر في
ضوء الاضطرابات الواسعة التي تجرى في أوروبا في أيامنا هذه؟ إمبراطورياتنا
الغربية وممالكنا الأوروبية كبيرة بما فيه الكفاية. يجب أن يقوم برنامجنا على
التجمع لا على التوسع. في زمن حكم محمد بن علي كانت القافلة المشمولة بحمايته
تمر من طرابلس إلى وادي. كانت طرق القوافل الكبيرة مفتوحة كلها أمام التجارة
والصناعة. ما عدد الطرق المفتوحة في أيامنا هذه؟ جعلوا يد الحاكم الوطني قوية
وأعطوه امتيازات المساندة الأوروبية كلها وعندها يكون مسئولاً عن فتح حدود
بلاده أمام المرور الآمن للرحالة، وللعلاقات الودية الذي تسمح للحبوب والجلود،
والتمور، والشاي بعبور الطرق المقطوعة منذ زمن طويل.

الفصل الرابع

عبر الصحراء بصحبة الشيب

جلسنا داخل الخيمة طوال ذلك اليوم، وسط الرمل الذى يعمى الأعين. لم تكن هناك أية جدوى من إغلاق الستائر كلها والأغطية الواقية كلها. كان التراب النائر يخرق كل شيء كما لو كان ذلك بفعل السحر. امتنعنا عن الغذاء من باب التوفير فى الطعام، ولم نتوقف عن الإزالة المملة المستمرة لطبقات الرمل من على وجوهنا، ومن على كراسيات الملاحظات، إلا عندما انكسر أحد أوتاد الخيمة نتيجة الضغط الشديد، مما أدى إلى طيران جانب من جوانب الخيمة ومعه تمزق قمائش الكنفاس (الخيش)، حاملاً معه ستاً من الأوتاد. كنا قد تعودنا على الخروج، ونحن شبه مصابين بالعمى جراء الريح القبلية^(*) القوية، كى نقوم بدق (الأوتاد) مرة أخرى، ومنتهم الفرصة ونروح نمسح المرتفع البعيد بحثاً عن القافلة المنتظرة. حدث ذات مرة أن أحصينا ثمانية عشر جملاً قادمة من اتجاه المُرْتَفَع، الأمر الذى زاد من آمالنا؛ لكن، وأسفاه! لقد كانت الإبل ترعى.

قال محمد فى بساطه: "الله ﷻ سوف يحل لنا هذه المشكلة". وكان محمد صادقاً فيما قال، فقد ظهرت قبيل المساء، بعد أن هدأت الريح هدوءاً كبيراً وبعد أن نزلنا إلى الوادى لشراء لبن الإبل، الذى أحببته، لكن حسانين كان يرى أنه لاذع الطعم، قافلة صغيرة كانت تنزل من المرتفع، ومكونة من ثمانية جمال محملة بالأمّعة ومتجهة إلى جالو، وبصحبتها حوالى ستة من المُجَابرة العائدين إلى موطنهم بعد رحلة تسوق فى جدابيا. تغير الموقف على الفور. لقد جاء هؤلاء الرجال بأخبار كثيرة من القرية التى تركناها قبل أربعة أيام. كانوا يعرفون كل شيء عن قافلتنا. ستصل القافلة "إن شاء الله" فى غضون يوم أو يومين. عندما

(*) "القبلى": كلمة عامية ليبية تعنى الريح الجنوبية الشديدة المحملة بالرمال. (المترجم)

غادرنا إجدابيا، كان هؤلاء الرجال يشترون السكر المطلوب لهم هو والجردات(*) . لكن كيف استطعتم الوصول إلى هذا المكان ناسكم يتوقعون أنكم منتظرون خارج إجدابيا. قالوا لنا: "إذا ألتقيتموهم، أحسنوا معاملتهم إكراما لخاطرنا، وإكرامكم لهم سيكون إكراما لنا." لقد أخبرناهم عن الجاسوس. قالوا وهم محزونون "هو واحد من قبيلتنا. عار عليه أن يخرج من القرية من أجل هذا الغرض. عندما نعود إلى إجدابيا سنصبق عليه. أرسلوه إلينا كي نأخذه معنا إلى جالو!" على كل حال، لقد دار بخلدنا أن الرجل إذا ما بقي معنا سيكون في مأمن!

جرت العادة في الصحراء أن القافلة التي تصل عند دخول الليل، تجد قافلة أخرى مقيمة قبليها، وعليه تقوم القوافل التي تصل أولاً بتقديم العشاء للقوافل التي تصل متأخرة. ونحن لم نستطع القيام بذلك الواجب لأننا لم يكن لدينا طعام، وعليه لم يكن أماننا سوى الاعتذار والترحيب بمقدم القافلة. وعقب انتهائنا مباشرة من تناول عشاءنا الهزيل المكون من لحم البقر المحفوظ والأرز، جاءنا رسول من المجابرة المضيافين، يحمل وعاءين كبيرين من حبوب الشعير المطبوخ بالزبد المحلي مع الفلفل، وكان الرسول يحمل أيضا بلاطتين كبيرتين من السكر ووعاء للشاي. وأنا أعجز عن وصف الفرحة التي انتابنا ونحن نستطيع طعم هذه الخلطة، وقام المرافقون لنا بعمل أدوار من الشاي الثقيل المر واستمروا في ذلك إلى منتصف الليل تقريبا. حدثت زيارات كثيرة بين المخيم، وجرى تبادل العبارات "كيف حالك؟" و "طيب" (بخير) بصورة مستمرة طول الوقت.

إذا التقت قافلتان إحداهما قادمة من جالو والأخرى من إجدابيا فإن الأولى تتبادل تمرها بسكر وشاي القافلة الأخرى. وإذا ما وصل مسافر إلى المخيم أثناء الليل، يجرى تقديم الطعام والشاي له مجانا، كما يعطى كليما (سجادة) بالقرب من النار المشتعلة. ضيافة الصحراء شيء مدهش. يجرى تقديم الطعام والشراب

(*) الجردات: واحدة 'جرد' وهو الزى الوطني وقد يصنع من الصوف أو الحرير. (المترجم)

بصورة دائمة. لم يسمحوا لنا مطلقاً بشراء لبن الإبل. كانوا يعطوننا ذلك الحليب بصورة دائمة، ألم نكن بدواً مثل رجال الصحراء أنفسهم؟ لا يمكن لامرئ أن يمر على نار يجلس حولها شخصان أو ثلاثة يرتدون الملابس البيضاء دون أن يطلب منه الجلوس معهم وهم يقولون له "فضل!"^(*) Fadhl. جرت العادة أن يقال العبارة "كيف حالك؟" ما لا يقل عن ست مرات لكل وافد على الجماعة، وذلك على الرغم من أن الرد على هذه العبارة هو "طيب" فى كل الأحوال.

فى تلك الليلة، وبينما كنا جالسين حول النار والريح الباردة تُجمدُ ظهورنا، وبينما كنا نحس بالسعادة أيضاً لأننا كنا متخمين بعد وجبة الشعير، أنفرط عقال حاشيتنا البلاغى عندما راحوا يعبرون عن الولاء والأمانة. أبلغتهم القافلة أن سيارة وصلت من زويتنه Zuetina فى اليوم التالى لهروبنا، وأن البلدة قفزت على الفور إلى الاستنتاج الذى مفاده أن تلك السيارة جاءت لتعيدنا غصباً. وأكدوا لنا أن إجدابيا كلها كانت متعاطفة معنا، وأكدوا لنا أيضاً أن خصومنا كانوا غاضبين تماماً من هربنا، لكنهم لم يستطيعوا القيام بأى شىء لأنهم هم أنفسهم أشادوا بنا عند السيد Sayed. لقد تشككت كثيراً فى هذه العبارة الأخيرة وقررنا التحرك واستئناف المسير فى عصر اليوم التالى إذا لم تصل القافلة فى الصباح. حسبنا أن بوسعنا الحصول من المجابره على طعام كاف لرجالنا، على أن نعيد لهم مثل هذا الطعام عندما نصل إلى جالو فى حال رفضهم لقبول الثمن النقدي. أحسست بالأسف تجاه الجاسوس. كان واضحاً أنه لم يكن يود التدخل فى هذا الأمر مطلقاً. فاجأنا فرّاج بالوقوف رافعاً يديه إلى اسماء، داعياً الله يشهد أنه سوف يحمينا إلى آخر نقطه من دمه. راح يترنم ويقول كن يصيب جبينك حتى ولو شوكة واحدة. وتلى هذا اليمين المغلظ، بعدها ساد صمت مخيف.

(*) كلمه لبيبة عامية معناها "أجلس وتحدث"، وهى بمعنى "تفضل" المصرية. (المترجم)

من الطبيعي أن يهرب جاسوسنا أثناء الليل. كان المرافقون لنا غير عمليين بقدر ما كانوا كسالى أيضاً. وعليه وعندما دخل علينا اليوم الثانى عشر من شهر ديسمبر، كانوا معارضين تماماً لأى حديث عن بدء التحرك. شرحنا لهم بصبر لا ينفذ أنه فى غضون أربع وعشرين ساعة، فإن أماننا، وخططنا، ونوايانا، وأفكارنا سيذيع أمرها فى جديبا. وقالوا بسذاجة الأطفال: "ستجىء القافلة غداً". كان المجابرة الحاليون دوماً قد أرسلوا لنا طبقين كبيرين آخرين من معجون من الدقيق، شبيه بالمكرونة إلى حد بعيد، ومطبوخ بنفس الزبد الذى طُبِّخ به الشعير، وبعد أن أكلنا الطبقين عن آخرهما، أصبح المرافقون لنا مستعدين لانتظار إرادة الله ﷻ! كنا عند الساعة السابعة صباحاً قد أخرجنا كل شىء من الخيمة. وعند الساعة الحادية عشرة كانت المشاورات لا تزال متواصلة بلا انقطاع حول هذه النار أو تلك. كان المجابرة قد قرروا مرافقتنا. قالوا لنا: "أنتم ضيوف سيدى إدريس". وجرى من جديد إخراج الرسالة المقدسة وتقبيلها. وبذلك نكون قد تعودنا على التأثير السحري لهذه الرسالة. التى كانت قادرة على إحضار أى شىء إلا السرعة! يزداد على ذلك، أن الغرباء أقرؤا بأنهم ليس لديهم ما يكفى لكل رجالنا، قاصدين بذلك، بطبيعة الحال، أنهم لا يقدرون على توفير كميات كبيرة من الطعام بواقع ثلاث مرات فى اليوم. ونحن بدورنا لم نكن نتطلع إلى جعلهم يقدمون ذلك الطعام بكميات صغيرة، وعليه كنا نريد إبقاء واحد من الأسودين حتى يكون فى انتظار القافلة، وأن يقوم باستعمالها أو إرسال جمل على وجه السرعة، محمل بالموءن والتموين إلينا. وقد حدث نوع من التمرد على هذا المقترح. رفض الفراجان أن يتركونا. قال محمد بلا اندهاش: "نحن لا سلطة لنا عليهم، قائدهم سيجلدهم، فماذا نفعل؟"

أصبح النقاش عديم النفع، وعليه نزلنا إلى الوادى لشراء تمر من قافلة قادمة من الكفاره. كان ذلك مثلاً على طريقة انتقال الأخبار فى الصحراء. قبل الدخول فى موضوع التمر، كنا قد دخلنا خلصة إلى الرمال المقابلة للتجار، وذلك عن طريق

الجانب البعيد لهذه الواحة، وقم محمد سرذا كاملاً عن الأحوال في جدابيا. قام محمد بعد ذلك، بتقديم قائمة أسئلته الموسعة متسائلاً عن- ثمن الحرير، و ثمن الصوف، و ثمن الحبوب ألخ في الكفرة Kufara؟ وما ثمن التمر؟ تساءلوا: "الرُّبْع (*) أم بالآقة (**)" وقالوا: التمر ليس غالياً؛ لأنه وفير. "من الذى التقيتموه على الطريق؟" ما هى أخبار العائلة الفلانية؟" لقد هرب عبد من عبيد هذه العائلة،" أو "لقد تزوج امرأة أخرى"، ومضى الحال على هذا المنوال إلى أن انتهت كل المعلومات.

واقع الأمر أننا غادرنا سلسلة صخورنا المنخفضة فوق الوادى عند الساعة الواحدة والنصف، لكن القلق لم يعد يعرف طريقه إلى نفوسنا. هذا يعنى أن قرية الشرق بدأت تملكنا. قررنا الاعتماد على الله والانضمام إلى قافلة الشيب She-ib وقرية موسى شيب، وهما تاجران من جالو، كانا يسافران فى بعض الأحيان إلى وادى، ذلك الطريق الذى يستغرق ما بين أربعين وستين يوماً، حاملين بالات من المصنوعات القطنية، لمقايستها يريش النعام، والعاج، والإبل، والجلود والعودة بها إلى أسواق الكفرة. سألناهم عن المدة التى يستغرقها الوصول إلى جالو، وردوا علينا "الوقت هنا ليس له حدود. إذا سرتم بسرعة قد تصلون فى اليوم الخامس"، لكن كان واضحاً أنهم لا يريدون العجلة. كانت القافلة مكونة من ستة رجال، ومعهم ثمانية من الإبل المحملة بأحمال ثقيلة، وكان معهم حصان أو اثنان يجريان بمحاذاتهم.

كوئاً قافلة مهيبية بحق عندما وسعنا المدق قليلاً من ناحية الشرق وعندما بدأت الإبل السير مع بعضها البعض. كان الشيب كبير السن يترأس القافلة، وهو جالس مرفوع الرأس فوق الصناديق الكبيرة خضراء اللون التى تحتوى على البضاعة، وكانت هناك بندقية معلقة على ظهره، ومسدس كبير يتدلى على جانبه

(*) الرُّبْع: نوع من المكاييل يُكال به التمر والحبوب. (المترجم)

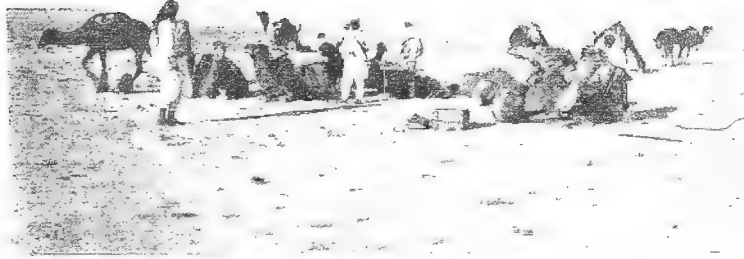
(**) الآقة: وزنه قديمه تساوى رطلين وربع الرطل. (المترجم)

وموضوع داخل جراب قرمزي اللون، ووجهه أبنوسى اللون شبه مغطى بثنيات كوفيته البيضاء، ليحميه من التراب. كانت كوفيه حسانين زاهية الألوان (البرتقالي، والأصفر، والزمردى) تشكل وميضاً لونياً على جمل آخر، فى حين كنت أنا أتبعهما وأنا أرتدى ثوب البركان، نظراً لأنى يتحتم على عدم كشف وجهى للقافلة الغربية. وهنا يلعب القدر دوره وقرر أننا يتحتم علينا التجوال ببطء فى اتجاه الجنوب مع التجار المجابرة لكى أتعلم طوراً آخرًا من أطوار الحياة البدوية.

تناسينا الوقت، ونسينا بمرور الوقت، قافلة البضائع، التى قد تكون تتبعنا أو لا تتبعنا، ومشينا ببطء لا يخطر على البال، فى الطريق المعلم بالرُجُم الحجرية. كان منظر الأرض قد تغير تغييراً طفيفاً منذ مغادرتنا السوادية. وأصبح سطح الأرض متموجاً، مع سلسلة من الموجات الخفيفة التى تمتد من الشرق إلى الغرب، وبدأت الحياة النباتية تشج أكثر وأكثر، إلى أن بدأت حُرْم قليلة من الأدغال الرمادية الخشنة التى يصل ارتفاعها بضع بوصات، تكسر جذب الرمال. عند الساعة الثالثة عصراً بدأ سطح الأرض المتموج يظهر خلفنا، وأصبحنا نسير فى سهل مستو تماماً. ظهر لنا منظران عن بعد تحولاً إلى مسافرين يركبان جملين. توقفاً ليسألانا عن الأخبار، وعندما علما بأننا ذاهبون إلى الكفرة عهد إلى يوسف ببعض المجدييات ليقوم بسدادها لشخص ما فى الكفرة. وإذا لم يصل هو نفسه إلى الكفرة، فإنه سوف يتعين عليه تسليم النقود إلى مسافر آخر. كان ذلك التعامل أمراً عادياً ولم يعلق عليه أحد.

قرر شيب التخيم بعد الساعة الثالثة بوقت قصير، لأنه لاحظ بقعة كثيفة إلى حد ما ترعى على بعد فى الجانب الأيمن من الطريق. وبعد ذلك بعشر دقائق كان آخر الإبل قد جرى تبريكه، وقام رجال هذا الجمل بعمل زريبة^(*) شبه دائرية

(*) "زريبة" الأصل فيه Zariba أو Zareba: وهى عربية الأصل، وتدل على "حظيرة مرتجله نعام من بعض النباتات الشائكة فى السودان وغيره من البلدان الإفريقية". (المترجم)



A HALT FOR THE NIGHT.

وقفة للتمضية الليل

رائعة من الصناديق والجالات بحيث يكون ظهرها للريح، وقاموا بفك الأكلمة
واللحف مكونين بذلك ملجأ وثيراً، وكانوا منشغلين بعمل الشاي العربى الثقيل.
جرى عمل ذلك الشاي بسرعة فائقة ومهارة فائقة أيضاً، فى الوقت الذى كنا نحن
نناضل فيه مع الخيمة فى ظل هبوب ريح شمالية عاتية. كانت الريح القبلية قد
هبت علينا فى اليوم السابق عند الظهر بدرجة حرارة مرتفعة تماماً. طقس
الصحراء غير مستقر تماماً. كانت الأرض صلبة على نحو لم نتمكن معه من دق
أوتاد خيمتنا، وعليه قمنا بدفن سُرُج الإبل إلى منتصفها فى الأحجار وربطنا فيها
حبال الخيمة. ثم دعينا بعد ذلك لاختبار مهارتنا فى الرماية مع المجابرة الذين
وضعوا قطعة من الخشب على بعد خمسين ياردة. أحدثت مسدساتى الأنيقة اهتماماً
وانشغالاً كبيرين عندما أخرجتها من تحت حزامى الكبير، لكنها لم تكن صالحة
بمعنى الكلمة. كسب محمد السباق وحياء الجميع بصوت عال. وهنا بدأت أحس
شيئاً من الود تجاه ذلك البدوى الطويل، النحيف حاد الملامح الذى له عينان تشبهان
عينى الصقر ولا يتسم إلا نادراً. أحسنا أنه ربما يُثبت أنه حليف مخلص، فى
حين كان يوسف المتين، بوجهه النائم المدور، وعينيه الضيقتين، وشفتيه الغليظتين،
ولسانه اللبق، لا يفكر فى شىء سوى العودة إلى موطنه بأقصى سرعة ممكنة.

من حسن حظنا أن راح الناس يفسرون هربنا من إجدابيا على أنه مهمة
سياسية، وأنا قبل الخروج تماماً من البلدة، كان اللاسلكى الصحراوى قد أذاع أننا
كنا نترحل يوازع من مسألة سيدى إدريس. اتضح لنا بشكل مؤلم بعد اليوم الأول
أن التدخل غير العادى من جانب القدر وحده هو الذى يمكن أن يغرى أحداً من
المرافقين لنا بمجابهة أخطار الطريق من إجدابيا إلى الكفرة، وعليه رحنا نشجع
الجميع على الوثوق بمهمتنا بكل الطرق الممكنة التى تيسرت لنا. العربى بطبيعته
يحب السرية. والغموض هو النفس الذى يصدر عن فتحتى أنفه. هروبنا عند
منتصف الليل، والأوامر الصادرة إلى كل من يوسف ومحمد فى اللحظة الأخيرة،

ورغبتنا القوية فى السرعة، وكذلك الجاسوس الذى حمل لنا رسالة من إجدابيا خلال أربع وعشرين ساعة، والقافلة الكبيرة التى جرى تجهيزها بفعل كرم السيد رضا، كل ذلك أوحى للعربى بسر مهم يتعين المحافظة عليه بحيواتهم وحيواتنا. وهذا يعنى أننا لم يعد ينظر إلينا على أننا ضيوف السيد رضا المترجلين الذين يتعين إحباط نزوتهم المجنونة إلى زيارة المدينة المقدسة، مهما كلف الأمر. هذا يعنى أيضاً أننا أصبحنا رؤلاً غامضين نحمل أوامر مقدسة من سيدهم! وسوف يتعين علينا فى الحال، أن نجتمع على المهمة التى دفعتنا إلى القيام بها، من خلال رحلة من هذا القبيل فى فصل الشتاء، لكننا يتعين علينا أيضاً أن نعانى فى سبيل العمل من أجل سيدى إدريس السنوسى، ومن ثم نكون نعمل من أجل الله ﷻ!

استيقظنا عند الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم الثالث عشر من شهر ديسمبر، على انطباع مفاده أن قافلة الشيب سوف تستفيد فى ترحالها من برودة فترة الصباح، لكن بعد ذلك بثلاث ساعات كنا لا نزال نشرب الشاي داخل الزريبة شبه الدائرية التى أقامها التجار. تتسم الضيافة البدوية دائماً بالكرم لكن هؤلاء الناس أفعمونا بحنانهم. أرسلوا لنا فى صباح ذلك اليوم سلة مملوءة بالمكسرات، تلتها أكواب من الشاي المر. ذهب حسانين إلى مخيمهم كى يشكرهم وأصروا على بقائه معهم. انضممت إليهم أنا بعد ذلك، وجرى فرش أفضل بطانية حمراء اللون لى بجوار الشيب. هناك انطباع خاطئ فى أوروبا مفاده أن المرأة المقنعة فى الشرق تساء معاملتها ويجرى إرهابها بكثرة العمل. القرآن يخصص نصف السورة رقم ثلاثة لسلوك الرجل تجاه النساء. إذا ما سألت امرأة سورية التخلّى عن حجابها فسوف ترد عليك "ليس قبل أن يتعلم الرجل تعليماً أفضل"، لكن المرأة البدوية لا تستر سوى وجهها فى حال وجود الرجال الغرباء. وهى تختلط اختلاطاً حراً مع أفراد القبيلة، ويجرى تقاسم العمل بينهم بالتساوى. كنت فى أحيان كثيرة وأنا مع القافلة أحاول نصب عمود من أعمدة الخيمة أو دق وتد من أوتادها

لكنهم كانوا يقولون لى "هذا من عمل الرجل. لا تتعبى نفسك، يا ست خديجة". كان الشيب كلما رأتى أخذ قسطاً من الراحة عند الظهيرة يقول: "الست خديجة تعبانة. هيا بنا نتوقف بعض الشيء." من ناحية أخرى، يتوقع الرجال من المرأة المسلمة القيام بكل الأعمال داخل الخيمة. فهى التى يتعين عليها طهى الطعام، وهى التى تقوم بغسل الأطباق بعد ذلك. ومن يمن الطالع، أن طعمنا فى ذلك الوقت كان محدوداً. إلا أنى لم أفقد امتيازى بسبب عجزى عن طهى أى شىء ما عدا عمل الخبز الثقيل غير المخمور.

ويعد شرب الشاى مناسبة قد تستمر من ساعة إلى ثلاث ساعات. إذا ما أراد الإنسان التعجيل بالسفر فإن ذلك يمكن أن يحدث أثناء الليل، لكن المجبرة ليست العجلة من طبيعتهم، وعليه بقينا مع أكواب الشاى فى الوقت الذى انصرف فيه خادماهم وأسودينا إلى عمل الشاى على الجمر الحار. وهم يملئون نصف براد الشاى بالسكر ريعه بالشاى ثم يصبون الماء فوقه. ويتذوقون ذلك المشروب الحلو الثقيل حوالى ست مرات يومياً ويظلون يصبونه من إناء إلى إناء، ويضيفون إليه ماءً أو يعيدون عليه إلى أن يروق لهم مذاقه. ويُشرب الشاى بعد ذلك بإحداث أكبر قدر من الضوضاء وذلك من باب التعبير عن الشكر والامتنان. وعندما يعتقد المضيف أن وقت إنهاء الحفل قد انتهى، فإنه يقوم بإضافة النعناع إلى الشاى، وهنا يقوم الضيوف بتناول الكوب الأخير المحلى بالسكر والمعطر بالنعناع فى إشارة منهم إلى الرحيل وفى الوقت نفسه يكون الضيوف قد تبادلوا كل شكل من أشكال الحديث، وحكوا الكثير من الحكايات غير المترابطة التى لها نكهة قصص ألف ليلة وليلة. تأدب العرب مع بعضهم البعض يعد شيئاً مدهشاً، وهذا التأدب يكشف عن نفسه فى الأعمال وأيضاً فى الكلمات. هذا فى الوقت الذى لم يحدث أن خاطب يوسف ومحمد بعضهما دون أن يستعمل كل منهما السابقة التى تدل على الاحترام "سيدى" Sidi، يزداد على ذلك أنهما كانا يحثان بعضهما على ركوب الجمل الوحيد

المتيسر لهما أثناء حرارة الظهيرة. حدث ذات مرة أن كان محمد راكباً ذلك الجمل، ولاحظ أن موسى الشيب كان يبدو عليه التعب. فقال له "نحن نتقاسم بالتساوى. ومالنا هو لك أيضاً." ونزل من فوق الجمل وأصر على أن يركب مكانه. كانت القافلة ودية إلى حد أنها كانت تحبو على مراحل قاصدة الجنوب. تمثلت متاعبنا الوحيدة بحق في كسل يوسف من ناحية وغممة الأسودين من ناحية أخرى، وبخاصة أنهما كانا يتصلان من أصغر الأعمال. وفي اليوم الثالث عشر من شهر ديسمبر بدأنا السير عند الساعة التاسعة والنصف وخيمنا عند الساعة الثالثة والنصف عصرًا، وقت أن كانت الشمس لا تزال حارة، إذ يبدو أننا تصادف أن وصلنا إلى بقعة من الأرض عامرة بالحشائش الخشنة عديمة الراحة والتي تصلح علفاً للإبل. كان الناس عند الظهر قد انسلوا خارجين عن القافلة الواحد بعد الآخر لينبطحوا على الأرض وهم يغمغمون قائلين "بسم الله الرحمن الرحيم". عموماً، قام اثنان منهم بالسير مسافة مائة ياردة في اتجاه الأمام وبندفيتاهما مستعدتان، لكننا لم نر شيئاً مثيراً غير عدد قليل من الغزال عن بعد. بعد الانتهاء من تنزيل الأحمال عن الإبل، أدينا جميعاً صلاة العشاء، أو بالأحرى "الفجر" وإن شئت فقل الصلاة الرابعة^(*). كنت لا أزال أحس بالألم عندما أدخل قدمي أو أخرجها من الحذاء الأصفر، لكن التمدد السنوسي يعد حافزاً قوياً جداً على مراعاة كل تكليف من التكليف الإسلامية.

كان موسى الشيب هو وأقاربه يصرون دوماً على مساعدتنا في نصب الخيمة. وكان هناك شجار دوري خفيف على من سيقوم بدق أوتاد الخيمة، الأمر الذي كان يسر خاطر الأسودين الكسولين. أذكر جيداً أن تلك كانت أحسن الليالي التي أمضيها في الصحراء، إذ كانت خالية من الريح، وهادئة، والقمر فيها هلالاً،

(*) يبدو أن هناك خطأ من جانب المؤلفة في مسألة الصلاة: فهي تعتبر الفجر Fajr الصلاة الرابعة. (المترجم)

وتلك الزرقاء الغربية التى لا يراها الإنسان إلا فى الصحراء فى بعض الأحيان. تنامت إلى مسامعنا تلك الأغنيات الرثيئة الحزينة، التى كانت تصلنا من المخيم الصديق المجاور لنا، ومن الصحراء الواسعة البيضاء التى تتخللها السلاسل الجبلية، والكثبان الرملية، والتى تحيط بنا من كل جانب.

صعدنا ببطء ودون أن نلاحظنا أحد من الوادى الفارغ Wadi Farig إلى أرض منبسطة منخفضة تتخللها بين الحين والآخر تموجات فى اتجاه الشرق والغرب، وفيها أيضًا بعض الكثبان الرملية المبعثرة والتى لها قمم مربعة الشكل. وعندما كنا فى اليوم التالى على وشك الوصول إلى بير رسام Bir Rassam، أكدت التموجات تحولها إلى سلاسل صخرية وبدت المنطقة وكأنها بركانية الطابع، إذ بدأت تظهر لنا عن يميننا سلسلة من التلال المربعة المرتفعة ومن فوقها نوع من التركيب الصخرى.

كان بوسعنا الوصول فى سهولة ويسر إلى الآبار مساء اليوم الثالث عشر من شهر ديسمبر، لكن أصدقاؤنا كانت لديهم أفكارهم الثابتة فى مسألة التخييم ولا يمكن تغيير هذه الأفكار بأى حال من الأحوال. كان أصدقاؤنا يودون تمضية حرارة النهار فى منطقة بير رسام، ويسقون ماشيتهم ويرتوون هم أيضًا فى وقت فراغهم، وعليه أيقظونا عند الساعة الخامسة صباحًا فى اليوم الرابع عشر من شهر ديسمبر، وبدأنا مسيرنا فعلاً عند الساعة السادسة والرابع. كان الصباح جميلًا، لكنه كان باردًا كالعادة. كان حسانين يمشى مع موسى الشيب العجوز، الذى اقتبس المثل العربى الذى يقول: "ينبغى على المرء ألا ينام على الحرير إلا بعد أن يمشى على الرمل"، لكنى كنت أُلَف نفسي فى كل البطانيات المتيسرة لى وأنا على ظهر جملى الغيور، الذى قسم وقته بين عض الذكور المنافسين وهجمات الغزل والحب على النوق.

بدأت وأنا أحس بالبرد الشديد، أشعر بجوع شديد أيضًا! كان تموين اليوم السابق عبارة عن سردينتين وكوب من القهوة فى الإفطار، وحفنة من التمر عند

الظهير، ونصف عتبة لحم محفوظ فى العشاء، لم يكن هناك متسع من الوقت للطعام فى صباح ذلك اليوم، لكن موسى الشيب الحنون كان قد أحضر نى سلطانيه من لبن الإبل اللذيذ، الذى كان لا يزال دافئاً. ولو خيرونى بينها وبين أشهر الأطعمة لما تخلّيت عنها!

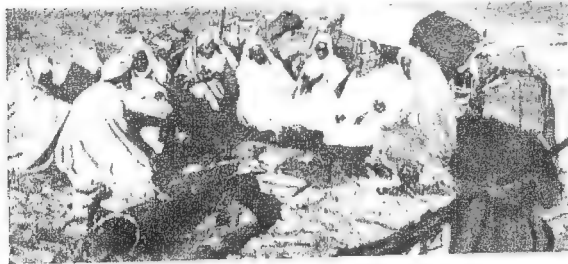
كنا قد خلفنا وراعنا آخر طلل من أطلال الأرض التى لها لون بنى فاتح ضارب إلى الصفرة هى والأعشاب الخفيفة رمادية اللون، وهنا بدأت تطالعنا التلال الرمزية المربعة غريبة الشكل التى سبق أن تعرفنا عليها فى إجدابيا. نظرنا فى تجاه اليمين إلى الطرف القصى من الأرض المنبسطة المنخفضة ونزلنا بصورة ممتدة ومتدرجة إلى سهل فيه رمل أبيض عميق من الصحارى الجنوبية، تتخلله الأعشاب الكبيرة والأدغال، التى من الحياة النباتية ذكية الرائحة، وفيه أيضاً مجموعات من النخيل المنخفض أخضر الأوراق، وكنا نرى هنا وهناك نخلة واحدة عالية. هناك ثلاث آبار فى المنطقة المجاورة لبئر رستم، وهذه الآبار ينبع دائمة، اثنتان منها مالحة الماء لكن يمكن استعماله فى الشرب، أما البئر الثالثة، التى تقع على بعد عدة كيلو مترات فى الجنوب فماؤها شديد الملوحة.

مع اقترابنا من الآبار - عند الساعة التاسعة والرّبع صباحاً - ظهرت لنا أسراب من الإبل قادمة من مختلف الاتجاهات. راح محمد يطيل النظر إلى هذه الإبل بعينين حالمتين. قال معبراً عن تقديره وامتنانه: "الزّويا Zouia أثرياء؛ انظري إلى هذه المئات من ماشيتهم!" كان هناك، طوال فترة الصباح، قطع كبير يقدر بعدة مئات يتجمع حول البئر بالإضافة إلى بعض الأغنام والماعز، لكننا خيمنا عند سفح جبل صغير من الرمل، من فوقه كتلة من النخيل القصير، ورحت أجهز فى ملجأ بسيط وجبّتنا الهزيلة. لم يكن لدينا فى الليلة السابقة حطب لإشعال النار،



CAMP OF MOJABRA MERCHANTS AT BIR RASSAM.

مخيم تجار المجابره فى بيدرسام



HASSANBEY AND MOJABRAS DRINKING TEA.

حسانين بك يشرب الشاى مع المحابرة

وعليه كنت فرحة بعمل شاي حار، وكنت على وشك عجن خبزي الثقيل غير المخمور، عندما أكد لي مغرب Mighrīb، أبهى المجابرة كلهم، ذلك الشاب المبتسم، وهو يرتدي قميصه الأبيض الممزق الذي كشف عن ذراعيه البنية، وعن صدره، إنه يستطيع عمل خبز أفضل مما أعمله أنا. أخذ مغرب مني العجين وبعد أن راح يضرب العجينة بقبضه يده مرات عدة، وبعد الخبز، جاعني بمادة سوداء مغطاة بأثار الفحم النباتي شبيهة بالطبق؛ لكن هذه المادة كانت أرفع وأنحف من مادتي، وعليه أكلنا الخبز مع التمر والمكسرات ونحن نشكر النعمة. ثم لففت نفسي في الجردة (اللباس الوطني) ونمت إلى أن استيقظت على ساعي البريد الذي جاء من الكفرة، والذي سبق له أن سمع عن علاقتنا وصلتنا بالسيد رضا. كان ساعي البريد رجلاً طاعناً في السن، وله لحية بيضاء مثل جردته، لكن الرجل أستطاع إنجاز المهمة المدهشة التي كان يسافر خلالها بلا ماء طوال أيام عدة، هذا الرجل يسافر كل عام مرتين في مهام تخص الحكومة السنوسية عبر الصحراء الليبية، على جمل واحد سريع وجوالين من التمر والحبوب!

عاد حسانين ومحمد إلى الآبار، بعد أن سقيت الإبل، وبعد امتلاء الفناطيس بالماء، أملاً في حصولهما على شيء من الحليب، وعندما كانا في منطقة الآبار استجوبهما مرات عدة اثنان من البدو قساة الملامح، عما إذا كنا فعلاً قائمين بعمل خاص بالسيد إدريس. وهل هذا العمل في مصلحة الرجل؟ وهل هذا التحرك بناء على أوامر فعلية منه؟ وهل معنا رسائل؟ إلخ. سألهما حسانين عما إذا كانا شيخين من شيوخ القبائل وعندما ردًا عليه بالنفي، قال إنه لا يود إطلاعهما على الوثائق المقدسة. في ذات الوقت، كان رئيس المجابرة تجرى له عملية حلاقة بواسطة أحمد في ظل نخلة من النخيل. وبينما كنا في منتصف الطريق أثناء المسير طلب مني رئيس المجابرة مرآتي الصغيرة، واتضح أنه لم يكن راضياً عن الحلاق المتحمس قليل الخبرة، وراح ينهي هو حلقته بنفسه مستخدماً في ذلك مقصاً بحجم مقص جز

الأغنام. جاءوا كلهم بعد ذلك وتحذثوا معي وأنا بدوري وعن غير قصد رحلت أداعب يوسف بخصوص كسله وقوله إنه لا يصلح إلا لحياة الحضر.

قال يوسف لقد تركت كل ما له علاقة بالقافلة. ونحن أيضا فعلنا الشيء نفسه - سبعة جوانات كبيرة مملوءة! انظري، ليس له سوى ثَبَّة (*) واحدة وبركان واحد، والاثنتان متسخان." وقد بدا ذلك شيئاً جديداً على يوسف، وبخاصة بعد مساندة المجاورة لى. "قال موسى الشيب لقد رأينا أنهما يقتسمان معك كل شيء. ما الذى تريده أكثر من ذلك؟ وأنت إلى الآن لازلت ترتدى معطف الست." كانت جماعتنا قد اشتكت من البرد فى إحدى الليالى فى الوادى الفارغ، وترتب على ذلك أن أعرناهم كيسين من أكياس البراغيث المبطنة ببطانة مائعة للماء، كنت أخبئهما فى فراشى، وراحوا يرتدون هذين الكيسين ليلاً ونهاراً، حتى فى عز الشمس فى وقت الظهيرة.

رحلنا عند الساعة الثالثة والنصف عصرًا، وواصلنا سيرنا خلال رمل أبيض يكاد يعمى العيون؛ كان ذلك الرمل ناعمًا وعميقًا، واستمر الحال على هذا المنوال إلى الساعة الثامنة والنصف، لكننا أبطأنا المسير جدًا فى الساعة الأخيرة، عندما بدأت تظهر لنا من جديد الحشائش القصيرة رمادية اللون وراحت الإبل ترعى تلك الحشائش أثناء المسير. مررنا على قطيع يرعى وقصد موسى الشيب لتحية أصحاب ذلك القطيع، الذين كانوا مخيمين فى زريبة من الأمتعة المكوّمة، ويشرب معهم الشاي الثقيل. خيمنا تحت بعض الأدغال الرمادية الضخمة التى لها رائحة ذكية مدهشة وأكلنا ما تبقى من خبز مغرب الأسود غير المخمور، مع شيء من حليب الإبل إضافة إلى نصف علبة من اللحم المعلّب، عندما كانت لوحة غروب الشمس العجيب الذى كان على شكل ريش من اللهب وردى اللون أسفل القمر الفضى الذى على شكل هلال.

(*) الثَبَّة: الثوب الحرىمى (كلمه عاميه لبيبه). (المترجم)



FLOCKS WATERING AT BIR KASSAM.

قُطْعَان تُسْقَى مِنْ بَيْر الرِّسَامِ

كنا قد تعودنا على قفل جناحي باب الخيمة بعد تناول وجبة المساء، بغية تدوين المذكرات اليومية وعمل خرائط الطريق البسيطة، نظراً لأننا كنا ننشر الشكوك والقلق إذا ما تناولنا أثناء النهار قلماً من الرصاص وكراسة من كراسة تدوين الملاحظات. كنا قد رسمنا بعض الخطط عندما كنا في إنجلترا، عندما كنا نتناول الغداء في مطعم كلاردج بروعته الشرقية، للقيام بعمل مساحي صغير في ليبيا، لكننا لم نعمل كثيراً على التشدد السنوسي. أنا أرى أننا كنا في حكم المجاتين عندما تخيلنا أن مسيحية يمكن أن تكشف عن وجهها في إجدابيا، في بلد يتمثل فيه عمل كل إنسان في قتل النصراني. صحيح أن الأجواء الفكرية تغيرت منذ اليوم الأول، عندما كنا نسأل عبثاً عن اسم قبيلة من القبائل أو منطقة من المناطق، وكان الناس ينظرون إلينا باعتبارنا جواسيس. في مخيمنا الأول، طلبت من واحد من الأسودين أن يحضر لي جملاً، وهنا وجدته ينظر إلى زميله الجندي متعجباً، "هل مفروض علينا قبول الأوامر التي تصدر إلينا من امرأة مسيحية ملعونة؟ طلقه واحدة، وستعود بعدها إلى بلدها المسيحي!"

تغير موقفهما بعد ذلك. قال: "مشيء الله ^{عز وجل} غريبة علينا، لأن هذه المرأة مسلمة في واقع الأمر." كانت الصداقة العامة لم تمتد بعد إلى الأدوات أو المذكرات. سألتني يوسف لماذا تحتاجين إلى بوصلة؟ نحن نعرف الطريق مثلما نعرف قلوبنا. "فهمنا هذه التلميحة وقمنا بإخفاء البوصلات في طيات ثيابنا الوطنية، وكنت لا ألبأ إليها إلا سرّاً. لقد أعجبهما جهاز البارومتر^(*) لأنه كان يوضح حال الطقس، وعليه فإن الحاشية الرسمية لم تهتم بوجود البارومتر خارج الخيمة في بعض الأحيان، لكن كان لابد من إخفاء البارومتر عن أعين الزوار كلهم. لو استعملت التيودوليت^(**) لجاء ذلك من قبيل المستحيل. كان مرشدونا يكرهون كل

(*) البارومتر: جهاز قياس الضغط الجوي. (المترجم)

(**) جهاز تقدير المسافة. (المترجم)

ما يتعلق بعمل الخرائط. قالوا: "نحن نحمل الطريق في رعوسنا." لم أجروا على تدوين اليوميات العادية على الملأ اللهم إلا إذا تظاهرت بأني أكتب رسالة!

استطعنا جرهم بصورة متدرجة إلى الحديث عن الطرق والأماكن بقليل من الشك، لكن بقي الأمر خطيراً مدة طويلة، وحتى بعد أن استطعنا أن نحظى بثقتهم بصورة أو أخرى، تعين علينا التعامل تعاملًا عابرًا تمامًا مع ردودهم المتعلقة بالأسماء والأماكن. كانت مسألة قيامي بتدوين ملاحظة عابرة عن أى اسم من الأسماء تقضى إلى إثارة الشكوك الحادة. تعين علينا - قبل الحصول منهم على المعلومات - تحطيم فكرتهم الأساسية التى مفادها أننا كنا نترحل طلبًا للمتعة الشخصية من ناحية وبناء موقف جديد تمامًا مكون من كلمة بكلمة وعمل بعمل من الناحية الثانية- وأنا موفدون على غير رغبة منا من قبل سيد إدريس، فى مهمة تبلغ من السرية والأهمية حدًا برر هربنا عند منتصف الليل ومصاعب رحلة لا طاقة لنا بها إلى حد كبير.

شهد اليوم الخامس عشر تحركنا على الطريق عند الساعة السابعة وثمانى عشرة دقيقة صباحًا بعد عملية حزم متعبة للأمتعة أثناء هبوب عاصفة شديدة. فقد شردت الإبل هنا وهناك على شكل دوائر وقلبت أحمالها ومعها بعض من مائتنا الثمين الذى تقاطر من الفناطيس. يعد بنر الرسام آخر الآبار الجيدة على الطريق المؤدية إلى العجيله. كان لا يزال أمامنا مسيرة ثلاثة أيام بلا ماء وكان الأسودان مهملين تمامًا. كنا لا نستعمل سوى ربع جالون من الماء كل يوم لكل واحد منا. أصبح وضوعنا اليومي اعتبارًا من مغادرة الوادى الفارغ عبارة عن مجرد غسل للأيدى والوجه كل مساء فى بوصتين من الماء المختلط بالطين! وبعد أسبوع تعودت على عدم الاغتسال، وعندما وصلنا إلى العجيله كنا قد نسينا حتى الإحساس بالأتساخ! وتحول الأمر إلى تنافس بيننا حول التقليل من استخدام الماء، وبذلك نتمكن من الاستعداد لطريق الكفرة المميت الذى ليس فيه سوى بنر واحدة على امتداد طريق شاق يدوم السير فيه اثنى عشر يومًا.

زودنا اليوم الخامس عشر من شهر ديسمبر ببعض الأحداث القليلة. فقد ركبنا دوابنا مدة سبع ساعات موحشة أثناء هبوب ريح جنوبيه باردة. لفنا أرديتنا (جيرد) الوطنية هي والبطاطين حولنا وتظاهرننا بعدم الجوع بعد أن تناولنا غداء مكوناً من خمسة أقراص من اللبن الحليب المخلوط بالمولت. مررنا على مخيم من مخيمات المجابره الذين كانوا ينالون قسطاً من الراحة لمدة ساعة في وقت القيلولة، على حين كانت إيلهم ترعى من حولهم، وبينما كنت أخبئ وجهي في البركان وأستحث جملي على السير، ذهب حسانين مع موسى لشيب لتحية المجابره. وعندما لحق بي بعد عشرين دقيقة سألته بحدّة بدائيّه، "هل قموا لك شايًا؟" وقبل أن أعي الشاعر المضحكة التي يوصل لجوع المرء إليها! نظر إلى حسانين نظرة تتم عن عدم الفهم. قال حسانين متجهماً: "لا؛ لكنهم طلبوا منا انتظارهم عند غروب الشمس".

جاءت اللحظة المبهجة الوحيدة عند الساعة الثانية بعد الظهر، عندما أحضرت الترموس Thermos وأعطيت كل فرد من أفراد قافلة موسى الشيب ملء الفم من الشاي الحار. قال الرجل المسن ليس لدينا نار، ولا يمكن أن نتوقف كي نوّقد ناراً. "وجاء ذلك بمثابة أعظم انتصار لحسانين. كنت أنا التي عارضت مجيء هذا الترموس الكبير. كان الترموس كبير الحجم، وثقيلاً، ولم يكن له بطبيعة الحال جراب أو حزام. كان ذلك الترموس من ممتلكات حسانين، وعلى الرغم من أني كنت قد أهملته وتخلّيت عنه حوالى ست مرات، فإنه كان يظهر من جديد. وهذا هو موسى الشيب يشرب من هذا الترموس وهو مندهش. تساءل موسى الشيب "أين النار؟" ومن باب تجنب فتح النار علينا، من منطلق أننا سحره ونمارس السحر، دخلنا على الفور في تفسيرات وشروح معقدة تتعلق بصناعة الترامس.

لم نلتق في ذلك اليوم البارد المترب سوى رحالة واحد. قال حسانين: "فيما يتعلق بصحيفتك فهي طبعه قديمة إلى حد ما." لكن ذلك الرحالة كان خالياً من الأخبار اللهم باستثناء أن القافلة ربما تبدأ من جالو قاصدة واداي Wadai خلال

أسبوع أو أسبوعين. أما فيما يتعلق بقاقلتنا، فإن المجابره، الذين اقترحوا علينا انضمامهم إلينا فى تلك الليلة، فقد قاموا برحلة سريعة من إجدابيا، وغادروا المكان فى صبيحة اليوم الثانى عشر من شهر ديسمبر، أى بعد مغادرة موسى الشيب للمكان بثلاثة أيام. أبلغونا أن رجالنا كانوا لا يزالون يشترون "الضروريات"، لكنهم اقترحوا علينا أن يبدأ التحرك فى اليوم التالى. وأنا أعتقد إننا منذ تلك اللحظة قررنا بالإجماع من الجانبين عدم تعليق الأمل على مجيء القافلة. يزداد على ذلك أن سلوك الأسودين جعلنا ندرك خطر الوقوع تحت رحمة ست من هذه المخلوقات مدة ثلاثة عشر يوماً، بعيداً عن متناول وصول أية مساعدة إنسانية. وإذا ما نضب الماء فقد يسرقون مائنا بكل تأكيد. وضمائنا للإفراط فى الطعام فقد يقومون بتحميل الإبل بأكثر من حمولتها. وقد يرفضون التحرك فى ساعة مبكرة أو مواصلة السير بجد. وبناء عليه فإن أخطار الأيام السبعة التى سنقضها بلا ماء، والتى ستبدأ الإبل بعدها فى الكشف من إرهاقها وتعبها، قد تصبح شيئاً لا طاقة لنا به. وعليه بدأنا نخطط لمغادرة جالو قبلهم ولم نأخذ معنا سوى محمد ويوسف واثنين من المرشدين الذين يمكن الاعتماد عليهم.

عادة ما تكون الساعة الأخيرة من المسير اليومى هى الأكثر بهجة، نظراً لأن الجميع يكونون فى عجلة الوصول إلى المخيم، والحقيقة الغريبة أن الإبل نفسها تعجل من خطاها وتسلك خطأ مستقيماً على صوت الغناء. من هنا راح الأسودان وجمالة موسى الشيب يغنون أغانى ذات ألحان بريّة عن الحب والشجاعة إلى حد أن جملى الكبير الأشقر نسى بقبقة الغرامية ويمم أنفه نحو الأفق. فى ذلك اليوم تحديداً، كنا قد يمينا مسيرنا صوب الجنوب عبر أرض رملية متدرجة خالية من الحياة النباتية اللهم باستثناء المنطقة التى ظهرت فيها التلال المربعة المفاجئة هى والروابي عن يميننا فى منطقة بئر مارج، الذى يبعد مسافة ثمانية عشر كيلو متراً عن بئر الرّسّام. هذه البئر لا تحتوى إلا على ماء مالح لا يصلح للشرب، لكن



SHEIK'S CARAVAN ON THE MARCH BETWEEN WADI FARIG AND AUJELA.

قافلة موسى الشيب أثناء سيرها بين الوادي الفارخ وعجيله

يوجد من حول هذه البئر منطقة تقدر بحوالى ميل مربع من الحشائش الخفيفة
الخشنة وأدغال كبيرة من أشجار القندول ذكية الرائحة التى عطرت نومنا فى الليلة
السابقة. كنت قد رأيت على الخرائط المتيسرة واديا أخضر يمتد بطول المسافة من
بئر الرسام إلى العجيلة، لكن هذا الوادى لا وجود له إلا فى خيال من رسم
الخريطة.

واصلنا سيرنا راكبين عبر رمال متحركة حتى الساعة الثالثة بعد الظهر، عند
سفح صخرة رملية تبعد ياردات قليلة عن تل مربع الشكل يسمونه عريضه Arida.
خيمننا عند آخر مكان يتوفر فيه الحطب. هبت علينا ريح الجنوب أثناء الليل وأضافت
المزيد من الرمال إلينا وإلى الأشياء المحيطة بنا وانخلعت أوتاد الخيمة من جانب من
الجوانب وخرجنا فى الظلام الدامس لدق هذه الأوتاد من جديد.

شهد اليوم السادس عشر من شهر ديسمبر بدء ترحالنا عند الساعة السابعة
والنصف نظراً لنجاح فراج فى قلب فنتاس من فناطيس المياه وكان موسى الشيب
العجوز متخوفاً من مسألة ما معنا من ماء. وعندما بدأنا نحس أن هناك قدراً من
التعاطف بيننا وبين المرافقين لنا حاولنا استعمال عدّاد السير لأول مرة فى ذلك
اليوم. اعترضت "الناقاة" العصبية التى كان يركبها حسانين على مواصلة السير
اعتراضاً شديداً، ونظراً لأنها كانت تسير على شكل دوائر، فلم نكن نعلق عليها
نفعاً كثيراً. لكن جملى لم يغير خطاه مطلقاً اللهم باستثناء عضه واحداً من
الحيوانات الأخرى، لكنه كان يستسلم بعد قليل من الخطوات الغاضبة، للحزام
الموجود على ركبته، لكن مسألة الإبقاء على سيره فى خط مستقيم على امتداد
ثمانى ساعات كانت عملية مضيئة. على كل حال، لقد قاس العدّاد المسافة بدقة
بالغة، وبعد مسيرة ثمانى ساعات أوضح أننا قطعنا ستة وثلاثين كيلو متراً.

ليس هناك مسار واحد فى المنطقة ما بين إجدابيا وعجيلة. وتقدر المسافة
بينهما فى اتجاه طيران الغراب بحوالى ٢٢٠ كيلو متراً. هناك طريق رئيسى يبدأ

من الوادى الفارغ. وبعد ذلك، يمكن المسافرين الانحراف جنوباً فى أى اتجاه إلى رقعة من الأرض يصل عرضها إلى حوالى عشرة أميال. سرنا فى الطريق الذى ارتأى أصدقاؤنا أنه يوفر أفضل الأعشاب وحطب الوقود، لكن هذا الطريق لم يكن مطروقاً، وبالتالي يعد أكثر الطرق خطورة. قال مغرب بهى الطلعة: "لا أحد يجيء من هذا الطريق دون أن يخشى الإشتباك"، وبعد حوالى أقل من نصف ساعة ظهرت لنا من بين التلال الرملية جماعة مكونة من ثمانية رجال، ليس معهم إيل، ستة منهم سود واثنان من العرب. قال موسى الشيب فى هدوء تام "هذا هو دير سلام Der Salaam! سيقومون بالهجوم علينا." معروف أن أية مجموعة من البشر تسير فى الصحراء بلا إيل تصبح مثاراً للشكوك. وهذا هو أسلوب تنقل اللصوص حتى يتمكنوا من التفرق على وجه السرعة. سيأتى بعضهم إلينا للتحدث معنا. سيكون أصدقاؤهم مختفين خلف هذه التلال. وسوف يفتحون النار علينا لجذب انتباهنا ثم يقوم بعدنذ الرجال الذين يتحدثون معنا بالهجوم علينا. وإذا ما قتلونا فإنهم يأخذون القافلة." فرح الأسودان على الفور، فقد كانت فكرة القتال تحركهما بصورة مستمرة. تناول كل واحد منا بندقية، لكن الواضح أن استعراض القوة، أو أن السودانيين أخافا هذه المجموعة الغامضة، مما جعلها تولى الأدبار فجأة دون إلقاء السلام لتختفى فجأة مثلما ظهرت فجأة.

شئ عجيب أن يخاف البدو أولئك العبيد السود الذين يفدون من السودان عندما يكونون فى سن الثامنة أو العاشرة، ويجرى تدريبهم على الجندية بواسطة عائلة السنوسى. هؤلاء العبيد السود يكونون أشرس من الرجال العاديين. لقد رأيت القتل فى عيني فرأج الذى لا أسنان له، عندما رفضت إعطاءه المزيد من السكر، ومع ذلك فإن هؤلاء الجنود العبيد شجعان ومخلصون لسادتهم. العبد الطيب مثل على، طبابخنا المحبوب فى إجدابيا، يساوى وزنه ذهباً. كان هناك فارق كبير من حيث الشخصية بين الفراجيين. كان وجه أحدهما مربعا وفمه فيه قليل من الأسنان

الصفراء اللون المكسرة. كان شكاء وكسولاً إلى أبعد الحدود، ومتصلاً من الأعمال كلها، ويسرق كل ما تصل إليه يده. أما الفراج الثانى فكان ضخم الجثة، وحشياً وغيبياً وفيه شيء من طبيعة الكلاب كان يأتى لنا فى بعض الأحيان، بالتمر أو الدقيق وهو يقول: "لدينا المزيد. لماذا لا تأكلين؟" كنا نرى أن بالإمكان تحويله إلى خادم جيد ولكن بصورة متدرجة، لأنه لم يكن يمانع فى القيام بعملية الطبخ والغسل. كانت وجهه نظر الفراجين تتمثل فى أنهما جنديان وليسوا خادمين. كانا على استعداد للقتال، لكنهما لم يكونا على استعداد للعمل. واقع الأمر أن القافلة التى يحرسها السود يندر الهجوم عليها، نظراً لأن البدو يعرفون أن القافلة سيجرى الدفاع عنها إلى آخر رفق.

عندما سرت فى إجدابيا فى البداية شائعة مفادها أن امرأة غنية كانت تترحل فى الداخل، وأن مسألة توفير حرس لها تعد أمراً ضرورياً، عرض السيد رضا فى الحال تقديم بعض عبيده الجنود. لم نستطع الإمساك بكل خيوط الموقف الذى خلفناه وراءنا إلا بعد مغادرتنا القرية الطينية الصغيرة الموجودة على حافة العالم. كانت المسألة كلها عبارة عن تأمر وتأمير مضاد منذ اللحظة التى أقسمها فيها الحاج فطاطر، ذلك الإخوانى المسن، عن طريق 'قراءة الفاتحة'، وتعهده بتوصيل المرأة الإنجليزية سالمة إلى الواحة المقدسة حتى تلك الليلة التعيسة التى هربنا فيها دون أن يكون معنا أحد من الحراس سوى محمد ويوسف ومنذ اليوم الذى تحدثت فيه أول مرة بين علماء إجدابيا عن رحلتى المحتملة، كان هناك واحد من الإخوان المتشددى الخائفين يعارض القيام بهذه الرحلة. حاول مراراً إثناء الحاج فطاطر عن مرافقتى ونجح فى محاولته. قال له "أنت كبير السن. ستموت على الطريق. أين كرامتك؟ هل سفرك أو ترحالك مع هذه النصرانية سيكون آخر أعمالك على هذه الأرض؟ حاشا لله!" ونظراً لأن هذا الرجل الكبير كان عمره فوق الثمانين عاماً فنحن لم نأسف على تغييره لראيه.

هناك واحد آخر من الإخوان جرى اقتراح مرافقته لنا، لكن هذا الإخواني طلب أربعين رجلاً لحمايتنا، على أن يكون من بينهم عشرة فقط من الجنود السود، لكن هذه المسألة أثارت شكوكنا ورفضنا مرافقة ذلك الإخواني لنا. علمنا بعد ذلك، أن ذلك الإخواني صدّق شائعة السوق التي ترددت عن ثرائنا، ولذلك راح يخطط لقتلنا في الصحراء، والاستيلاء على نقودنا ثم العودة آسفاً ونداماً، وهو يقول: إن قوة كبيرة من التبو Tebu حاملي الرماح قامت بالهجوم علينا، وأنه دافع عنا بشجاعة وأبلى بلاءً حسناً، لكننا قُتلنا نحن والجنود السود على الرغم من ذلك. تصرف الرجل على هذا النحو لأنه كان يعرف أن السودانيين سوف يطيعون الأوامر الصادرة لهم من سيدهم السيد رضا ويحمونا إلى آخر رمق. هناك دوماً نوع من الاحتكاك البسيط بين هؤلاء المحاربين السود والعرب. ولا يمكن أن يجتمعوا مطلقاً. لهذا السبب قرر ذلك الإخواني الماكر أن تكون قوته كبيرة على النحو الذي يمكنه من قتل الجنود ونحن معهم. النسبة بين البدو والسودانيين توضح إصراره على أن يكون عدد البدو أكبر من عدد السودانيين كما أن قسوة الجنود السودانيين يجرى تشجيعها بكل الوسائل الممكنة، إضافة إلى العقاب الوحشي حيث أن الجندي السوداني عندما يعصى أمراً يجرى جلده أو قطع يده!

تميز اليوم السادس عشر من شهر ديسمبر بالحيوية بسبب آمال محمد المرتقبة في الزواج. كان من بين المسافرين ضمن قافلة موسى الشيب، رجل يدعى عمر؛ وكان مالكاً لجملين أو ثلاثة فضلاً عن كونه أعور ضخمة الجثة، وحشي الملامح. قيل أن هذا الأعور له أخت شديدة الجمال. اهتز محمد لهذا الكلام. قام محمد بالتحريات المطلوبة وعرض في نهاية المطاف التقدم لطلب يد هذه الفتاة بعد العودة من رحلته. كان محمد رجلاً كبيراً في عين البدوى. كان محمد يحظى بثقة السيد رضا، زد على ذلك أن محمد كان طويل القامة ممشوق القوام متناسق الأطراف؛ كما أنه كان عربياً نحيفاً بهي الطلعة، يتباهى بعرقه

ونقائده وموروثاته التى تحيط به من كل جانب. وافق عمر على العريس على الفور، واتفق الرجلان على أن يكون الصداق المقدم ثلاثة جمال يدفعها العريس إلى والد العروس. بعد ذلك، راح الجميع يضعون خططاً للزواج، للمرة الثالثة أو الرابعة. تناهى إلى مسمع حسانين أن بالإمكان شراء العبيد فى الكفرة وعليه قرر هو على الفور إضافة جارية جميلة إلى ما تملكه يداه منهن، عندما نصل إلى هدفنا البعيد المبتغى.

كان من ضمن القافلة رجل لم يشارك فى خطط الزواج هذه. ظل هذا الرجل طوال خمسة أيام يمشى متنقلاً مع الجماعة، وهو يغنى ويتحدث حديثاً مبهجاً، مؤدياً بذلك نصيبه من العمل، ولم يحدث مطلقاً أن ظننت أنه مختلف عن بقية الجماعة، إلى أن قام محمد من فرط حماسه للزواج، بإطلاق عقال جملة ونادى قائلاً: "أمسكه يا أعمى!" وهنا، وبلا تردد قام الصبى الأعمى، فاقد البصر، بالإمساك بالجميل. كان الأمر غير عادى بالمرّة. ومن يومها بدأت مراقبة ذلك الصبى مراقبة لصيقة. رأيت هذا الصبى وهو يوجه الإبل إلى الاتجاه الصحيح. كان يقدر المسافة على نحو أفضل من الآخرين. وكان أكثر دقة فى تقديره للزمن. وقد ذكرنى هذا الصبى ببشار بن برد، شاعر العصور الوسطى العربى الحلبى الأعمى، عندما وصل إلى مدينة من المدن، وطلب منه أن يحنى رأسه فى أحد الشوارع نظراً لوجود عارضة خشبية ممتدة عبر الشارع من منزل إلى منزل آخر. بعد ذلك بعشر سنوات وصل بشار بدابته إلى المدينة نفسها، واندesh رفاقه لأنه اتحنى إلى الأسفل وسط طريق خال. وسألهم "هل لا زالت العارضة الخشبية موجودة؟"

البدو ليس لديهم فكرة عن تقدير المسافة. سأل أحدهم "كم ساعة تفصلنا عن عجيله؟" أجابوه "الصحراء لا تعرف الساعات." "هل هناك أيام فى الصحراء؟" "تعم، الصحراء فيها أيام. وإذا ما سرت بسرعة فهذا شىء. وإذا ما تراخيت، فذلك شىء آخر." وتتمثل الصعوبة فى تحديد المسافة بالأيام، فى أنه إذا ما نحينا



OUR CARAVAN APPROACHING AUJELA.

قافلتننا تقترب من العجيلة



AUJELA.

العجيلة

القوافل الكبيرة جانبًا، نجد أن تقدير كل واحد للمسافة إنما يتباين في ضوء طاقته هو. ومن هنا نجد أن حياة البدوى كلها تختصر في أقل تأثير ممكن. البدوى لا يستخدم سوى كلمات قليلة جدًا. لأن الفعل العربى الواحد له عشرات المعانى. وعلى سبيل المثال الفعل "شيل" Shil يمكن أن يعنى "أبعد، ارفع، احمِل، ارتد، تخلص من، أحزم، فُك، أسقط، ضيَّع، ألخ. الفعل "أكل" يجب أن ينصرف معناه إلى تناول الطعام، لكن عندما نقاتل جملان قتالاً عنيفاً وجدت محمد يقول: "إنهما يأكلان Are eating بعضهما". عرب الصحراء ليس لديهم أسماء للنباتات أو الزهور التى يرونها كل يوم. كنت قد سألت عن اسم شجرة ضخمة ريشية الشكل شبيهة بشجرة الكوروماندل Coromandel، والتى رأيناها أول مرة فى سوامى، وقيل لى: "ليس لها اسم. هى تستخدم فى عمل المنازل وفى الحطب".

كنا لا نزال عند الساعة الثالثة والنصف بعيدين عن العجيلة بمسيرة أكثر من يوم واحد وكان ماؤنا قد بدأ ينضب نظرًا للإهمال من جانب الأسودين. تلت ذلك محاولة مقلقة. سنحت لنا الفرصة برؤية يوسف الكسول وهو ينظر إلى الموقف بعين الخطر. لم يكن يتبقى معنا سوى علبتين من علب الطعام وحوالى رطلين من الدقيق ورطل من المكرونة. وتقرر أن نخيم مدة ساعتين لنيل قسط من الراحة بعد ركوب دام ثلاث ساعات، ثم نواصل المسير بعد ذلك على ضوء النجوم. أعطينا المرافقين لنا نصف الطعام مع آخر قطع من السكر، وأعدنا لأنفسنا قهوة على نار صغيرة فى حفرة حفرناها فى الأرض. كنا قد جمعنا فى ساعة مبكرة من النهار حطبًا من آخر بقعة من بقع الأعشاب الخفيفة التى مررنا عليها، وحملنا ذلك الحطب على أحد الإبل. كرهنّا فتح العلبة الأخيرة، لكننا كنا نعرف أننا يتحتم علينا المحافظة على الحبوب لتكون إفطارًا للرجال فى اليوم التالى. لم يكن لدينا جميعًا ما نأكله طوال النهار، سوى قليل من التمر وسلطانية صغيرة من لبن الإبل التى أعطاني إياها موسى الشيب الحبوب مع شروق الشمس. سوف أذكر دومًا ابتسامه

ذلك العجوز المتلوية عندما قال: "عندما تسعدين أنا أسعد أيضا. وعلى شرف السيد رضا، نحن على استعداد لأن نحملك على رءوسنا!" من يمن الطالع أن كانت الليلة عظيمة. عند الساعة الخامسة بعد الظهر صلينا المغرب وإلى الأركان المعتادة أضفت سجدة داعية أن نصل العجيلة يوم غد. كان ينبغي ألا أنظر إلى ذلك على أنه ممكن بأي حال من الأحوال، وأن تكون جماعتنا الكسولة قد جمعت هذا القدر الكبير من الطاقة. وعندما ظهر نجم المساء أحمر على الأفق جرى تحميل الإبل وبدأنا السير عند الساعة الخامسة والنصف في ضوء قمر على شكل هلال في سماء عامرة بالنجوم. معروف أن سير القوافل يكون أفضل أثناء الليل، والسبب في ذلك أن الإبل لا تحاول الرعى أثناء الليل. الجو بارد، والرجال يبدو عليهم الوجوم، وهم يغنون أغاني برية مستمرة ويحثون دوابهم على إسراع الخطى مستخدمين في ذلك صيحات، وصرخات غريبة "واصل سيرك، يا جميل!" "بئس نفسك، لأنك سترتاح حالاً!" "اصبر، أيها القلب القوي، لا تتعثر!" أو يكررون كورالاً مملأً شيء لطيف! شيء لطيف!" "مع السلامة!" وإذا ما صمت شخص منهم لمدة تزيد على دقيقة واحدة يروح الآخرون ينادونه بالاسم ويطلبون منه أن يكون صوته مسموعاً. وعليه، وفي ضوء زيادة البرد، والأغاني والصيحات المصاحبة لنا، واصلنا سيرنا مدة ثلاث ساعات ونصف الساعة، وعندها رأى موسى الشيب أننا يمكن أن نخيم في سلام نظراً لأننا أصبحنا على بعد مسيرة يوم واحد من عجيلة.

بدأت بعض الروابي الرملية تقطع سطح ذلك السهل الواسع الشاسع. وفي ضوء النجوم الأبيض، الواضح البارد، وفي ظل هبوب الريح الجنوبية - التي تتغص الحياة في الصحراء - قمنا بوضع أكياس البراغيث^(*) في موضع بعيد عن مهب الريح خلف أكبر الروابي ودخلت في الكيس دون أن أغير ملابسي. حاولت

(*) المقصود هنا هو "أكياس النوم". (المترجم)

وضع أجنحة الكيس على رأسى، لكن الرمل كالعادة، كان يغطى كل شيء وأكلت حصى مع التمر ليكون ذلك بمثابة وجبة الإفطار. كنا قد قررنا استئناف السير قبل طلوع الفجر، لكن الإبل كانت قد ضلت بحثاً عن أى شيء من الحشائش. وعندما جمعنا الإبل، راحت تكشف عن ضيقها وعبريتها عن طريق التخلص من أحمالها وعرقلة نفسها فى كل الأحزمة المتيسرة. كانت الريح قارسة البرودة، وكان البركان الذى استعمله فى أسوأ حالاته عندما لف نفسه حول كل شيء فيما عدا جسمى أنا! الفرّاجان رفضا السير لأنهما كانا يشعران بالبرد. أعمت الريح القبلية الإبل التى راحت تدور حول نفسها. وحتى حسانين نفسه لم يكن يشعر بالنشاط والحيوية لأنه لم يتناول سوى ستة أقراص من الحليب المخلوط بالمولت. وسط هذا الجو المتكهرب وجدنتى أفقد صوابى وقلت: "سأريكم كيف تسيرون." ونزلت من فوق جملى، ووضعت برّكانى على ذراعى، ورحت أسير بخطوات كبيرة فى اتجاه الجنوب. ربما يكون هذا العمل قد حث القافلة على الحركة، لكنه لم يمهّد عمل أسبوع تقريباً. ولمدة عشرين دقيقة، وبينما كانوا يتبعون خطاى، كان عمر ومغرب يناقشان مسألة المسيحيين وأساليبيهم. قالوا: "هؤلاء النساء الإفرنجيات يمشين جيداً إلى أن يصبحن بدينات ولا يقدرن على الحركة." غير حسانين موضوع الحوار مرة أو مرتين أو ثلاثاً، لكنه كان دائماً يعود إلى الفرق بين النصرانى والمسلم.

واصل موسى الشيب المسن سيره ووجدته ينتظرني على قمة مرتفع صغير تبدو منه مشارف الواحة التى اشتقنا إليها منذ زمن طويل، على شكل لون أخضر باهت يحيط به ضباب الشراب. قال: "فى هذه المنطقة يوجد بير موسى. سوف تأكلين الليلة بيضاً وخبزاً وتشربين حليباً." قلت: "أعتقد أنى بحاجة أكبر إلى خياط" كى يصلح لى بنطالى الأبيض الممزق من فوق الساق والركبة "هذه الأشياء لا بد من إصلاحها." قال موسى بشكل قاطع: "أعتقد أن الحصول على بنطال جديد هو الأفضل!" عند الساعة العاشرة صباحاً بدأنا نرى خط موسى الداكن عن بعد، لكننا

لم نصبح على مستوى واحد مع هذا الخط إلا بعد الظهر، وبدأنا نسير بصورة منتظمة فى اتجاه الجنوب عبر سهل رملى منبسط ليس فيه أى أثر يدل على وجود واد. ونظرًا لوجود بئر فقط فى موسى وعدم وجود قرية، فقد تركنا البئر واتجهنا شرقًا وواصلنا سيرنا مباشرة إلى العجيلة، التى تقع فى الطرف الجنوبي الغربى من واد على شكل حرف S، تمثل موسى طرفه البعيد الآخر. عند الساعة الثانية عشرة والنصف صعدنا فوق مرتفع بسيط، ورأينا من تحتنا واديًا أخضر واسعًا مليئًا بالنباتات الخفيفة الرمادية الخشنة، وكتلة من النخيل فى الجانب البعيد. قال محمد المتدين: "الحمد لله!" ونزل من فوق جملة لأداء صلاة الظهر.

الفصل الخامس

نجاحنا فى الوصول إلى جالو

عبرنا الوادى عند الساعة الثانية عشرة والنصف، وكانت وجوهنا تؤلمنا وتحترق بفعل الريح القاسية. كانت الريح محملة بالرمل والحرارة زائدة عن الحد. كان جسم الواحة الطويلة الملتوى مكوناً من حدائق النخيل، لكل منها بئرها المستقل أو آبارها المستقلة، والتي تعرف باسم السوانى^(*)، لكن قرية العجيله تقع فى منطقة التكور الغربى البعيد. وهى منطقة السوانى توجد بعض البنايات القليلة المهذمة الجدران، حيث يوجد تبة (ثوب)، زرقاء مهلهلة، تعلن منذ الوهلة الأولى هى الأشجار رفيعة الأغصان خشنة اللحاء، عن وجود شيء شبيه بأشجار التتوب أو نبات الست المستحيه، لكنه لا اسم له بطبيعة الحال.

سرنا متلكنين طوال ثلاث ساعات فى اتجاه الجنوب الغربى بموازاة خط نخيل السوانى وقد ظهر أمامنا برج مربع قديم على تل رملى فى جهة اليسار - قبر المرباط^(**) سيدى صالح - لكننا تركنا هذا القبر وراءنا، قبل قمة مرتفع آخر أوصلنا إلى منظر العجيله التى كنا نشاق إليها منذ زمن طويل. بدت الشمس باهتة خلف الرمال، لكننا أطلنا النظر مشغوفين بكتلة أشجار النخيل التى لا يقطعها سوى الكتبان الرملية البيضاء المنخفضة السطح التى تمتد حوالى ميل واحد فى اتجاه الجنوب. كانت المنازل المبنية من اللبن فى الناحية البعيدة من العجيله، وكانت

(*) هذه الكلمة معروفة عند بدو ليبيا وعند بدو السعودية وربما كانت قريبة من كلمة "السواقي" المصرية التى تحدث صوتاً أثناء دورانها، وهذا الصوت مألوف أيضاً فى كل من ليبيا والسعودية. (المترجم)

(**) المرباط كلمة عامية ليبية إذا ما استخدمت صفة دلت على 'القداسة' وإذا ما استخدمت اسماً أعطت معنى "قبر". (المترجم)

المنازل كلها مكومة تحت ظلال النخيل، وقد تبعثرت خلالها، هنا وهناك، مجموعة من القباب الطينية الصغيرة مربعة الشكل على سطح مسجد من المساجد. ويبدو شكل المنازل هنا مختلفاً اختلافاً كبيراً عنه في إجابيا، فهي منتشرة انتشاراً كبيراً على سهل من الحجر الرملي الأبيض. تعطى العجيلة انطباعاً أولياً عن بلدة مخربة بسبب أحواشها الصغيرة المبنية من الطين دون أسقف، وممراتها غير المنتظمة المؤدية إلى المداخل، وجدرانها غير المكتملة؛ لكن المنظر رائع للغاية إذا ما نظرنا إليه على خلفية الشمس الغاربة.

خيماً قبل الساعة الرابعة بقليل في تجويف خلف آخر سور مصنوع من زعف النخيل المضفور وقد بلغنا من الجوع حدّاً عجزنا معه عن الانتظار لحين إتمام نصب الخيمة. وراحت أحلام ورؤى الحليب والبيض والخبز الطازج تتراقص أمام أعيننا. أرسلنا يوسف المتين يسأل عن هذه الأشياء. وفي ذات الوقت، كان عمر قد رحل إلى منزله في البلدة، ليعود إلينا بعد وقت قصير ومعه سلة مليئة بالتمر الفاخر. كان عمر شخصية متباهية فقد وجدنا ممددين على أسرة المخيم، غير قادرين على الاهتمام بالطعام. كنا قد عثرنا على قطعة من الشيكولاتة في حقيبة من الحقائب التي تُحْمَلُ على الظهر. طلب منى حسانين أن آكلها، لكن الصحراء لها قوانينها الخاصة. أما هنا فنجد قانون الأخلاق الأوروبي يخفى تماماً. الإنسان يتحول إلى مخلوق متوحش بسيط قد يرتكب معظم الجرائم بوقاحة كاملة. وعلى العكس من ذلك، نجد أن الإنسان يفهم أن الأعمال التي تعد أموراً طبيعية ومسموحاً بها في لندن، يمكن أن تكون أخطاء لا تغفر في الصحراء الكبرى. القوانين التي يخضع لها الرحالة والجوالون هي: "يجب ألا تأكل أو تشرب أكثر من نصيبك أو حصّتك"، "لن يسمح لك بالتجوال في الأماكن التي سبق لك أن زرتها، أو المسافات التي قطعتها".

بدل عمر قميصه الوسخ الأبيض الممزق، هو وجيردته* (الزى الوطنى) بجبته مطرزة زرقاء اللون، وجيردة مقلّمة^(**). شكرناه شكراً جزيلاً على التمر، وأصغينا بلا مبالاة لتلك الحقيقة المرة التى مفادها أنه لا يمكن شراء أى شىء من عجيله. والذي لا شك فيه، أننا باعتبارنا ضيوفاً على السيد رضا - على حد قول عمر، فإن الأشخاص المهمين فى البلدة سوف يرسلون لنا هدايا من الطعام فى الغد، لكن فى الوقت الحالى، وبعيداً عن التسول، لا يمكن عمل أى شىء. ولما كانت المسألة تتعلق بالحط من قدرنا باعتبارنا مصريين مهمين يترحلون فى مهمة خاصة بالسيد رضا، فقد رفضنا شرح الحال التى نحن عليها، ومن هنا عقدنا العزم على تناول عشاء من أقراص الحليب والتمر. وفى اللحظة الأخيرة، ظهر واحد من ملائكتنا الحارسة، ألا وهو موسى الشيب، ظهر لنا مبتسماً، ومنديله قرمزى اللون ملئ بالبيوض الطازجة! كان فرحنا لا يمكن التعبير عنه. لا أعرف عدد البيوض التى أكلتها. أذكر أنى كنت جاثية على ركبتى فى الرمل فترة طويلة تحت السماء الهادئة التى تضيئها النجوم، وأنا شبه عمياء بفعل الدخان الناتج عن الحطب المشتعل، وأنا التهم تلك البيوض الواحدة تلو الأخرى. قال حسانين: "أنا تعجبني صلاصتك الخاصة. سوف أفقد طعم الرمل فى القاهرة!"

أفلحنا فى الاغتسال بعد ذلك بفترة قصيرة، وقد خفت فرحة الاغتسال هذه بفعل الحقيقة التى مفادها أننا كنا نعانى من طفح جلدى كان يغطى الجسم كله. كنا نطلق على ذلك الطفح من باب التأدب اسم حرارة، لكنى على يقين من أن ذلك كان وسخاً وأقذاراً! بعد الانتهاء من أكل البيوض، جاء إلينا محمد منفعلًا ليقول لنا: إن شيخ الزاوية^(***)، عبد القاسم، ومعه الأخوان وأعيان القرية سيَجِينون لزيارتنا،

(*) "الجيردة": كلمة ليبية، ولعل المقصود بها هو "البردة" التى هى رداء وطنى عند الليبيين، وهى عبارة عن قطعة من الصوف أو الحرير. (المترجم)

(**) مقلّمة: أى فيها خطوط. (المترجم)

(***) المقصود بالزاوية هنا المدرسة أو الكلية التى تقوم بتعليم الطقوس السنوسية. (المترجم).



THE MOSQUE AT AUJELA WHERE IS BURIED THE CLERK
OF THE PROPHET MOHAMMED.

المسجد الذى فى عجيله والمدفون فيه كاتب النبى محمد



INTERESTED SPECTATORS AT AUJELA.

متضرجات مهتمات فى عجيله

لأنهم سمعوا أننا نحمل لهم رسائل من السيد رضا. لم يكن لدينا ملابس كى نرتديها. ولم نستطع حتى تقديم الشاي المحلى بالسكر لهم. وهنا يجيء موسى الشيب لإنقاذنا مرة أخرى، وانفقنا على أن يتم اللقاء فى خيمته. اتشح حسانين على وجه السرعة بجردى الحريري الجميل الذى كانت له كوفيه موشاة بالقصب جاء بها من مصر وهو يضعها الآن على رأسه، تلك الكوفية الرائعة التى أعطانى إياها السيد رضا، والتى يلفها حسانين حول عنقه بطريقة جميلة. كان الاجتماع مهيئاً للغاية. كان الشيوخ المحترمون يجلسون حول الخيمة الضيقة من الداخل، على سجاد مصنوع من وبر الإبل ومصبوغ، وكانت بنادقهم مستندة إلى على عمود الخيمة المركزى. وفى هدوء وجدية كاملة راحوا يقرءون الخطابات المرسلة من السيد إدريس ومن السيد رضا. وغمغم الأخوان فى صوت واحد: "أوامر السيد على رعوسنا."

جرت بعد ذلك مناقشة التفاصيل. وأصبحت مسألة المسافة أمراً صعباً من جديد. هناك تعبير شهير "المسافة التى يقطعها المرء بقربة واحدة". القربة عبارة عن جلد ماعز مجفف يستعمل فى حمل الماء. تنتسح هذه القربة لحوالى أربعة إلى سبعة جالونات من الماء. والبدو يقولون: إن الإنسان يمكن أن يكتفى فى الشتاء بقربة واحدة فى مسيرة تكوم خمسة أو ستة أيام، ولكنها تكفى مسيرة ثلاثة أيام فقط فى الصيف. وبعد نقاش طويل قيل لنا إن المسافة تقدر فى الحقيقة بمسيرة ثلاثة عشر يوماً من جالو إلى الكفرة عن طريق القوافل المباشرة التى تمر على وادى. وأن هناك بئرين، إحداهما فى بطفال Buttafal، التى تبعد مسيرة يوم عن جالو، وبئر أخرى فى زايفن Zieghen، التى تبعد مسيرة سبعة أيام عن بئر بطفال. بئر زايفن هذا يقف وحيداً فى الصحراء، موقعاً بطريق الخطأ على الخريطة على أنه واحة سرحين Sirhen. هناك طريق آخر يتجه من جالو إلى الكفرة، وهو الطريق الذى سار فيه رولفز الألمانى. هذا الطريق يمتد ناحية الغرب إلى واحة تيسربو

Taiserbo، التى تعد بطريق الخطأ واحدة من مجموعة واحات الكفرة. واحة تيسربو هذه تحتوى على العديد من القرى، وأكبر هذه القرى هى قرية كسبه، مابوس، والقصر، والوادي، التى يسكنها الزواوية Zouias والتيبو Tebus، ومعروف أن التيبو هم السكان الأصليون لواحة الكفرة، التى قام السنوسى بطردهم منها بصورة متدرجة عن طريق الغزو. ويوجد خلف واحة تيسربو مجموعة من العصابات القبلية المتوحشة، الذين يسعدون بنهبهم للقوافل، وقتلهم لمرافقيهم. هذه العصابات أعداء ألداء للتجار، وتعد زايجن بين الحين والآخر واحداً من أماكن التوقف الخطرة، لأن التبو ينهالون على الشرق قادمين من معقلهم الرئيسى فى ربيانه Ribiana، أو قد ينهال عليها الزواوية من بسيمه، ليقوموا بالهجوم على القوافل، ويختفون بعد ذلك فى الصحراء قبل أن تصل أنباء الهجوم إلى الكفرة، لكن بجانب الخوف من الهجوم، هناك أيضاً الخطر الذى ينجم عن زحف الكتبان الرملية.

كما يمكن أيضاً السفر مباشرة من جالو إلى بسيمه، وهذا طريق غير موقع على الخريطة. فى هذا الطريق يمر المترحل على "الهاتيا"، (*) فيما بين زايجن وتيسربو، التى يوجد الماء فى حوضها، كما يرى فيها المترحل أيضاً ذلك الجبل الغريب الداكن الذى يقع على بعد مسيرة يومين قبل الوصول إلى الواحة الواقعة فى ظل هذا الجبل الداكن. كانت بسيمه تروق لى بصورة دائمة بسبب جبلها الأسود الجميل وبحيرتها أيضاً! بحيرة فى صحراء ليبية! هذا وحده يكفى أكبر عدد من اللصوص! حاولت جاهدة جعل عبد الله يتجاهل تيسربو، الشبيهة إلى حد بعيد بأية واحة صحراوية منبسطة، وأن يتجه مباشرة إلى منطقة الجبال الداكنة، لكنه كان مصرّاً على رأيه. لم يكن على استعداد بالمخاطرة بذلك الطريق الخطير، ولذلك عقدت العزم أنا وحسانين على التفوق عليه فى المكر والدهاء. كان الرجل مستعداً

(*) هاتيا: مفردة ليبية عامية تعنى "منخفض يحتوى على أشجار متشابكة". (المترجم)

لأخذى إلى تيسربو مصمماً فى سره على الذهاب إلى زايفن ومنها إلى الكفرة عن طريق القوافل الرئيسى. وافقت على طريق تيسربو، لكنى صممت تصميمًا أكيدًا على مواصلة السير إلى هدفنا الرئيسى عن طريق نسيمة.

سبق أن أتينا على ذكر الطرق الأخرى المؤدية إلى المدينة المقدسة. قلنا إن أحد هذه الطرق هو من جنوب واحة جنيوب، وهناك طريق آخر قادم من واحة الفرافرة فى مصر، لكن هذين الطريقين يحتمان لمدة ثلاثة عشر يومًا بلا ماء. ويبدو أن أحدًا لا يعرف شيئًا عن طريق الفرافرة سالف الذكر، لكن الخسائر التى تقع على طريق جنيوب تعد أمرًا مروعًا. آخر الأعراب الذى حاول السفر عن طريق جنيوب وافته المنية على الطريق بسبب فساد ما معه من ماء. وقد اضطر السيد أحمد - وهو يعبر هذا الطريق مع أحد الجيوش - إلى ترك أمتعته، وخلف مخزونات وخيوله وراءه. هناك جماعة أخرى حاولت عبور ذلك الطريق، لكنها ضلت طريقها، وبعد أن توفى نصف أفراد هذه الجماعة، وصلت البقية الباقية منهم إلى واحة سيوه بطريق الخطأ. قال عبد القاسم: "لقد فقد المرشدون صوابهم. إن خطأ واحدًا يكفى لأن يفقد المرء حياته!" كنت مشغوفة جدًا بالعودة من ذلك الطريق، لكنهم جميعًا جعلونى أحيى عن رأى وأثنوا عزمى. قالوا: "عودى إلى جالو، لأن المسافة من جالو إلى جنيوب تقدر بمسيرة سبعة أيام فقط، لكن هذه الأيام السبعة ستكون بلا ماء. فقد جرى غلق الآبار فى فترة الحرب."

طرحنا أسئلة أكثر تحديدًا عن وضع واحة الكفرة. قالوا: خمسة أيام من زايفن وسبعة أيام من تيسربو، يصل المرء بعدها إلى الواحة التى يطلق عليها العامة اسم كبابو Kebabo التى هى واحة الكفرة فى حقيقة الأمر. هذه الواحة ليست واحدة من بين مجموعة. إنما هى منعزلة تمامًا وتضم خمسة قرى.

قال الشيوخ أصحاب اللهى التى دب الشيب فيها، كل هذا الكلام فى ضوء شمعتين خافتتين وهم جالسون فى خيمة موسى الشيب المتواضعة. كان جو الجلسة

عامراً بالود. كانوا متعاطفين معنا ويودون مساعدتنا. قالوا: "لن تتألى سوى الخير من رحلتك. لقد باركك السيد إدريس. وعليه فإن مجيئك إلينا يعد شرفاً لنا. ابقى معنا يوماً واسمحي لنا أن نراك مرة ثانية." كان الجو المحيط بنا عامراً بالحماس وأحسست أنى كنت وسط أصدقاء.

تغير الأمر، بطبيعة الحال تغيراً تاماً فى فترة الصباح ويصعب علينا فى أوروبا فهم عقلية أبناء الطبيعة هؤلاء أنهم بسطاء وعاطفيون. هناك حاجز بسيط بين حنانهم وكرمهم، يتمثل فى التشدد الجنونى فيما يتعلق بموروثهم من العادات والتقاليد. كنا نلعب دوراً صعباً وكانت خيوط ذلك الدور متشابكة. تحتم علينا التظاهر بالفقر خشية الهجوم علينا من قبل عصابات اللصوص، ومع ذلك كنا على استعداد لتقديم الرشوة إذا ما تطلب الأمر ذلك. تحتم على أيضاً أن أكون امرأة مسلمة، ولذلك كنت أتحدث مع الإخوان والشيوخ. تحتم علينا التظاهر بأننا مصريون مهمون حتى نكون جديرين بالحماية، ومع ذلك لم يكن معنا ملابس أو مؤن. كنا نتجول فى مهمة سرية خاصة بالسيد لكننا ذهبنا إلى أماكن ليست فيها أية فرصة من فرص العمل. لم يكن مستغرباً أن يلاحقنا الشك بصورة مستمرة. كانت القصص والروايات عن امرأة مسيحية هى وسكرتيرها قد وصلت إلى هذا المكان قادمة من إجدابيا. كان ممكناً أن يتعلقوا بنا على طول الطريق.

الظاهر أن بدوياً واجماً جاء إلى خيمة موسى الشيب فى الليلة السابقة واحتج احتجاجاً شديداً على وصول هؤلاء الغرباء من مصر. قال: "هم ليسوا منا؛ ولا بد من إخضاعهم للأسئلة البحثية المعتادة. وعندها سنعرف من هم وما هى مهمتهم." قال صديقنا: "هم يحملون رسائل من السيد. ألا يكفيك ذلك؟" قال البدوى مصرعاً: "يجب أن يتعلموا أن الترحال فى هذا البلد أمر صعب. لا يجوز للغرباء المجيء إلى هذا البلد." كان واضحاً أن رجلاً مهماً من رجال البلدة كان يقف هذا الموقف نفسه، وقد ظهر ذلك فى اليوم التالى بشكل واضح عندما وجدنا الإخوان منقسمين

إلى معسكرين. كان أحد المعسكرين منفذاً حرفياً لرسالة السيد رضا ومقيماً لوليمة على شرفنا. أما المعسكر الثانى، بقيادة أحد الأعراب الجامح، شيخ فخذ من قبيلة الزوايا Zouia، والذي اعتاد على معارضة رغبات السيد رضا، فقد كان يرى تجاهلنا. جاءت النتيجة على شكل حل وسط. لم يضيفونا، لكنهم التقوا فى الزاوية(*) فى العصر واستقبلونا استقبالاً ودياً. ووقعوا بأسمائهم على وثيقة غريبة، تنص على إنه تنفيذاً لأوامر السيد رضا، فإنهم قد استقبلوا حسانين بك والست خديجة استقبالاً ودياً، وأنا أعتقد أنهم كانوا خجلانين عندما فعلوا ذلك، لأن شخصاً يدعى أحمد أفندى، جاء من جالو لتحصيل الضرائب الحكومية، قال لى بجرأة وشجاعة "سوف أوقع على هذه الوثيقة عندما ألقاك فى بلادى (قريتى) خلال أيام قلائل." وقد عرفنا بعد ذلك أن أحمد أفندى هذا ألقى خطبة موالة فى الصباح، قال فيها أنهم يتعين عليهم جميعاً تكريم ضيوف السيد رضا، وإن الاستقبال الرسمى الذى جرى فى الزاوية كان بفضل هو.

يتراوح عدد الإخوان فى العجيلة بين الثلاثين والأربعين. وشيخ الزاوية هو عبد القاسم. والزاوية تقع على أرض مرتفعة ارتفاعاً طفيفاً فى وسط المدينة. والزاوية عبارة عن مبنى من اللبن مربع الشكل له نوافذ لها عوارض ثقيلة، يشبه القلعة أكثر منه (مدرسة) أو إخوانية. فى الأسفل توجد بساتين من الخضراوات والبصل والقرع العسلى. وتجرى زراعة الشعير تحت جدران القرية المهدمة، ويرى الرائي فى المنخفضات الضحلة الواسعة صفوفاً من الطوب الرملى الذى يجرى تجفيفه فى الشمس. تجولنا فى الصباح خلال البلدة، ومن ورائنا جمع من الأطفال المندهبين الذين ربما لم يرو غريباً من قبل مطلقاً. كانت النساء يختلسن النظر إلينا من مداخل الأبواب المنخفضة. كن ملفوفات فى طيات ثيابهن الزرقاء

(*) كلمة ليبية عامية يمكن تسميتها بالاخوانيه أو واحدة من إخوانيات سيدى إدريس المنوسى.
(المترجم)

الطويلة التي كانت زاهية اللون في ضوء الشمس. كنت أشاهد بين الحين والآخر ومضات من اللون البرتقالي أو اللون القرمزي. كن يلبس أقرط من الذهب في أذنانهم، وكن يحملن وشم القبيلة على جباههن وذقونهن. السواد الأعظم من أهل العجيلة يتحدثون لهجة شبيهة بلهجة الطوارق، وشبيهة أيضا بلهجة بعض سكان سيوة، لكن هذه اللهجة لا يفهمها أهل جالو.

سرنا خلال المسارات الضيقة الملتوية التي تحدها من الجانبين جدران عالية من اللبن، وكنا نرى هنا وهناك نخلة تظلل دغل رمادي اللون، إلى أن وصلنا إلى أكبر المساجد، سقفه مربع الشكل مغطى بقباب من الصلصال. التقينا عند المسجد بعضا من الإخوان، الذين حيّونا تحية حانية وأخذونا إلى الزاوية (الإخوانية) لمشاهدة قبة(*) عبد الله الصحابي، الذي يقال أنه كان كاتب النبي محمد ﷺ، وأنه مدفون في هذا القبر. وعن طريق ممر ضيق يستطيع المرء الدخول إلى حوش رملي مربع الشكل سطحه ضيق ويمتد في ثلاث اتجاهات ويجلس تحته الإخوان على الحصير. وهناك باب يؤدي إلى حوش أصغر من الحوش الأول، ومن خلال هذا الحوش الصغير يمر المرء خلال غرفه مؤدية إلى غرفة أكبر منها ومنها إلى المسجد. القبر موجود في المنتصف، ومغطى بقماش قطنى صارخ اللون، والجدران معلق عليها مرايا رخيصة، وبيوض نعام، وهذه البيوض جاءت على سبيل الهدية من الحجاج الذين يأتون من وادى. طفنا حول القبر، ونحن نقرأ القرآن، ثم قبلنا القبر بعد ذلك، ثم قرأنا "الفاتحة" في السر. يمضى الإخوان أياها بكاملها وهم يقرءون القرآن ويدرسونه حول القبر.

سألناهم عن قافلة رولفز، لكنهم لم يعرفوا شيئا عنها سوى أن ماينسمان Mannismann كان موجودا هناك قبل أن يبدأ رحلته المشى عومة إلى غرب

(*) المقصود بالقبة هنا هو "القبر الذى تعلوه قبة"، والمصطلح قريب جدا من المصطلحات العامية التى من قبيل "مقام" فى التعبير "مقام سيدى إبراهيم الدسوقي" أو "مقام السيد البدوى". (المترجم)

البلاد، بعد أن وقّع على تعهد وفاته عندما أقر كتابة أنه قام بالرحلة على مسئوليته الخاصة. قالوا لنا: إن الزاوية أسسها محمد المهدي في العام ١٨٧٢ ويقع القصر التركي القديم، بالقرب من الزاوية، وهو مقر "القائمقام" العثماني، ويستغل كتبه الحكومة السنوسية هذا القصر ويجعلون منه مكتبا لهم.

كنا قد انتهينا منذ وقت قصير من تناول غداء قوى قدمه لنا فجأة عمر الكريم، وكان عبارة عن كتلة من الخبز الحار، والبيض مع دجاجة مطبوخة في طبق من عصير شمي، وفلفل أحمر، وكنا نحاول تبريد أفواهنا وعيوننا التي كانت تدمع بفعل الفلفل الحار، عندما حدثت المفاجأة الكبرى بطريقة بسيطة وغير متوقعة. كانت أعيننا تفتش في الأفق ساعات طوال. كنا قد ضخمنا عددا كبيرا من القطعان التي ترعى في إطار القافلة التي كنا نشاق إليها منذ زمن بعيد، وفجأة قال يوسف الذي كان يقف على مرتفع فوقنا: "هناك قافلة قادمة علينا"، لكننا لم نعر كلامه انتباها. كنا قد تناولنا وجبتنا الطيبة الأولى منذ اثني عشر يوما. كنا ممنونين جدا لعمر وكان شاغلنا الشاغل هو كيف نكافئه على كرمه. (فيما بين قوسين يمكن القول أن الشيء الوحيد الذي كان يريده عمر هو شيء من ذلك العطر الخيالي الذي تشممه منى. وقد تمكنت في نهاية الأمر من معرفة أن ذلك العطر كان من مسحوق الوجه الذي يسمى كوتي Coti، الذي استطعت الحصول عليه من القاهرة؛ وينصرف عمر وهو في غاية السعادة بعد أن أعطيته ربع صندوق المسحوق.) وعندما نزل يوسف مهرولا من فوق المرتفع كان يصرخ ويقول: "قافلتنا، الحمد لله! قافلتنا وصلت أخيرا!!" ويذهب الخمول والكسل عن الجميع ونروح نندفع إلى أعلا التل بسرعة أكبر بكثير مما يتطلبه الوقار.

كان يوسف صادقا في كلامه. كان هناك اثنا عشر جملا واثنا عشر رجلا على بعد حوالي مائة ياردة منا. وصل في البداية شخص مهيب يرتدى برنسا أبيض اللون، يدعى عبد الله، وهو مرشد شهير، يعرف الطرق اللبية كلها، ويقول

البدو عنه "هو صاحب قلب كبير"، وجاء من بعده، قائد القافلة عبد الرحيم، صغير الجسم، سريع الحركة، صاحب الوجه النحيف الضحوك وهادئ الطبع، وبشرته الأبنوسية اللون. جاء من بعده الرقيب مُراجع Moraja، الذى كان بيته فى الكفرة، ومعه ستة رجال. كان الطباخ يمشى فى الخلف لكننا لم نره فى تلك الليلة، إذ أُوفد على الفور لإعداد مائدة لأصدقائنا من الشيب وبعد موجة الفرح الأولى عندما راح كل واحد خلالها يصافح الآخرين عشرات المرات، وبعد أن عُمِر الجو بالتعبيرات "مبسوط" و "طيب" و "الحمد لله!"، رحنا نراقب تبريك الإبل ونحن مندهشين اندهاشاً كبيراً. ولما كنا نعودنا على صلافة الفُراجين، فإننا لم نصدق أعيننا، إذ فى غضون خمس دقائق فقط، وتحت إشراف وعلى مرأى من عبد الكريم نفسه، جرى إطلاق سراح الإبل، وتكويم الأمتعة والبنادق، وسارع الرجال إلى نصب الخيام. لم يكن أمامى من شىء سوى أن أدعك عيناى وأشيق انبهاراً، فى حين كانت عيناى تتجولان حول الأمتعة بحثاً عن الجوالين اللذين أخذاً بطريقة غامضة من مسكننا فى إجدابيا فى جوف الليل. تعرفت على هذين الجوالين الواحد بعد الآخر، وعاد الهدوء إلى نفسى، مع أنى عندما نظرت إلى الأسفل، رأيت أرجل بيجامتى المقلّمة ظاهرة من تحت ثوبى الأحمر اللون، والسبب فى ذلك أن البنطلون المصنوع من القطن، والذى أسئ استعماله كان قد تمزق كلية فى الليلة السابقة.

سألنا عن أخبار إجدابيا. قال عبد الله جازاً: "يقولون فى السوق إنك هربتى فى طائرة جاءت من عند الله ﷻ؛ لكن عبد الرحيم ابتسم ابتسامته الصغيرة الحكيمة. قال عبد الله: "سألونى إلى أين أنا ذاهب بتلك القافلة الكبيرة؟ وقلت لهم: إنى مسافر لتأديب بعض البدو الذين لم يدفعوا الضرائب المفروضة عليهم للسيد رضا". علمنا من خلال رسالة من أمين سرنا الأسود اسوداد الأبنوس، أن المراسل الثانى هو الذى اكتشف وجودنا فى الوادى الفارغ. كان المراسل الأول قد بحث وعاد بخفى حنين. وعرفنا أيضاً أن الإخوان هم والجماعة التى اعترضت على

سفرنا كانت غاضبة لهرينا، الذى لم يتطرق الشك إليه مطلقاً. هذا يعنى أن بعض عصابات اللصوص كانت فعلاً على الطريق، وسبب ذلك أنه بالقرب من بير الرسام، قام بعض البدو المسلحين باعتراض قافلة اللصوص التى كانت تسير ليلاً ونهاراً بغية اللحاق بنا (قطعت القافلة مسافة ٢٢٠ كيلو متراً فى أربعة أيام ونصف) وسألوا اللصوص عن مقصدهم، فى حين سأل اثنان أو ثلاثة آخرون كانوا على مقربة منا: "أين المرأة النصرانية الثرية التى سوف ترحل فى اتجاه الجنوب ومعها مخزونات كبيرة من الطعام؟" قال عبد الكريم: "أنا لا أعرف شيئاً عن هذه المرأة. ونحن ليس معنا نساء، لكن إذا أردتم مقاتلتنا فسوف نسعد بذلك!" وهنا تراجع العرب المحبطون على وجه السرعة.

لم يطرق النوم جفونى دون مزيد من الدلائل على كرم السيد رضا. أحضروا جزاً كبيراً من التمر إلى خيمتى. "هذا التمر من بساتين السيد رضا. وقد تلقينا رسالة بتسليمه لك."

حدث تسامر^(*) كبير فى مختلف الخيام فى تلك الليلة، تردد بين تبادل التهانى والتعبير عن أطيب الأمنيات. كان الشيب هم وبدونا يأكلون فى خيمة والجنود يأكلون فى خيمة أخرى. جرى إشعال العديد من النيران الصغيرة التى كانت تشتعل مرحاً. كنا نتنقل من خيمة إلى أخرى، ونحن نعد القهوة من البن الجديد الذى وصلنا؛ وكنا نقدم القهوة بالطريقة العربية الصحيحة. إذ كنا نَتَذوق القهوة فى البداية، ثم نعيدها إلى الإناء إذا لم تكن حلوة على النحو المطلوب. صعدنا بعد ذلك إلى المرتفع (التل) الذى يعلو البلدة النائمة، وتحدثنا عن كل ما فعلناه، الذى كان قليلاً جداً إذا ما قورن بذلك الذى يتحتم عمله. ومع ذلك، كنا قد كسبنا الجولة الأولى من اللعبة، وهنا أحسنا بأن فرصة النجاح متاحة! لكن على الرغم من أن

(*) استخدمت المؤلفة كلمة 'فضل' Fadhling وهى كلمة ليبية تعنى "الجلوس والحديث".
(المترجم)

الهدوء والأمان كان يُلْفنا وعلى الرغم أيضًا من أن هدوء الصحراء كان يغمر أنفسنا، فإن بذرة الصراع الأولى التي يمكن أن تقضى على خططنا كلها، كان يجرى بذرها في المخيم الموجود في الأسفل. كان الأسودان قد تَسَمَّرت في رأسيهما فكرة أنه يتعين عليهما حمايتنا. وضعنا علينا حارسنا. وجرت معارضة موسى الشيب، أثناء عودته متأخرًا، عندما كان واقفًا بجوار بالاته. قال موسى الشيب رذاً على الحارس الذي يعارضه: "أنا مالك هذه الخيمة". وهنا جاءه أمر يقول: "إن، أدخل الخيمة، أو أغرب عن هذا المكان تمامًا!" وجرى في الصباح تسوية ذلك الخلاف الذي نشأ أثناء الليل. كان الجندي يؤدي واجبه ليس إلا، لكن قافلة الشيب هي التي أنقذتنا من الهزيمة أو بالأحرى الموت جوعاً!

بدأنا مسيرنا عند الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم الأحد المصادف لليوم التاسع عشر من شهر ديسمبر، واستمر مدة ثلاث ساعات إلى قرية جالو التي تقع في منطقة مسطحة مغطاة بالزلط الناعم الصغير الذي يميل لونه الأصفر إلى البني، والخالى تمامًا من أى أثر من آثار الحياة النباتية، لكن الجماعة كانت منقسمة على نفسها. كان الأسودان، الكسولان دائماً عندما لا يكون لديهما دافعاً لمضاعفة الجهد المطلوب، يركبان الإبل أو يجثمان فوق الجوانات والبالات. كان يوسف غاضباً، من منطلق أنه كان يود الركوب. قال يوسف: "الإبل لن تصل إلى الكفرة مطلقاً إذا ما ركبها أحد منا. وبذلك يمكن أن نموت على الطريق. ستحدث معركة وسوف يقتل هذين العبدین الأسودین." أبعد يوسف كى ينضم إلى محمد، وأبتعد الاثنان عن القافلة طوال النهار. تولى قيادة القافلة عبد الله، أعظم قصاصي الأثر في ليبيا، الذي أستطاع في الليلة السابقة استعادة أربع من إبل الشيب، التي ضلت طريقها في الليلة السابقة، وتتبع عبد الله أثار أقدامها بين آلاف الآثار على الرمل الناعم إلى أن عثر عليها. ركزت البوصلة على عبد الله مدة ساعة لم يغير الرجل اتجاهه خلالها حتى ولو لنقطة واحدة. سرنا في خط مستقيم تماماً فيما بين



DESERT WELL AT JALO.

يئر صحراوية فى جالو

الواحتين. وعند الساعة الحادية عشرة والنصف صباحًا شاهدنا رقعة من النخيل عند الأفق - تلك هي شارُوف، الحد الشمالي للواحة الكبيرة. بعد ذلك بساعتين دخلنا شبه الدائرة إلى أقصى الجنوب ثم إلى ناحية الشرق. كان النخيل كثيفًا في منطقة شارُوف. كان هناك حزام آخر من النخيل، أقل كثافة يزحف دائريًا إلى تجمع آخر كثيف من النخيل في المنشية Manshia

نزل موسى الشيب من فوق جملة وراح يمشى بهمة ونشاط. أبْتَسَم مغرب. قال: "إنها الفيشه^(*). هي الفيشه ولا شيء غيرها." عندما يقوم رجل برحلة، تقوم زوجته في بعض الأحيان بوضع حبة من حبات القرع المجوف، أو إناء على سطح المنزل بغية استعمالها في اصطلياد الريح. وطالما ظلت هذه القرعة أو الإناء ينقر بفعل النسيم، يظل قلب زوجها أيضًا ينبض حبًا لها ويعود إليها بأقصى سرعة ممكنة.

دخلنا عند الساعة الثانية والنصف بعد الظهر حزام النخيل غير الكثيف الموجود في المنتصف. وجدنا النخيل في هذه المنطقة مبعثرًا على رمل أبيض كثيف يرتفع صاعدًا إلى كتبان رملية منخفضة. لم يكن هناك أثر لقرية من القرى، على الرغم من وجود آلاف من آثار أقدام الإبل متجهه إلى الاتجاه نفسه. ثارت ريح باردة، وعليه حاولت النوم خلف البركان الذي كان يلفني. عندما نظرت إلى الخارج بعد ساعة كان النخيل المبعثر قد بدأ يقل وكنا قد تحولنا إلى كثيب رملى واسع، وبدأنا نواجه مرتفعًا آخرًا كان يقف عليه صف عتيد من المباني المسورة. مدن ليبيا الصحراوية، كل واحدة منها لها طابعها الخاص.

جالو فيها قريتين منفصلتين هما: قرية العرق El Erg وقرية اللبَّه Lebba. القرية الأولى تشبه القلعة منذ الوهلة الأولى. وهى طويلة، وببوتها من اللبن الصلد وأحواش هذه البيوت ذات الجدران القوية تشكل الخط الأمامى على هذا المرتفع.

(*) الفيشه: كلمة ليبية صرفه تدل على حبة من حبات قرع القل تستخدمها المرأة تعويذه بغية الإبقاء على حب الرجل لها. (المترجم)

وخلف خط هذه الأحواش، توجد الشوارع المتعرجة الغربية، والعقود المنخفضة العجيبة، والمساكن المتزاحمة المبنية من الطوب المجفف في الشمس؛ لكن بينما كنا نسير بإبلنا نحو الأعلى رأينا بيوتاً أكبر حجماً، فيها جماعات مبعثرة من النساء والأطفال الذين يرتدون ثياباً سوداء ونيليه اللون. وإلى اليسار من هذه المباني كان هناك امتداد شبيه بخط أبيض طويل منخفض ومستوٍ يمتد إلى ما لا نهاية. أندفع محمد إلى الأمام منفعلاً عندما رأى ذلك الخط. صاح قائلاً: "هذا استقبال ملكي مقام على شرفك. الناس طيبون هنا. أنا مبسوط! آه، إنهم أناس

طيبون حقاً! أنا سعيد بحق! هم يحبون السيد رضا! وهم يودون إكرامه وإكرام ضيوفه!"

نظرت مرة ثانية وأنا مشوشة الفكر إلى ذلك الجدار الأبيض الطويل. كان الجدار عبارة عن كتلة صلبة من الرجال العرب الذين يرتدون الملابس البيضاء. كان هناك صف بعد صف من البدو، يمتد في نظام صارم بدءاً من ناصية المنزل الأخير على امتداد المرتفع كله، وبانتهاء صف الرجال تبدأ مجموعات النساء والأطفال. أدت الصيحات العاطفية إلى سريان الدفء فينا جميعاً. هكذا كان الاستقبال تلقائياً وسخياً وحنوناً. كنت أود الصياح تعبيراً عن الشكر والامتنان، وانعكست علينا جميعاً ابتسامة محمد المعبرة عن الرضا. جرى اقتياد الإبل عن طريق الصياح، لتكون في وضع منظم. وأصدر عبد الرحيم أوامره إلى رجاله ليشكلوا صفًا واحدًا. وهذا هو مغرب من فرط انفعاله راح يمسك جملي ويشدني من فوقه. أخذ مغرب يسألني: "هل أنت سعيدة؟ هل أنت سعيدة؟" كان يوسف يرقص فرحاً. حاولنا استجماع أفكارنا المشتتة وسرنا متجهين إلى أعلى المرتفع بطريقة تتم عن الوقار والاحترام. حقق السودانيون ذلك الوقار، بقيادة رقيبهم، لكن الآن وبعد أن أصبحت قدمي اليسرى أقل تورماً، بدأت فردتي حذائي الأصفر تسقطان من قدمي بعد كل خطوة أخطوها، في حين كان جيرد (بردة) حسانين يبدو غريباً بفعل هبوب الريح.

لا يمكن أن أنسى مطلقاً تلك الكتلة، من الأشكال الطويلة الوقورة التي كانت ترتدى الجيرد (الزى الوطنى) والبرانس وتقف على شكل تشكيل عسكرى. كانت شمس الغروب تتوهج حمراء من خلفهم، فى حين كانت تتبعث من الأسفل زغاريد النساء. دخلنا على أننا غرباء، حجاج إلى أرض السنوسى. لا اعتراض لنا على ضيافتهم. لم يكن لدينا الحق فى دخول أشد بلاد العالم حراسة. الأمير والخفير، البدوى والشيخ، الكل يتعين عليهم أثبات حسن النية والطوية قبل أن نسمح لهم الطرق المتجهة صوب الجنوب بالدخول إلى المدينة المقدسة. كان جوازنا الوحيد إلى المرور هو حبنا للعرق العربى، وتعاطفنا مع عاداتهم وعقيدتهم ودينهم. لم نجروء على تقديم أى دفع من الدفع الأخرى. لم نطلب سوى حق البدوى فى التنقل مع إبله إلى حيث تتاديه الصحراء. استجاب سيدى إدريس لرغبتنا من منطلق رؤية صوفيه. قال سيدى السنوسى: "العرب يحسون بمن يحبهم، وهم يستجيبون لهذه الرابطة؛ ستمضون بلا ضرر" بذلك نكون قد حصلنا على المباركة ومن هنا يصبح من حقنا التجوال جنوباً إلى المدينة الصحراوية، وفى حراسة مناسبة وصولاً إلى الواحة الصحراوية الغامضة. لم نفهم تماماً أننا جرى اعتبارنا ضيوفاً مكرمين الذين يعد عدم إكرامهم مسألة شائكة جداً. كان السيد رضا قد كتب فى رسالته: "ستكون الضيافة التى ستقدمونها لهم، بمثابة ضيافة لنا شخصياً."؛ وبذلك نكون قد تقاسمنا مع السيد رضا السنوسى، وإرادته هو، سيادته على الصحراء.

عندما اقتربنا من الصفوف البيضاء انحنت تلك الصفوف لنا إجلالاً وتقديراً، وراحت جوقة وقورة من "السلام عليكم، مرحباً، مرحباً! بالسلامة" ترحب بنا، لكن الصفوف ظلت ثابتة فى أماكنها بلا اهتزاز. صافحنا القائمقام حميدة بك زيتون، ومعه شيخ الزاوية سيدى محمد السنوسى، الذى كان معه إخوان كثر، حذوا حذوهم بأن راحوا يقبلون أيدينا ويلمسون جباهنا. رحنا نغمغم تعبيراً عن امتناننا غير المحدود للشرف الذى أولونا إياه. قالوا لنا: "كل ما نملكه ملك لكم. نحن ننتمى إلى

السيد رضا. "كانوا قد جهزوا لنا منزلاً بالفعل. تفرقت الكتلة البيضاء كي تسمح لنا بالمرور. ورحنا نسير خلف القائمقام في الشوارع الرملية الضيقة، يحيط بنا أعيان البلدة، ووسط همهمات الترحيب، والتبريك.

كان المنظر شكلاً من أشكال الفنتازيا، رأيته من خلال فجوة بين ثنيات البركان - شاهدت نساء يرتدين ثياباً داكنة اللون ينظرن خلسة من مداخل منازل منخفضة، صياح أطفال يركضون نظراً لأن سوط الحاجب ذو الشراشيب كان يبعدهم عن طريقنا، رأيت أيضاً الرمل الكثيف، الجدران الباهتة، ورأيت أيضاً تجمعاً أبيضاً من الكبراء الذين يبتسمون ابتسامة حانية ويتدافعون حولنا. تعثرنا في عتبة باب في غرفه ملحقة بالغرفة الرئيسية، التي دخلنا منها عن طريق أحواش صغيرة وممرات صغيرة إلى فناء صغير. قال القائمقام "هذا المنزل كله لكم، والحكومة في خدمتكم. سيجري إحضار الطعام لكم، وسوف نلبى كل ما تطلبونه بكل سرور."

لا يزال المشهد الأخير ماثلاً في ذهني. وقفت في مدخل أكبر الغرف، وهي غرفة من اللبن مساحتها اثنتي عشر قدماً مربعاً، فيها جذع شجرة من أشجار الصنوبر في المنتصف، يحمل سقف الغرفة المنبسط المصنوع من زعف النخيل المضفور، كانت أرضية الغرفة مكونة من طبقة سميكة من رمل الصحراء وغير مفروشة بالحصير. كان كبار الإخوان قد تجمعوا في الفناء وقرئت الخطابات المرسلة من السيد رضا. وجاءت هميمة تتم عن الرضا "هذا شيء طيب! شيء طيب جداً!"، وتلى ذلك القبلات والصيغة المعتادة "أوامر السيد رضا على رؤوسنا"، وهم يلمسون عمائمهم ومعرفاتهم^(*)!

(*) المنعرقه: بضم الميم وتشديد الراء وكسرهما، عبارة عن طاقية تلبس تحت العمامة منعاً للعرق.
(المترجم)

كانت الساعة عندئذ تشير إلى الخامسة بعد الظهر، وكان الظلام قد بدأ يرخى سدوله، وهنا خطر على بالنا أن وقت تناول الوجبة الثانية قد حان. كنا قد تناولنا الوجبة الأولى عند الساعة السابعة في عجيله. لم يلق محمد بالاً لهذه الملاحظة. "سيعودون. سيحضروا لنا كل شيء. يجب أن نستعد لذلك." قام محمد بإحضار الحصير والسجاد من مكان ما، أعتقد أنه كان من عنده هو، وفرش الحصير والسجاد على الرمل وكان من الصعب ترتيب جوانات الغذاء المحفوظ والحبوب ترتيباً فنياً، لكن الرجل بذل أقصى ما في وسعه، في حين قمت أنا بعمل إضاءة مكّيه عن طريق لصق شمعة مضاءة في كل جوال من الجوانات. وعقب انتهائنا مباشرة كان الإخوان قد قفلوا عائدتين إلينا، وكانوا يحملون هدايا- هذا يحمل تمرًا، وذلك يحمل زبداً وطنياً، وهذا شخص ثالث يحمل سلاطين كبيرة مليئة بلسين الإبل أو الماعز. وهذه دجاجة بيضاء تهفّف جرى وضعها في يدي، وذلك خروف ضخم جرى وضعه عند قدمي. وهذا خبز يكفي كتيبة من الجنود جرى تكويمه في سله مضمفورة. وتلى ذلك البيض والشاي والسكر. عجزنا عن التعبير عن شكرنا وامتناننا لذلك الكرم. قلت وأنا منذهلة بالإنجليزية دون أن يلاحظ ذلك أحد "كله ما عدا الخروف."

بعد أن خمدت تلك الجلبة والضوضاء، وبعد أن قام محمد قرير العين بنكويم هدايانا الثمينة، جرى عقد مجلس حرب مُصَغَّر، جلوساً على أكبر واحدة من الحصير. وضعوني في مكان الشرف. لكنني أحسست أن الأمر يحتاج إلى شيء من الإنعاش، وعليه قمت أنا وفرّاج بإشعال النار في شيء من الحطب في ركن من أركان الفناء ونجحت في عمل قهوة ثقيلة محلاة بالسكر. كانت أمتعتنا مختلطة ببعضها، لكن الأسود أرتفع إلى مستوى المناسبة. فقد قام بإحضار علبة من القهوة، من مكان ما وقمت أنا بتكسير بلاطة كبيرة من السكر بواسطة قطعة من الحجر. ورحنا ننفخ النار ونهوى عليها إلى أن أحمرت وجوهنا وغلى الماء. قفز محمد

منفعلاً، مما أدى إلى انقلاب الأشياء وقدم بعض المقترحات المستحيلة، لكن القهوة التي اشتريتها من بقالي في لندن كانت طيبة، وعلى الرغم من وجود عجز في الأكواب الزجاجية، فإن الضيوف تمتعوا بها تماماً . ولما كنت قد أحضرت مجموعة من الأكواب على صينية من القصدير، فقد أحدثت تلك الأكواب انطباعاً طيباً عن الست خديجة، وقررت الجماعة أن عدم نقاء دمها ربما يكون سبباً من أسباب التعاطف والتكريم وليس سبباً من أسباب التجريم!

انضم إلينا عبد الله الوقور، بوجهه الصارم، ولحيته الصغيرة السوداء، وهو، ومحروق بفعل الطقس إلى حد الاسوداد وذلك على العكس من برنسه الأبيض السميك. تحدثنا في هذا المجلس عن الطرق والمسارات. كان يوسف المتين يود السير مباشرة إلى الكفرة من الطريق الذي تسلكه قافلة واداي والعودة أيضاً من الطريق نفسه. كان القائمقام واثنان من الشيوخ هما إبراهيم بيشاري ومحمد مغرُوف يريدون الإغلاء من شأن تكريم السنوسى. ومن ثم أكدوا لنا أن الطرق كلها آمنة. كان عبد الله محبباً للسفر عن طريق بُسيمه. قال بطريقة غير صحيحة تماماً إن عصابة من الطوارق تسكن منطقة ربيانه Ribiana، وأن هدف هذه العصابة هو سلب ونهب كل الرحالة والمسافرين بين بُسيمه والكفرة. قال إن العصابات تعجز عن عبور الكتبان الرملية المنحدرة. والسبب في ذلك أن الإبل تنزلق في هذه الكتبان وتسقط من عليها أحمالها أو تنكسر أرجلها. وقال محرضاً أن "إبلنا ليست قوية، وليست معتادة على الرمال العميقة. وطوال سيرنا في الكتبان سيقوم الطوارق بالهجوم علينا والاستيلاء على القافلة." سألته وأنا مصرة على مشاهدة بُسيمه أليست هناك وسيلة لتحايش عصابات الطوارق هذه؟ "ليست هناك وسيلة. سيعرفون المكان الذى سنمشى فيه، وسوف يختفون لمداهمتنا. لو أن الأمر يتعلق برجل واحد، فهو قادر على الهرب منهم، لكن كيف لقافلة أن تمر دون أن يراها أحد؟" وروى أيضاً قصة مزعجة حدثت منذ أسابيع قلائل عن هجوم ناجح

قام به الطوارق، أسفر عن الاستيلاء على الإبل، وترك أولئك الذين لم يقتلوههم يولون الأدبار. صدقت هذه الرواية، لأنى تعرفت فى الصحراء الفرنسية، أولئك الطوارق المقنعين، هم وإيلهم سريعة العدو التى تتغذى على التمر. والطوارق لا يرفعون مطلقاً اللثام عن أفواههم، لكنهم يعدون ملح الجماعات البدوية- فهم لا يكلون ولا يملّون، ولا يخافون، كما أنهم قساة وغلاظ القلوب!

ذكر إبراهيم بشارى الحقيقة التى مفادها أن هناك طريقاً بين تيسربو وزايغن، مدته حوالى

ترحال يوم واحد أو يوم ونصف على أكثر تقدير، وعليه لن يتعين علينا بعد الوصول إلى تيسربو مواجهة الكتبان الرملية أو الطوارق، وبذلك يمكننا الذهاب إلى البئر الوحيدة التى على طريق القافلة، ونستطيع من خلال مسيرة خمسة أيام الوصول إلى واحة الكفرة. كان يوسف الشخص الوحيد الذى أعترض على ذلك. قال يوسف: "هناك أعداء للعرب فى بسيمه. الخطر مائل هناك بصورة مستمرة." لكنى أصريت تماماً وقلت: "شرف السيد رضا بين أيديكم. يجب أن تثبتوا للإفرنج أن نفوذ السيد رضا يبلغ من القوة حداً يمكنه من حماية أهله وشعبه فى كل مكان." أثارت هذه العبارة حمية الرجل. وبعد أن قررنا البقاء فى جالو مدة يومين أو ثلاثة لشراء القرب المطلوبة لنقل الماء الذى يكفى جماعتنا الكبيرة، والطعام المطلوب للرجال، والحصول على المعلومات الكافية عن الطريق، وحتى نستطيع إعادة تنظيم القافلة بشكل عام، وأنا سوف نتجه بعد ذلك إلى تيسربو، أنفض الاجتماع بكثير من "السلام عليكم" و "رحمة الله!".

استطعت فى نهاية المطاف تكريس أنتباهى كله على الطعام! فى البداية أصطحبني موراجا لإلقاء نظرة على الخروف، الذى جرى ذبحه بالفعل، وسلخه وتقطيعه. قال الرقيب: "إختارى القطعة التى تعجبك وسوف نأكل نحن ما يتبقى بعدك." أخترت فخذة وانصرفت على وجه السرعة، لكن السود كانوا مندهشين من

قناعتي واكتفاني بالقليل. اندفع خلفي اثنان ومعهما قطع من اللحم غريبة لم يسبق أن رأيتهما على أية مائدة من موائد العشاء، وفرضا على هذه القطع وقالوا: "هذه القطع طيبة جدًا. ستسعين بها."

أمضينا يومى العشرين والحادى والعشرين من شهر ديسمبر، فى بيت الرمل الصغير، الذى فيه متاهة من الأحواش القديمة والغرف المؤدية إلى غرف أخرى أكبر منها. وبعد أن أمضينا أربعاً وعشرين ساعة بين جدران المضيافة كنت لا أزال مفتقدة الطريق من الباب الرئيسى إلى باب غرفتى، كانت الانحناءات والمنعطفات معقدة ومتشابكة ويبدو أن المسألة ليست معقدة للغاية فيما يتعلق بالحصول على الطعام والقرب التى تكفى لسبعة عشر شخصاً لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، وبخاصة أن القائمقام رجل قدير ونشط مثل حميدة بك زيتون. ومع ذلك كنا نعمل حوالى ثمانية عشر ساعة من أصل أربع وعشرين ساعة كل يوم. كميات الدقيق المطلوب للقافلة! نعم، الحبوب موجودة فعلاً فى القرية، لكن لابد من طحن الحبوب، ومن أجل هذا الغرض لابد من توزيع حصة من تلك الحبوب على كل منزل من منازل جالو حتى يتسنى طحنها، وسبب ذلك أن كل أسرة لا تملك سوى طاحونة يدوية واحدة، تقوم بتشغيلها امرأتان ترتديان ثياباً زرقاء. ستة عشر قرية للماء! نعم، لكن البعض من هذه القرب يتسرب منها الماء، وليس لدينا زفت كى نصلح به هذه القرب.

كان ذلك هو حال كل شىء. الجنود لن يبدؤوا الترحال دون أن يكون معهم كمية كبيرة من الزيت الذى يستعملونه فى طبخ حبوبهم. كان محمد يود شراء كسوة جديدة لكنه أحس بالارتياح عندما علم أن الأسعار كانت أرخص بكثير فى الكفرة. وهذا عبد الله الأسمر لن يتحرك بوصة واحدة دون أن يقتنع أن القافلة تحمل ما يكفى من الماء. معدل الماء المستخدم يومياً بواسطة الفرد فى الجيش لا يزيد على جالون واحد يستعمله فى الغسل والطبخ والشرب. كانت جماعتنا تضم

سبعة عشر فرداً، وهذا يعنى أننا يتعين أن نحمل معنا ١٣٣ جالونا من الماء. أكبر القرب تتسع لحوالى سبعة جالونات فقط، والجمل يحمل أربعا من هذه القرب وهذا يعنى أن خمسة أحمال يتعين تخصيصها للماء فقط. وهذا شيء مستحيل، إذ كان مطلوباً منا أيضاً أحمال من التمر لحيواناتنا، بواقع جوال واحد لكل رأس فى اليوم الواحد، ولم يكن لدينا سوى ثمانية جمال فقط.

أمضينا كل لحظة من اللحظات التى لم نكرسها للنظر فى هذه التفاصيل العملية أو تسوية مظالم الرجال - كانت لدى يوسف مظالم جديدة فى كل يوم، بل أن حسانين نفسه أحس بالظلم والاستياء نظراً لأن الترتى لم ينفذ فيه قميصه وسرواله الأبيض الجديد فى الوقت المحدد - كانت مسألة الحصول على المعلومات من السنوسيين أمراً صعباً. والسبب فى ذلك أن أبسط شيء يمكن أن تتولد عنه شكوك كثيرة. مجرد إبداء ملاحظة عن سعر الملابس القطنية أو مكان بئر من الآبار يمكن أن تثير كثيراً من التوجس بالشر. منظر القلم الرصاص وكراسة الملاحظات يجعلهم يغلقون شفاهم. الإنسان بحاجة إلى صبر لا ينفذ وفهم لا ينفذ أيضاً قبل أن ينجح فى اختراق تحفظ السنوسيين. فهم أناس صامتون وفى أى اجتماع من الاجتماعات العربية قد لا يكون الكلام أمراً ضرورياً. والناس بعد أن يتبادلوا "كيف حالك" التى تتكرر عشرات المرات، و "طيب" يلتزمون الصمت المطبق ويروحون يحملقون فى الفضاء وهم يحتسون الشاي الأخضر الثقيل. ومن المعروف أن الصحراء تولد التحفظ. والإنسان إذا ما ترحل وحيداً أياماً أو أسابيع عدة دون أن يرى إنساناً، ودون تبادل ولو كلمة واحدة مع شخص آخر، يتعلم التواصل مع نفسه ومع ربه، ويضع قلبه فى غرفة محكمة الغلق.

السنوسيون يصعب الاقتراب منهم بصفة خاصة؛ نظراً لأنهم عبارة عن جماعات دينية محكمة مقتنعة بعدم الوثوق بالغرباء، بل إن عدم الوثوق هذا قد يصل إلى حد الكراهية! النصرانى ليس هو الشخص الوحيد الذى لا يعبر حدودهم،

وإنما لا يسمح لأى عربى من خارج جماعتهم بالسير فى طرقهم. من هنا فإن مجيء أى غريب، حتى وإن كان فى حماية "السادة"، يولد عاصفة من التحذير، والنقد، والشك. وعندما يجرى تبديد هذا الشك، ويصبح الغريب حليفاً، تبدأ صداقتهم المخلصة فى الظهور، ويبدءون فى الترحيب بهذا الغريب كما لو كان واحداً منهم. العبارة التى تقول: "كل ما لدينا ملك لك" ليست شكلاً من أشكال الكلام فى ليبيا. هذه العبارة تكون صادقة مادام جو الصداقة قائماً، لكن المرء قد يتعين عليه العمل ساعات أو أياماً لخلق الانطباع الصحيح، ومجرد كلمة عابرة قد تدمر هذه الصداقة. وأنا أرى أن البساطة الكاملة وقلة الكلام هما أفضل طرق الاقتراب. الكلمة المزوقة تؤثر فى الليبيين، وهم يقولون: "كلامك زى العسل. اسمح لى بالعودة حتى أشرب منه." لكنهم

يغمغمون فيما بينهم وبين أنفسهم "هو واحد من حواة الكلام. فلنحترس منه مخافة أن يسحرنا!"

السنوسيون يتشككون دوماً فى الدافع الخفى، ومن الأفضل فى مثل هذه الظروف إشباع حبيهم للغموض وتركهم يحلون شفره ذلك الغموض بصورة متدرجة. عقيدة السنوسيين هى أساس حياتهم، والسنوسية شأنها شأن أى مذهب من مذاهب النقشف والزهد، تعزلها الممارسة الصارمة عن بقية الإنسانية. والسنوسيون خارج نطاق انعدام الثقة والشك الذى يتولد من طريقة حياتهم، وبعيداً أيضاً وبمعزل عن أى كود غير الكود الخاص بهم، يعدون بسطاء شأنهم شأن البطارقة الرعاة فى الماضى. ذهنيته (سيدنا) إبراهيم موجودة فى ليبيا فى هذه الأيام. زد على ذلك أن السنوسيين يسهل التأثير عليهم، والإساءة إليهم والإضرار بهم مثل الأطفال. الفقراء من السنوسيين يكشفون دوماً عن فضول مشوب بالظن مثل فضول الأطفال؛ كما أن لديهم أيضاً فضول الأطفال فى طرح الأسئلة والتعلم منها. والسنوسيون عندما يضمنون أحداً إلى صداقتهم، يبدأ الشيوخ منهم يسألون عن السياسة فى الشرق

الأوسط، وقد يستمر الواحد منهم فى مناقشة الإمبراطورية العثمانية، والحجاز ومصر على امتداد ساعات. ومع ذلك، وقبل أن يحاول المرء المزاح لابد أن يكون قد أمضى وقتاً طويلاً فى "التسامر".

بدأ التجار المهمون هم والشيوخ المهمون أيضاً يأتون الواحد بعد الآخر لزيارتنا. وأخذت الدائرة الجالسة على سجادتنا الوحيدة المفروشة تحت السقف المصنوع من سعف النخيل تتسع شيئاً فشيئاً. وراحت الوجوه الجادة الملتحبة تنظر إلينا خلسة من طراطر البرانس ذات اللون الأزرق الغامق، والتي فيها خطوط حمراء. وهذه هى الأيدي التى أحرقتها الشمس تذب مختلف أنواع الذباب، مستخدمة فى ذلك مذبات مصنوعة من سعف النخيل. كان القائمقام المتين موجوداً، بوجهه الذكى الشاحب ولحيته المستديره السوداء غير الحليقة، وشفتاه لمبتسمتان، كما كان هناك أيضاً جربوع أفندى، الذى يوحى وجهه بتعبير مضحك ربما كان أوروبياً- شفتان حاسمتان، فك مربع، بشره شاحبة، وابتسامة عريضة محيرة. أظن أن الدم الفندالى يجرى فى عروق جربوع أفندى. كانت أم جربوع أفندى تعيش فى بنغازى، وكان هو مهتماً بالأساليب الأوروبية. كان هناك أيضاً شيخ الزاوية أبيض الوجه، محمد السنوسى، الذى كانت له عينان حالمتان، وفك متدل؛ وكان هناك أيضاً الشيخ العزيز المتين محمد مغروف Maghruf، صاحب الوجه المدور الخالى من الخطوط، والبنى اللون مثل لون البندق، وكانت على وجهه مجموعة من الدوائر تبدأ من منطقة فمه إلى عينيه المستديرتين عسليتى اللون، وكان هناك أيضاً الشيخ إبراهيم بشارى الرحال، الذى قاد قافلته المحملة من وادى إلى مصر، ومن الكفرة إلى بحيرة تشاد.

اكتشفنا بعد شرب كثير من الشاي المحلى بالسكر، وأصوات المص والمزمزة عالية الصوت. وبعد أن عطرت قهوتنا الهواء، أن جالو عبارة عن مجتمع من التجار. ويعد النخيل فيها أمراً غير ذى بال. واكتشفنا أن القرية تعيش

على التجارة، نظرًا لأن جالو تقع على طريق القوافل الرئيسية بين السودان والموانئ الليبية. وقد أنشأ سيدى محمد المهدي هذا الطريق الصحراوي الكبير عبر واحة الكفرة. قبل عيد سيدى محمد المهدي كانت القوافل تمر عن طريق طرابلس وفزان. وقد عرفنا أن العاج كان يجرى إحضاره إلى وادى نظير خمسة أو عشرة فرنكات للرطل الواحد، وأنه بعد خصم تكاليف الرحلة الطويلة، كان البدو يحصلون على ربح يعادل حوالى خمسين فى المائة فى بنغازى. كانت القوافل المتجهة إلى الجنوب تحمل معها الإبر، والصابون، والمعطرات، والصنادل، والأقمشة القطنية، والسكر والشاي. وكانت تلك القوافل تعود بالعاج، والريش، والصبية الذين يجرى تهريبهم كعبيد، وكذلك البنات من سن الثامنة إلى سن العاشرة. بعض هؤلاء البنات كن جميلات- مجرد مخلوقات صغيرة، سوداوات الوجوه، كن ينظرن إلى الخارج من خلال طراوير البرانس المصنوعة من وبر الإبل. جرى إفقاد هؤلاء الجوارى والعبيد من قبل سادتهم ليحضرُوا لنا هدايا من البيض والحليب وكانوا ينظرون إلينا باحتقار إلى أن استرضيناهم بحففات من التمر.

ناقشت الدوائر الصديقة المسارات الصحراوية كلها، سواء أكانت موقعه أو غير موقعه على الخريطة. عرفنا موقع كل بئر من الآبار ومذاق الماء فى كل من هذه الآبار. تعلمنا أيضا أن الجمل فى فصل الشتاء يمكن أن يسير خمسة عشر يومًا بلا ماء، إذا كان يحمل حملاً خفيفاً وتجرى سياقته بحرص وعناية. وعليه تصبح كل من سيوة، وجغبوب، والفراغة بمثابة مخارج من الكفرة، على الرغم من أن أقل الأخطاء أو الأحداث قد يحمل الهلاك فى طياته. مع استطالة الساعات ومع ازدياد حلاوة القهوة، انتقلنا من المسائل العملية إلى السياسة. وتحولت الأنظار كلها إلى نضال مصر من أجل الحرية باعتبار ذلك النموذج الذى تحذوه ليبيا فى المستقبل وقد اندهشت، من أن بريطانيا كان يُنظرُ إليها نظرة احترام وحب. وجرى تدمير الزوايا السنوسية فى مصر نتيجة للسياسة الخاطئة التى كان يتبعها السيد

أحمد. كان واضحاً أن البلاد كلها أدركت عدم اهتمام بريطانيا بليبيا، ومن ثم دخلت فائزاً في مشروعات مانيسمان ونورى. ينظر الناس إلى السيد أحمد نظرة احترام وتقدير باعتباره مسلماً خالصاً، لكن السياسة التى يتبعها تعد أمراً مؤسفاً. الناس ينظرون إلى السيد إدريس باعتباره منقذاً ومخلصاً لبلاده. جاء السيد إدريس إلى المقدمة فى لحظة رأى خلالها السنوسى أن مشروع الأرض كلها أصبح فى أيادى أوروبية. واستطاع السيد إدريس من خلال سياسته الحاذقة المحافظة على قوة شعبه، الذى يحترمه لصدافته مع بريطانيا ولموقفه الذكى الودى من إيطاليا. الشعب يتطلع إلى السيد إدريس على أنه يحافظ على ليبيا للسنوسيين، فى الوقت الذى يفهمون فيه حقيقة أن إيطاليا سيكون لها دوماً موطئ قدم فى ليبيا. ولا يزال الوقت مبكراً على استيعاب الدستور الجديد فى ليبيا. شروط الوفاق التى جرى التوصل إليها فى رجما Regima لم تنتقل بعد إلى الواحات الصحراوية. من هنا كان لا يزال هناك شيء من الشك فى أذهان الزائرين فيما يتعلق بمستقبل بلادهم.

وعندما يتعرف السنوسيون السياسة الإيطالية واسعة الأفق، فإن ذلك سيحدث نقاشاً ممتازاً بين السنوسيين وحلفائهم اللاتينيين. وهذا يعنى أن رفاه البلد كله سوف يعتمد على هذا التفاهم الجديد. هناك رجلان مسئولان عن بدأ هذا التفاهم. معروف أن البدو مدينون تماماً بسلامهم الحالى إلى روح سيدى إدريس التقديمية المباشرة. وإيطاليا مدينة بتفاهمها لحاكم برقة السيناتور دى مارتينو، الذى يبدو وكأنه أول سياسى أوروبى من هذه الحقبة، يفهم أن حقيقة التعامل مع الأعراق العربية تحتم التمسك بما يقطع من وعود. قال لى سيادة السيناتور دى مارتينو عندما كنت مقيمة معه فى بنغازى "سياسة إخلاف الوعود سياسة رديئة ولا تصيب نجاحاً. الضلال هو الذى صنع إنجلترا. الأمانة تقضى أن أتمسك بكلامى!"(*)

(*) وردت هذه العبارة باللغة الفرنسية وهى من ترجمة المترجم. (المترجم)

عندما أشعلنا الشموع وبعد إضافة أوراق النعناع إلى الشاي ازداد وثوق ضيوفنا بنا. حكوا لنا عن حبهم للحرية وعن رغبتهم في حياة هادئة خالية من التآمر السياسى. لقد أصابتهم الحرب بأضرار كثيرة، لأنها أدت إلى رفع الأسعار وإغلاق الطرق. ووصلت تجارة البلاد إلى ما يشبه التوقف. وتوقفت صادرات الجلود تمامًا.

انخفض الشعور بالمرارة إلى حد كبير، لكنه يمكن أن يشتعل من جديد جراء أى عمل من أعمال العدوان. كان العرب يتطلعون فى تلك اللحظة إلى عدم تقدم إيطاليا نحو الداخل إلى أبعد مما وصلت إليه، لكنى أتصور أن تجار العرب سوف يتطلعون إلى تمكين أنفسهم من التسهيلات المتزايدة للتجارة والتي ستوفرها الحماية الإيطالية لبرقة. سألتى الشيخ إبراهيم عن مملكة الحجاز. هناك زاوية سنوسية شهيرة قريبة من مكة، كما أن الروابط بين ليبيا والحجاز يجب أن تكون وثيقة بصفة دائمة بسبب الحج إلى "بيت الله" وأنه لمن مصلحة كل مسلم مخلص، وبخاصة أولئك المتشددون الزاهدون، أن يعم السلام أراضي الملك حسين. كان الجميع مهتمين بمستقبل الأمير فيصل العملى، وسألونى عن موعد عودته إلى دمشق. واضطرت أمام هذا السؤال المخرج إلى الإجابة عنه بطريقه مراوغة، لكن الموضوع جرى التركيز عليه بشكل غير معتاد. سألتى القائمقام فى شىء من الاستياء "ألن تقوم إنجلترا بمساعدته؟" حاولت شرح سياسة بلادى المعقدة، لكن أكبر الشيوخ سنا هز رأسه تعبيراً عن القلق والاستياء. قال كبير الشيوخ متسائلاً: "أليست إنجلترا قوية بالقدر الذى يمكنها من حماية حلفائها؟ لقد أعربنا عن أسفنا عندما أعلن السيد أحمد الحرب على إنجلترا، لأننا كنا نحسب أنها عتيقة وقوية. هل دب الضعف والوهن فى بريطانيا فى هذه الأيام؟" غيرنا مجرى الحديث تغييراً طفيفاً، لكن هذه اللادغة الصغيرة اعتملت فى صدرى.

وقيل لنا من جديد-إن نفوذ بريطانيا تناقص في السنوات الأخيرة. صحيح
أننا كسبنا الحرب وانتصرنا فيها، لكننا خسرنا السلام! ربما نكون قد خسرنا شيئاً
آخر أكبر من ذلك! وبينما كنت أستمع إلى انتقادات ضيوفنا من البدو، خطر على
بالي الخطاب الأخير الذى استمعت إليه حول هذا الموضوع. جاء هذا الخطاب من
فم سياسى كبير فى حفل عشاء أقامته جمعية آسيوية فى لندن، وكان ذلك الخطاب
يحدد سياسة بريطانيا المستقبلية فى الشرق الأوسط، هذا الخطاب أربك ببلاغته كل
من استمعوا إليه لكنهم كانوا يجهلون حقيقة!

الفصل السادس

عيد الميلاد فى الصحراء

واحة جالو مكونة من قريتين يفصل بينهما بضع مئات من الياردات. قرية العرق El Erg، وهى مقر الحكومة وتحتوى على القصر، وإن شئت فقل مكتب الحكومة، أو بالأحرى منزل القائمقام وفيها أيضا زاوية جديدة تضم حوالى أربعين من الإخوان. القرية عامرة بالحوارى الدائرية الضيقة، التى تحيط بها جدران خالية من النوافذ، تخترقها مداخل منخفضة فوق مرتفع ومنخفض عند الطرف البعيد من سفح كثيب رملى كبير، يستطيع المرء أن يرى من فوقه ميلاً بعد ميل من النخيل المبعثر، مع بئر هنا وبئر هناك، جرت تقوية فتحاتها باستخدام جذوع النخيل. جرت العادة أن تتحوط بعض الأشكال حول فتحة هذه البئر. وعادة تتبادل أطراف الحديث بين الناس أثناء جلب الماء من البئر فى النهار. وحول الآبار ترى الثياب ذات الألوان النيلية الزرقاء والبرتقالى والأحمر وهى ألوان تعبر عن ذوق النساء غير المتحضرات وتعد تناقضاً صارخاً بلون الرمال البيضاء المتوهجة. ويرى المار عند باب كل مسجد من المساجد مجموعة من الأشكال المَقْمَطَة، الغارقة فى النوم أو التأمل، وهى تذب الذباب العنيد كى يبتعد عنها.

تجولت خلال منخفض لبَّه Lebba على ظهر حمار كبير أبيض أعارنى إياه حميدة بك زيتون. لبَّه عبارة عن قرية نوعم اللهم باستثناء أن الشوارع أوسع وأكثر استقامة، كما أن البرج المربع لمنزل سيد هلال يهيمن على المكان كله. بينما كنت أمر أسفل شبابيك ذلك البرج، لمحت وجهاً شديد الجمال، ومن فوقه الحجاب الأزرق الياقوتى ينظر إلى خلصة. كان ذلك الوجه مستديراً وزيتونى اللون، والكحل الأسود يبرق من حول عينين أكثر اسوداذاً طويلتى الرموش ولامعتين. كانت علامات الوشم على الذقن والشفنتين، مما ساعد على إبراز أسنان بيضاء مثل

اللؤلؤ، وحلق كبير من الفضة، عامر باللون الأحمر، ومطروح على جدائل شعر أسود مثل سواد منتصف الليل.

لَبَّهَ فِيهَا زَاوِيَةٌ قَدِيمَةٌ جَدًّا، أَسْمِيَا سِيدَى مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ. تَجَوَّلْتُ خِلَالَ حَوْشِ تِلْكَ الزَاوِيَةِ الْمُلَيَّءِ بِالنَّخِيلِ إِلَى أَنْ وَصَلْتُ إِلَى صَحْنِ الْمَسْجِدِ، الَّذِي حَيَانِي فِيهِ الشَّيْخُ عَمْرٌ بِتَحِيَّةٍ حَارَةٍ، وَقَالَ لِي إِنَّهُ كَانَ سَعِيدًا بِلِقَاءِ كُلِّ مَنْ يَسْرِي فِي جِسْمِهِ الدَّمُ الْإِنْجِلِيزِي. قَدْ مَنَى الشَّيْخُ عَمْرٌ إِلَى كُلِّ أَسَاتِذَتِهِ وَإِلَى السَّوَادِ الْأَعْظَمِ مِنْ تَلَامِيذِهِ الْأَذْكَيَاءِ، الَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَطْلُعُونِي هُنَا وَهَنَّاكَ وَفِي الْحَالِ، عَلَى مَدَى إِتْقَانِهِمْ لِلْكِتَابَةِ. قُلْتُ وَقَدْ سَرَتْ هَمِيمَةٌ مِنَ الدَّهْشَةِ وَالْإِحْتِقَارِ خِلَالَ الْجَمَاعَةِ "أَنْتُمْ أَهْمَرُ مِنِّي، لِأَنِّي لَا أَسْتَطِيعُ كِتَابَةَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ." "هِيَ لَا تَسْتَطِيعُ الْكِتَابَةَ وَهِيَ بِهَذَا الْكَبِيرِ، هِيَ كَبِيرَةٌ جَدًّا. أَظُنُّ أَنَّهَا أَكْبَرُ مِنْ فَاطِمَةَ أَوْ عَائِشَةَ!" أَوْ آيَةُ امْرَأَةٍ مِنَ الصَّحَابِيَّاتِ فِي السَّنَوَاتِ الْمَاضِيَةِ! زَاوِيَةٌ لَبَّهَ فِيهَا مِائَةُ طَالِبٍ وَحَوَالِي ثَمَانِينَ مِنَ الْإِخْوَانِ. الْمَسْجِدُ الطَّوِيلُ الْمُنْخَفِضُ صَغِيرٌ جَدًّا، وَنَظِيفٌ وَأَبْيَضٌ، بِعَقُودِهِ الرَّمْلِيَّةِ، وَجِدْرَانِهِ الْمَصْنُوعَةِ مِنَ النَّخِيلِ - يَوْجِدُ قَلِيلًا مِنَ الْحَصِيرِ الْمَصْنُوعِ مِنْ سَعَفِ النَّخِيلِ الْمَفْرُوشِ عَلَى الْأَرْضِ، كَمَا أَنَّ الْمَسْجِدَ لَهُ "مَحْرَابٌ" صَغِيرٌ مَدْهُونٌ؛ قَالَ الشَّيْخُ مُتَفَاخِرًا "بِنَاءِ هَذَا الْمَسْجِدِ يَتَكَلَّفُ مِائَتِي مَجِيدِي"؛ وَبَدَأَ الرَّجُلُ مِنْ جَدِيدٍ، يَتَكَلَّمُ عِنْدَمَا كُنْتُ أَغَادِرُ الْمَسْجِدَ كَلَامًا طَيِّبًا عَنْ بِلَادِي، جَاءَ كَمَا لَوْ كَانَ بَلَسْمًا لِلنَّقْدِ الَّذِي وَجَّهَ إِلَيْهَا فِي مَسَاءِ الْيَوْمِ السَّابِقِ.

عَقَدْنَا فِي أَمْسِيَّتِنَا الْأَخِيرَةِ مَجْلِسًا (اجْتِمَاعًا) فِي مَنْزِلِ الْقَائِمَقَامِ. تَرَكْنَا أَحْدِثَتَنَا عِنْدَ بَابِ الرَّجْلِ وَجَلَسْنَا مُرْتَبِعِينَ حَوْلَ جِدْرَانِ الْغُرْفَةِ، الْخَالِيَةِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا اللَّهْمَ بِاسْتِثْنَاءِ حَقِيبَةٍ كَانَتْ بَدَاخِلَهَا أَدْوَاتُ كِتَابِيَّةٍ قَلِيلَةٍ الْإِسْتِعْمَالِ. تَسَاءَلْتُ بِطَرِيقَةٍ خَفِيفَةٍ الظِّلِّ "أَلَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ جَاهِزًا الْآنَ لِنَبْدَأَ سِيرَانَا غَدًا مَعَ طُلُوعِ الْفَجْرِ؟" خَرَجْتُ مِنْ فَمِ يَوْسُفَ أَغْرَبَ "إِنْ شَاءَ اللَّهُ." أَنَا أَجِدُ صُعُوبَةً كَبِيرَةً فِي جَعْلِ الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ مَسْئُولَةً عَنْ كُلِّ شَكْوَى الشَّرْقِ! كَرَّرْتُ السُّؤَالَ، وَكَانَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ يَبْرُزُ بَعْضُ الْمَصَاعِبِ.

قال موراجا، ذلك الرقيب المتين: "الزيت لم يأت بعد." رد حسانين رداً خشناً "خُذْ جنديين وأحضر الزيت." تراجع الرقيب ولزم الصمت مخافة أن يُجبر على مغادرة المكان قبل وصول الحليب الحار اللذيذ المحلى بنكهة القرفة. كان محمد يود تحرير بعض الرسائل إلى إجدابيا. أوضح عبد الله أن بعض القراب كانت جديدة ومدهونة بالزيت بدلاً من الزيت، الأمر الذي سيجعل الزيت ينصهر في الطقس الحار ويتسبب في جعل رائحة الماء كريهة. أما يوسف فكان يود صراحة البقاء تحت سقف يمكنه أن يأكل وينام تحته طول النهار. كان على وجه يوسف تعبير ينم عن الاستياء المعتاد، ومن خلال التثاؤب الكثير كادت عيناه تختفيان داخل شرخين ضيقين. كان المرافقون لنا قد ارتدوا أبهى ملابسهم في جالو. وهذا عبد الله ارتدى بردته (جيرد) الصوفية البيضاء بياض الثلج هي والبرنس، ومعها حزام قرمزي اللون يحمل مسدسه الخشبي قديم الطراز، المرصع بكثير من الفضة، لكن محمد ويوسف ارتديا سترات مطرزة قصيرة تجمع بين اللونين الأخضر والأزرق، وبردتين مقلمتين من الحرير من فوقهما عقال.

كنت أنا الوحيدة التي لم تبدل ملابسها ورحلت أتساءل عن مدة بقائي مرتدية الثوب الأحمر غير المغسول هو والبركان. الماء ليس متوفراً في جالو، وعليه جرى إرسال الغسيل على بعد مسيرة يوم إلى بطفال Buttafal. هذه هي البئر الأخيرة على الطريق المؤدى إلى كل من الكفرة وبتسربو. وعليه قررنا الرحيل إلى هناك في الصباح على أن نخيم يوماً بجوار مياه البئر الحلوة، قبل أن نشرع في رحلتنا الشاقة إلى الجنوب. وعندما وجدوا أننا مصرون على ما قلناه انتعش كل المرافقين لنا، وقد اندهشت اندهاشاً كبيراً عندما وجدت يوسف الكسول يصحو في صبيحة اليوم التالي عند الساعة الرابعة صباحاً وهو جاد في عمل التجهيزات المطلوبة. لا شيء يأتي في الشرق إلا قبل اللحظة الأخيرة، لكن المرء يجب عليه دوماً أن يكون مستعداً لوصول ذلك الشيء في اللحظة التي يكون هو قد اتخذ قراراً

بالاستغناء عن ذلك الشيء. وعليه وبعد أن تم حزم الأشياء كلها، بدأ البيض المسلوق والخبز، الذي جرى طلبه قبل أربع وعشرين ساعة، في الظهور وكان لابد من وضعه في أول كيس يصادفنا من بين الأكياس.

مسألة تحميل قافلة يتعين عليها قطع مسافة مائتين وخمسين ميلاً منها مسير سبعة أيام في منطقة خالية من الماء ليست بالأمر السهل أو الهين. نظرت إلى جمالنا الثمانية عشر بشيء من القلق. بعض من هذه الإبل كانت صغيرة وضعيفة. كان واحد من هذه الإبل مجرد صورة حية لكل ما يمكن أن تكون عليه صورة الجمل. ربما كان يجري استعمال هذا الجمل استعمالاً ناجحاً بواسطة سلاح الهجانة في الخرطوم، ليكون مثلاً للضباط المتحمسين كي لا يقبلوا على شرائه. كانت أرجل هذا الجمل متأكلة، وكان سنامه طرياً، وكانت رجلاه الأماميتان تصطكان ببعضهما أثناء السير، لم يكن صدره بالمستوى المطلوب، وكانت منطقة ما تحت كتفيه عامرة بالالتهابات. يزداد على ذلك أن كثيراً من النوق كانت عشاراً. على كل حال، لم يكن هناك مبرر للجأر بالشكوى قبل بداية الرحلة. كنت قد فهمت منذ زمن بعيد أننا سنصل إلى الكفرة، إذا ما شاء الله ذلك، وكلما توغلنا في الصحراء، كنت أحس أنني في قبضة قوة خفية. لم أندش مطلقاً عندما كانت المصاعب تتراكم أمامنا، ثم تختفى بدون سبب في اللحظة الأخيرة. بدأت أحس بثقة قوية في القدر الذي جرنى من الصيد، ورحلات الصيد وأرسل بي إلى الصحراء البيضاء لاكتشاف المكان المقدس الذي ظل سرّاً لفترة طويلة. كان إحساسي بالقسمة(*) والنصيب قوياً إلى حد أنه منعى من الانشغال أكثر من اللازم بإبلنا الضعيفة، علماً بأنني كنت على يقين من أنها تحمل أحمالاً أكبر من طاقتها. تزايدت جماعتنا لتصبح تسعة عشر رجلاً بعدما أضيف إليها عبدتان سوداوان ترتديان برّكانيين

(*) استعملت المؤلفة كلمة Kismet وهذه الكلمة مأخوذة عن الكلمة التركية عربية الأصل Qisma، وهي ما يطلق المصريون عليه اسم "القسمة والنصيب." (المترجم)

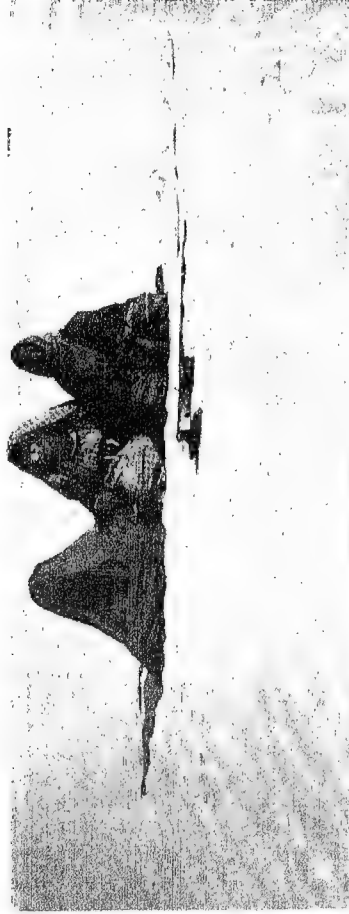
زاهيا الألوان، وبعض الأشياء القليلة الأخرى، وهما ملك أحد السادة، أراد إرسالهما إلى الكفرة.

على الرغم من الجهود المبذولة لم تكن القافلة جاهزة للتحرك قبل الساعة الحادية عشرة والنصف، عندما بدأنا التحرك خارجين من المدينة المضيفة خلال ريح شمالية غربية قوية ووسط فيض من أطيب التمنيات، والأسف والدعاء. كنا قد عقدنا العزم على مواصلة السير أثناء الليل على أن نصل إلى طفال عند الساعة العاشرة مساءً، غير أن القدر شاء غير ذلك، فقد اشتدت الريح قبل أن تختفى جدران جالو عن أنظارنا، وتحولت الريح إلى أسوأ الرياح القبلية التي لم نشهدها من قبل. كانت الريح تأتي من خلفنا، لأننا كنا ميممين صوب الجنوب الشرقي، ومع ذلك كانت الإبل تترنج وتدور حول نفسها، محاولة الاحتماء بعضها ببعض. كنت على وشك السقوط من فوق جملي الأشقر. كانت البطانيات السائبة هي والحصير السائب كله ترفرف على شكل دوائر واسعة وبدأت أحمال الإبل تترنج وتهتز بطريقة خطيرة. وكان النخيل على الجانبين ينحني ويتشقق في تلك العاصفة الهوجاء المفاجئة، في الوقت الذي كانت تتمزق فيه الأوراق الكبيرة، وتتطاير محدثة صوتاً من فوق رءوسنا. وتحول الهواء إلى ملاء سميكة من الرمل حُجبت الشمس وضاع منا الاتجاه. اصطدمت هبات الريح بوجوهنا وكادت تعمى أعيننا. كان المنظر بمثابة أغرب المناظر التي رأيته، ولمدة دقيقة واحدة اختفت الإبل والأشخاص في موجة الضباب الأبيض الكثيف؛ بعد ذلك كان يظهر رأس، أو بطانية تهفّف أو جزء من جمل يمشی، ولمدة لحظة من خلال هذا الضباب ليختفى من جديد في ذلك الشفق الموحج. تعثرنا واختنقنا وسقطنا خلال هذه العاصفة الهوجاء، إلى أن تبين عبد الله أن محاولتنا لا طائل من ورائها. وخلال هدوء دام لحظة ظهر على يسارنا خط من أشجار النخيل، وصبى صغير رابض بجوار بستان مزروع بالبصل، والفجل، والقرع العسلى. حولنا اتجاه إبلنا صوب الملجأ

المنخفض، وغاصت أرجل الإبل إلى ركبها في الرمل بجانب مجموعة من الأشجار رمادية اللون، عديمة الأسماء. أعطى الصبي مرشدنا بعضاً من الفجل أثناء مروره عليه، وعلى الرغم من قسوة الرمل المتطاير، تحول الصبي نحوى وابّسّم. قال: "رحلة مباركة". "إنظري إلى الخضرة التى أعطونا إياها!" وكان هذا دليلاً على مدى بعد فكر الإنسان هنا عن فكر الناس فى كل من لندن وباريس، الأمر الذى جعلنى أشعر بالارتياح الكبير الذى ولّده كلام هذا الرجل فى داخلى.

لنفتت حولى أنقل البطانيات وحفرت لنفسى حفرة فى الرمل، فى الوقت الذى ينهال علىّ فيه وابل من التراب والحصى. ومن خلال فتحة ضيقة فى البطانية رأيت السود وقد ربطوا الكوفيات حول أفواههم وأنوفهم، وهم يترنحون تحت وطأة الجوالات والصناديق. كان السود يبدون كما لو كانوا أشباحاً على شاشة خلفية فانوس من الفوانيس، إذ كانوا يختفون مع كل هبة من هبات الريح القوية. كانت مسألة نصب خيمة أمراً مستحيلاً. جرى تبريك الإبل على شكل شبه دائرة، حيث كانت تتأوه ولا تحاول التحرك. وجرى تكويم الأمتعة لتكون زرائب، وقبعنا فى الجانب المحمى من هذه الزرائب مدة أربع أو خمس ساعات، والبطانيات تغطى وجوهنا، والمناديل ملفوفة حول أفواهنا. ظننت أن المرافقين لنا سينظرون إلى تلك العاصفة باعتبارها نذير شؤم، لكن محمد كان هو الوحيد، الذى ابتسم وكان التراب يغطى شفّتيه. قال محمد: "ستكون هذه الرحلة ناجحة. وسيحالفنا الحظ خلالها، وسبب ذلك أن السيد عندما يسافر أو يترحل تهب ريح قبليّه دوماً من هذا القبيل!"

حدث ذات مرة عندما كنت أحاول تغيير وضعى المعوج، أن أحسست شيئاً طرياً متهدلاً خلفى. نظرت من خلال لفافاتى بحذر ووجدت وجه زينب الأسود، أجمل الجوارى، يكاد يصل إلى كتفى. أمسكت زينب بدى وقبلتها بشدة وبصدق، فى الوقت الذى اقتربت فيه رفيقتها هواً Hauwa منا. لم يكن برؤناهما كافيين لحمايتهما من الرمل المسعور، ولذلك عرضت عليهما نصيئاً من بطانيتى،



THE AUTHOR WITH THE TWO SLAVES—ZEINAB AND HAUWA.

المؤلفه مع إثنين من العبيدات : زينب وهوا

وتصادقنا ونحن تحت الغطاء السميك. كانت زينب صغيرة السن، حوالى ستة عشر عاماً، ومستديرة الوجه، ولها شفتان منحيتان، وعينان كبيرتان بلون القطيفة منكسرتان تواضعا. كانت هُوماً تبدو أكبر سناً بحكم بشرتهما المتجعدة وأسنانها الصفراء غير المستوية، لكن عمرها لا يزيد على أربعة وعشرين عاماً. السودانيون يتزوجون، عندما يكون الآباء ميسورى الحال ولديهم المال، عندما تبلغ البنت سن التاسعة والولد فى سن الثالثة عشرة من هنا نجد أن هؤلاء العبدات أبانوسيات البشرة قد يصبحن جدات فى الوقت الذى تكون فيه البنت الإنجليزية تتسائل عما إذا كانت قد وصلت إلى السن الذى يسمح لها بالزواج! كان لدى رفاقى الصغار أسئلة كثيرة وتعليقات كثيرة أيضاً، وكان ذلك كله مختلطاً بشكرهن للسيد رضا والثناء عليه. أرادنا أن تعطيانى البيض الذى اشتريته لأنفسهما، ومسألة رفض الهدية فى الشرق أمر مستحيل. ويجرى قبول الهدية بطبيعة الحال دون التعبير عن الشكر والامتنان. كنت أندesh فى بداية الأمر إذا ما أعطى إنسان إنساناً ساعة أو مسدساً، وأخذة بلا تعليق، ولكنى بدأت أفهم بصورة متدرجة أنهم يعطون ويأخذون بنفس البساطة.

كانت زينب تلبس حلقاً ضخماً من الفضة وأساور من الفضة وحزاماً مطرزاً من الجلد فيه حوالى عشرة أكياس صغيرة تحمل فيها مستلزمات زينتها، فى حين كانت هُوماً قد ربطت برئكانها على شكل طرطور، مستخدمة فى ذلك شريحة من الجلد قرمزية اللون تحمل بعض الأحجبة فى جيوب صغيرة. كانت كل من زينب وهُوماً، تضعان عصاً عريضة من المرجان قرمضى اللون فى فتحات أنوفهما. وعندما انحسرت العاصفة عند الساعة الخامسة والنصف مساء خرجتا من البطانية وراحتا تشغلان نفسيهما، فى إعداد الوجبة البدوية المسائية.

كان هناك فى ذلك الوقت مخيمان متناقصان فى الزرائب المتجاورة. كان الجنود يطبخون دقيقهم مُسَّه المذاق خلف جدار من الجوانات الثقيلة. وفى دائرة

أخرى كان كل من محمد ويوسف، ومعهما المرشد هو وصبي جمال أسود، يُسنون شايًا ثقيلًا حلو المذاق، في حين كانت الفتاتان في مخيم صغير بجانب مأوى الرجال. كان محمد حائياً عليهما بصورة مستمرة، إذ كان يقرضهما بطانية بين الحين والآخر، لكن أحياناً لم يشغل باله بهما اللهم إلا إذا كان الأمر يتعلق بالطبخ أو غسل الملابس. صحيح أن البدو في الأماكن التي يسمح فيها طول مقامنا بنصب الخيام، كانوا يكتفون دوماً بالزريبة، تاركين لزينة وهواً استعمال خيمتهم، لكن البنيتين قبلتا الأمر الواقع، أنهما بعد أن تركبا طوال اليوم، يتعين عليهما القيام بعملية الطبخ والغسل والتنظيف، والعمل بصورة عامة على راحة المجموعة العربية.

كنا نريد فض المخيم بعد وجبة المساء، لكن على الرغم من انحسار العاصفة الرملية فإن الريح كانت لا تزال باردة. أوضح عبد الله أننا يتعين علينا السير طوال الليل ونصل في الصباح متعبين بشكل لا نقوى معه على العمل، وأن ذلك سيكون مضيعة للطاقة، والسبب في ذلك أن حطب الرحلة يتعين جمعه من المنطقة المجاورة لقرية بطفال Buttafal. دخلت بعد ذلك في كيس نومى محتمية بسور النخيل عند الساعة السابعة مساءً، وصحوت ثانية عندما كان الجو لا يزال حالك الظلام. حنّت الريح الباردة السود على العمل الجاد، وتلا ذلك قدر كبير من الجرى والغناء هنا وهناك، لكن الشمس أشرقت ونحن كنا لا نزال نقوم بتحميل الإبل ولم نبدأ المسير إلا بعد الساعة السابعة.

كنا قد خيمنا على حافة واحة جالو مباشرة. خلفنا وراءنا آخر النخيل، وكُنّا نرى أمامنا أكبر المناطق استواء شهدتها عيني. كانت هناك مساحة كبيرة من الرمل المختلط بالحصى الذي يميل لونه إلى الاصفرار، تمتد إلى حافة الأفق القريب. حسبت أننا عبرنا الأرض المستوية الرتيبة التي كانت أمامنا، لكن فى اليوم الثالث والعشرين ركبنا دوابنا خلال أرض سنجابية اللون مستوية مثل طاولة البلياردو، لم يكن فيها نصل أو عود واحد من العشب، أو طائر واحد، أو حتى

حشرة واحدة أو تل واحد. كان الأمر يبدو وكأننا في آخر الدنيا، وأنا اقتربنا من حافة الأفق المستديرة التي سنسقط من فوقها! كانت الأشياء الوحيدة التي غيرت هذه الرتبة غير العادية عبارة عن مجموعة مبعثرة من الهياكل العظمية التي سبق أن نفقت في نهاية المسيرة الطويلة من الكفرة أو تيسريو. كنا نرى من حين لآخر عظمة من عظام ساقى الجمل مغروسة بطريقه رأسيه كى توضح الاتجاه الذى كان يقف فيه.

كان يوماً صحواً بارداً ريحه شمالية غربية. ويبدو أن الإهمال العمدى لقدمى هو الذى أدى إلى شفائها، ولذلك استطعت السير مدة ساعتين مع عبد الرحيم. كان عبد الرحيم يتقد حماساً لوصول نفوذ السنوسى إلى كل من برنو، والسنگال، والسودان، ووادى، وراح عبد الرحيم يعطينى ويقدم لى قائمة بالزوايا الرئيسية. قال: "الوحيدة وادى هى التى ليست فيها زاوية. وسبب ذلك أن السلطان قال لسيدي بن على، 'سنكون دائماً أصدقاء وحلفاء لك، لكنك إذا بنيت زاوية هنا فإن الشيء التالى الذى يتحتم عليك عمله هو أن تجيء إلى هنا وتغزونا!'" كان القومندان كثير الكلام وانسابت ذكرياته عن الماضى من بين شفثيه. كان القومندان الشخص الذى أرسله سيدى أحمد ليقفل مختار، الضابط السنوسى الذى كان يعمل لحساب تركيا، والذى سبق أن هاجم بومبا Bomba فى الأراضى المصرية دون صدور أوامر مباشرة من سيده بذلك. كان مختار فى جغوب عندما تشاجر سيدى هلال مع عمه، وبناء على حكم الإعدام هرب الرجل إلى طبرق خلال ثمان وأربعين ساعة. وصف السيد الشاب أهوال المائتين والخمسين كيلو متراً ليصل إلى عند تناول العشاء فى منزله فى جدابيا، ثم راح يشكو وسط سجاده الوثير وملابسه الرائعة، وهو يضحك من ذكريات عظامه التى كانت تؤلمه وقوته التى كانت تخور فى بعض الأحيان.

كان عبدول مُلمًا أيضًا بأعمال رمضان شتيوى، ذلك الزعيم العربى الذى صد الإيطاليين على امتداد سنوات كثيرة فى طرابلس^(*) Tripolitania، لكنه قُتل منذ شهور قلائل فى معركة ضد أورفلا Orfella. ويبدو أن تحالف رمضان شتيوى مع السيد أحمد كان مجرد فتور لهمة، وسبب ذلك أن رمضان شتيوى، فى إحدى المرات وعندما كان يوفر الحرس الخاص لبعثة ألمانية كانت تحمل مبلغًا كبيرًا من المال إلى السيد Sayed فى برقة تلقى رجاله أوامر بقتل التيونينين^(**) عندما يكونون على بعده من مصراته Misurata. استولى رمضان شتيوى على الذهب الرسمى وجرى تقسيم الثروة الخاصة بالبعثة بين القتلة.

أشار يوسف عند الظهر إلى ارتفاع طفيف بدا لنا من بعد. قال: "بير بُطْفال موجود خلف هذا التل." وفى ظل وجود بقع خضراء أخرى على خارطتنا المدهشة، بدأنا نتطلع إلى رؤية حتى ولو نخلة واحدة، ومجموعة قليلة من الأدغال وأشجار الحطب عند الشفق. هذا المنخفض الخفيف ليس فيه مجرد عود واحد من أعواد الحشائش. هذه المساحة الواسعة من الرمل الناعم السميك ليس فيها أى حجر أو حتى عصا، أو حتى حزمة من حزم نبات المريمية^(***) الأخضر. لم يكن يوم وصولنا إلى بير بُطْفال ورطة أو مأزقًا. وقبل أن يتيسر الوقت لنا للسؤال عن مكان البئر، استشاط عبد الله غضبًا هو واثنان من السود. فقد ألقوا بأنفسهم جاثين

(*) تريبوليتانيا (حاليًا طرابلس): وهى تقع فى الشمال الغربى، وتحدها برقة من جهة الشرق وفزان من ناحية الجنوب وتونس من ناحية الغرب. وتقدر مساحتها بحوالى ١٠٠٠٠٠ كيلو متر مربع ويقدر عدد سكانها بحوالى ٨٠٠٠٠٠ نسمة (القسم الأكبر منهم من العرب والبربر المسلمين وفيها أيضًا خليط من الزنوج). وهى حاليًا عاصمة ليبيا ومينأوها العميق الرئيسى الوحيد، ويصل معدل سقوط المطر السنوى فيها إلى حوالى ١٥ بوصة؛ وتشكل طرابلس قسمًا من الصحراء الكبرى، مع جزء من صحراء الحمادة الصخرية (فى الجنوب الغربى)؛ والمصارف الرئيسية فى طرابلس هى الوديان. ويربى البدو فيها الإبل، والغنم والماعز، وتجرى زراعة الشعير، والقمح والزيتون فى الواحات. (المترجم)

(**) التيونونى: هو من ينتمى إلى العرق الجرمانى قديمًا، والمقصود هنا هو "الألمان". (المترجم)

(***) المريمية: نبات صحراوى. (المترجم)



OUR CAMP AT BUTTARAI (AUTHOR IN WHITE).

مخيمات بَطْفَال (المؤلفه ترترى الذى الابيض)

على ركبهم وراحوا بصيحات إيقاعية يرمون الرمل بشدة من فوق أكتافهم. ولم نفهم مطلقاً أنهم كانوا يحفرون البئر التى ردمتها الريح القبلية التى هبت فى اليوم السابق، وقد غاصوا إلى منتصف أجسادهم فى الرمل ثم بدأ لون الكومة المحيطة بهم يتحول إلى اللون الداكن وتزداد نسبة الرطوبة فيه.

كرست المجموعة نفسها فى مساء عيد الميلاد لغسل ملابسها، مع بعض المشروبات الخفية من بئر بطفال العذب، الذى يمثل أول ماء طيب تذوقناه منذ أن غادرنا إجدابيا. عملت كل من زينب وهوا بجد وصبر بغية إعادة ملابس الجماعة إلى لونها الأبيض السابق. وتعين على أن أستر نفسى بجرده (برده) فى الوقت الذى كان فيه ثوبى الأحمر فى الوعاء المصنوع من الصفيح الذى كان يُستعمل مغسلة. كان السود عراة حتى الوسط، متجمعين بجانب البئر وصررهم من فوق رؤوسهم. وفى فترة العصر ظهرت فى الصحراء بقع بيضاء، سرعان ما اختفى بياضها الشبيه ببياض الثلج بين الرمل المنجرف النائر. على كل حال، كان هناك جو عام من الإحساس بالنظافة، وسعدنا عندما ظهر موسى الشيب قادماً من ناحية جالو، ومعه ثلاثة من الحمير وجمل، بحثاً عن ماء بطفال الذى يمكن بيعه فى جالو، التى فيها مياه الآبار مالحة، نظير نصف مجيدى لكل قربة. سعدنا لأنه كان هناك مبرر "للتسامر" مع هذا الرجل، ولذلك ضغطنا وشددنا على أن يبقى معنا ذلك الرجل الحنون كبير السن لتناول وجبة الظهيرة معنا، ومن ثم الجلوس معنا حول النار فى أكبر زريبة من الزرائب، وقمنا بإعداد الشاي الأخضر، فى الوقت الذى راح فيه عبد الله يقطع شرائط جلد الماعز ليصنع منها نعله، فى حين قام حسانين بإصلاح ساعات الجماعة، التى توقفت كلها بسبب العاصفة الرملية، أما محمد فقد قام بقتل حبل بدائى من ليف النخل.

شاهدنا الإبل فى تلك الليلة وهى تتغذى فى ضوء القمر. خطر ببالي فى ذلك الوقت أن وضع التمر كله على شكل كومة واحدة، نظراً لأن الإبل الشرهة أكلت حصة أكبر من الحصة المخصصة لها، فى حين حصل الأكلة البطيئون على

النصيب الأصغر، فيها شيء من الغباء. من هنا، وجدت أنه ليس من حقي مناقشة عبد الله في أمر يعد من صلب اختصاصه. بعد أن أكلت الإبل، دار نقاش حول ما إذا كان يتعين على الإبل أن تشرب في تلك الليلة أو في الصباح التالي. أخيراً تقرر أن تُسقى على الفور، وكانت مسألة اندفاع الإبل إلى البئر مُسَلِّية. لم يكن مسموحاً سوى لاثنتين فقط منها بالاقتراب من الوعاء في كل مرة، وكان البدو يداومون على تزويد الوعاء بالماء طول الوقت وهم ينادون: تعال واشرب- وستصبح قوياً بعد ذلك! تعال واشرب- وستصبح قوياً بعد ذلك!" وتغيرت هذه اللازمة عندما هاجت الإبل "ألا ترى كيف أن شربك يرشني بالماء! ألا ترى أن شربك يبللني بالماء!"

أدركت في تلك الليلة معنى الوحدة في الصحراء. كانت الخيام الأربع هي والمجموعة المؤتلفة عند البئر، بمثابة إشارات متناهية الصغر على أرض الصحراء الخراب الجرداء، التي يصبغها ضوء القمر بلونه الفضي محولاً إياها إلى بحر مستمر بلا تموجات أو حدود. وكيف أن قافلة قوية يمكن أن تختفي في الصحراء الليبية ولا يبقى منها أي أثر سوى قليل من النمل الذي تَسَحِّقه الأقدام على أرض رملية. كنت أشتاق إلى مجرد نخلة واحدة تكسر تلك الرتابة المخيفة. لم يكن هناك داع لاقتتال وحدة الطبيعة المؤلمة مع طاقة الإنسان والطبيعة التي يُرثى لهما. بوسع الطبيعة (الصحراء) التخلي عن الصراع والتوتر للبشر الذين يشبهون الهموش، والذين يعبرون الصحراء في وجوم لا يعرف الحدود، وعندما تخور قوى حيويتهم المحزنة جراء القتال مع رياحها وجفافها، اللذان تستطيع بهما الصحراء دفن البشر "بلا جلبة أو ضوضاء داخل انجرافات السحابة تحت صفاء ابيضاض أقمارها." فشل الوقود في البداية. وتلاه الفشل في الطعام. وأعقب ذلك نضوب آخر المياه.

"بايمان الأطفال الصغار وضعنا أنفسنا أرضاً ومُتْنًا، اتبعني! هيا تعال!

من العظم الذي على جانب الطريق

ستعود لتكون أنت"

كان المخيم - فى يوم عيد الميلاد - مستيقظًا وعلى قدم وساق اعتبارًا من الساعة الثامنة صباحًا. كان الجميع مستعدين لإظهار القدرة على التحمل فى تلك المسيرة الطويلة. وعليه عندما خرجت من خيمتى عندما كان القمر لا يزال منيرًا، لم أفهم سبب عدم وجود الغناء أو الصياح، وعدم الاندفاع هنا وهناك بالبالات المخيرة. كان العرب والسود على حد سواء واقفين ومنتشرين على شكل تجمعات محبطة. كان محمد - وهو يلف سجادة فيها رسوم مربعة الشكل، حول معطف المطر المبطن بصوف الغنم - يجهز سكينًا حاميًا. يزداد على ذلك أن الإبل نفسها كانت تأتى ببعض الحركات التى توحى بأنها كانت مكتئبة. كانت واحدة من النوق ترقد بجانب النار مطرقة الرأس. وقد ظهر أن تلك الناقة كانت هى السبب المباشر لهذا الاستياء، على الرغم من أن السواد الأعظم من الحيوانات كان يعانى معاناة شديدة من وجبة التمر غير المعتادة ومن بعدها شرب كمية كبيرة من الماء. وتوضح أن الناقة كانت تعاني معاناة شديدة. كان الزبد يخرج من فمها ومن فتحتى أنفها، وكان عنقها ملفوفًا على شكل انحناء مشوه ومتصلب، وكان جانباها يؤلمانها. لم أكن لأصدق مطلقًا أن أشد أشكال عسر الهضم يمكن أن تصل بالحيوان إلى مثل هذا الحال خلال سويغات قليلة. قال يوسف "ستموت الناقة. جهز السكين!" قال عبد الله متعجبًا: "انتظر! انتظر! سوف أحاول كيئها فى البداية!" من الواضح أن الصحراء ليس فيها من العلاج سوى شئ عين النزف والكلى. حاولوا اللجوء إلى النزف فى البداية دون جدوى، نظرًا لأن البرد كان شديدًا وبالتالي منع انسياب الدم. دفعوا الناقة التعيسة بعد ذلك على جانبها وكووها باستعمال حديدته ساخنة على بطنها. واحتجت الناقة على ذلك احتجاجًا لا يقل عن رفضها لحمولتها، لكن يبدو أن الدفء بث الحركة فى جسمها، لأنها حاولت النهوض واقفة على أرجلها، وتفر هاربة مع باقى الإبل، تلك المجموعة بانسة المنظر وكان من بينها ناقة أخرى عرجاء تمامًا.

ازداد التوتر حدة، خلال فترة الصباح الضائعة، بين الزريبتين اللتين تكونتا على عجل. هؤلاء هم السود الذين غضبوا من الإساءات التي وجهت إليهم لركوب الإبل في المسافة ما بين عجيله وجالو، استطاعوا الآن استعادة إبلهم. قال السود: العرب لا يعرفون شيئاً مطلقاً عن القافلة كما أنهم لا يستطيعون تغذية الحيوانات بطريقة سليمة. ازداد سوء حال الناقة عند الظهر، وأمضى محمد وعبد الله وأنا معهما فترة العصر كلها بجوار الناقة، ونحن نحاول إعطاءها علاجات يائسة بدءاً من المساج إلى الصابون! وعندما غادرنا المكان في حوالى الساعة الخامسة بعد الظهر كان واضحاً أن الناقة في نزعها الأخير، ولذلك أخذنا استعدادنا لمواجهه مشكلة رحلة مدتها سبعة أيام بلا ماء وإبل قليلة. تناقشنا في مسألة الأمتعة التي يمكن الاستغناء عنها إلى أن قال يوسف بهدوء، بما أننا بقينا يوماً إضافياً فى بُطْفال، فلن يكون لدينا تمر يكفيننا مدة أسبوع. وهنا قال محمد: إننا ينبغي أن نعلن قائمقام جالو بنفوق جمل السيد، الأمر الذى يعنى تأخيرنا يومين آخرين.

عقدنا اجتماعات كثيفة، أصررت فيها على بدء المسير على الفور، لكن يبدو أن الجمل كان يحمل قداسة صاحبه، وبالتالي لا يمكن ترك جسم الجمل فى بُطْفال. قلت: "حسن جداً، سوف نرسل واحداً حاملاً هذا الخبر، لكن يتعين علينا ترك هذا المكان عند طلوع الفجر. سوف نعطي نصيينا من التمر للإبل، وسوف يعوض ذلك مسألة تموينات اليوم."

ظهرت بعد ذلك المشكلة الحقيقية. وصل الاحتكاك بين السود والبدو إلى الحد الذى خشى الطرفان معه دخولهما فى قتال فى نهاية المطاف، ولم يود أحد من المعسكرين تقليل عدد أفرادهم. وعندما اقترحت إعادة واحد من السودانيين، رفع عبد الله يده. قال عبد الله: "نعم، نعم، أعيدى أربعة أو خمسة. ستكون الرحلة أسهل فى عدم وجودهم"، لكن عبد الرحيم رفض رفضاً قاطعاً الاستغناء عن أى واحد من جنوده. علق عبد الرحيم قائلاً: "فى الليلة التى ظننا فيها أننا سيجرى الهجوم علينا

ونحن خارجون من إجدابيا، تركنا عبد الله وراح لينام مع قريب له، كان على مقربة منا. "وخيم الحزن على الجماعة كلها، وأنا كنت حزينة لأن الإبل كانت محملة بأكثر من حمولتها، وكان المرافقون محزونين أيضا لأن كل طرف من الأطراف كان يخشى المخاطرة بقوته، نتيجة خسارته لأحد مقاتليه؛ وأستمر ذلك إلى أن ظهر شكل أسود على المرتفع الخفيف الذي تركنا خلفه الحمل الذي يحضر. قال محمد: "ما شاء الله! هذا هو تأثير سيدى إدريس! معجزة! معجزة!" وبعد حوالي دقيقتين سار مصدر كل مقاعنا بهدوء عائداً على انمحيم. لا بد أن يكون استقبله قد أدهشه إلى حد بعيد، فقد أنذع الجميع للقاء ذلك الشكل، وهم يطلقون نيران مسدساتهم وينادقهم فى الجو الذى تضينه النجوم، وبعد ذلك راح لسود يرقصون رقصة برية خيالية على أنغام موسيقى كانت تغزف بواسطة أصابع عبد الله على عتبة من الصفيح. وبذلك ينتهى أبشع أعياد الميلاد التى شهدها فى حياتي.

الفصل السابع

مرشد زائف فى طريق خال من الماء

بدأنا تحركنا الفعلى صوب الجنوب فى اليوم السادس والعشرين من شهر ديسمبر. تأخرنا يوماً بسبب العاصفة الرملية وكذلك التأخير الناجم عن الجمل المريض أفقدنا أربع وجبات. كنا قد سمحنا بنصف جوال من التمر فى الصباح ونصف جوال فى المساء، وبذلك لم يعد يتبقى لدينا سوى خمسة جوالآت فقط للأيام السبعة. وأيا كان الأمر، فقد اشترينا تموين الجنود من السكر، وسلّمنا القسم الأكبر من تمويننا، لنصل إلى الكمية المطلوبة من العلف. فيما يتعلق بقرب الماء، فإن أقصى ما يمكن أن يحمله الحمل هو ثمانى قرب كبيرة، تحتوى كل واحدة منها على خمسة جالونات من الماء، وثمانى قراب صغيرة تحتوى كل واحدة منها على أربعة جالونات. حذرنا جماعتنا المكونة من ستة عشر فرداً بأنهم ينبغى عليهم استعمال ٨/١ كمية الماء الموجودة معهم يومياً. ثم اعتمدنا على الله بعد ذلك وبدأنا السير جنوباً عند الساعة الثامنة والنصف صباحاً، نظراً لأن وزن البضائع وتوزيعها توزيعاً دقيقاً، ناهيك عن المشاجرات التى دارت بين السود والعرب، استنفدت أكثر من ساعتين.

لا يوجد أى مسار أو طريق من هنا إلى تيسربو، وسبب ذلك أن أحداً من هنا لا يقصد هذه القرية. فى جالو كلها لم نصادف سوى اثنين من البشر سبق لهما زيارة الواحة. قال أحدهما إنه قصد الجنوب ووصل إلى منطقة النخيل فى مساء اليوم السادس. أما الرجل الثانى فكان رقيبنا المدعو موراجا، الذى مر خلال تيسربو وهو فى طريقه إلى الشمال قبل تسع سنوات وأنه قطع الرحلة فى ست مسيرات طويلة. أما عبد الله، مرشدنا حاد البصر، بوجهه الأسمر الشبيه بوجه الذئب، والذى يضيئه لمعان أسنانه البيضاء، فقد أعلن أننا إذا ما اتجهنا مباشرة إلى

تيسرو في اتجاه الجنوب الغربي، فإننا قد تنحرف كثيراً نحو أقصى الغرب ونخسر أنفسنا جميعاً. وعليه، أقترح علينا عبد الله السير جنوباً طوال الأيام الخمسة الأولى، وأن يكون تحركنا على هدى من العلامات الأرضية غير الواضحة التي على طريق الكفرة، ثم تنحرف غرباً بعد ذلك، ركبنا اليوم بطوله على دوابنا في أرض خراب حارقة جرداء، ومستوية على نحو لا يمكن تخيله أو وصفه. لم ير المرء سوى مسافة أميال قليلة على الجانبين. هذا يعني أن عالمنا كله أصبح عبارة عن قرص أصفر مستو، ينعكس أشعة الشمس الحارقة على شكل سراب. كان الانكسار الوحيد في هذه الرتبة يتمثل في وجود هيكل عظمي لجمل من الجمال بين الحين والآخر. حدث ذات مرة أن ظهرت ربوة بنية اللون. عند حافة ذلك لقرص وحسبنا أن تلك الربوة كانت دغلاً من الأدغال، أو قافلة من القوافل، إلى أن تراقصت موجات السراب مبتعدة لتكشف أن تلك الربوة كانت عبارة عن بعض العظام المتبدلة التي كانت لا تزال تتعلق بها مادة بنية اللون. أكلنا بيضاً مسلوقاً وبعضاً من التمر في وجبة الغداء، لكننا التزمنا بالقاعدة الموضوعية التي تقضي بالشرب في الصباح والمساء. بعد أن مضينا في طريقنا، بعد أن اتفقنا على ألا يركب أحد منا الإبل إلا إذا كان مريضاً أو خائر القوى، أكد لي موراجا أن رحلتنا قد لا تكون محظوظة، لأننا فشلنا في الوفاء بالعادة العربية الأصيلة التي كانت تحتّم علينا نحر شاة في بطنال. يبدو أن هناك تقليداً مفاده أن أي عضو من أعضاء القافلة إذا ما زار واحة للمرة الأولى تقام له وليمة على شرفه. ونظراً لأن أحداً من رجالنا لم يسبق له زيارة الواحات كلها التي نعتزم زيارتها، فقد توصلنا إلى أن هذه الرحلة ستكون مكلفة!

اندھشنا بحق لأن السود مشوا طوال النهار دون غمغمة أو توقف من حين لآخر كي يرقصوا ويغنوا. هذه هي الناقة التي أوشكت على النفوق أمس نحمل حملها وهي فرحة مسرورة. قال محمد بشكل قاطع: "لقد ركبها الشيطان، لكن روح

سيدى إدريس هي التي شفّتها." عند الساعة الخامسة بعد الظهر، أشار لنا يوسف على كلب Kalb المئمة Motemma، التي قال يوسف أنها على الجانب الأيسر، لكنى لم أستطع رؤية أى شيء شبيه بالربوة.

رأينا الشمس وهي تغرب وسط روعة اللهب الذي يمثل روعة الصحراء الكبرى، ومشينا مدة ساعة أو ساعتين فى ضوء النجوم، وتلا ذلك طلوع قمر برتقالى اللون فى اتجاه الشرق، وحول الصحراء إلى بحر فضى غريب. واصلت قافلتنا الصغيرة مسيرتها عبر هذه الوحدة الشاحبة التى لا نهاية لها، وبينما كنت أنظر إلى البقعة البيضاء التى كانت نقودنا، عرفت سبب عدم وجود ملحد فى الصحراء. هذا يعنى أن الإنسان يتعين عليه الوثوق بشيء أقوى منه وأبعد منه أثرا. فى أوروبا، إذا لم يكن هناك إله يساعد، فإن هناك - فى أضعف الأحوال - العلم، والتليفون، والقطار السريع أو الطائرة. فى ليبيا، حيث لا يستطيع البدوى طلب النجدة باللاسلكى، حيث لا توجد لافتات إرشادية، أو جراح، أو ميكانيكى لتحسين وسائل الاحتراق الداخلى، وحيث لا يوجد طعام يُشترى أو يُنتقى، وحيث لا يوجد تحذير غير الموت، فإن المترحل الوحيد لابد أن يعلق أو يربط إيمانه بقوة تفوق قوة ذلك المرشد هادئ الوجه الذى يكون مصير القافلة بين يديه.

عندما التقانى عبد الله على التل المجاور لصف النخيل فى عجيله، نظرت إلى وجهه القوى الصارم، الذى تكسوه الخطوط ويوحى بالذكاء، وعيناه اللتان توحيان بالاعتماد على النفس، وأحسست أن بوسعى الاعتماد على هذا الرجل والوثوق به فى قيادتنا إلى بر الأمان عبر هذه الرمال الخالية من الماء إلى واحة تباين حجمها طبقاً لخيال المتكلم. عندما نظرت إلى تلك البقعة الجرداء المضاءة بنور القمر، والخالية من أى عود من عيدان الحشائش، أو أى حجر من الأحجار، يمكن أن يكسر سطح هذا القرص، ذلك الشكل الصغير الذى يمشى مثاقلاً يجر وراءه فى التراب طرف جرده (بردته) الأبيض، بعد أن وهنت طاقته بعد مسيرة

دامت اثنتى عشرة ساعة، أحسست بمدى هشاشة أى شىء تعتمد عليه حياتى وحياة سبعة عشر شخصاً آخرين غيرى. ونحن عندما نجلس على الكراسى الوثيرة فى الضوء الكهربى ونروح نتحدث عن "الغريزة البدوية"، نجد أنفسنا نقر ونعترف بعمل قوة أكبر من قوة عنصر الراديو أو البخار! قد تعتمد أوروبا على منات العلوم، لكن فى ليبيا ليست هناك سوى عقيدة واحدة، وأمل واحد هو، "الله أكبر!"

نصبنا المخيم عند الساعة السابعة والنصف بعد الظهر، وبعدها بساعة واحدة خيم الصمت على مجموعة الخيام الصغيرة الهادئة هدوء الرمال المحيطة بنا.

استيقظنا عند الساعة السادسة صباحاً من اليوم السابع والعشرين من شهر ديسمبر، وغادرنا المكان عند الساعة الثامنة، نظراً لأننا سبق أن قررنا أن أفضل الطرق لقطع مسافة الخمسين كيلو متراً المطلوبة فى اليوم هى السير المستمر مدة إحدى عشرة ساعة أو اثنتى عشرة ساعة، على أن نتناول وجبة جافة قبل بدء السير ووجبة أخرى مع دخول المساء. وعندما نهض آخر الإبل واقفاً على أقدامه أشار يوسف إلى مجموعة من التلال المنخفضة الصغيرة فى اتجاه الشرق. قال: "هذه هى الحميمات Hameimat التى على الطريق المؤدى إلى زايجن Zieghen".

كان حليفنا المتين فى حالة من التأمل فى ذلك اليوم. وعلى الرغم من الحرارة الشديدة كان ذلك الحليف يرتدى معطف المطر المبطن بالصوف والمزروء بإحكام ومحزّم بإحكام أيضاً، وكانت هناك قطعة من القماش أبيض اللون ملفوفة على خديه. قال لى فجأة: "ما أمى أعظم عطايا الله ﷻ للإنسان؟" أحسست أن ذلك السؤال كان بمثابة اختبار لعقيدتى الإسلامية، ولذلك رددت عليه على الفور "القرآن". نظر الرجل إلى نظرة احتقار واستخفاف "الجمال! لولا وجود الإبل هنا، لما كان هناك تمر، أو طعام، أو أى شىء آخر!" وصمت الرجل قليلاً ثم أردف قائلاً: "لو لم توجد الإبل هنا لما وجد الرجال!"

تكوين الصحراء للشخصية أمر عجيب. هذا هو حسانين بلغ من الغموض حدًا لم ينه معه مطلقًا جملة من الجمل أو عمل من الأعمال. تطورت لدى قدرية تختلف اختلافًا كبيرًا عن أفكارى المعتادة. وهذا يوسف راح يكشف عن دلائل فخره واعتداده بنفسه من وراء كسله الشديد. وهذا عبد الله صار هو الآخر متحفظًا، وعظيمًا شأنه في ذلك شأن الكتبان الرملية التي تحرس الواحة المقدسة، لكن محمد كشف عن أحسن صفاته. كان العرب كلهم شجعانًا وأصحاب بطوله هادئة قوية، الأمر الذى جعلنا نتمتع فيما بعد بعدد من الأيام يعد على أصابع اليد الواحدة، لكن محمد كان عطوفًا بلا حدود، وكان تفاخره شيئًا جميلًا ونظيفًا، ناجمًا عن صمت وعن دين. فقد أقسم محمد على عدم الركوب وتمسك بقسمه على الرغم من الألم الشديد. كان محمد يبتسم، بعد انقضاء سويغات قليلة على وفاة أى شخص من الأشخاص. صفح محمد، وبلا كلمة واحدة، عن إهمال كاد يكلفه حياته. كان محمد يعمل دومًا وبلا توقف حتى يستريح الجميع، وكانت المرة الوحيدة التي رأيته يفقد فيها هدوءه، بمعزل عن صبره، عندما استهزأ الجنود بتابعه عمر. فيما يتعلق بالسود، كان خليطًا من الأطفال والحيوان. كانوا يكتبون عندما يعانون. ويسعدون عندما يطريهم أحد. كانت أفكارهم تتبلور فى بساطة وببطء وكان الجدل معهم أمرًا مستحيلًا. تراهم أحيانًا شجعانًا، وجبناء فى أحيان أخرى؛ وفى هذه المناسبات يكشف السود عن صبر وإخلاص رائعين وغير متوقعين تمامًا.

أطلقنا على المخيمين المتعارضين كنية "الدبية السوداء" و "الملوك الرعاة"، بعد أول نزاع سيئ دار بينهما، والذى نشب فى اليوم التالى. لم تكن لدى عبد الرحيم صغير الحجم القدرة البدنية على السير مسافة ثلاثين أو ثمانية وثلاثين كيلو مترًا كل يوم، ولذلك لم نندهش عندما ركب فى هدوء فوق أحد الجمال، لكن عندما حذا موراجا حذوه ومعه آخرون أعربت عن احتجاجى الشديد. ومن سوء الطالع، أن يوسف شاركنى هذا الاحتجاج ونعت الجنود "بالعبيد!" جاء ذلك بمثابة بداية التفجير،

وكانت هناك معركة وشيكة في غضون دقائق معدودات. أمسك العريف بندقيته، فى حين أخرج محمد مسدسه الخشبى الكبير. وهنا وجدتنى أصب للزيت على الماء المضطرب، وبعد رجائى الحار مرات عدة للطرفين، خفت حدة الموقف عما كانت عليه. واعتباراً من تلك اللحظة أصبح هناك عداً شديداً بين المخيمين.

خيماًنا عند الساعة السابعة بالقرب من مجموعة من هياكل الإبل العظمية، التى راحت إبلنا تمصمص عظامها فى شىء من التأمل. كانت تلك هى اللحظة الوحيدة من اليوم كله، التى رأيت فيها كلا من زينب وهوا، لأنهما كانتا مشغولتين بطهى وجبه العرب المسائية على بعض أعواد الحطب الذى جرى جلبه من المنطقة المجاورة لبطّاف. على امتداد هذه الرحلة الطويلة كلها، لم نر سوى شكلين مدثرين ببطانييتين خشنيتين مرّاً علينا بلا حراك، صامتين على جمليهما. لم ينظرا قط من داخل ثنيات البطانيات. لم يتكلما قط حتى مع بعضهما البعض. كنت أتساءل عما إذا كانا يفكران فى شىء بعينه، ومع ذلك ربما كانت واحدة منهما، أما للشيوخ السنوسى صاحب القوة الكبرى مستقبلاً. فى الإسلام الأبوة هى الأساس، وسواء أكانت الأم عبده أم أميرة، فإن الابن الأكبر يكون هو الوارث.

غادرنا المكان عند الساعة السابعة والأربعين دقيقة من صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس، وتعين علينا السير مدة إحدى عشرة ساعة ونصف الساعة قبل أن نتمكن من قطع مسافة تقدر بحوالى ستة وأربعين كيلو متراً. وكان ذلك بمثابة أول يوم تحقّق فيه القافلة معدلاً يزيد على أربعة كيلو مترات فى الساعة، نظراً لعدم وجود مغريات للإبل تجعلها تتجول طلباً للرعى، لكن فى اليوم الثانى كان الجميع متعبين وواجمين، وكان صعباً جعل الرجال يقودون الإبل فى خط مستقيم. فى اليوم الثالث بدأت أقدام السود تلتهب. وأنا نفسى تورمت قدمى مرة ثانية وكان من الصعب جداً السير مدة زمنية أياً كانت فى شيشب كبير بلا كعب. كان كل من حسانين ويوسف يعرجان، ولم يتمكن موراجا من الوقوف على رجليه

نظرًا لالتهاب شرايينهما. كنت متعبة على نحو لم أتمكن معه من الابتسام إلا بصعوبة بالغة، لكن من يمن الطالع أن التوزيع غير المنتظر لجوال من التمر أدى إلى بث الشجاعة في نفوس القافلة إلى حد ما. شئت السراب كومتين صغيرتين من الرمل إلى تَلَيْن، وراح يوسف يتلاعب بأن جمع آخر هيكل عظمي ليأخذ شكله الحقيقي بحيث كانت واحدة من أرجله مرفوعة إلى أعلى. لم أضحك إلا بعد أن لاحظت أن جمجمة بشرية كانت تتوج ذلك الهيكل العظمي!

تعين علينا تقسيم انتباهنا بالتساوي بين المخيمين. وإذا ما مشينا ساعة مع عبد الله، وسمعنا منه كيف أن وكيل خصمنا في إجدابيا حاول أن يرشيه حتى يمنعه من مرافقة القافلة وكيف أن الوكيل المشار إليه قد نال الضرب الذي يستحقه، تحتم علينا أيضًا تكريس وقت مماثل أيضًا للحوار مع موراجا للاستماع خلاله عن أمجاد السودان وشجاعة جنوده. لم يكن سهلاً مطلقاً الحفاظ على تهلل الجميع خلال مسيره دامت إحدى عشرة ساعة بلا طعام أو ماء. وفي المساء وبعد أن أكلنا نصف تعييننا اليومي من اللحم وحفنة من التمر - نظرًا لأننا كنا نحمل أقل كمية ممكنة من الطعام - كان هناك موكب متعاطف اعتاد أن يسلب منا الكثير من النوم الذي نحن بحاجة إليه. عالجنّا أقدامنا المتورمة والملتهبة، كما عالجنّا الصداع الناتج عن الشمس، وآلم الأسنان الناتج عن أكل التمر، وعالجنّا الالتهابات، والحمى، ومجموعة أخرى من الأوجاع قبل أن ندخل إلى كيس نومنا - وهذا مجرد شيء من الأمان النسبي نظرًا لأننا بدأنا نعانى من طفح رملي!

بدأنا مسيرنا عند الساعة السادسة والأربعين دقيقة من اليوم التاسع والعشرين من شهر ديسمبر، وعند الساعة العاشرة أعلن محمد أننا وصلنا إلى الوادي الفارغ. وأنا شخصيًا عندما نظرت إلى هذا الوادي من جميع الزوايا، لم أر منخفضًا من أي نوع، لكن الجميع قالوا إن هذا الوادي الفارغ يقع في منتصف الطريق، وعليه ارتفعت الروح المعنوية. وعلى الرغم من ذلك، كان اليوم متعبًا، نظرًا لأننا في ذلك



CARAVAN ON THE MARCH BETWEEN BUTTAFAL AND TAISERBO.
(A seven days' journey across desert of this character.)

القافلة في الطريق ما بين بطفال وتيسربو
(مسير سبعة ايام في صحراء لها مثل هذا الطابع)

الوقت كنا جميعاً قد أصبنا بالعرج. لم يكن محمد قادراً على الوقوف على قدميه، لكنه رفض بإباء وشمم أن يركب. أما السود فقد اعتادوا السير متقدمين الإبل بحوالى نصف ميل تقريباً، ثم ينامون ووجوههم فى الأرض، فى حين كان رفاقهم يستلقون على ظهورهم، باعتبار ذلك شكلاً أصيلاً من أشكال التدليك.

تناول عبد الله قطعة من قشرة بيضة من بيوض النعام أسقطتها إحدى القوافل المارة القادمة من وادى. قال لنا متشككاً فى معلوماته "كان النعام هنا منذ سبعين عاماً". سألته "ماذا يأكل النعام؟" رد على سؤالى رداً غامضاً "آه، طعاماً، يأكل طعاماً كثيراً!!"

سقط بعض المطر فى المساء، وأدى ذلك إلى عرقلة عملية الطهى، لكنه وفر لنا بعضاً من الماء. كنا قلقين بشأن ما معنا من ماء، نظراً لأن واحداً من فناطيسنا بدأ الماء يتسرب منه، وقام السود بإفراغه من الماء أثناء الليل. كنا قد تعودنا على وضع قرب الماء أمام خيمتى وأقوم أنا بنفسى بتوزيع حصص الماء. كان عدد كبير من القراب يتسرب منه الماء بشكل سيئ وعلى الرغم من الحرص الزائد كنا نحسب أن الجميع سيكونون عطشانين بحلول اليوم السابع. أنا شخصياً، كنت أشرب كوباً واحداً من القهوة الساخنة فى الصباح وكوبين من الشاي البارد أو الماء أثناء الليل. خيمنا عند الساعة السادسة وعشر دقائق بعد عصر ذلك اليوم.

بدأنا مسيرتنا عند الساعة السابعة من صباح اليوم الثلاثين من شهر ديسمبر، وخيمنا عند الساعة السادسة وخمس وثلاثين دقيقة بعد عصر اليوم نفسه. كان نهار اليوم حاراً بشكل شديد وكانت الإبل منهكة مثل الرجال تماماً. هذا واحد جُرحت قدمه، وذاك تبيس كفقه. وهذان التهاب ظهراهما وتحتم تقسيم حمليهما على بقية الإبل الأخرى. وعلى الرغم من ذلك، سُمح لبعض الجنود بالركوب، نظراً لتورم أقدامهم تورماً سيئاً. تغير منظر الأرض تغيراً طفيفاً، فقد تميزت أرض الوادى الفارغ القريبة منا ببعض التموجات الرملية الخفيفة، لكن انبساط الأرض أمامنا

أصبح بلا عوائق، على الرغم من أن لونها الأصفر الرتيب كانت تتخلله بقع من الحصى داكن اللون. وقد مكن ذلك السراب من بناء تلال وجزر سوداء وسط موجاته الزرقاء المتتلة.

شهد اليوم الحادى والثلاثون من شهر ديسمبر تحركنا عند الساعة السادسة والنصف صباحاً والذي تواصل حتى الساعة السابعة مساء وقطعنا خلاله ستة وأربعين كيلو متراً، نظراً لخطورة الموقف المفاجئة. كان عبد الله فى اليوم السابق قد فاجأنا بإصراره على حتمية أن ينحرف مسارنا قليلاً إلى الجنوب الشرقى، نظراً لعدم عثور الرجل حتى ذلك الحين على علامة أرضية على الطريق المؤدى إلى زايغن. وعندما ناقشنا الموقف فى جالو، كان عبد الله قد أكد لنا فى هدوء وبصورة قاطعة أنه سبق له السفر إلى تيسربو وأنه يعرف الطريق. كنا قد كررنا سؤاله عدة مرات ، وكان يؤكد لنا فى كل مرة وثوقه بقدرته على إرشادنا للوصول إلى أية واحة من واحات الجنوب، على الرغم من حثه لنا بعدم الذهاب إلى بُسيمه تحسباً لخطر الهجوم علينا.

الخريطة التى معنا توضح لنا الآن أن المسافة من بطفال إلى تيسربو تقدر بحوالى ٣٥٠ كيلو متراً. والعرب يقولون بشكل عام إن هذه المسافة تقدر بمسير سبعة أيام، وهذا يعنى السير يومياً ما بين أحد عشر وأثنى عشرة ساعة بمتوسط أربعة كيلو مترات فى الساعة الواحدة. وعلى الرغم من تغيير عبد الله للاتجاه، وطبقاً للمسافة التى قطعناها، فإن ذلك يعنى أننا أصبحنا داخل منطقة الواحات فى تلك الليلة. كنا قد توقعنا ذلك يقيناً فى مساء اليوم السابق، عندما لاحظنا شيئاً من الغموض فى تصرفات مرشدنا. قال محمد فى اليوم السادس "لا نتحدثى إليه، وإلا سيفقد صوابه. مسألة فقدان الصواب هذه عند المرشدين تكون شبيهة بالحمى، وإن شئى عت فقولى: مرض معروف عندهم. كأن شيئاً غير طبيعى بحق أن أرى التغير الذى ظهر على وجه البدوى فى ذلك اليوم. لقد تغيرت قسما وجه الرجل، فى

حين ظهر القلق والاضطراب فى عينيه. كان الرجل يحنى ظهره أثناء سيره ويداوم السؤال عما إذا كنا نسير فى خط مستقيم، إلى حد أننا ظللنا نوجهه إلى آخر ذلك اليوم بواسطة الخارطة، التى كان لدينا ألف سبب وسبب لعدم دقتها. وهنا يجب ألا يغيب عنا أننا على الرغم من تحديدنا لمحلنا بشكل عام فإننا لم نكن نعرف مكان تيسريو. وزعنا نصف تموين الإبل فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر ديسمبر، وحاولنا تخفيض حصة الماء أكثر من ذى قبل، على الرغم من وقف صرف كوب ماء الغسيل بسبب التسريب الذى حدث فى بعض القرب.

طلع علينا اليوم الأول من العام ونحن مكتئبون. لم يكن معنا سوى شىء قليل جدًا من العلف للإبل، إضافة إلى أن ما معنا من الماء لم يكن يكفى يومين فقط بواقع ما يقل عن البنت(*) قليلًا لكل فرد من أفراد القافلة. أحسنا بشىء من الفرح ونحن نقوم بتحميل الإبل، عندما أشار عبد الله إلى وهج خافت فى اتجاه الشرق، وقال: إن تلك كانت مازيل Mazeel، التى هى بعض الروابي الصغيرة التى كان يتطلع إلى رؤيتها فى اليوم السابق. فى الإصباحات الصافية، وبعد حوالى ساعة من طلوع الفجر، وعندما تكون الصحراء شديدة الانبساط، يظهر عند الأفق سراب لمنطقة تبعد عنا مسيرة يوم واحد. وهنا ولبضع دقائق قليلة يرى المرء صورة للشىء الذى يكون على بعد ٥٠ كيلو مترًا، أبعد مما هى عليه فى الواقع. والعرب يطلقون على ذلك اسم "الجزء المقلوب". فى اليوم الأول من شهر يناير، المصادف لليوم السابع من رحلتنا، رأينا ذلك السراب أول مرة- رأينا أدغال الحطب والروابي واضحة تمامًا فى اتجاه الجنوب، ومع ذلك تحول مرشدنا ناحية الغرب من تلك الأدغال والروابي. كان جملى مريضًا بسبب تغذيته بصورة غير عادية على التمر. كان حسانين هو الآخر يحس ألمًا شديدًا فى قدميه الملتهبتين. وقد

(*) ثمن جالون، أو ٠,٥٦٨ من اللتر. (المترجم)

تسببت الريح الشمالية التي هبت علينا طيلة أسبوع كامل هي وشمسها المحرقة، في إصابة كثفي الأيمن بالروماتيزم. كان الحطب الذي معنا قد انتهى، وحدثت مشاجرة حادة بين السود والبدو بخصوص هذا الأمر، إذ راح كل طرف يتهم الطرف الآخر بأنه استعمل أكثر من النصيب المحدد له.

واصل عبد الله سيره بضع ساعات في اتجاه الجنوب الغربي، ثم بدأ بعد ذلك يتجول هنا وهناك بصورة طفيفة. كان السود يودون ضرب عبد الله. يزداد على ذلك أن محمداً نفسه كان متضايقاً منه. واصلنا سيرنا في اتجاه الجنوب. تحدثت على حسانين ركوب دابته طول اليوم، واحمرت عينا محمد، مع ألم قدميه، ومع ذلك واصل كفاحه. في تلك الليلة لم تشعل أية نيران في المخيم، وكنت أتوقع أن يتأجل عبد الله. وعلى الرغم من ذلك، سمعت عبد الله، عندما صحت في صباح اليوم الثاني من يناير، بضحك، وتمنيت أن يكون قد استعاد صوابه، لم نجرو على استئناف السير "إلا بعد أن بدا المنظر لنا مقلوباً"، وبالتالي كشف لنا كل ما هو أمامنا وعليه شغلنا أنفسنا بتحديد مكاننا وموقعنا الحقيقي. الخريطة التي معنا تقول: إننا حالياً داخل حدود تيسربو! وقد أثار ذلك لدينا تساؤلاً حول ما إذا كانت تيسربو واحدة مستمرة أو أنه بالإمكان السير بين مجموعتين من النخيل دون أن نرى شيئاً!

أرانا السراب عند الساعة الثامنة صباحاً كثيباً رملياً حاداً في أقصى الغرب. كنت أود الذهاب مباشرة إلى ذلك المكان، أملاً في أن نتمكن من تسلقه عند غروب الشمس، وبالتالي نرى كل ما هو موجود خلف ذلك الكثيب، لكن كلا من عبد الله وموراجا أصراً على عدم وجود كثيب من هذا القبيل في أي مكان بالقرب من تيسربو. قال المرشد بصورة قاطعة: "إذا ما سرنا غرباً وتوغلنا في السير سنصل إلى جهنم." كان مستحيلاً في ظل الخطر الحالي المجادلة في مسألة السير في الصحراء غير المأهولة الواقعة خلف تيسربو. ولم نجرو على المخاطرة بكل شيء ونحن ليس معنا سوى ماء يكفي ليوم واحد فقط، وليس معنا علف للإبل، لكنى

تَبَيَّنَتْ أَن تَسِرْبُو كَانَتْ أَصْغَرُ وَعَلَى مَسَافَةٍ أَبْعَدُ بِكَثِيرٍ عَمَّا نَرَاهُ فِي اتِّجَاهِ الْغَرْبِ. وَأَنَا عَلَى يَقِينٍ أَنَّنَا إِنِ وُصِّلْنَا إِلَى ذَلِكَ الْكَثِيبِ قَدْ نَكُونُ وَصِّلْنَا إِلَى تَسِرْبُو. فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ تُشَكِّلُ ضَبَابٌ كَثِيفٌ وَحَجَبٌ عَنَّا كُلَّ شَيْءٍ، وَعَلَيْهِ قَرَّرْتُ السَّيْرَ جَنُوبًا مَدَّةَ خَمْسِ سَاعَاتٍ، وَخِلَالِ هَذِهِ الْمَدَّةِ، وَطَبَقًا لِلْمَعْلُومَاتِ الَّتِي حَصَلْنَا عَلَيْهَا مِنْ جَالِو وَطَبَقًا أَيْضًا لِلخَرِيطَةِ الَّتِي مَعَنَا سَنَكُونُ قَدْ دَخَلْنَا فِعْلًا إِلَى تَسِرْبُو، وَرَبَّمَا اسْتَطَعْنَا نَعْرِفُ بَعْضَ الْعَلَامَاتِ الْأَرْضِيَّةِ الْقَرِيبَةِ مِنْ بُسِيمَةِ.

كَانَتْ الْمَسِيرَةُ مَرْعَبَةً. فَقَدْ كَانَ الْجَمِيعُ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مِنَ النَّاحِيَةِ الْبَشَرِيَّةِ، سِيمَوْتُونُ عَطْشًا خِلَالَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ. كَانَتْ أَقْدَامُهُمْ جَمِيعًا قَدْ تَوَرَّمَتْ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ لَدَيْهِ مَا يَكْفِيهِ مِنَ الطَّعَامِ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ الْجَمِيعُ يَضْحَكُونَ. قَالَ فَرَّاجُ فِي أَدَبٍ "وَاضِحٌ إِنْ اللَّهِ شَاءَ لَنَا أَنْ نَمُوتَ، لَكِنْ أَحَدًا لَنْ يَمُوتَ أَمَامَ سَيِّدِي عَبْدِ اللَّهِ." أَشْكُ أَنَّ الْمُرْشِدَ سَمِعَ هَذَا الْكَلَامَ. وَاصِلُ الْمُرْشِدِ سِيرَهُ، وَهُوَ يَحْمِلُ حَمْلَهُ بِلَهَاءٍ تُوْحَى بِتَدْنِي رُوحَهُ الْمَعْنَوِيَّةَ، وَرَاحَ يَتَجَهَّ صُوبَ الْغَرْبِ فِي الْبِدَايَةِ ثُمَّ صُوبَ الشَّرْقِ بَعْدَ ذَلِكَ. كَانَ مُحَمَّدٌ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْهِ الْمُنُورَتَيْنِ مَتَرْنَخًا. قَالَ مُحَمَّدٌ فِي هَدْوٍ "أَنَا أَفْضَلُ الْمَوْتِ بِجَوَارِ مَتَاعِي. وَالَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ وَيُوسُفَ يُفْضِلَانِ التَّجَوُّالَ هُنَا وَهَنَاقَ إِلَى النِّهَايَةِ، لَكِنِّي لَا أَعْرِفُ هَذِهِ الْمُنْطَقَةَ، وَأَنَا أَحْمَدُ اللَّهِ أَنَّ النِّهَايَةَ سَنَكُونُ سَرِيعَةً!" رَاحَ الْجَمِيعُ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَكَلَّمُونَ عَنِ الْمَوْتِ، وَكَانَتْ مَنْدَهْشَةً لِقَبْلِهِمْ مَقْدَمَاتُ الْمَوْتِ بِهَدْوٍ وَعَنْ طَيِّبِ خَاطِرٍ. الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي كَانَ يَحْفَظُهُمْ هُوَ وَفَاةُ الْمُرْشِدِ. قَالَ الْأَطْرَمُ "وَاللَّهِ، سَيَتَقَدَّمُنَا سَيِّدِي عَبْدُ اللَّهِ وَيَهْدِينَا إِلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحَةِ!" قَالَ شَاكِرِي بِطَرِيقَةٍ حَازِمَةٍ "عِنْدَمَا أَتَاكُدُ أَنَّ الْمَوْتَ أَصْبَحَ حَقِيقَةً، سَوْفَ أُرْمِيهِ بِالرِّصَاصِ لِأُرْدِيهِ قَتِيلًا." قَالَ فَرَّاجُ "لَكِنِّ نَعْنُكَ أَمْسَ بِالْغَبَاءِ." أَقْلَقْتُ هَذِهِ الْعِبَارَةَ شَاكِرِي إِلَى حَدِّ مَا. ثُمَّ انْشَرَحَ صَدْرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ. قَالَ: "سَأَنْعُتُهُ أَوَّلًا بِالْغَبَاءِ، ثُمَّ أُرْدِيهِ قَتِيلًا بَعْدَ ذَلِكَ بِفَتْحِ النَّارِ عَلَيْهِ." انْقَشَعَ الضَّبَابُ فَجَاءَ وَسَطُ هَذَا الْحَوَارِ، لِيَكْشِفَ مِنْ جَدِيدٍ عَنِ الْأَرْضِ الْمُنْبَسِطَةِ نَفْسَهَا الَّتِي نَسِيرُ عَلَيْهَا، لَكِنِّهَا

كانت شاحبة ورملية وخالية من أى ظل من ظلال الحشائش أو الحطب الذى يوحى بأمل وجود واحة من الواحات.

أنا أندھش من تأثير اليأس على الإنسان. فى ذلك الصباح لم يتمكن حسانين من وضع قدمه على الأرض، لكنه عندما أدرك اقتراب نهايته، مشى مدة ثماني ساعات دون أن يحس أى شيء من الألم. نسي محمد أوجاعه هو الآخر، وأنا بدورى وجدنتى أتعجب من الطريقة التى تجعلنى أفيق على وجه السرعة من ذلك الكابوس الحقيقى. وعندما لم يسفر مسارنا الجنوبي عن شيء سوى البحيرات والبرك الخيالية الزرقاء- نظراً لأن الشمس الحارقة بدأت هى الأخرى تزيد من متاعبنا- بدأنا ننشاور، متجاهلين عبد الله، وقررنا السير فى اتجاه شرقى جنوبى شرقى إلى أن نفد ماؤنا واستسلمت إيلنا للتعب والإرهاق. خطر ببالنا أن السير فى هذا الاتجاه عامر بكثير من احتمالات الخلاص، وقد نصادف الطرف الشرقى القصى من تيسربو، إذا ما كان قريباً من موقعه على الخريطة، أو قد نجد أنفسنا فى ذلك الجزء من البلاد الواقع جنوبى زايفن أو بين الكثبان القريبة من بُسيمه. سلمنا بأن تلك المواقع قد تكون بعيدة على نحو يصعب معه الوصول إليها بالإبل، لكن إن استطعنا الوصول إلى مكان قريب منها، فإن ذلك قد يمكننا من إرسال مراسل طلباً للعون، ونمكث فى مكاننا انتظاراً لعودة ذلك المراسل. كنا نعلم أن هناك شيئاً قليلاً من الماء فى غلب الخضار، وكنا نتطلع إلى البقاء يوماً آخر على قيد الحياة بفضل هذا الماء.

كان سراب عصر ذلك اليوم مريغاً. وأنا لا أدري إن كان الإرهاق قد أثر على أعيننا، لكننا كنا نرى تلالاً، وكثباناً رملية، وأدغالاً فى جميع الاتجاهات، وكانت كل هذه الأشياء دوماً هى تلك البقع السوداء التى كنا نراها من قبل. فإن قائمقام جالو قد قال: "إن ذلك طريق بسيط إلى تيسربو، لكن الخطأ فيه - أيا كان - يمكن أن ينتهى بالدمار!" ترى هل ارتكبنا ذلك الخطأ بالفعل؟ الغريب بحق أنى لم أشعر

بالغضب تجاه عبد الله، حتى عندما اعترف فجأة أنه لم يذهب إلى تيسربو منذ عشرين عامًا. واقع الأمر، أن مساحة غريبة من القدرية تملكنا جميعًا. راح البدو يناقشون الكوارث الأخرى التي على هذه الطرق الجنوبية المرعبة.

هذا رجل وافته المنية بعد أن فشل في العثور على الماء وهو على بعد خمس عشرة ياردة منها في مرة من المرات. وهذا رجل آخر فسد مساؤه وهو على طريق الكفار، وغثر عليه ميتًا بجوار إبله، انتهى ذبح واحدًا منها بغية شرب دمه. لم يهتم السود بشكل عام بتلك الحكايات المخيفة وهم يواصلون سيرهم في هدوء وهم يخفون انفعالاتهم. أعطيت السود آخر كيس معنا من أكياس التمر، لكنني حذرتهم أن ذلك التمر قد يزيد من إحساسهم بالعطش. وردوا على بسروح معنوية غائبة بأنهم لا يودون الشرب. كان السود رائعين في عصر ذلك اليوم. فقد راحوا يغنون ويضحكون ويسرّون عن أنفسهم مع بعضهم البعض. واصل عبد الرحيم، ضئيل الجسم، مضيه قدمًا بابتسامة مخيفة على شفتيه، حاملًا بندقيته على كتفه، متناسيًا ضعفه. كان عبد الله الشخص الوحيد من بين أفراد القافلة، الذي تدنت روحه المعنوية عالية، وراح يسير خلف القافلة مطرق الرأس. وفجأة وعندما ظهر أمامنا مرتفع بسيط في اتجاه الجنوب، سارع عبد الله قاصدًا ذلك المرتفع، لمزيد من الرؤية، لكنه عاد إلينا بعد ساعة وهو أكثر اكتئابًا من ذي قبل. بدأت ساعات الظهيرة تدخل علينا ببطء. لم أحس أنا نفسي بالعطش، لكننا جميعًا كنا قد شربنا القليل جدًا من الماء إلى حد أن قرب الماء أصبحت جافة بشكل غير عادي. تشققت شفاهنا ولثانا والتهبت. ولم تحصل الإبل في اليوم السابق إلا على نصف كمية العلف المحدد لها، كما أنها لم تحصل أيضًا صباح هذا اليوم على أي شيء من ذلك العلف، ولذلك بدأت تتضور جوعًا. حاولت الإبل أكل حشو سُرُج الأمتعة، وكانت تجرى صوب كل بقعة من بقع الحجارة الأرضية السوداء بحثًا عن الحشائش والأعشاب.

ظهرت لنا عند الأفق الشرقى عند الساعة الثالثة عصرًا بعض الكُثبان الرملية الخافتة. توقعنا أن نتعرف عبد الله على تلك الكُثبان، لكن ربما كانت حالة الرجل المعنوية فى منتهى السوء، نظرًا لأنه لم يتحمس لهذه الكُثبان. راح كل من يوسف وموراجا يتناقشان فيما بينهما حول ما إذا كانت تلك الكُثبان هى الهاتيا^(*) التى بين زايفن وتيسربو. إن صح ذلك، فهذا يعنى احتمال وجود حياة نباتية فى الجانب البعيد من هذه الهاتيا (المنخفض) وبذلك يزول غموض موقعنا الحالى. جرى الجميع تقريبًا صوب تلك الكُثبان، ولم يبق سوى عبد الحافظ هو وعمر ليتوليا قيادة الإبل، التى كانت تتعثر تعثرًا شديدًا. كان ذلك اليوم التاسع الذى يمر على الإبل دون أن تشرب، لكن ذلك كان أقل خطرًا من ندرة الطعام. ولمدة ساعة كاملة مُجهدة راح الجميع يناضلون محاولين السير بأقصى ما وسعهم الجهد، يعرجون، ويترنحون، بأفواه جافة، وعيون مُحمرّة، تتراقص من أمامها صفحات الماء والبراد من فوق تلال السراب الداكنة. وفجأة ألقى يوسف الذى كان فى المقدمة بنفسه على الأرض ووجهه للأرض وراح يقبلها، وراح الرجل يرقص رقصة مجنونة وهو حاسر الرأس، راح خلالها يلوح بكوفيته الطويلة على طرف عصاه. اندفعنا نحوه للانضمام إليه، ووجدناه يطبطب على تل صغير فيه عدد من العصى الجافة الهشة. قال يوسف ببساطة: "هذا حطب دغل من الأدغال. إن شاء الله! سيكون هناك المزيد من الحطب فيما بعد." ظهرت ربوتان أخريان بعد ذلك بمسافة قصيرة، فيهما القليل من الأغصان الخضراء الصغيرة الخشنة، تقائلت عليها الإبل إلى أن اختفى آخر أثر من آثار ذلك العشب. كانت الشمس قد أوشكت على الغروب فى ذلك الوقت، وكان علينا جرجرة أطرافنا المتعبة مهولين على أمل الوصول إلى تلك الكُثبان الخادعة فى وقت نتمكن فيه من المنظر الواضح الخالى

* كلمة ليبية: تعنى "منخفضًا يحتوى على أدغال الحطب". (المترجم)

من السراب الذى يأتى عند غروب الشمس. كان الأمر سابقاً يرثى لها بين الواقفين عن السير والعرج، سبقنا الآخرون، أنا وحسانين رأينا الآخرين وهم يصعدون الكتيب- رأيناهم يطيلون النظر فى اتجاه الشرق- ثم رأيناهم بعد ذلك يغوصون بلا حراك على شكل مجموعات صامتة. أعتقد أنى أجسست فى تلك اللحظة أن شهادة ضمان موتنا أصبحت جاهزة. تحولت صوب رفاقى فى يأس. "الأخبار سيئة. لو كانت هى الهاتيا لكانوا قد رقصوا." قال حسانين: "نعم، هذا صحيح، لأنهم كانوا سيحدثون جلبة وضوضاء."

حبونا صعوداً إلى قمة تلك السلسلة من الكتيبان الرملية المتموجة التى تمتد من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى، ونحن نتطلع إلى رؤية المستوى نفسه، تلك المنطقة الرتيبة التى تقع خلفنا. اندهشنا بدلاً من ذلك، عندما وجدنا أنفسنا ننظر إلى مجموعة قليلة من الكتيبان الرملية الأكثر انخفاضاً فى رقعة من الأرض متغيرة تماماً عن الرقعة السابقة. كانت هناك على كل جانب رباً وتلال غير مستوية تغطيها أعشاب متحللة، بنية اللون وبلا أوراق، لكن على بعد حوالى مائة ياردة فى الأمام كانت هناك مجموعة من الأدغال الضخمة الخضراء. لم أتمكن من فهم فتور الجنود الذين كانوا يهيلون الحصى أسفل المنحدر. تعجبت فجأة "المؤكد أن هناك ماء فى هذا المكان." قال فرأج: "والله! لكن العبد لله لا يعرف ذلك! كل ما يقوله عبد الله هو أن هذه المنطقة ليست زايغن." وبينما كنت أجرى نازلة من الكتيب اندفعت الإبل خلفى إلى الرقعة الخضراء. لم تأكل الإبل من تلك الخضرة. من الواضح أن تلك الأدغال الرشيبة الكبيرة ليست علفاً للماشية، وأن الأشياء الوحيدة الأخرى بين هذه التلال، تمثلت فى هيكلين عظميين كانت الحوافر وعظام القفص الصدرى باقية بهما. قال عبد الله فجأة "هذا المكان اسمه العطش. هنا فى هذا المكان بئر قديمة، لكن ماء هذه البئر سيقنككم! الماء مالح وعسر."

اضطربنا عند هذا الحد إلى تصديق كلام عبد الله، لكنى بدءاً من هذه المرة اكتشفت أنه كان مخطئاً تماماً. الماء مالمغ في بئر العطش، لكنه صحى تماماً والبئر يمكن فتحها فى أى وقت من الأوقات. كل ما فى الأمر أن البئر مملوءة بالرمل نظراً لأن المسافرين لا يمرون بهذا المكان إلا إذا كانوا ضالين طريقهم ومضطربين إلى بئر العطش بفعل ظمئهم الشديد! كان الحطب متوفراً ولذلك أشعلنا نيراناً ضخمة، من باب التهوين على أنفسنا، لكننا لم نستطع طبخ أى شىء فى غياب الماء. أكل السود المكرونة نيئة، وحاول العرب أكل الدقيق، على الرغم من تقديمنا النحم المعلب لهم. حصل الجنود على كوب واحد من الماء لكل واحد منهم، لكن البدو لم يشرب أحد منهم، وعليه تعين علينا اقتسام زجاجتنا معهم. استحلينا أقراص الحليب المخلوط بالمولت وشربنا يشغف الماء الذى فى بعض علب الجزر المعلب، والذى كان رطباً وبارداً. لم نجرؤ على أكل حصتنا من تموين اللحم نحسبنا للملح، قمنا بعد ذلك بتمزيق السروج لكى أعطى ما بها من قش للابل، لأننا عرفنا أن بإمكاننا مواصلة السير يوماً آخر عن طريق ركوب الدواب.

جاء صباح اليوم الثالث من شهر يناير كثيف الضباب. وكانت تموجات الضباب الأبيض تلتطخ سطح الأرض، عندما كنا نُحمّل الإبل فى صمت، مستخدمين فى ذلك البطاطين، والخيام، وكل الأشياء الطرية لتكون بمثابة عرّاقات ندعم بها الأمتعة المنفوشة. أكلنا علباً من السبانخ المحفوظ لكن الجو كان رطباً، وكان الموكب الأجوف بدأ مولنا وجهه شطر الشرق طوال الهاتيا^(*) على أمل العثور على واحد من الآبار فى المنطقة المجاورة لزاغن. كان عبد الله قد علق كثيراً من الآمال فى الليلة السابقة، لكن كل ما يستطيع قوله اليوم هو "إن شاء الله!". غادرنا العطش عند الساعة السابعة والثلاثين دقيقة، ورحنا نسير حول الرُّبى

(*) كلمة عامة ليبية تعنى "منخفضاً يحتوى على أدغال الحطب". (المترجم)

الصغيرة التى كانت شبيهه بالقبور بطريقه غريبه. شكلت ثلاث من تلك الربى الخضراء استراحة قصيرة للإبل، لكن لم يكن هناك ما يشير إلى وجود الغرود^(*) التى نذل بشكل عام على وجود الماء. انتشرت المجموعة كلها على شكل طابور متلكئ عبر الأفق، وراحوا يمشون فى اتجاه الشرق، وكانوا يتحرون كل مرتفع مهما قل ارتفاعه بحثاً عن الماء. أخيراً، قال محمد: "إذا قطعتم حلقى الآن فلن تجدوا فيه قطرة واحدة من الدم" مشيراً بذلك إلى الفكرة العربية التى مفادها أن المرء عندما يخاف الموت ويخشى منه فإن الدم الذى فى جسمه كله يندفع إلى رأسه. قال فراج بصورة حاسمة "لقد حان الآن موعد وفاة سيدى عبد الله". قالها وهو يضع أصبعه على زناد بندقيته، وعندها - وبطبيعة الحال - يحدث، ما لم يكن منتظراً، المستحيل، إذ ظهرت عند الأفق عتامة داكنة خفيفة.

أنا لا أتذكر شيئاً مطلقاً عن الساعتين اللتين أعقبنا ذلك. وأنا لا أعرف بالضبط أن كنت قد مشيت أو ركبت أو جريت. ولا أعرف ذلك الذى حدث أيضاً للآخرين. كان كيائى كله متركزاً على تلك الربى الخضراء التى كانت تظهر وتتخفى بصورة مستمرة ثم تعاود الظهور من جديد إلى أن تبلورت فى نهاية المطاف عند الساعة الثانية والنصف عصرًا، على شكل مجموعة قليلة من النخيل وبعض الغرود التى تكسوها الجذامه وإن شئت فقل: القش. أذكر أنى ترنحت فى تجويف ورأيت بعض الأشكال السوداء العادية، وهى ترفع الرمل، ثم رأيت بعد ذلك جماعة صامئة جاثمة على حافة تلك الحفرة الحديثة التى تعنى الحياة أو الموت. بدأ الماء فى الظهور ببطء شديد جدًا، نظرًا لأن الجماعة اختارت على عجل مكاناً سيئاً، ومع ذلك جاء الماء. وعندما بدأ الماء ينز من خلال الرمل الرطب، جاءت البركة الطينية الأولى محركاً للعواطف البدائية فى قلوبنا - حركت

(*) استعملت المؤلفة هذه الكلمة بنسجها العربى فى صيغة الجمع Qherds، وهى تعنى "الكثبان الرملية". (المترجم)

فى قلوبنا الفرء؁ النءءة؁ الاعتراف بالءمئل والشكر الذى يصعب التعبير عنه بالكلمات! بعد ذلك بءوالى ساعة أو ساعتين عاءت الءياة إلى مءراها الطبعى من ءءء؁ وولدت المياء العميقة فىنا فكرة تناول ءبئة مشبعة وشهية. وأءء ءمام فى أكبر وعاء من الأوعية الموجودة فى المقصف.

وأنا أتساءل هنا عن عدد القراء الذين يمكن أن يفهموا ءققة تلك الأيام الثالثة؁ نظرًا لأن الضىاع فى أوروبا يعنى مجرد الرجوع إلى الخريطة أو اللءوء إلى عابر سبئل؁ أما فى لىبىا فالآبار لىست موجودة فى معظم الأءىان وهى على بعد مئات عدة من الأميال؁ يءاء على ذلك أن المصادفة هى صاحبة الدور الأكبر؁ فقد تمر قافلتان ءلال العام وقد لا تمر أية قافلة على الإطلاق! قلة وربما قلة قليلة ءءًا من القراء هم الذين سىفهمون ءققة أولئك الرجال الهاءنين؁ المئعبين؁ ذوى العيون المترقبة؁ من أمثال؁ ذلك الإيطالى الذى أطلق أسمه على أءء ءبال طرابلس؁ والفرنسىين الستة الذين تبعثروا فى الصءراء البىضاء الكبيرة ءنوبى عىن صالح Insalah؁ وأى واءء من الأسترالىين الذين أصابهم الإرهاق لعدم ءوء الماء؁ إءافة إلى واءء أو اثنين من الإنءلىز فى الأركان الغربىة التى أءرقتها الشمس فى إمبراطورىتنا التى لا تعرف الرحمة!

ءىمنا على مقربة من أكبر مجموعة من النءئل وعلى مقربة من البئر المباركة؁ واسترخىء طوال فترة العصر على سرىر المءىم وبءوارى زمزمية الماء؁ التى كنت أشرب منها كل بضع دقائق؁ وعندما كنت لا أقوى على الشرب بءكم الشبوع كنت أروح أرجرج الزمزمية بين الءىن والآخر؁ كىما أسمع صلصلة الماء اللذىء داخلها. وعلى الرغم من كل ذلك الفرء؁ كنا لا نزال داخل الغابة؁ نظرًا لأن الهاءىا لم يكن فىها علف للماشىة. كانت الإبل كلها واهنة بعد الرحلة الطويلة والصىام الذى تبعها. كان لاىء من دفع الإبل من هنا إلى هناك؁ ومن دغل صءىر إلى أءمة أصغر منه. كانت تلك عملىة مرهقة لأن رجالنا المئعبين وأنا معهم تعىن



WHERE THE FIRST FUEL WAS FOUND: THE "HATIA" NEAR EL ATASH.

المكان الذي عثرنا فيه على الحطب لأول مرة: الهانبا بالقرب من العطش

علينا ترك زمزمتي مرة أو مرتين للوقوف على سير الأمور. كان عبد الله وعبد الحافظ قلقين تمامًا في تلك الليلة، لأن الإبل لم تشرب كما يجب، وعليه قمنا بتمزيق بعض الحصير المصنوع من القش، ونقعناها في الماء وقدمناها للإبل: حاولت تقديم الأرز ليكون طعامًا للإبل، لكن عبد الله قال: إن الإبل ستموت إذا ما أكلت الأرز.

استعداد مرشدنا شيئًا من هدونه عندما أدرك أننا كنا نخيم في العطش في منطقة زايفن، على بعد مسافة لا تقل عن مسيرة يوم ونصف أو يومين شرقي تيسربو الخادعة. أنشرح صدرى عندما فهمت ذلك، لأنه كان واضحًا أن القدر كان يهيئ فرصة تحقيق رغبتى القديمة في السفر إلى بؤسime من الطريق غير الموقع على الخريطة والذي استهوانى عندما كنت في جالو.

شرحت ذلك للمرافقين لى، ووجهت بخيبة أمل كبرى. كان المرافقون لى يودون السفر إلى زايفن ومنها إلى الكفرة عن طريق القوافل الآمن. أكدوا لى أن بؤسime شديدة الخطورة، وأن فخذًا متوحشًا من قبيلة الزوايا Zouia يعيش في بؤسime، ويهاجمون القوافل الغريبة كلها من الوهلة الأولى. عرفت أيضًا أنه في الوقت الذي تعد الكفرة مجموعة كبيرة من الواحات في المنطقة المحيطة بالقبة المقدسة، وأنها سوق صحراوية كبيرة، ومركز تجارة الصحراء الكبرى كلها، فضلًا عن كونها مركز رئاسة الحكومة السنوسية، والعاصمة المقدسة أيضًا لدين هذا الرجل، فإن بؤسime - على الرغم من تخلخلها السكانى - تعد هى الأخرى وبدرجة صغيرة مركزًا من مراكز "المال والأعمال"، نظرًا لأن القوافل القادمة من وادى وجالو تزور هذه الواحة الصغيرة. بؤسime ليست فيها زاوية أو مسئول حكومى. ويتمسك الزاويون بشدة باستقلالهم ويرفضون الاعتراف الكامل بسلطة السادة وذلك من باب تحاشى دفع الضرائب النقدية، وذلك على الرغم من احترامهم الكبير للأسرة السنوسية ورغبات هذه الأسرة. هؤلاء الزاويون لم يشاهدوا قط

جندياً واحداً داخل حدودهم، ولا يسمحون للغريب مهما كان عرقه أو مذهبه بأى حال من الأحوال، بالدخول إلى منطقتهم.

قال يوسف مكتئباً: "إذا لم يقتلونا فى الواحة، فسوف يكمنون لنا خارجها بين الكتبان الرملية ويقتلوننا ونحن فى طريقنا إلى الكفرة". قلت إن من رأى أننا قادرون على ذبح قلة قليلة من الزاويين فى البداية، لكن محمداً كان متخوفاً من ذلك. وأردف يوسف قائلاً: "إنها منطقة سيئة"؛ لماذا لم يسمح لنا الله ﷻ بالوصول آمنين إلى تيسربو؟ تيسربو فيها زاوية وقد سمعت عن شيخ هناك، سيدى محمد. لقد كان أخوه معى فى زاوية جغبوب".

سألت عن القبائل الموجودة فى تيسربو، وقيل لى إنها ثانى الواحات من حيث الحجم، لكنها ليست مهمة ومخلخلة السكان، وأن كثيراً من نخيل تيسربو مملوك لأناس يعيشون فى بُسيمة؛ وقيل أيضاً إن فيها عدداً قليلاً من التبو Tebus وفيها أيضاً بعض الزاويين، الذين يشكل السنوسيون القسم الأكبر منهم. قال موراجا: "هناك جماعات مختلفة، لكنهم جميعاً ناس طيبون. يوجد خلف تيسربو منطقة قتال وعراك. الغريب لا يمكنه الذهاب إلى هذه المنطقة. ونحن إذا هربنا من أهل بُسيمة سنقع فى أيدى التبو Tebus فى ريبانة Ribiana أو قد نقع فى أيدى الطوارق الرحل".

وعلى الرغم من هذه التشخيصات الكئيبة، أوضحت للجميع أن الإبل لا يمكن أن تسير مدة خمسة أيام إلى الكفرة بدون طعام، وأوضحت أيضاً أننا لن أصدق أفكار عبد الله بأى حال من الأحوال، عن موقع واحة تيسربو. وبدلاً من ذلك جعلت كلا من المرشد وموراجا يسحب كل منهما فكرته عن الجبل الشهير فى بُسيمة. خطط الرجلان فى الرمل سلسلة طويلة ومنخفضة ومربعة القمة. قلت بحزم: "هذا جيد جداً. عند غروب الشمس سوف نتسلق إلى قمة أكبر غرد (كثيب) هنا ونتبين ما إذا كنا نستطيع تحديد مكان ذلك الجبل!" وبعد أن نحيت جانباً تماماً

عن أذهاننا خارطتنا المزينة وعديمة النفع، استطعت بعد ذلك إثبات أن تيسرو تقع في الناحية الغربية، وأنها تمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي. وأنها لا يمكن أن يزيد طولها عن ٢٥ إلى ٤٠ كيلو متراً، في الوقت الذي كنت عاقدة فيه عزمي على الاتجاه جنوباً حيث توجد بُسِمة.

كانت الصحراء قد أوشكت على قتلنا جميعاً بطريقتيها التي لا تعرف الرحمة، لكننا عندما تسلفنا الكثيب الرملي، ورأينا الروعة الحمراء تختفي متحولة إلى اللون البنفسجي والرمادي البارد الشبيه بلون الرمل، في الوقت الذي كان نجم السماء يتوهج فيه كما لو كان قطرة من لهب سائل في كأس لازوردي^(*) اللون؛ سامحنا نجم السماء، لأنه كان في اتجاه الجنوب، أي في الاتجاه الذي أوحى به لنا "الغريزة"، والذي ظهرت لنا فيه سلسلة جبلية سوداء سواذا خافتاً، ومنخفضة ومربعة الشكل عند الأفق. حددت بعض الاتجاهات تحسباً للسراب وأمرت بالتحرك في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي على الرغم من الاحتجاجات الشديدة والتوسلات.

واقع الأمر أن الجميع كانوا متعبين إلى حد أننا لم نتحرك قبل الساعة السابعة والنصف. راحت الإبل تتأوه ألماً بصورة مستمرة، رافضة الوقوف على قدميها. كنت قد صممت على ملء القرب بالماء، بحيث يكفينا طوال مسيرة تقدر بأربعة أيام، على الرغم من قول عبد الله: إن المسافة تقدر بمسيرة يومين فقط، وفي غياب السُّرج كان من الصعب موازنة الحُزَم التي جرى تحميلها على بطانيات ملفوفة، أو الخيش الملفوف. كان اليوم بطوله سلسلة متوالية من الأحمال المتغيرة. عندما برك أحد الجمال أرضاً بسبب التعب ورفض التحرك، أنزلنا عنه حمليه ووضعناه على جمل آخر. لم يركب أحد على الإبل، على الرغم من التهاب الأقدام.

(*) (اللازوردي: الأزرق الياقوتي). (المترجم)

بعض السود تكون أقدامهم قوية، أما نحن فلم نجرو على السير بالإبل إلى أبعد مما وصلنا إليه. غادرنا بعد مضي حوالي ثلاث ساعات التلال الصغيرة هي والعصبي المنفرقة في "الهاتيا"، وأصبحت الرمال المتصلة على شكل موجات رملية كبيرة منبسطة أمامنا. وقفنا في اللحظة الأخيرة، لجمع الحطب الهش المطلوب لإشعال النار في المساء، وواصلنا سيرنا بصورة منتظمة حتى الساعة السادسة بعد الظهر.

ظهرت لنا فجأة قارة^(*) بُسِمة عند الساعة الثانية عشرة والنصف. بدت لنا تلك القارة عند الأفق، سلسلة جبال صلبة سوداء اللون، لكننا كنا نعلم أنها تبعد عنا مسيرة أكثر من يوم واحد. سارت الإبل متجولة هنا وهناك، وكانت تتخلف إلى الوراء وتتعثّر أحياناً. وأشك أن سرعتنا كانت تزيد على ميلين في الساعة الواحدة. تحولت الموجات الرملية في فترة العصر إلى كتبان رملية ضخمة مستديرة الشكل. لم نستطع الاتجاه مباشرة إلى العلامة السوداء الموجودة على بعد مسافة كبيرة منا، ولكن تحتم علينا الانحراف شرقاً تحاشياً للكتبان الرملية العالية. في حوالي الساعة الرابعة أيقنت أن الإبل لا يمكن لها التحرك خطوة واحدة. بركت جمال عديدة في آن واحد، لكننا استطعنا جعل هذه الإبل تقف من جديد، وذلك عن طريق الأغاني بصفة خاصة! معروف أن القوافي السودانية المتكررة لها تأثير كبير على الإبل المرهقة، لكن صيحة "الأريايان!"^(**) "لقد وصلنا الدار أيها الكسالي!" بدأت تحظى بالمزيد من الترحيب. عندما خيمنا في التجويف الكبير الواقع بين الكتبان الرملية الكبيرة، كان الوقت مصادفاً، لتلك الساعة الباردة التي تسبق دخول الليل. كانت النجوم قد بدأت تغطي على آخر أشعة لضوء الشمس الوامض في فترة غروب

(*) القارة: فصيحة وهي قسم من الأقسام الرئيسية التي ينقسم إليها اليابس. (المترجم)
(**) الأريايان Adaryayan: صيحة تستخدم عند توقيف الإبل وهي تعني "لقد وصلنا أيها الكسالي". (المترجم)

الشمس، فى حين كان الجبل الغامض - الذى كان يلهب خيالى منذ زمن بعيد، بشكله البنفسجى الداكن، موجودًا فى الناحية الجنوبية.

بدأنا تحركنا من جديد عند الساعة السابعة والنصف من صبيحة اليوم التالى المصادف لليوم الخامس من شهر يناير، ودخلنا على الفور متاهة من الكثبان الرملية الكبيرة، المنحنية متماسكة الظهر، وكانت فيها بقع رملية ناعمة فى التجاويف التى غاصت فيها الإبل وعلى النقيض سارت الإبل على نحو أفضل من اليوم السابق، على الرغم من وجود سلسلة مستمرة من المطالع والمنازل. ربما كان منظر السلسلة الجبلية الغربية المخيفة الموجودة أمامنا، والتى كانت سوداء سواد الفحم، على خلفية من الرمل الأبيض. ربما كانت ريح الجنوب الباردة هى التى لفحت وجوهنا ونحن نمشى أثناء هبوبها. وصلنا، فى جميع الأحوال إلى الجبل العجيب الذى ظهر لنا فى البداية على شكل سلسلة جبلية مستوية لها قمة مستوية أيضًا، والتى أضافت إلى ذلك الشكل هيئة مربعة الشكل، وشبيهة أيضًا بقمع السكر فى كل جانب، لكن هذه الكثبان لم تعد الآن سلسلة جبلية على الإطلاق لكن سلسلة من القمم المرتفعة، بعضها مربع الشكل، والبعض الآخر مستدير الشكل، لكنها جميعًا كانت من الحجر ولونها أسود كالحج، وتتخللها بقع منخفضة يميل لونها إلى الاحمرار. كنت أرى هذه السلسلة، بعينى غير المتمرسين فى الجيولوجيا، على أنها فوران بركانى شاسع صلب، يتجاوز شرقى السلسلة الرئيسية من التلال، ودخلنا بعد ذلك أرضًا جهنمية(*) جرداء. كان فى منتصف الكثبان الرملية المتموجة منطقة يصل طولها إلى حوالى ثمانية كيلو مترات من الأحجار السوداء المبعثرة. كانت كتل هذه الأحجار الهشة السوداء سواد الأبنوس على شكل خطوط- وبدأ لى الأمر وكأن ألواح العالم الإردوازية اللون جرى إلقاؤها فى هذا الإقليم الموحش،

(*) استعملت المؤلف كلمة Inferno وهى الكلمة التى استعملها دانتي وحده دون سواه، لتعطى معنى "جهنم". (المترجم)

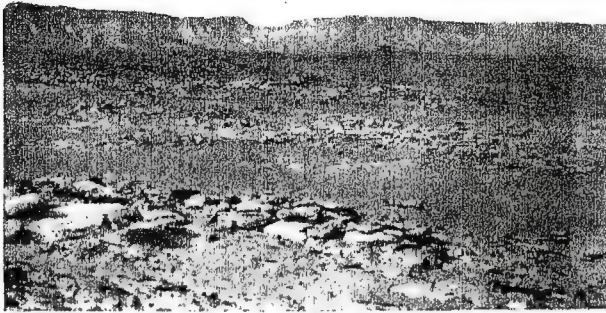
على شكل أكوام غير منظمة. أبلغنى الخبراء بعد ذلك أن ذلك الحجر الأسود كان عبارة عن حجر رملى نوبى مشبع بالحديد والمنجنيز، وأنه لا علاقة له إطلاقاً بالبراكين. كانت الأحجار الأخرى عبارة عن أحجار رملية باهتة اللون، وحفريات خشبية، وصوان.

مشينا مدة ساعتين نتعثر ونصلصل عبر هذه الأرض السوداء الجرداء المبقعة، ورحنا ننتقى بعض العينات من الأحجار التى تيسرت لنا، ثم صعدنا بعد ذلك إلى ضفة وعرة بين تلين داكنى اللون، وهنا وجدنا خط نخيل بُسيمه الطويل ينتشر أمامنا وفيه البحيرة التى ظهرت على شكل شريط فضى رفيع- هذا ماء حقيقى وليس سراباً- كان يعد فى خيال إجدابيا نوعاً من الخيال بعد أن وصلنا إلى الرقعة الحجرية القريبة من القارة، وجدنا أننا كنا نسير فى تشكيل شبيه بتشكيلات المال والأعمال- كان هناك ثلاثة جنود فى المقدمة، وكانت الإبل تسير فى الوسط، وكان الكشافون موزعين على أعلى الكثبان الرملية، فى الوقت الذى كان فيه كل واحد مستعداً ببندقيته أو مسدسه. وهنا نجد عبد الله نفسه - وهو من الزأويين - يستهزئ بالسود وهو يقول: "انظروا إلى الأمام، أيها الجنود، إنكم تصلون الآن إلى الأرض التى يتقاتل فيها الرجال!" ومن هنا أصبح كل واحد من العبيد متعطشاً للقتال والأخذ بالثأر!



THE MOUNTAINS OF BUSEIMA.

جبال بُسيمه



MOUNTAINOUS COUNTRY AT BUSEIMA.

المنطقة الجبلية في بُسيمه

الفصل الثامن

البحيرة التى فى الصحراء

عندما اقتربنا وأصبحنا على مستوى واحد مع التلال الرملية، قرر عبد الله المضى قدماً إلى شرح خطتنا السليمة وستوضح ما إذا كان بالإمكان التخيم فى الواحة. كنت مندهشة عندما رأيت أن عبد الله نفسه لم يستطع دخول القرية بدون بندقيته، فى حين راحت بقية الجماعة ترجوني بأن آخذ فقط علقاً للإبل وأواصل السير إلى الكفرة، لكنى لم أكن على استعداد أن أخذع فى بحيرتى وجبلسى، وهما أول ما رأيت فى نيبيا! طردتكم وأنا أنزل محتجة على ما يترون؛ برزت المنحدر الحجرى إلى أن انتهت الأرض الجرداء فى وادى رملى صغير عامر بمجموعات ضخمة من النخيل، والنباتات انخسنة بنية اللون، نصفها حشائش والنصف الآخر طحالب. وبينما كان عبد الله يتحسس أوضاع القريتين التى كانت كل واحدة منهما عند نهاية شريط النخيل الطويل الذى يُحْدِ البحيرة، قمنا نحن بنصب الخيام بحيث تكون مواجهة للجبل، الذى بدا لونه أرجوانياً ونحاسياً فى شمس العصر.

بينما كان الجنود مغممين برؤى الهجوم الليلي، راحوا يحثوننا على تحاشي التجمعات النباتية الخضراء، التى تعلقنا بظلمها الظليل، ونصب خيمتنا فى الأرض المكشوفة على حافة الأرض الحجرية الجرداء، ولكنى رفضت طلبهم، عاد إلينا عبد الله بخبر مفاده أن شقيق شيخ الزاوية فى تيسربو يعيش فى بُسِمة، وأنه سيجيء لزيارتنا ومقابلتنا. وقد أحضر مرشدنا معه أختاً شاحبة الوجه عيناها شبيهتان بالقטיפه، تلف حول عنقها عقداً ثقيلاً من الفضة معلقاً فيه أحجية جلدية كثيرة. أعطتنا جلد - جدى مملوءاً بنوع طيب جداً من التمر كبير الحجم، نظراً لأن زوجها كان مالكاً لنخيل وبساتين فى بُسِمة، وهنا بدأت الحاشية تحس بالسعادة والانفراج.

كنا نقوم بإعداد القهوة ونحن مبتهجون بالتمر النظيف لأول مرة- كان طعم التمر الذى سبق أن أكلناه وحتى ذلك الحين له نكهة الرمل إلى حد بعيد- عندما جاء سيدى محمد المدنى Madeni، شقيق شيخ تيسربو، ومعه سيدى عمر وسيدى بو رجيا Bu Regea، وكانا مستعدين للترحيب بنا ترحيباً كريماً باسم السيد Sayed. اتضح أن شقيق الأول كان فى الكفرة فى ذلك الوقت، وهذا يعنى أننا كنا سنفتقد ذلك الرجل لو أننا وصلنا إلى تيسربو. أعد عبد الله شيئاً من الشاي فى حين أعددت أنا شيئاً من القهوة، وجلسنا جميعاً فى الزريبة الصغيرة وظهورنا للشمس وأرجلنا ممددة فى اتجاه القمم الصخرية المدهشة. وبدأ "السمر" من جديد، وتعلمنا فى هذه المرة أشياء كثيرة، نظرًا لأننا عندما كنا نسأل عما إذا كان الماء جيدًا، كان سيدى محمد يقول: "الماء عذب فى بئر النصرانى!"

"النصرانى؟ هل حفر نصرانى تلك البئر؟" نعم؛ جاء منذ سنوات كثيرة، نصرانى إلى هنا، هاربًا من الكفرة، التى فقد فيها كل مقتنياته، وحفر هذه البئر. وبذلك نكون قد تمكنا فى نهاية المطاف من العثور على آثار رولفز! وفى انفعال كبير، تبعنا الشيخين. وبعد حديث دام ساعة اكتشفنا أن رجلاً يدعى كُريم Korayim بو عبد ربه هو الذى حمى رولفز فى الكفرة، وأنقذ حياته بأن هرب معه إلى بنغازى، وأن ولده المدعو حميد بو كُريم كان فى الكفرة فى ذلك الوقت. تعرفون أن بكر بو حطين، هو الرجل الذى كان يود قتل رولفز، وقال: إن ولده منصور كان يقيم فى إجدابيا فى ذلك الوقت ولم يعرف شيئاً عن الرحلة التى قام بها الألمانى إلى الجنوب، لكن فيما يتعلق بعبارته التى تفيد أنه سافر من جالو إلى تيسربو فى أربعة أيام ونصف، قالوا إن ذلك أمر ممكن تمامًا، نظرًا لأن الزوايين فى الزمن القديم اعتادوا أن يسافروا راكبين فى هذه الرقعة من الأرض الخالية من الماء، دون توقف، وكانوا يتناولون وجباتهم وهم ركوب على ظهور الإبل. كانت أسرة سيدى المهدى والسنوسى قد بدأت السفر ببطء والتخيم على جانب الطريق.

الشيء الغريب الذي أجمعوا عليه جميعاً هو أن رولفز أنشاء هروبيه من الكفرة ومروره خلال بُسيمه أنشاء عملية الهروب، كان على انفراد مع كُرَيْم، فى حين يقول رولفز انه كان معه ثلاثة من الألمان. كان الاسم الذى عرفوا به ذلك المستكشف التيوتونى^(*) هو مصطفى بك. الغريب بحق، أن كلا من سيدى عمر هو وبورجيا Bu Regea ثبت أنهما ابنا أخ "حب الله" Haballah العبد، الذى أتى رولفز على ذكره بأنه شيخ لعيط النيرة Ait Anira، وهم فخذ من أفخاذ قبيلة الزاويا فى الكفرة، والذى يعد من سلف آخر سلاطين التيبو، فى حين اتضح أن عبد الله عز الأقارب المباشرين للشيخ "عبد الله العبد".

حاولنا فى الكفرة اكتشاف المكان الذى دار فيه القتال. قالوا: "لم يكن هناك قتال. لقد كان الرجل نصرانياً. وجاء إلى هنا دون أن نمن سيدى المهدى، الذى كان فى جغبوب فى ذلك الوقت. وقد استحق الموت. لقد أكلت قافلته بواسطة بوجطين والزويا ولم تصل القافلة إلى القرى مطلقاً". سألت: "أين خيم إذن؟" قالوا: "نحن لا نعرف ذلك: كنا صغار السن فى ذلك الوقت. كانت تأثيرات السنوسى لا تزال فى بدايتها. لم يكن فى الكفرة وقتئذ سوى أربعة فقط من الإخوان، لكن النصرانى لم يتقدم نحو داخل البلاد". استحال على الحصول منهم على تفاصيل، لكنهم كانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً أن التيوتونى الشجاع خيم على حدود الكفرة وأجبر على التراجع بعد أن خسر قافلته. وانشرح صدرنا لأن كلا من عبد الله هو وزائرنا الاثنين لم يكونا فخورين بعلاقتهما أوصلتهما بسلطان التيبو. قالوا: "كان ذلك قبل الإسلام. لقد كان التيباويه Tebawiya كفاراً".

سألنا ما إذا كان هناك أحد من هؤلاء المتوحشين باقياً فى بُسيمه، وقيل لنا إن التيباويه Tebawiya كانوا ينقضون بسرعة، وفى الوقت الذى جرى فيه

(*) واحد من التيوتون وهم شعب جرمانى أو سلتى قديم (المترجم)



CARAVAN ON THE MARCH BETWEEN BUTTAPAL AND TAISERBO.
(A seven days' journey across desert of this character.)

القافلة في منطقة الكبتان الرملية بالضرب من بسيمه

إدخال البعض منهم فى الإسلام واستمروا فى العيش فى كل من الكفرة وتيسربو، فإن بقية هؤلاء التيباويين تربعوا على عرش ريبانه Ribiana. وأضاف الرأوى الذى كان معنا، إنه فى الوقت الذى خضع الزأويون فيه واستسلموا لسيدى بن على السنوسى، كان التيباوية خدماً أو عبيدا لهم، لأنهم كانوا قد جرى غزوهم وإنزال الهزيمة بهم على أيدي قبيلة الفوايا Fawai، التى أجبرت على الخضوع للغوازي Ghawazi، الذين أجبروا أيضا على الخضوع والرضوخ أمام شجاعة وقِتال الزوايا. جاءت هذه القبيلة من فزان، التى لا يزال يتبقى فيها بعض من تلك القبيلة فيما يطلق عليه اسم أولاد بو حسان Aulad Bu Hassan.

نمت فى تلك الليلة وأنا أحس بالانتصار، نظراً لأن الظلال التى ظلت تغلف الواحة الليبية الغربية منذ زمن طويل بدأت تنقش بصورة متدرجة. وفهمنا فى ذات الوقت مدى صعوبة محو التاريخ الحديث من الذاكرة العربية الحريصة. كنت أنطلع بشدة إلى فتح مقبرة من مقابر التيباوية، لكن رغبتى فى تحقيق ذلك جعلتلى أتحدث قرابة مدة ساعة تقريباً عن المومياءات المصرية، حتى نتمكن من أن نسأل ما إذا كان الكفار الذين عاشوا فى بسيمه يدفنون موتاهم بالطريقة نفسها. وهنا ينبغى أن أقر أن سيدى محمد المدنى كان أذكى العرب الذين التقيتهم وأوسعهم أفقاً. فقد عرفت من ذلك الرجل قدراً كبيراً من تاريخ انتشار النفوذ السنوسى فى الصحراء الكبرى، وعرض علينا إطلاعنا على سائر أنحاء الواحة فى اليوم التالى.

استيقظنا فى ساعة متأخرة من اليوم السادس من شهر يناير واكتشفنا توقف ساعتينا، لكن الشمس كانت قوية، وعليه تصورنا أن الساعة لابد أن تكون حوالى الساعة الثامنة، وعجلنا بتناول إفطار مكون من القهوة، والتمر والخبز غير المخمور كى نبدأ رحلة استكشافنا. تأخر استئناف مسيرنا بسبب مشاجرة عنيفة بين السود والبدو حول مسألة القيام بإعادة عمل سُرَج الأمتعة وإحضار الماء للمخيم. وعلى الفور عزفت عن الكلام الرقيق ورحت أعبر بصوت عالٍ عن تقديرى لهم جميعاً، وفى غضون لحظات قليلة كان فراج الأطرم يزحف فى اتجاه ومعه قرابة

من قرب الماء، فى حين راح شاكرى يجرى إلى الوادى بحثاً عن "ليف" النخيل. حدثت فى الصباح الباكر أيضاً مشاجرة صغيرة حول من الذى يتعين عليه الذهاب إلى القرية لشراء خروف المناسبة. وهنا عرفنا أن السودانيين لا يجرءون على الدخول فرادى إلى القرية. كان السودانيون قد أمضوا القسم الأكبر من الليل فى حراسة من النوع البدائى تماماً. فقد قاموا بإشعال نار وجلسوا فى نطاق ضوئها، وبالتالي كانوا صيذاً سهلاً لكل من يود فتح النار عليهم. كانوا يتحدثون أيضاً بأعلى أصواتهم، الأمر الذى أزعجنا أثناء نومنا، ومن الطبيعى أن يصبح السودانيون بعد هذه الطاقة غير العادية مرهقين. وقد أدى وصول الخروف المخلط باللونين الأبيض والأسود، الذى كان يقتاده عمر المتقائل، إلى بث شيء من الفرح فى نفوس الجميع، وتركتهم يضعون خطط تقسيم لحم ذلك الخروف.

كانت مسألة شراء الطعام أمراً مستحيلاً فى واحات الصحراء التى ليس فيها زبائن منظمون أو أسواق منظمة. فكل أسرة من الأسر فى الصحراء تنتج ما يكفيها فقط. وعليه لم يكن هناك ما ينبى بظهور الخبز، والبيض والحليب على الرغم من ذبوع صيتنا كأثرياء. ويعد التمر استثناء من هذه القاعدة. المجيدى الواحد يشتري جوالاً كبيراً من التمر، وعلى الرغم من أن كلاً من واحتى بُسيمة ورببانة لا تدفعان ضرائب نقدية، فإنهما تطعمان إبل السيد رضا مجاناً إذا ما تصادف ومرت تلك الإبل بهاتين القريتين. يزداد على ذلك أن هاتين القريتين تدفعان نسبة مئوية من جوالات التمر كل عام للحكومة. حيث يجيء أحد المسؤولين من الكفرة لتحصيل وجمع هذه التمور. وقد عرض علينا فقرون Faqrn بعضاً من تلك الجوالات التى كانت مخزنة استعداداً لنقلها. قال لنا: "أنتم ضيوف السيد. ومن حقكم أخذ هذه الجوالات". وعلى الرغم من عدم وجود علف أو عشب لحيواناتنا، فقد كانت هناك مقننات وفيرة من التمر. كنا قد ساومنا كثيراً على الخروف مع أنثى سليطة الرأى، كانت ترتدى ثياب بُسيمه الجذابة- ثوباً أبيض وحزاماً قرمزى

اللون، وقطعة من القماش أسود اللون ملفوفة بطريقة غير محكمة حول الوجه مثل الغطاء الذى تضعه الراهبة على رأسها، كما كانت ترندى برؤسها من اللون الوردى واللون الزعفرانى، مزدوجاً ومطروحاً على رأسها كما لو كان شالاً كبيراً. وأخيراً اشترينا الخروف مقابل أربعة عشر مجيدياً، وهنا ظهر فجأة صبى صغير ومعه عشر بيضات، طلب مجيدياً ثمناً لها (أى بواقع خمس بنسات لكل بيضة). ساهم عبد الله بتقديم لبن ماعز لاذع الطعم مخلوط باللغبي^(*) الطازج. تقضى المراسيم السنوسية الصارمة أن كل من يسكر باستعمال اللغبي سوف يُجلد ويُغرم.

ركبنا بعد أن سوّينا المنازعات كلها جملين هما أقل الإبل إرهاقاً ورحناً نشق طريقنا عبر أرض ملحية جرداء تقع بين مخيمنا عند نهاية شريط النخيل شبه الدلقرى وبين القرية التى على الطرف الآخر. كان السير صعباً نظراً لأن الملح كان على شكل تشكلات غير مستوية، لكن الصباح كان جميلاً، وصافياً وبارداً على الرغم من سطوع الشمس. كانت على يميننا سلسلة من القمم الصخرية المرتفعة، وقد اختفى عنها اللون الأسود، ولكن لونها كان مشوباً باللون الأرجوانى، على خلفية من الكتبان الرملية الشاحبة الموجودة فى الخلف. وعلى الجانب الغربى كانت هناك بحيرة زرقاء اللون، يصل طولها إلى حوالى ثمانية كيلو مترات، شديدة الملوحة، إلى حد تعذر معه عيش الأسماك فيها، لكنها كانت نصف شفافة. كانت كتل للنخيل هى والرمال ذات اللون المرجانى الخافت تقع خلف هذه البحيرة، نظراً لأن التراب الأحمر الذى يسقط من الجبل كان يصبغ بلونه المنطقة المحيطة به.

مررنا فى منتصف الطريق الجذب المالح على سيدى محمد، وقبل مغادرتنا المكان كان كل السكان الذكور فى بُسِمة قد انضموا إلينا. ولك أن تتخيل دهشتنا

(*) اللغبي: كلمة ليبية عامية، تعنى 'عصير النخيل المتخمّر'. الذى يتخمّر بعد أربع وعشرين ساعة مكوّناً بذلك مشروباً روحياً قوياً جداً. (المترجم).

عندما وجدنا أن عدد هؤلاء الذكور يصل إلى عشرين رجلاً وإذا ما أضفنا إليهم الرجال والنساء والأطفال فأنا أعتقد أنه كان هناك أكثر من خمسين آدمياً في منطقة الخطر، وهو ما أدى إلى تخوف جماعتنا المسلحة تسليحاً جيداً من الاقتراب من القرية! وبدأنا بعد ذلك نتشكك في حكايات جماعات اللصوص واسعة الانتشار، وحكايات القوافل التي جرى السطو عليها وتقتيل أفرادها.

وصلت أيضاً إلى استنتاج مفاده أن نفوذ السنوسي كان أكثر دواماً وثباتاً في الواحات الصغيرة عما هو معروف. كان سيدى محمد قد قبل خطاب السيد رضا السنوسي، وامس به رموش عينية، وأثنى الرجن أيضاً على عائلته فقرون Faqrun المهمة، التي كانت ترود الجماعة المرافقة لنا، شكوك كثيرة عنها؛ وإن هذه العائلة لم تتوقف للترحيب بنا بل للتأكد من أننا في حماية سيدى إدريس. وبعد أن تأكدت العائلة من ذلك قام الأخوان فقرون: ميهوب وصلاح، باستقبالنا استقبالاً ودئياً للغاية وفرجونا على قرية التيبو على الشاطئ الشمالى الغربى للبحيرة. لابد أن هؤلاء التيباويين Tebawiya يعيشون حياة غير مستقرة، لأن منازلهم صغيرة، وغريبة الشكل، فهي عبارة عن سلسلة من الإنشاءات الدائرية الصغيرة شبيهة بالأفران المحلية الضخمة. بعض هذه المنازل يحتوى على ثلاثة أو أربعة من "الغرف" المستديرة، الموجودة بلا تنظيم، بجوار بعضها البعض، كما لو كانت خلايا فى قرص من أقراص العسل. كانت تلك المنازل مبنية من الحجر ونوع من المُلَاط الصلب، وكانت بلا نوافذ اللهم إلا إذا كانت هناك بعض النوافذ فى الأعلى. ومن سوء الطالع أن كل هذه المنازل كانت بلا أسقف، ويصل ارتفاع أعلى الجدران إلى حوالى ١٥ قدماً وثمانى بوصات. ولم يكن هناك سوى باب واحد فقط يؤدى إلى التجمعات المنزلية الكبيرة.



THE FIRST MEETING BETWEEN THE FAQRUN FAMILY AND OUR PARTY AT BUSEIMA.

أول لقاء بيننا وبين عائلة الفقرون في بُسيمه

كنا قد مررنا قبل وصولنا إلى هذه الأطلال، ناحية الشرق بواحد من السلال الرملية الدائرية الصغيرة التي تشكل تلك القارة، وأبرزوا لنا بعض المعالم غير الواضحة لقلعة من قلاع التبو. كانت هناك قلعة أخرى على الصخرة الرئيسية من الجبل المقابل، وهذا يعنى أن التبو كانوا عرفاً محارباً. كانت تلك القلاع صعبة الاختراق، نظراً لوقوعها على قمة صخور شبه عمودية، تتحكم فى وتطل وتشرف على المنطقة المحيطة بها فى حدود خمسين كيلو متراً من كل جانب، كما تشكل فى ذات الوقت فكرة دفاعية جيدة جداً، لأنها لا بد وأن تكون قد أفادت من مختلف السلاسل الصخرية وذلك يجعل منها جدراناً ومتاريس وحواجز. يزداد على ذلك أن هذا الشعب البدائى كان يدفن موتاه وهم فى وضع الجلوس، وهذا هو الوصف الذى أورده رولفز عن الميت الذى رآه فى تيسربو، لكن جرت العادة بلف جلود الغنم حول الميت وهو فى هذا الوضع. ومن الواضح أن هذا الشعب لم تكن لديهم فكرة عن المنسوجات وأنهم لم يكونوا يرتدون سوى الجلود.

جاءت قرية بُسِمة الأساسية، الموجودة عند الطرف الشمالى الغربى من البحيرة، هى وبساتين التمور المسورة تسويراً جيداً، والمرعية رعاية جيدة، والتى تزرع فيها خضراوات قليلة، وقليل من أشجار التين التى تمتد إلى حافة الماء، مفاجأة لنا لأنها لم يكن فيها سوى ستة بيوت، هى عبارة عن بنايات مربعة لها جدران صلبة جيدة البناء، وفيها أفنية منتظمة الشكل ومشطبة تشطيباً جيداً ولها أبواب خشبية متينة. كان منظر البيوت أنيقاً ومريحاً، وليس فيه شيء من مظهر النداعى الشائع فى القرى العربية. تركنا رجال بُسِمة فى هذا المكان بعد أن وعدونا بالحضور إلينا ليتقاسموا معنا لحم الخروف السمين فى فترة المساء. واصل سيدى محمد جولة حول البحيرة ليرينا ببر النصرانى، تلك الحفرة الصغيرة الموجودة فى منطقة جذور مجموعة من النخيل. كنا قد أحضرنا معنا فناطيسنا كى نملأها بالماء، على اعتبار أن هذا الماء هو أفضل ماء متيسر فى الواحة، وبينما كان الأسودان يقومان بسكب

السائل البارد ببطء، كنا نحن "نَسامر" في الظل ونرسم خرائط على الرمل، محاولين تحديد موقع تيسربو المضلل "التي يلتزم كل رجل فيها قريته ولا يغادرها؛ ومن هنا فإن أحدًا لا يلتقيهم ولا يسمع شيئًا عنهم." اكتشفنا أن ريبانة Ribiana، تقع على بعد مسيرة يوم ونصف في اتجاه الجنوب، عبر رمال سيئة، مما يضعها في منتصف الكفرة (Kebabo) طبقًا للخريطة التي معنا.

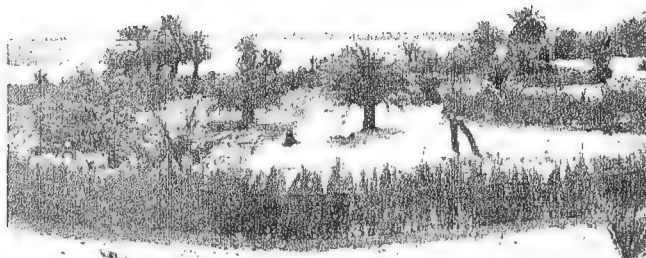
درا - بعد مغادرة البئر - حول الحدود الخارجية لشاطئ البحيرة وكنا نعجب ما إذا كنا قد دخلنا أرض الخيال بطريق الخطأ. كان الأمر لا يصدق نظرًا لأننا بعد أربعة عشر يومًا أمضيناها في رمال لا تطاق، رتيبة الشكل، وعديمة الطابع، وجدنا أننا ما زلنا موجودين على خلفية فيروزية زمردية الألوان ومن الجمشت^(*) أيضًا. بُسِمة، هي أحب الواحات إلى قلبي من بين الواحات التي رأيتها في حياتي، وبخاصة تلالها الوردية الغريبة- التي لها أرجوانية المجوهرات وقرمزية منعكسة على صفحة السراب الملحي الذي يطوق أكثر البحيرات زرقة على مستوى العالم. هذا اللون بكامله واضح تمامًا على خلفية الكثبان الرملية الشاحبة الناعمة. الرائي يرى ذلك اللون من خلال إطار من جريد النخيل المتدلي، ومن بينه شكل وردي، متشح بوشاح قرمزي اللون، ويحرس قطيعًا من الماعز بالقرب من بركة داكنة موجودة بين عيدان السمار الخضراء العالية، توقف الزمن في ذلك اليوم عندما رحنا نتجول ببطء من خضرة النخيل إلى ذهبية الرمال، ثم نعود بعد ذلك إلى خيامنا في الوادي. لم نكن قد تناولنا شيئًا منذ الإفطار المكون من التمر والخبز غير المخمور، وعليه طلبنا من فراج طهي جزء من لحم الخروف- المعلق الآن على شكل أقسام أنيقة في جذع نخلة سميك- بأسرع ما يمكن، لكن المؤكد أن يومنا كان مفتوحًا، لأن الشمس كانت قد غربت عندما أحضر الأسود

(*) حجر كريم بنفسجي اللون. (المترجم)

غداءنا وهو يتيسم- فخذ من الضأن يبدو وكأنه شيء في وعاء تحمير صغير ومعه بيضتان صغيرتان مغطاتان بالرمل من فوق اللحم!

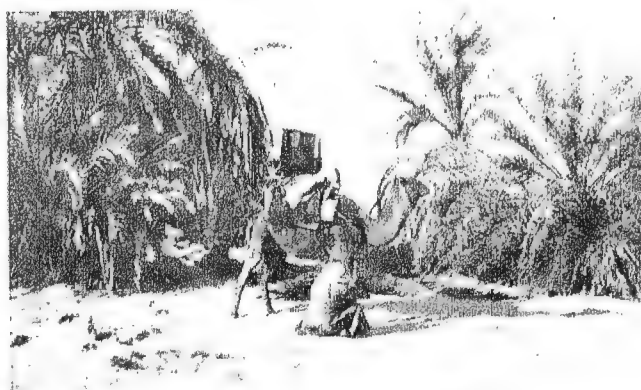
حضر بعد ذلك اثنان من الفقارين Faqruns هما: سيدى محمد وسيدى عمر ومعهما بورجيا Bu Regea كى يشاركونا فى الخروف المطهو والمقسم على طبقين كبيرين من الأرز. أكل الجميع من طبق واحد مستخدمين أصابعهم، وراحوا يتلعون الطعام بسرعة، دون أن يتكلموا، لكنهم كانوا يحدثون مصمصات عالية الصوت. شربنا بعد ذلك قدرا كبيرا من الشاي الأخضر الأمر الذى أصبح النوم معه شيئا مستحيلا، وعلى ضوء النجوم، وفى ظل استعمالنا لمجموعات النخيل على سبيل الجدران، جلسنا حول نار صغيرة ورحنا نتحدث ببطء مع وقفات طويلة بين الحين والآخر. قيل لنا إن سيدى ادريس عندما ذهب خلال الواحة خيم مدة يومين تحت مجموعة كبيرة من النخيل تبعد مسافة ستة أقدام عن البحيرة الزرقاء، ومن هنا أصبح الناس ينظرون إلى هذا المكان بشيء من الخوف والتوقير. أبلغنا ضيوفنا أن الأمير سافر إلى إيطاليا منذ فترة وجيزة لزيارة ملك إيطاليا. وهنا بدت الدهشة والحيرة على سيدى محمد من قيام الشخص المقدس بسابقة من هذا القبيل. سألتنى سيدى محمد "لماذا لم يأت لزيارة السيد؟ لأن الزائر، وليس المضيف هو الذى يمنح التشريف فى أرض العرب".

برزت فجأة مسألة الرحيل وناقشنا فى البداية إمكانية الذهاب إلى تيسربو أولاً، اعتقاداً من وصف رولفز أنه لابد من وجود بعض أطلال التبو المهمة فى ذلك المكان. زعم رولفز المغامر الألماني أن تيسربو كانت مقرًا لسلطنة التبو، وأوحى أيضا بأن بعض الأنقاض الموجودة فى ديرانجيدى Diranjedi تشير أنها ربما كانت معقلًا للسلطان الحاكم مطلق السلطة. هذا السبب هو الذى شوقنى إلى زيارة ثانى واحة صحراوية من حيث الحجم، وذلك على الرغم من الحقيقة التى مفادها أن هذه الواحة من الناحيتين الجيولوجية والتجارية جرى وصفها بنعم الأهمية. وتعد الكفرة



GARDENS AND LAKE AT BUSEIMA.

البساتين والبحيرة في بُسيمه



AUTHOR ON A CAMEL AT BUSEIMA

المؤلفه تركب جملاً

مركزاً لعالم الصحراوات؛ بُسِمة على سبيل المثال، تنتج أفخر أنواع التمور في ليبيا، وتجيء القوافل من جالو لجلب هذه التمور؛ ورببانه Ribiana هي مقصد العناصر الخارجية على القانون في المناطق المجاورة لها. قيل لنا إن في ربيانه حوالى خمسمائة من التبو، لكن ربما كان ذلك الرقم غير صحيح.

تقف تيسربو خارج الدائرة التجارية وترضى لنفسها بحياة هادئة تكفى فيها على الذات. بلغتنا أخبار عن عدد سكانها الذى يقدر بحوالى ٥٠ نسمة كحد أدنى ومائتى نسمة كحد أعلى. وفيما يتعلق بحجم تيسربو قيل إن طولها يتردد بين ٢٥ و ٣٠ كيلو متراً وإن عرضها يقدر بحوالى عشرة كيلو مترات. وهى تمتد من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى، لكن الطرف الشمالى القصوى منها ينحرف قليلاً فى اتجاه الغرب جنوبى جالو. وتضم تيسربو حوالى إحدى عشرة قرية أكبرها قرية الجزيرة Gezira، التى ليس فيها سوى عشرة منازل. والمسافر من الشمال يتعين عليه الوصول إلى عين جلالات Ain Jelalat أو عين طالب Ain Talib، اللتين تبعدان عن بعضهما مسافة كيلو متر واحد. وقرية الجزيرة تقع على بعد كيلو مترين من هاتين البنتين؛ والجزيرة فيها زاوية سنوسيه، وشيخ هذه الزاوية هو سيدى محمد المدنى، وهو شقيق صديقنا الذى يحمل الاسم نفسه. وتقع مايوس Mabus العواذيل el Awadil ومايوس جاب الله Mabus Gaballa على بعد حوالى كيلو مترين فيما بينهما. وتقع كوسبية Kusebeya على بعد حوالى ستة عشر كيلو متراً شرقى الجزيرة، وتعد كوسبيه أبعد نقاط الواحة من ناحية الشرق. وتقع قرية الوادى على بعد حوالى ثمانية كيلو مترات غربى عين جلالات، فى حين توجد قرية العبد El Abd على بعد كيلو متر واحد بعد ذلك. وفى أقصى الغرب توجد تونس - قصر درانجيدى فى الوادى - حيث توجد بعض مباني التبو القديمة، التى ربما كان أحدها قلعة أو قصرًا. ويعد الوادى أكثر الأجزاء سكاناً. وهناك أيضاً بعض الأنقاض فى دحوه Dahwa، وفى عين جلالات، وفى الجزيرة.

توجد مجموعات من النخيل حول القرى كلها، كما توجد فيما بين هذه القرى رقع من نبات "الحلفاء" (نصفه من الحشائش والنصف الآخر من نبات طحلبى صحراوى). هناك أيضا حزام من أشجار "الحطب". عبارة عن رواوى صغيرة فيها بعض الحطب وعلف الماشية ويطوق الواحة كلها. بعض القرى الصغيرة لا تحتوى إلا على منزلين أو ثلاثة. والمساكن الكبيرة تبنى من الرمل والحجر، لكن المساكن بئسة الحال فهي عبارة عن مأوى مصنوعة من سعف النخيل المجدول ولها أحواش صغيرة مربعة الشكل من خشب النخيل.

جاءنى القسم الأكبر من هذه المعلومات من الشيخ المدنى، الذى يعيش قومه بصفه أساسيه فى واحة جغبوب، حيث تدور بينهم وبين عائلة أخرى من الإخوان مشاجرات عنيفة. سفكت فيها الدماء، وأمر السيد أحمد شريف بتهجير المدنى قسريًا إلى تيسربو، التى يعيش فيها حاليًا اثنان من أشقائه. كان الشقيق الذى التقيناه قد تشاجر مع هذين الأخوين وطرد بعد ذلك إلى بؤيمة. هذا الشخص الذى التقيناه يقول كلامًا طيبًا فى حق أسرة السنوسى وأن المدنيين لا يزالون موالين مخلصين لأسرة السنوسى، على الرغم من كلام سيدى محمود غير الطيب فى حق كل من واحة الكفرة وواحة جغبوب باعتبارهما مركزًا للحضارة والثقافة وعن بؤيمه باعتبارها ظهيرًا خلفيًا لهما.

أنفقنا ساعات ونحن نرسم على ضوء النار خرائط على الرمل، فى حين كان القمر الداوى يتلألأ شاحبًا فى السماء الإفريقية المدهشة الزرقاء زرقة الزمرد، لكنها رقيقة رقة الحجاب اللازوردى الذى ترتديه العروسة الشركسية. كان فراج الاطرم بين الحين والآخر يتخيل مارًا خياليًا قائلًا "مين هناك؟" كانت تحدث بين النخيل خشخشة بين الحين والآخر، وكان شاكرى يقول إن تلك قطة كانت تتحرك داخل مخزن طعامنا المؤقت. قبل تلك الليلة لم تكن لدى فكرة الإثارة الناجمة عن جمع المعلومات الجغرافية. كنت أخطط منذ عام كامل لمسألة وصولى إلى الكفرة،

كان يملك على كل خيالى وبخاصة أن أعرف أن تلك الواحة مقدسة، وهى نواة
لأكبر إخوانية إسلامية، محمية حماية قوية من كل الغرباء، وأن هذه الواحة تعد
مركزاً لذلك التأثير العتيد الذى تناوبت كل الدول الأوروبية القتال ضده. وفى
الوقت الذى رحت فيه أتعلم بصورة متدرجة المزيد عن هذه المجموعة من المدن
الصحراوية: الهوارى، الجوف، بويما Boema، تُوليب Tolelib، وتولاب،
وزروق Zuruk ومدينة تاج المقدسة، وبعد أن أدركت أن هذه المدن تمثل
العنكبوت عندما يكون فى وسط شبكته وخيوطه، وأن خيوط ذلك العنكبوت تمثلت
فى طرق القوافل الطويلة التى تنتشر فى كل الاتجاهات من طرابلس إلى السودان،
ومن بحيرة تشاد إلى مصر، كان الجانب التجارى من المشكلة يملك على فؤادى.
تتحكم الكفرة فى نصف تجارة الصحراء الكبرى. قلة قليلة جداً من الطرق القديمة
هى المفتوحة فى الوقت الحالى، فى حين تكاد الطرق الأخرى لا تستخدم إطلاقاً
بسبب عدم وجود الآبار، لكن المستقبل عامر وحافل بإمكانات لا حصر لها. ليس
هناك داع للإبقاء على الإبل كوسيلة نقل رئيسة فى ليبيا. خزانات الماء يمكن
توفيرها فى كثير من المواضع المعروفة والمتنوعة، كما هو الحال فى المسافة ما
بين جالو وواحة جغبوب، والتى أمر السادة بحفظ الماء على امتدادها فى جرار
كبيرة من الحجر كى يستفيد منها المسافرين.

عدنا فى تلك الليلة التى أمضيها فى بُسِمة، بعد مغادرة الضيوف للمكان،
إلى الخيمة ونحن متعطشون لرسم الخرائط. قفلت باب الخيمة وأخرجت الجهاز
الذى احتفظ به. أتلقت أوراقاً كثيرة وضاعت البوصلة منى فى الرمل عشرات
المرات قبل أن أتمكن من إنتاج أول خريطة كروكية عن الواحة الصحراوية، لكنى
شعرت أن الجهد الذى بذلته يستحق الثناء بعد أن رأيت الآبار التى أضفناها إلى
الخريطة الصادرة عن مصلحة المساحة المصرية فى العام ١٩١٥ الميلادى. قال

حسانين - وهو يهيل مزيدا من الرمل عن شعره المهوش: "لعلنا نكون قد وفرنا على الأوربيين الذين سيأتون بعدنا قدرا كبيرا من المتاعب!"

أمضى سيدى محمد الليل فى مخيمنا. وأظن أنه فعل ذلك تحاشيا لمسيرة العودة الطويلة أثناء الليل، لأنه يقيم فى الطرف القصى من أبعد القرينتين. اكتشفت فى الصباح أن سيدى محمد بات فى مخيمنا كنوع من التحوط. ومن الواضح أن حكايات الخطر لم تكن ساذجة مثلما كنا نظن. كان رجال القرون قد قالوا لسيدى محمد: "والله! لولا خاطر سيدى المدنى لكنا قتلناكم جميعا!" بقيت مسألة تنفيذهم لذلك القتل سرا غامضا، لكن لا يمكن أن يكون هناك شك فى مسألة كراهية بؤسمة للغرباء. كانت هناك امرأة شاحبة الوجه، برزت خارجة من بين الأدغال لتتحدث إلى موراجا أثناء خروجه من المخيم. كان دم ذلك الرقيب خليطاً من الدم العربى والسودانى. وكانت ملابسه الحمراء الباهتة اللون وأتماله البنية اللون، مثل لون بشرته. سألت المرأة موراجا غاضبة لماذا أحضرت هذين المصريين هنا؟ نحن لا نريد الغرباء ولا نرغب فيهم. اجعلهم يرحلون وإلا سيعانون!" فى صبيحة اليوم السابع من شهر يناير كان الرعب قد أصاب كل أفراد الجماعة. لم يكن من اللائق أن أسألهم عما إذا كانوا خائفين من مجرد حفنة من الأشباح. استعاد الجميع كل قصصهم القديمة، وراحوا يرجوننا وعلامات الرعب على وجوههم، أن نغادر المكان على الفور.

الشيء الذى يرثى له هو أن روح محمد المعنوية كانت منخفضة للغاية خلال أيام العطش الثلاثة الأخيرة. قال محمد: "لقد أعطانى الله حياة جديدة. وأنا لا يمكن أن أخطر بهذه الحياة مرة ثانية." كنا قد تعودنا تماما على جبن كل من يوسف وعبد الرحيم، ذلك الرجل النحيف صغير الجسم الذى يرثى له، وليس له بنيه قوية أو روح قتالية، لكنى كنت جد أسفة على حال محمد. كان محمد أعظم خلفائى، وهو جاهز ومستعد دوما للعمل أو المخاطر. يبدو أن ذهن الرجل بدأ

يعانى هو الآخر مثل جسمه تماماً. كنت أتساءل حول مدى جدواه لنا فى المستقبل. وبينما كنت أشوى البيض على نار ذكية الرائحة رحت أعد شيئاً من القهوة مستخدمة فى ذلك شيئاً من "ماء بئر النصرانى" (*) الذى كان عذّباً، لكنه كان يصيب فم من يشربه بالجفاف الشديد، تمنيت لو أن المرافقين لنا أستوعبوا المشهد بعض الشيء. كانت الأشياء الوحيدة التى تتحرك وسط الكثبان الرملية والصخر الأرجوانى والذهبى اللون، هى تلك الطيور الصغيرة ذات الألوان الخليطة من الرمادى والأسود، والشبيهة بطيور الذُفرة المائية- التى يسمونها فى مصر "أبو فصادة". أنا أرى أن أجعل الحشرات استثناء، إذ كانت هناك أنواع عدة من الخنافس، إضافة إلى الجراد الرملى الطويل، والبعوض بطبيعة الحال، الذى كان رحيماً أو كارهاً للأوروبيين شأنه فى ذلك شأن السكان الآخرين فى بُسِمة.

تسلفنا بعد الإقطار قمة من القمم الصخرية. وأكد لنا موراجا أن هذا الأمر قد يستغرق النهار كله. أكملنا عملية التسلق فى ثلاثة أرباع الساعة، حوالى مائة متر. كان مستوى مخيمنا فى الوادى يقل ارتفاعه عن ٣٨٠ متراً. كان المنظر رائعاً. كانت الواحة بكاملها تمتد من تحتنا، وفيها تلك الفجوة الكبيرة التى تقع بين القمم الصخرية التى جئنا من خلالها قبل يومين، ومن خلف هذه الفجوة وعلى جميع الجوانب كانت توجد خطوط من الكثبان الرملية المتموجة بيضاء اللون، وهى تبدو أكثر انحداراً عندما ننظر إلى ربيانة فى اتجاه الجنوب أو إلى الكفرة فى الجنوب الشرقى. كانت هنا بقعتان سوداوان تقطعان رتابة تلك المنحنيات شاحبة اللون- كانت البقعتان تُمثلان طلائع صخور قارة بُسِمة.

اكتشفنا فى طريق عودتنا عددًا كبيراً من منازل التيبو المدمرة والمبعثرة هنا وهناك على الأرض الملحية الجرداء التى بين مخيمنا وبين القمم الصخرية. كانت

(*) المقصود "بئر النصرانى" هنا هى تلك البئر التى حفرها رولفز الالماني بالقرب من جنور مجموعة من النخيل. (المترجم)



ZOUIA WOMEN AT BUSSEIMA.

نساء زوئات في بسيمه

جدران المنازل لا تزال بحالة جيدة، وكانت أكبر حجماً من المنازل الموجودة عند الطرف البعيد من البحيرة. كان قطر أكبر الحجرات الشبيهة بخليه النحل حوالي ثمانية أقدام وست بوصات. تركت حسانين ليبلغ المرافق لنا أننا سنبدأ التحرك في صبيحة اليوم التالي، وأن يستمع إلى الخطط التي وضعوها للدفاع أثناء السير على الطريق، وذهبت بصحبة عبد الله لزيارة أقاربه في القرية المجاورة. كانت شقيقة عبد الله تعيش في كوخ منخفض مبنى من جريد وسعف النخيل وله حوش صغير في مقدمته، وله جدار من منسوج من سعف النخيل. لم يكن هناك أى شيء داخل هذه الغرفة الوحيدة سوى بعض الحصير المصنوع من أوراق السرخس المضفور، وبعض الأطباق المصنوعة من الحشائش المضفورة والمملوءة بالتمر، وكانت هناك قرعتان من قرع القل، وقربة مصنوعة من جلد الماعز مملوءة بالماء، وبعض البطاطين التي يرثي لحالها. حياة هؤلاء الناس تعتمد بكاملها على النخلة. وهم يبنون منازلهم من النخلة، ويصنعون حصيرهم وأطباقهم من سعفها، يأخذون من النخلة طعامهم، وشرابهم، وسلالهم، وخبوطهم، وأحذيتهم، والحشو الذي يضعونه في سُرُج الإبل.

تجمعت حولي نساء عديدات في تلك الظلمة البَراد. كان القسم الأكبر منهن جميلات، ووجوههن زيتونية اللون، وذقونهن مدببة. كانت عيونهن سوداوات ومن حولهن رموش ثقيلة سوداء، وكانت ملامحهن متناسقة، وأسنانين من أجمل أنواع اللؤلؤ الذي رأيته في حياتي. قلن لي إن ذلك بفعل التمر، وكان الشيء الذي جعلهن يهتمن بى اهتماماً شديداً هو ذلك الطربوش المصنوع من الذهب! ظننت تلكم النساء أن هذا الطربوش شكل من أشكال المجوهرات الجديدة ورحن الواحدة بعد الأخرى يفتشن ويتفحصن سُنَى التعيس. قلت: "عندما يكون لدينا ذهب فنحن نصنع منه القلادات والأقراط. فلماذا تضعين الذهب في فمك؟" أصررنا على فك حزامى الأحمر الزاهي، الذى كنت ألقه دوماً حول وسطى، ورحن ينزلنه إلى الأسفل نحو

أردافى، الأمر الذى جعلنى الأطول من بين النساء العربيات كلهن. أريننى مجوهراتهن كلها- أقراط ضخمة مصنوعة من الفضة، قلادات وأحجية- وسألتنى عن عدم وجود شلوخ توضح قبيلتى. أمضينا ساعة جميلة مع بعضنا البعض فى الغرفة المصنوعة من النخيل، وتخلل هذه الساعة شرب حليب الماعز المحمض من أطباق مصنوعة من خشب النخيل، وأكل التمر الأسود الجاف البالغ من الصلابة حدًا يصعب معه قطعه بالأسنان.

يمتد طريقان من بُسيمة، يسير أحدهما جنوبًا إلى ربيانة، ويصفه الناس بأن طوله يقدر بمسير حوالى يوم ونصف عبر كثبان رملية كبيرة، وهو طريق صعب لا يرغب أى مرشد فى السير فيه؛ أما الطريق الثانى فينحرف قليلاً صوب الجنوب الشرقى، طوله يقدر بمسيرة ثلاثة أيام ونصف منها يومان صعبان تمامًا. ويمكن مواصلة السير من ربيانة عبر الكثبان الرملية المرتفعة نفسها إلى مجموعة قرى الكُفرة. وباستخدام الطريق المباشر يصل المسافر إلى هوارى Hawari لكنه إذا ما استخدم الطريق الطويل يصل إلى طولاب Tolab. سلطنا الطريق المباشر بلا تردد، نظرًا لأن إبلنا كانت لم تستعد بأى حال من الأحوال. عافيتها من الرحلة الكارثية الأخيرة. كانت ناقتان من بين النوق على وشك الولادة فى أیه لحظة، وكانت النوق كلها تبدو عليها النحافة والضعف. راح عبد الحافظ يهز رأسه حزنًا على النوق. قال: "ربنا كبير، لكن الكثبان الرملية كبيرة أيضًا!"

غادرنا بُسيمة عند الساعة الثامنة والعشرين دقيقة من صباح اليوم الثامن من شهر يناير. سار معنا بورجيا Bu Regea إلى أول قمة من قمم سلسلة التلال الرملية، ومن فوق هذه القمة شاهدنا منظرًا رائعًا للواحة كلها، شاهدنا النخيل، والبحيرة، والجبال التى كان لونها مثل لون الأسمنت على خلفية ذهبية. قرأنا "الفاتحة" فى صمت على قمة مرتفع حاد؛ بدأنا بعد ذلك، وبعد كثير من التمنيات الطيبة والدعاء بالبركة، سرنا خلال متاهة الكثبان الرملية. وقد استقر المشهد

الصغير فى ذهنى بسبب الخيانة التى كنا نعرف أنها ترتكز عليه فى الليلة السابقة، كان واحد من أسرة الفقرون - بعد أن أكلوا من طعامنا - قال لـيوسف: "والله! لولا أن قوتنا مساوية لقوتكم، لمنعاكم من الرحيل الآن؛" فى الوقت الذى حث فيه الشيخ المذنى المخلص محمد على مغادرة الواحة بأسرع ما يمكن.

وصل جاسوس فى صبيحة يوم رحيلنا، قادماً من ربيانة ليقول: "أن عائلة البزامة Bazama عادت لئوها من جديابا، وهم يقولون لنا إن هناك غرباء قادمين إلى هذه القرية. ونحن لا يمكن أن نصدق أن السيد صرّح لـأى غريب بزيارة الكفرة. وأنا مؤفد للوقوف على هذه الحقيقة." كان الحاج فطاطر، ذلك الإخوانى كبير السن، والذى عقد العزم على مرافقتنا فى رحلتنا، قد حذر عبد الله بما يفيد أن السيد The Sayed يتعين عليه عدم السماح للبزامة بالذهاب إلى ربيانة إلا بعد عودتنا سالمين. ووسط التعقيدات التى أحاطت برحيلنا جرى تجاهل ذلك الإنذار أو التحذير، ولكن بعد تكرار كلام الجاسوس علينا أحسنا فى نهاية المطاف أننا فهمنا الموقف. كان هناك - منذ مغادرتنا إجدابيا - تيار تحتى غريب مفاده أننا كنا عاجزين عن الفهم. استقبلونا استقبالا كريما ووديا، ومع ذلك كانت هناك مساحة من الشك تغلف خطواتنا، فى الوقت الذى كانت تروج فيه الشائعات وتسبق خطونا. كانت هناك شائعة عصابة اللصوص التى تكمن لنا بالقرب من بير رسام Bir Rassam. كان هناك أيضا تغيير الواجهة فى عجيلة. وحتى فى جالو نفسها كان هناك ظل خافت غير سهل، فسره حميدة بك زيتون بقوله: إن بعض الشيوخ جهلة ومن الطراز القديم. ثم جاء بعد ذلك العداء الحقيقى لبسيسة، ومعها كل الشائعات والإنذارات التى أصابت كل المرافقين بنا بالرعب والفرع، لكننا تجاهلناها ولم نعرها اهتماما. وقد تبلور الأمر فى وصول الجاسوس، الذى وفرت لنا حكايته التى رواها لنا، كل الأسباب التى تجعلنا نسلم بأننا سيجرى الهجوم علينا ونحن فى طريقنا إلى الكفرة، نظرا لأن الجاسوس أجرى بعض التحريات الدقيقة عن قوة جماعتنا وعن الحاشية المرافقة لنا.

كان محمد هو الشخص الوحيد الذى فسر لنا ذلك الغموض. قال محمد: إن البازاميين أسرة سنوسية محترمة وعريقة، وإنهم إخوان من قديم الأزل، وإن الذى أرسلهم الى الكفرة هو سيدى بن على، وأن جد البزامة كان واحداً من الأربعة الأساسيين الذين تقرر لهم تنقيف الزوايا فى الدين الإسلامى. وقيل أيضاً إنه حدث فى الماضى نزاع قديم حول امتلاك بعض أراضى ربيانه بين السادة وعضو من أعضاء أسرة البزاميين، لكن السيد أحمد رضا السنوسى سوى هذه المشكلة ودياً بأن جعل البزاميين شيوخاً على ربيانه. ومن سوء الطالع أن هؤلاء البزاميين تحاشوا أو امتنعوا مؤخراً عن دفع ضريبة "العشور" للحكومة، من منطلق أنه ليس لديهم عدد كاف من الخدم كي يقوموا بفلاحة أراضيهيم. كان سيدى إدريس قد أبعدهم مؤخراً عن السلطة وعين محلهم رجلاً آخر. وعليه راحت أسرة البزامة عن بكرة أبيها تبحث عن الثأر والانتقام. وهل هناك فرصة أحسن من قتل ضيوف السيد، وبخاصة أولئك الذين يقومون بمهام سنوسية مهمة؟

بوسعنا الآن جمع الخيوط كلها مع بعضها البعض. وهذا يعنى أننا هيانا للصوص فرصة الطمع، وأن ما حدث فى عجيبة جاء نتيجة لوقاحة زاوى فظ رفض إقامة وليمة للمسافرين، وأرجعنا شائعات الخطر فى بُسِمة إلى توتر خيال المرافقين لنا. واقع الأمر، أننا ربما كنا مدينين باستمرار وجودنا على قيد الحياة، إلى هروبنا التكرى فى المقام الأول، لأن هذا الهرب التكرى هو الذى ضلل إجابيا. ثم بعد ذلك، إلى طلاقة لسان حسانين فى الليلة الأولى التى أمضيها فى خيمة الشيب فى العجيلة، كما يُعزى استمرار وجودنا أيضاً فى جالو إلى ولاء وإخلاص القائمقام؛ ويرجع فى بُسِمة إلى صغر عدد السكان الأمر الذى أنقذنا من الهزيمة؛ لكن ماذا سيحدث لوجودنا فى الكفرة؟ قد يكون للبازاميين تأثير كبير فى الكفرة، وفى الواحات العربية الكبيرة تكون هناك دوماً أحزاب تبلغ بها السعادة حذاً يصعب معه أن تلتصق لنفسها عنراً عن عدم الدخول فى شجار بسبب الأمور



AT BUSEIMA : TEACHING THE FAQRUN FAMILY TO USE FIELD-GLASSES.

فى بسيمه: تعليم اسرة القرون استعمال نظارة الميدان

التافهة. هذا يعنى أن الطابع المقدس للمكان والتشدد الوحشى من جانب السنوسيين كبار السن يمكن أن يهينى لأعدائنا الفرصة لإثارة الشكوك التى قد تتولد عن مجيء غرباء لأول مرة فى تاريخ بلادهم. كان محمد ويوسف مضطربين للغاية، تمنيت مائة مرة لو أنهما لم يقوما بهذه الرحلة الجنوبية! يزداد على ذلك، القصة التى نسج خيوطها البازاميون، وهى القصة الوحيدة التى يمكن أن توحد كل الأحزاب والعائلات ضدنا، والتى مفادها أن سيدى إدريس باع كلا من الكفرة، وربيانة، وبُسيمة للأوروبيين، وأن الغرباء المسيحيين (جرى تقديم بعض الشكاوى بحقى إلى ملكة إيطاليا!) كانوا يقدون بغرض تجميع كل أنواع المعلومات عن البلاد، حتى يمكن لهم بعد ذلك احتلالها بسهولة! وما لم يتم تكذيب تلك الشائعة على وجه السرعة، فإن الأيدى كلها ستكون ضدنا الأمر الذى سيجعل حياتنا لا تساوى معشار درهم واحد!

قدّرنا أن الجاسوس قد يمضى قرابة نصف يوم فى "التسامر" فى بُسيمة، وأنه سوف يستغرق يومًا فى العودة إلى ربيانة. وتوقعنا إنفاق المزيد من الوقت فى تنظيم الهجوم، وعليه كنا نأمل - من خلال سرعة الحركة - الوصول إلى هوارى دون قتال. هذه المسألة لن يكون لها وزن كبير سواء أكنّا منتصرين أم لا، نظرًا لأننا فى حال الانتصار سنكون قد بدأنا صراعًا دمويًا مما يجعل أقارب القتلى، يكمنون لنا عند عودتنا.

من سوء الطالع أن الكثبان الرملية تسببت فى جعل التقدم السريع أمرًا مستحيلًا. تبعثرت الأحمال غير المحزّمة فى كل الاتجاهات. كان لابد من حث الحيوانات على السرعة وبصورة مستمرة خلال الكثبان الرملية. تحتم علينا الدوران حول أكبر الكثبان الرملية وكان مسارنا فى ذلك اليوم متعرجًا وبطيئًا إلى أبعد الحدود. وصلنا إلى ارتفاع ٥٨٠ مترًا، حيث موجات كبيرة من الرمال، وسلاسل من الكثبان الرملية تمتد على كل الجوانب بطريقة غير منتظمة. وصلنا

عند الساعة الثالثة بعد الظهر إلى رقعة شبه مستوية من الأرض ليس فيها سوى كثيب رملي واحد مدبب القمة يصل ارتفاعه إلى ما يقرب من ١٠٠ متر في أبعد أطرافه. تسلقنا ذلك الجانب وشاهدنا منظرًا رائعًا فوق ذلك البحر من الرمال الهائجة المضطربة. كانت قمم بُسيمه الصخرية العالية تبدو لنا غارقة وسط الكثبان الرملية. وظهر في الأفق الغربى تشكيل آخر مربع القمة، داكن اللون مثل القارة التى غادرناها. هذا التشكيل هو جبل ربيانه. بدا هذا الجبل لى وكأنه يبعد عنا مسافة ٦٠ كيلو مترًا. كانت تلال فاضل وهوايش فيما بين زايغن والكفرة تبدو لنا واضحة فى اتجاه الشرق، وكأنها مجرد بقع صغيرة نيلية اللون وسط سلاسل متحركة من الرمال. اضطررنا عند الساعة الخامسة بعد الظهر إلى التخييم نظرًا لأن واحدة من النوق كانت تلد حَمَلُها. مشّت تلك الناقة حتى اللحظة الأخيرة، ثم ظهرت بعد ذلك بساعة وكأنها استعادت عافيتها، لكن المؤسف، أن وليدها كان يحتضر، الأمر الذى أحزن العرب حزنًا شديدًا، نظرًا لأن الإبل هى بمثابة الذهب عند العرب، أما الذهب عندهم فهو البداية والنهاية، كما أن هناك أشياء كثيرة أخرى بين هذه البداية وتلك النهاية!

أضحكنى السودانيان كثيرًا فى تلك الليلة. قال فراج متهللاً " لا تخافى! سندافع عن حياتك. رددت عليهما - وفى ذهني نكريات الرعب الذى أصابهما فى بُسيمة - لا تشغلا أنفسكما بالدفاع عنى. فأنا أستطيع القيام بذلك على أحسن وجه. ركزا على دفاعكما عن أنفسكما!" جاء ذلك بمثابة وجهه نظر انتزعت إجابة أو ردًا حزينًا، لكنى لا أريد القتال بلا سبب. هناك فتاة صغيرة أود أن أتزوجها عندما أعود!"

كان صباح اليوم التاسع من شهر يناير شديد البرودة، الأمر الذى جعل الحاشية المرافقة لنا تتباطأً يأسًا فى تناول وجبتهم. السودانيان يفضّلان الشمس الحارقة على أقل لمسات البرد، التى يمكن أن تؤدى إلى تجمدهما. بدأنا سيرنا عند الساعة الثامنة صباحًا، وأحرزنا تقدمًا كبيرًا عن اليوم السابق، على الرغم من الحقيقة

التي مفادها أن البعير - بعد أن استعاد عافيته تماما - كان لابد من حمله فيما يشبه السلّة الكبيرة على ظهر أمه. كانت الكثبان الرملية مختلفة الاستواء والأحجام. كنا نصادف في بعض الأحيان - ولمسافة كيلو أو كيلو مترين من الرمال المتموجة - تموجًا خفيفًا، ثم نصل بعد ذلك إلى كثبان رملية كبيرة الحجم مثل الجبال الصغيرة، كنا نشاهد من فوقها منظرًا للسلاسل الصخرية الأربع السوداء في اتجاه الشرق، والجنوب والشمال والغرب. وعند الساعة العاشرة صباحًا، تسلقنا قمة سيف البرام Seif el-Biram، التي يقول العرب إنها أعلى نقطة على الطريق. الناس هنا يطلقون عليها اسم "كثيب أوعية النار"، نظرًا لأن نساء الزّوايا، حملن معهن - أثناء هروبهن من الاحتلال التركي - أواني الطهي الفخارية على جمالهن. وعندما كانت الإبل تنزل المنحدرات الوعرة في الكثيب الرملى الضخم سقطت أوعية النار من فوق ظهور الإبل وتكسرت كلها! كررت قافلتنا هذه التجربة إلى حد ما، فقد انهار القسم الأكبر من أمتعتنا، كما انقلبت أيضًا امرأة غربية كانت تسافر معنا - أرملة شاحبة اللون، خلفت وراءها طفلها في بُسِمة لأن أسرة زوجها رفضت إعطاءها ولدها - وكانت تلك الفتاة قد طلبت منا حمايتها إلى أن تصل إلى الكفرة حتى تنضم إلى أهلها هناك، هذه الفتاة انقلبت رأسًا على عقب. ومن حسن حظها أن كان الرمل طريًا وناعمًا! هذا الرمل بدأ لونه يتحول إلى اللون الوردي ونحن نتجه صوب الجنوب، ثم تحول لونه إلى لون المرجان الباهت. ومن سوء الطالع أن ناقة أخرى بدأت تظهر عليها آلام الوضع، بعد أن قطعنا ثمانية وعشرين كيلو مترًا، الأمر الذي اضطرنا إلى التخييم عند الساعة الثالثة بعد الظهر. ومن يمن الطالع أن ذلك المولود لم يكن معتل الصحة، وعليه لم يخيم علينا الحزن الذي تملكنا مساء الليلة السابقة.

جلست مع كل من يوسف وعبد الله عندما كانت تُنصَبُ الخيمة في المكان الفسيح الواسع، المكشوف تمامًا للهجوم، لكن روح الصحراء القدرية، أصابتنا بالإهمال. حكينا لي قصصًا عن سيدى المهدي، الذي يزعم البدو أنه لا يزال حيًا،

وأنه جوال متصوف في الصحراء الكبرى. وأنه سيعود في يوم من الأيام، ليقود السنوسى إلى مزيد من العظمة والقوة "إن شاء الله!" يقولون: إن سيدى المهدي اختفى فجأة في جارو Garu في الطريق إلى واداي Wadai، وأن شخصاً آخر دفن مكانه في المرابط (*) المقدس في الكفرة. وكمثال على استمرار وجود سيدى المهدي على قيد الحياة، كانوا يقتبسون التجربة التي مر بها بعض العرب الجالسين حول نار مخيمهم وسط الكثبان الرملية، في ضوء النجوم. جاءهم غريب وسألهم عن أخبار المهدي. أجابوه "لقد توفي سيدنا؛ هذا هو ما يقوله السادة في الكفرة". "إنه حى". قال الغريب: "هو فى وسط Wasst". وترجم البدو هذا الكلام على أنه يعنى أن سيدى المهدي كان فى مدينة تسمى "وسط" فى الجزائر، وسارعوا عائدين بالخبر إلى الكفاره. تساءل الشيوخ "لماذا لم تقبضوا على الرجل؟" "كان ذلك هو المهدي. إنه حى. لقد قال لكم إنه كان فى وسط"، "بينكم". التلاعب بالكلمات العربية أمر صعب فى اللغة الانجليزية. كلمة "فى وسط" تعنى "بين" فى منتصف، فى حين تعنى كلمة "فى" "in" فى الانجليزية. وكلمة وسط Wasst ربما كانت اسماً لمكان.

كنا فى الليلة السابقة قد خيمنا ونحن نحس بالقلق والخوف. كان كل واحد منا منتبهاً إلى بندقيته. وأذكر أن حسانين وأنا دار بيننا نقاش شرس حول بندقية قديمة، خلفها أحد الجنود وراءه بعد أن تخلى عنا فى جالو، وبذلك قلل عدد جيشنا إلى ثمانية أفراد بالإضافة إلى القومندان والرفيق. واقع الأمر أن السلاح الذى كان يملأ قلوب العرب هو طبنجة حسانين عديمة الجدوى. لقد كانت ماسورتها الطويلة تدخل الرعب فى نفوسهم. وقد بلغنا أن عبد الله قال لواحد من أصدقائه أن احمد بك حسانين لديه مسدس يستطيع أن يصيب الناس الذين يكونون على بعد مسيرة ساعة!

(*) كلمة عامية ليبية، تعنى 'قبر شخص مقدس' إذا ما استخدمت اسماً وتعنى "مقدس" إذا ما استعملت صفة. (المترجم)

كشّرت الصحراء فى الليلة التالية عن أنيابها من جديد- وهذا نوع من التحذير المميت الذى يصيب الإنسان بعدم الاكتراث بالمستقبل- "ما الذى يعنيه أمس الميت، والغد الذى لم يولد بعد، حتى يمكن أن يكون اليوم طيناً؟" واقع الأمر، أن الأيام محيرة للغاية، نظراً لوجود إما شمس حارقة تحرق من خلال البركان القطنى الرقيق الملفوف فوق المنديل، أو ريح قارسة تخترق عظام البشر. قد يوجد الاثنان فى آن واحد فى بعض الأحيان ومن هنا يتجمد جانب من جانبي الرجل ويُسوى الجانب الآخر! من هنا يتشقق جلد الإنسان ويلتهب فى ظل مثل هذه الظروف، لكن كانت هناك ساعة واحدة يستحيل أن أعفو فيها عن الصحراء. تمثلت هذه الساعة، فى اللحظة التى خرجت فيها عند الساعة الخامسة صباحاً وأنا أرتعد من كيس البراغيث العامر بالدفع إلى ظلام أسود سواد القار، ورحت أدوس بقدميَّ على رمل بارد برودة الثلج، ورحت أعبث بإصابعي التى أصابها الخدر، بحثاً عن شمعة وبعض أعواد الثقاب، ورحت أوصل سحب الملابس الباردة المتخشبّة التى يتساقط من كل واحدة منها زخه من الرمل. ونروح فى الوقت نفسه وأسناننا تصطك ببعضها البعض ندعو بصوت عال ونحيى بصوت عال، على الرغم من عدم احتواء ذهن الواحد منا سوى على الهجاء القاسى! ومع ذلك، كانت الليالى طيبة. وفى تلك الليلة بالذات، كان شاكرى Shakri هو القائم بالحراسة، إذ وضع نفسه على خلفيه السماء المضاءة بالنجوم، فوق قمة كثيب رملى، وفى حال ما إذا كان وجوده غير واضح تماماً، كان يروح يعزف أنغاماً صغيرة حزينة على ناي من الخشب.

بدأنا نحرّكنا عند الساعة السادسة والنصف من صباح اليوم العاشر من شهر يناير، بعد تناول إفطارنا المعتاد المكون من نصف طبق من الأرز مع اثنى عشرة ثمرة وكوب من القيوة. وإنه لمن المدهش حقاً أن يعتاد المرء القيام بكثير من العمل اعتماداً على قليل من الطعام. سرنا مدة إحدى عشرة ساعة وربع الساعة،

قطعنا خلالها ٤٤ كيلو متراً في اتجاه طيران الغراب، ولم نتناول عند الظهيرة سوى حفنة من التمر. يزداد على ذلك، أننا عندما كنا نصل إلى المخيم ننشغل برسم الخرائط والتدوين على أن يتم ذلك قبل تناول العشاء.

بدأت أنا وعبد الله التحرك في ذلك اليوم قبل الآخرين، وكنا في المقدمة، نظراً لأن الجو كان شديد البرودة وكانت الشمس لم تشرق بعد فوق الكثبان الرملية. وسرعان ما استوقفنا منظر شيء أبيض كان على بعد مسافة قصيرة منا في الناحية اليسرى. عندما استطلعنا أمر ذلك الشيء الأبيض، ثبت أنه مذكر أليم بقسوة الصحراء التي تجاوزناها قبل أسبوع. اتضح أن ذلك الشيء عبارة عن ثلاثة هياكل عظمية بشرية مَكومة فوق بعضها وشبه مغطاة بالرمل. قال عبد الله ممتعضاً "إنه العطش". لابد أن هذه المأساة كانت قريبة العهد نظراً لأن ملابس الرجال البيضاء كانت لا تزال بحالة طيبة، كما أن جلد الأيدي كان لا يزال أصفر وجافاً. انحنيت المرأة الغريبة حزناً وإشفافاً على تلك الهياكل. قالت: "ثلاثة رجال ضلُّوا طريقهم أثناء سفرهم من ربيانه إلى الكفرة." "لقد عثروا على أمتعتهم لكنهم اختفوا." قال الجنود، إنهم ربما كانوا سوداً، نظراً لوجود كثير من الأحبة السودانية معهم، كان معهم رجل ثعلب، وعظم كامل لطائر من الطيور، لكني لن أسمح للرجال بإزعاج ذلك المنظر المهجور أكثر من ذلك. ومضينا في طريقنا للانضمام إلى القافلة ونحن نقول: "رحمة الله عليهم."

كان البعيران الوليدان محمولين في سلتين، كل منهما على جانب من جانبي أكبر ناقة بين النوق، وكان علينا التوقف بين الحين والآخر كي نجعلهما يتغذيان. قطعنا مسافة كبيرة، نظراً لأن الكثبان الرملية كان انحدارها يقل بصورة متدرجة. بدأنا عند الساعة الثامنة صباحاً ارتقاء آخر المرتفعات الكبيرة ورأينا أمامنا بحراً من الموجات المرجانية المنخفضة نظراً لأن الرمل كان يزداد احمراراً على حمرة مع وجود كتله جبلية سوداء أمامنا. تزايد انفعالنا، عندما استطعنا بفضل النظارات

المكبّرة، متابعة هذه السلسلة من الموجات، التى لا يعترّيبها التقطع فى أى جزء من أجزائها، إلى أن تصبح على مقربة تماماً من موقع قارة^(*) ريبانة. واقع الأمر أن الأفق كله بدا لنا وكأنه محاط بشبه دائرة من التلال البنفسجية غير المنتظمة، والتى تمتد من فاضل Fadil وهوايش إلى الشمال الغربى وإلى الغرب بلا انكسار إلى الموقع الذى توجد فيه الكفرة، وإلى السلسلة الطويلة من جبل نيرى Neri. ومن الخريطة أدرّكنا أننا قدرنا هذه التلال على أنها عبارة عن مجموعات صغيرة منتظمة. هذا المنظر الرائع للأرض المحاطة بصخور غريبة لم يكن متوقّعا على الإطلاق وعلى نحو بدا لنا وكأننا اكتشفنا بلادا جديدة. واعتباراً من هذه النقطة بدت تلك السلاسل وكأنها تمتد على شكل نصف دائرة يمتد من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى. وهنا راح حسانين يقتفى أثر خرائطه الرملية. قال حسانين "ألا ترين أن قارة الهوارى استمرار لجبل نيرى؟" أجبتّه وأنا منفعة انفعلاً شديداً "هذا صحيح، كما أن قارة ريبانة تكاد تكون مقطوعة بعض الشيء عن الطرف الآخر." واصل حسانين كلامه "ألا تعرفين أن جبل الهوايش كان اسمه الحقيقى كيد العدو Keid el Adu، لأن أحداً لم يستطع المرور من خلاله أو عبوره؟" قاطعته قائلة: "لكى يدخل الأرض المطوقة أو المسوّرة." هذه الواحات بطبيعة الحال مرتبطة ببعضها على شكل دائرة، بواسطة التلال السوداء. تيسربو Taiserbo وحدها ليس لها قارة - إنها تقع خارج هذه المجموعة."

وبدأت اعتباراً من هذه اللحظة أنظر إلى بُسِمة، والكفرة، وريبانة على أنها الواحات الجبلية فى ليبيا. قد يأتى الجيولوجيون - فى يوم من الأيام - إلى هذه الأماكن ويثبتون خطأ أو صواب نظريتنا، لكنى أرى أن حدائق النخيل منعزلة وسط الرمال الحمراء، وأن كل حديقة من هذه الحدائق لها جرفها الذى يحميها، مما يجعلها تظل إلى الأبد بمثابة بلد شبيه بالجزيرة، بين أذرع الجبال السوداء الغريبة.

(*) قارة: كلمة ليبية تعنى "التل الصغير" وهى فصيحة. (المترجم)

الاسم 'هوايش' معناه 'الوحش الكبير'؛ وبناء عليه رحت أسأل كلا من يوسف وعبد الله عن هذه الجبال. قالوا: "لا أحد يذهب إلى الهوايش. الجن يسكن هذه المنطقة!" هل حدث أن ذهب أى إنسان إلى جبل نيرى؟" "لا؛ إنهم يخافون هذا الجبل." "ما الذى يخافونه هناك؟" "هم لا يعرفون ذلك الشيء الذى يخافونه." هل رأوا شيئاً معيناً هناك؟" "لا. عندما يقتربون من الجبال يراودهم شعور ما." هل هناك رجال فى تلك الجبال؟" "لا. لا يوجد هناك طعام أو ماء. الناس كانوا يعيشون من قديم الأزل فى ذلك المكان وكانوا يشربون ماء المطر." ربما يكونون لا يزالون موجودين هناك؟" "لا. لا يوجد هناك سوى الجن." ما شكل هؤلاء الناس؟" "لم يرههم أحد." كيف تعرفان أنهم هناك؟" فى فترة الصباح يسمع المرء فى بعض الأحيان ضوضاء عالية كما لو كانت صادرة عن عدد كبير من الطيور." ولم يحدث أن رأى إنسان أى شيء هناك؟" "لقد رأوا عظاماً." أى نوع من العظام؟" "هم لا يعرفون." "إنهم خائفون." وتأكيذا لهذه النقطة قال يوسف إن العظام كانت كبيرة الحجم ورسم صورة فى الرمل تمثل فقرات من شيء شبيه بالإنسان والجمال! وأنا أكرر هذه العبارة لكى أوضح مدى صعوبة الحصول على معلومات من العربى الليبى!.

الفصل التاسع

الخيانة فى هوارى

خلفنا وراءنا عصرًا الكثبان الرملية ودخلنا أرضا منبسطة، منطقة متحدرة فيها بداية موجات رملية بها صخور وعرة أرجوانية اللون، تشكل جزءا من جبل نيرى يمتد جنوبًا على شكل كتلة غير منتظمة من القمم والسلاسل الجبلية مربعة القمم ولها امتدادات داكنة من الأحجار تتخللها صخور بركانية. فى هذه المنطقة كان لون الرمل شبيهاً بلون الطوب المحروق، وكانت تتخلله بين الحين والآخر خطوط حمراء لها حمرة الورد، ويقع سبعة من الأحجار مختلفة الألوان، شبيهة بتلك الأحجار التي جمعتها من بُسيمة. كانت بعض أجزاء الأرض شبيهة بالمنمنمات الزرقاء والبنفسجية والحمراء. ولما كنا نتطلع إلى الوصول إلى هوارى مع صبيحة اليوم التالى، فقد وصلت القافلة تحركها السريع طوال فترة غروب الشمس، إلى أن تحول لون الأرض إلى لون بنى داكن، وبدأت القمم الصخرية الحادة تمزق السماء البرتقالية اللون بقممها البنفسجية الداكنة. برّكنا إيلنا تحت أول موجة كبيرة من الرمال المستديرة، ومن هذه المنطقة تمكنا من رؤية قارة هوارى المظلمة- التي تعد استمراراً لجبل نيرى- وفى الوقت الذى حققنا فيه نجاحاً، كانت بقية الحاشية يملكها نوع جميل من الرعب!

كان أفراد القافلة قد بلغهم أن رجلاً ترك قافلة البازاما Bazama فى الهراش وذهب إلى الكفرة. ألمح عبد الله، أن هذا الرجل يمكن أن ينشر كل أنواع التشهير والتجريح عنا، وهنا امتنع وجه عبد الرحيم وطغى شحوبه على لونه الأبنوسى! والمحزن هو أن محمد كان قد فقد أعصابه تماماً إلى حد أنه هو الآخر أصيب بالرعب والفرع. من الواضح أن محمد قد تغير كثيراً خلال الأسبوع الماضى. هذا يعنى أن محمداً لم يعد ينظر بعد إلى الدنيا بنظرته الصبيانية

الصريحة القديمة. تردد الرجل ووهنت عزيمته. لقد توقف عن الغناء أو الضحك في هذه الأيام. وأنا أرى أن محمداً كان بحق الرجل الوحيد الخيالي والحساس من بين أفراد القافلة، ومن هنا يصبح هو وحده الذى استحضر رؤى الموت عطشاً. يزداد على ذلك أن تفاخره المتحفظ جرح جرحاً عميقاً بفعل الموقف من بُسِمة، على الرغم من عدم اعترافه مطلقاً بذلك الموقف. فمن سوء الطالع أنه شاهد تلك الهياكل العظمية، واستخدم خياله الخصب فى استنتاج التفاصيل وعمل المقارنات. وقد أكمل ذلك إنهياره وضعفه الصحى. ومن هنا انضم محمد إلى كل من المرشد والجنود عندما راحوا يرجوننا تجاوز هوارى أثناء الليل، ثم الوصول إلى الكفرة قبل طلوع الفجر، وبذلك نكون قد تمكنا - عندما يصحو الناس فى تاج - من الاستقرار فى واحد من منازل السيد Saycd، وبذلك نكون فى حوزة دفاع مسلح. تناقشنا وتجادلنا دون جدوى. كان الجميع قد تنبؤوا بهجوم منظم علينا فى اللحظة التى ستقع فيها أنظار أهل هوارى علينا. وإنصافاً ليوسف، أقول: إنه كان الشخص الوحيد الذى قال إن ذلك كله هراء. قال: "قد يكون هناك لصوص، لكن كيف لجؤلاء اللصوص بالهجوم على عبيد السيد؟" وبذلك نكون قد اكتشفنا فى يوسف حليفاً غير منتظر، ومن هنا حاولنا أثناء جلوسنا حول نار المخيم، بث قليل من الشجاعة فى أفراد القافلة، مع الإصرار فى الوقت نفسه على البقاء فى هوارى.

كان اليوم بالغ الحرارة، وكانت أقدامنا قد تفتقت من جديد، وربما يكون ذلك قد حدث بفعل الاكتئاب الذهني. كان يوسف بمثابة البارومتر الرئيسى الذى يمكن الاعتماد عليه. وعندما تخلى الرجل عن معطفه المبطن بفراء الخروف، وعندما واصل سيره فى ثوبه الأبيض المهيف، واضعاً طاقينه على رأسه، مثلما فعل فى عصر ذلك اليوم، عرفنا أن الجو لابد أن يكون شديد الحرارة. لم يحدث قط أن رأيت محمد يسير دون أن يكون معه لفاحه المصنوع من الصوف، وقد لفته عند الجزء العلوى من معطفه الممزق الذى لا يسمح بتسرب الماء.

شاهدت الشمس في اليوم الحادى عشر من شهر يناير، وهى تشرق من فوق قمة كثيب رملى كبير وفر الحماية للنائمين. وراح لون الرمل الكثيب يتحول ببطء إلى اللون الوردى عندما بدأت قمم جبل نيرى أرجوانية اللون تظهر على شكل كتل منخفضة غير منتظمة فى اتجاه الجنوب، فى حين ظهرت إلى الشرق من هذه القمم، صخرة قارة هوارى الوحيدة السوداء. بدت تلك الصخرة وكأنها تبعد عنا مسيرة يوم واحد فى أحسن الأحوال. قال عبد الله، أننا يتعين علينا الوصول إليها عند الظهور. وبينما يممنا سيرنا صوب هذه الصخرة حاولت استخلاص المزيد من الحكايات عن الجبل الجذب الذى على يميننا، نظراً لأنى كنت مفتونة بوصف الأصوات التى تسمع فى ذلك المكان، "ضوضاء طيور". يقول هورنمان Hornemann، وهو، يتكلم عن واحة تيبو Tebu: إن أهل عجيلة يصفون كلام سكان هذه الواحة على أنه "شبيه بصوت الطيور". والعجيب بحق، أن المرأة التيبية Tebu التى التقيتها، كانت تصدر عنها أصوات حلوة عالية الوقع، تبدو كما لو كان تغريداً شبيهاً بتغريد الطيور. وهنا وجدت موراجا هو وعبد الحافظ يتطوعان بإعطائى معلومة مفادها أن "آثار أقدام" شوهدت على مقربة من الجبل الذى يسكنه الجن. سألتهما "آثار أقدام ماذا؟" أجابا "حسن، هى آثار الزواحف والثعابين!" جاء التضاد لم أطق أن يتحول الجن أو وحش ما قبل التاريخ إلى حية أو ثعبان!

تجاوزنا الرمال الوردية بعد ساعتين ودخلنا سلسلة صخرية جرداء، وتلالاً صغيرة على الحدود الخارجية للجبال. كانت الألوان غير عادية بالمرّة. كانت تصادفنا بين الحين والآخر ضفاف قرمزية اللون فيما بين مساحات من الحجر الأسود السائب، الذى تتخلله هنا وهناك كتل رمادية اللون، وكتل وردية اللون، وأيضاً كتل بنفسجية اللون عند سفوح القمم الصخرية الأصغر حجماً. كان لون الرمل المحيط بنا أحمر يميل إلى اللون الطحىنى أو البنى الفاتح، وبدأت الأحجار تزداد كثافة على كثافتها، وعثرنا أيضاً على أنابيب غريبة جوفاء، وكرات جوفاء

أيضاً ثقيلة وسوداء، لكنها كانت مملوءة بالرمل. كان طول أصغر هذه الأنابيب يصل إلى حوالى بوصة واحدة أما أكبر الكرات فكان عرضها يزيد على قدم واحدة. انشرح صدر السود لهذه اللعب الجديدة وراحوا يكسرون الكرات الصلبة لكي يشاهدوا الرمل وهو ينساب منها، وراحوا بعد ذلك يستخدمون تلك الكرات أكواباً وشمعدانات. أنا لم أر هذا التكوين من قبل مطلقاً ولا أعرف ماهيته. تجاوزنا قارة هوارى عند الظهر. هذه القارة لا تبدو متميزة عن بقية جبل نيرى، لأنها ليست سوى قمة صخرية واحدة من بين قمم كثيرة أخرى محيطة بها، لكن بعدها بباردات قليلة، بدأت السلاسل الحجرية هي والرمل أحمر اللون تتدرج فى الارتفاع على نحو يسمح للرائى بمشاهدة شئ شبيه بحافة تلك السلاسل وذلك الرمل فى وسط من الرمل شاحب اللون، يقع إلى الخلف من تلك السلاسل. هنا نجد السراب، عدونا القديم، يهيمن على هذه المنطقة، ولذلك صُغِبَ علينا فى البداية تمييز الزائف عن الحقيقى. كانت تلال قارة الكفرة أرجوانية اللون، تلوح لنا عند الأفق البعيد. كانت الواحة الرائعة الغامضة، التى كانت تبدو لنا قريبة، لكنها ليست فى متناولنا، تقع فى مكان ما خلف هذه القمم والمنحدرات الصخرية. كذا، حتى تلك اللحظة، ننظر إلى هوارى باعتبارها جزءاً من الكفرة، لكن يوسف أشار فرحاً بإصبعه إلى موجة رملية شاحبة، تسبق التلال البعيدة من الأمام، وقال متسائلاً: "هل ترين الرمل الأبيض؟ قبل أن نصل إلى ذلك الرمل - أى تحته مباشرة - يوجد نخيل هوارى، لكن الكفرة 'بعيدة' (*) أى أنها خلف الجبل."

مضياً طوال ساعتين متلكئين عبر بلاد غير مستوية السطح، تتخللها مناطق قليلة ورواب من الأحجار، وفيها أيضاً المزيد والمزيد من النقاط التى تمنى النفس دون أن تحقق الأمانى، والتى كانت تتبدى لنا فى اتجاه الجنوب، مما جعلنا نتساءل

(*) استعملت المؤلف الكلمة العربية 'بعيد' ودونتها بحروف رومانيه bayid. (المترجم)

ما إذا كانت تلك الجبال ستنتهى أم لا. الناس فى الصحراء لا ينتظرون بعضهم بعضاً. هذا يعنى أن كل واحد يمشى بطريقته وخطوه المفضل. وأنت إذا لم تستطع مسابرة ذلك، فسوف تتخلف، ولن يتوقف رفيقك ليسألك عن سبب تأخرك. وإذا ما توقفت لنفض الرمل عن حذائك، فلن يتوقف معك رفيقك. لأن هذا كله لا يتفق مع العرف السائد فى الصحراء اللهم إلا إذا أصابك المرض. والبدو يتحدثون دوماً عن المسارات الطويلة الخالية من الماء على أنها "الطرق التى لا نتوقف فيها من أجل رجل توافيه المنية. نحن نتوقف ساعة واحدة من أجل جمل من الجمال، ونتوقف ساعتين من أجل عربى، ثم نتركهما بعد ذلك!"

وفى نهاية المطاف هبت علينا موجة عاتية من الرمال أقوى من كل الموجات التى هبت علينا من قبل، مكنتنا من رؤية هوارى رؤية شديدة الوضوح، إذ كانت على شكل طريق طويل ضيق من النخيل يمتد مسافة ١٢ كيلو متراً فى اتجاه الشمال والجنوب، وفيه مجموعتان صغيرتان منعزلتان من النخيل عند الطرف الجنوبى. ومن حول هذا الشريط يوجد حزام من الرمل شديد الاحمرار، مقسم إلى آلاف من الروابى الصغيرة، عامرة "بالحطب" (*)، تلك العصى الجافة الصغيرة التى سبق أن رأيناها من قبل. وهنا بدأت ناقة ثالثة تكشف عن أعراض الولادة، لكننا خلفناها ومعها عبد الحافظ، وواصلنا المسير، وتمكنا من دخول الواحة عند الساعة الثالثة بعد الظهر.

كان النخيل المنخفض السميك ذو المجموعات الخضرية يبدو رمادياً تقريباً على خلفيه رمال تشبه الزهور المنثورة. كانت هناك قلة قليلة من النخيل الطويل، ولذلك كان من السهل قطع سباطات كبيرة من البلح أصفر اللون، شديد الحلاوة وله طعم عسل النحل. لم أكن معجبة تماماً بذلك النوع من البلح. بدأ الرعب يترك

(*) استعملت المولفة الكلمة العربية "حطب" hattab. (المترجم)

المراقبين لنا، وخاصة عندما سألتنا مجموعة السود - التى تجاوزناها عندما كانت تجنى البلح وسط دائرة مشهودة من الماعز والنساء اللاتى يرتدين ملابس زرقاء اللون - "أين القافلة التى فيها مسيحي؟ لقد أرسل لنا البازاما أخبار هذه القافلة".

توجهنا مباشرة عبر الطرف الجنوبي للواحة، قاصدين حدائق النخيل المملوكة للسيد Sayed، والتى كانت بحالة ممتازة ومحاطة بأسوار من زعف النخيل، وفيها أبار كثيرة، وصفوف من النخيل الذى جرت زراعته مؤخراً، ورفع متواصلة من الأرض المزروعة بالنعشرووات، شديدة الخضرة وسط الرمال الرتيبة الحمراء حمرة الطوب الأحمر. كان عبيد السيد السنوسى يسكنون هذا الجزء كلب من الواحة، ورأينا أعداداً من السود، رجالاً، ونساءً وأطفالاً، كانوا جميعاً يعملون فى الحدائق أو يقودون حميراً صغيرة لونها رمادى شاحب محملة بالتمور والبلح. خيمنا على حافة القرية وألمت بعبد الرحيم نوبة عندما رأى أتجول مبتعدة عن المكان كى أقوم بتصوير المنازل، ذات اللون الأبيض اللامع والمبنية فى المسافات فيما بين النخيل. جرى عبد الرحيم خلفى وهو يكاد يموت رعباً وفرغاً. وهنا بدأت الحالة العامة للأعصاب تسبب الكثير من القلق.

منازل الهوارى تكاد تكون شبيهة بالبنائيات الأوروبية. وهذه المنازل جيدة الإنشاء ومبنية من الطوب الرملى على شكل صفوف منتظمة؛ وأسقف هذه المنازل مربعة الشكل، صلبه ومسطحه، ولها نوافذ، لكن عدداً كبيراً من الأحواش لها جدران منخفضة تماماً، وكلها مرتبة وواسعة. وما أن انتهينا من نصب الخيمة حتى جاءنا موسى سكويرين، شيخ الزاوية ليسألنا عن مقصدنا ومبتغانا. وسرعان ما جاء بعده كبار رؤساء الزاوية ومن بينهم موسى غاريل ومنصور بوبدر وهو من الجبيل Gebail. وفى الحال أصبحت هناك دائرة مكونة من اثني عشر رجلاً كانوا يتحلّقون حول الزريبة التى أقمناها على وجه السرعة، فى الوقت الذى سارع فيه عمر - تابع محمد الأمين - إلى عمل القيوة. كان القليلون مهتمين فى بداية

الأمر، وكنا نحن بدورنا نتساءل عما إذا كان ذلك ناجماً عن وصولنا إلى الهواري، إلى أن ظهر لنا أن رجلاً عقد صفقة لشراء العبيد من قافلة وادى قبل ذلك بأيام قلائل. ودفع ٤٠٠ مجيدي (حوالي ٧٠ جنيهًا إنجليزيًا) ثمنًا لرجل وامرأتين، وإن الرجل أصبح يعاني من مرض شديد في الوقت الحالي. قال الرجل وهو حزين "لقد كانت صفقة خاسرة". وكرر الجميع هذه الجملة نفسها. "أوامر السيد على رؤوسنا" وأردف قائلاً إن زيارتنا تلقى ترحيباً كبيراً. "محبينكم بركة لنا. بارك الله في سادتنا وبارك في كل من يأتون إلينا من طرفهم!" ومع ذلك، أطلق عبد الرحيم في تلك الليلة شائعة مفادها أننا كنا مسجونين ولن يسمح لنا بالتحرك إلا بعد أن يصل من الكفرة تصريح لنا بذلك.

كنا قد بلغنا من النعاس حدًا يمنعنا من تحري صدق هذا الأمر، لكن وصلتنا في صبيحة اليوم التالي هدايا من اللبن المحمض ومن الحليب، مع دجاجتين، وبناء عليه خطر على بالنا خاطر مفاده أنه من المحتمل أن رجال الزاوية وهم يقدمون فروض الطاعة والولاء لضيوف السيد السنوسي، كانوا حريصين على إستجلاء أن الغرباء يصعب عليهم اختراق حدودهم المؤمنة تأمينًا جيدًا. توسل كل من يوسف ومحمد إلينا بعدم التحرك من المخيم، الذي نصبوه في مكان غير محمى، شديد الحرارة، وعامر بالذباب وذلك من باب تحاشي واتقاء شر اللصوص الموجودين في بيارات النخيل. قال يوسف ومحمد "انتظري إلى أن يجيء الكبار للقائنا. وبعدها يمكن السير بسلام." كان ذلك مجرد عذر، لأن الهواري هي مجرد قرية صغيرة تعاني الكثير بسبب قربها من المركز الرئيسي. هذا يعني أن حياة قرية هواري بكاملها تعتمد على البلدة الواقعة خلف الجبال. المشايخ الكبار، هم والأخوان يعيشون في كل من الجوف jof وتاج Taj. والمرء لا يتوقع العثور على وزراء للتاج في كل من كلاهما وتوتج. من هنا نجد الناس في هواري يقولون: "لا يوجد أى شيء هنا. الأشياء كلها تأتي من الكفرة." كان كبير مشايخ المكان بوشناف Bush Naf في الجوف في تلك اللحظة. من هنا كنا قد أرسلنا عبد الله ليبلغ عن قدومنا ويقدم أوراق اعتمادنا إلى وكيل سيدى إدريس، وليقوم بتجهيز منزل لنا في تاج.

أفرطنا فى صباح ذلك اليوم فى أكل البيض والتمر، والخبز الطازج المخمور - أوه، لكن مذاقه لذيذ- كما شربنا أيضا لبن الماعز. بعد ذلك، وبينما كان حسانين مسترخيا- لاستيعاب روح الصحراء على حد تعبيره- خبأت آلة التصوير فى طيات شال البركان، وسرت بشرتى البيضاء وخرجت لاستطلاع البلدة. كان العريف هو وفراج الكبير قد عرضا على مراقبتهما لى، لكنهما لم يحسا بالسعادة إلا بعد أن فهما أنى لا استرعى اهتماما كبيرا. شاهدنا حدائق كثيرة مرتبة ترتيبا جيدا إذ كانت تزرع فيها الخضراوات والخوخ والشعير والتين الشوكى. كان فى كل حديقة من هذه الحدائق سودانى واحد أو سودانيان يقومان بتشغيل الآبار البدائية، بمساعدة الحمير الرمادية الصغيرة بدية اللون، وهى أنظف الأشياء التى شاهدتها فى ليبيا. تجولنا فى القرية كلها، ولم نصادف أية معارضة، ولم يكن فى القرية شىء يمكن تصويره إلا النذر القليل. كانت المنازل الكبيرة المربعة بأحواشها المعقدة، ومبانيها الإضافية، مبعثرة هنا وهناك بين النخيل أو على مساحات الرمال الواسعة الجرداء. لم تكن فى القرية شوارع أو ممرات ملتوية كما هو الحال فى كل من جالو وعجيلة. كان هناك جامع صغير عديم القيمة، وبناية مربعة منخفضة مربعة الشكل، ولها صف من النوافذ، وزاوية صغيرة أنشأها سيدى المهدي العظيم، ولها قبة^(*)، شبيهة بمعلف الحصان، ولها حجر عمودى عند كل طرف من طرفيها (كانت من قبل منذنة للزاوية)، كل ذلك كان يشكل مجموعة واحدة فى طرف من أطراف هذه القرية. تسلقنا كثيلا من تلك الكتبان الرملية قرمزية اللون، شبه المغطاة بشجيرات ريشية رمادية اللون سبق أن التقيناها من قبل، وذلك حتى نتمكن من الحصول على مجال أفضل للصورة، لكن المنازل المبعثرة كانت على بعد مسافة كبيرة.

مررنا أثناء عودتنا على بنايه أو بنايتين لها روقان من الطوب اللبن، وكنا نرى عقديهما فوق جدران فئاتيتهما. خرجت بعض النساء وجئن يتكلمن معى بأصوات عالية وواضحة. كانت تلك النساء غير محجبات، وممشوقات القوام،

(*) استخدمت المؤلفة هنا الكلمة العربية "قبة" qubba

ويرتدين ثياباً لونها أحمر غامق، وغير مُحزّمات ولذلك كن يشكّلن مجموعة جذابة من تحت شجرة شوكية كبيرة بين جدران رملية عالية. كان كل ما يسألن عنه هو الدواء، وعندما عدت إلى خيمتى التى ملأها الذباب كانت هناك مجموعة قد بدأت بصورة متدرجة حول الخيمة وكل واحدة منهن تشكو من ألم مختلف. دخلت أكبر واحدة منهن إلى خيمتى وجلست وهى قلقة على سربرى الذى يُفرد وينطوى، ثم خرجت شاكرة بعد ذلك عائدة إلى وضعها ومكانها المعتاد على الرمل. كان علاجى لتلك النساء بسيطاً، يتكون أصلاً من حمض البوريك والكنين، لكن النساء اللاتى حصلن على ذلك الدواء ربطن هذه الأقراص ربطاً محكمًا على أطراف شيلانهن barracans، ورحلن وهن يدعون لى بالبركة.

وفجأة حجب وميض الرؤية عن المنطقة الواقعة خلف باب خيمتى. كان أصغر الحمير رمادية اللون، والذى كان شبه مغطى بحصير كبير من اللونين الأحمر والأزرق، والذى كان لا يزال مغطى ومحملاً بمنسوجات شكل متهدل صغير يرتدى ثوباً قرمزيًا لم أراه فى حياتى، ويقوده صبى صغير يرتدى قميصاً أبيض مهلهلاً، فى حين راح صبى آخر يضرب ذلك الحمار من الخلف. وأعلن أحد الفراجين أن "والدة الشيخ موسى جاءت لزيارتنا". انفكت تلك الثنيات ودخلت خيمتنا وتكومت على شكل كومة حمراء على الرمل، ومن بين هذه الثنيات ظهرت كبرى النساء سنًا من بين النساء العربيات اللاتى رأيتهن، وأضعفن بنيانًا. كانت المرأة منحنية الظهر ومتجعدة الوجه بشكل لا يصدق، وبلا أسنان، وشبه عمياء، ومع ذلك كان حديثها شيقًا عن السّادة، وأهدتنى فى نهاية المطاف مسبة إسلاميه مباركة من سيدى المهدي.

ونظرًا لشدة الحرارة فقد سعدت جدًا عندما وصلت الزيارة إلى نهايتها، وثمانيت لو أننا أجلسنا رحيلنا إلى وقت العصر بدلاً من صبيحة اليوم التالى. اقترح حسانين علينا التجوال فى الناحية الأخرى من الواحة حيث توجد قرية صغيرة

أخرى، هوارى. استعرنا حماراً من شيخ الزاوية، الذى أبلغنا أنه يخشى قتلنا قبل خروجنا من البلاد، ونادى مرشداً ليدلنا على الطريق. فى هذه اللحظة كان هناك حوالى ستة من الزوايين جالسين فى زربيتنا، لكن أحداً لم يتحرك. وهنا بدأت أتفهم المعاناة التى لقيها رولفز عندما بدأت أطيل النظر إلى وجوه هؤلاء العرب القاسية المصابة بالأنيميا. قد يكونون شجعاناً، لكنهم ليست لهم نظرات المحارب البدوى شديد البأس صحيح أن لهم عيوناً صغيرة مأكرة زائغة وكثيرة الحركة، ووجوهاً طويلة وضيقة، وشفاهاً رقيقة، وتجهماً يبعث على الضيق بين الحاجبين. ويُعرف الزوايون بأنهم قبيلة سينة وأنه لا يمكن الوثوق بهم مطلقاً وإلى أبعد الحدود. وعندما قدّمنا لهم رشوة من الشاي والسكر نهض واحد منهم لمرافقتنا، لكن لم يوافق أحد من الجنود على المجيء معنا. اختبأ كل من موراجا وعبد الرحيم فى خيمتهما وقال يوسف إنه مصاب بالعرج. وكنا على وشك الانصراف وحدنا عندما هب محمد واقفاً وأمسك ببندقيته. قال متعجباً "إنهما نسران! ولن أكون أقل منهما شجاعة." بعد أن سرنا حوالى مائة باردة سمعنا وقع خطوات خلفنا على الرمل، ورأينا فراجا الكبير، الذى أصبح بمثابة عبدنا الشخصى، ومعه العريف ينضممان إلينا فى هدوء.

لكن تقدّمنا سرعان ما وصل إلى ما يشبه التوقف بفعل مجموعة من الشبان والصبية الذين اندفعوا يجرون أمامنا بطريقة وحشية. راحوا يصيحون قائلين: "لا تمشوا! لا تمشوا!" وراحوا يسيرون إلى مجموعة كبيرة من العرب الذين يرتدون ملابس بيضاء ويجرون فى اتجاهنا. عدنا للقاء هؤلاء الرجال. قال محمد: "بإله عليك لا تذهبي! هنا أمر سيئ ينتظرنا. أنا لا أعرف كنهه. هيا بنا نعد إلى المخيم!" لكنه اضطر فى النهاية أن يتبعنى. كان العرب جميعهم مسلحين وكانوا جميعاً يبدو عليهم الغضب الشديد، لأنهم كانوا يتحدثون بصوت عال. اعتدت حمل مسدساتى

دوماً تحت حزامي. وأفلحت في إخراج تلك المسدسات لتكون تحت ثنيات شالي، ورحت أتعجب وأنا في منتهى السعادة من عدد الطلقات التي يمكن لى الحصول عليها. تظاهر العريف بأنه منشغل بالحمار، لكن وصل إلينا فرّاجنا وكان شاهراً بندقيته. أحاط بنا الزاويون، مجموعة من البشر الهمجيين الذين كانوا يهددوننا. صاحوا قائلين: "لن تتحركوا من هنا إلا بعد وصول أوامر من الجوف بذلك!" وفجأة راح حسائين يعرب عن خاطر من خواطره "لقد سبق أن خذرونا منكم. ونحن نعرف ذلك جيداً. لن نسمح للغرباء بالمجيء إلى بلادنا. إنهم يموتون هنا على وجه السرعة!" قال حسائين معبراً عن غضبه: "أتريدون إثبات أنكم شجعان وأنكم ستدافعون عن بلادكم حتى الرmq الأخير، لكن يتعين عليكم أن تتصرفوا هذا التصرف مع الغرباء، وليس مع ضيوف السيد السنوسى "وقعوا فى حيرة كانوا ينتظرون منا أن يملكنا الخوف والفرع. وبدلاً من ذلك زاد غضبنا على غضبهم. وأنت إذا ما استطعت جعل العربى يتكلم فإنه غالباً ما ينسى إشعال النار.

بينما كنا نتجادل بصوت عال، كنا نتجه صوب المخيم، الذى انعقد فيه "مجلس" كبير بعد وصولنا إليه، وجلس أفراد ذلك المجلس خارج خيمتنا. انضم بعض التيبين إلى الزاويين. كان التيبين شديدي السواد مثل العبيد السودانيين، لكن وجوههم كانت تدل على الذكاء والفتنة. السواد الأعظم من التيبين لا يتكلمون العربية، لكن رئيسهم شرح لهم الموقف واندھشنا عندما وجدناهم ينضمون إلى جانبنا. قالوا: نحن نرحب بضيوف السيد السنوسى فى بلادنا." وهنا زاد غضب الزاويين بزعامة بوبدر، أكثر من ذى قبل. تساءلوا: لماذا لا يأتى مراسل من الجوف؟" لقد غادر سيدى عبد الله ليلة أمس ووعد بإرسال بعض الأخبار والمعلومات. وقد أبلغناه بأنهم يجب ألا تغادروا المكان إلا بعد وصول إذن بذلك".

رحنا ننظر إلى بعضنا البعض بطريقة بلهاء. لم نكن قد طلبنا من المرشد إرسال مراسل، فضلاً عن أنه لم ينطق لنا بكلمة واحدة حول هذا الأمر، أو حتى عن تهديد أفراد قبيلته لنا. قلت وأنا ممتعضة "إنها مؤامرة". وغمغم حسانين قائلاً: "نعم، إنها مؤامرة، لكن أين - ولماذا؟" وينحنى محمد إلى الأمام إشارة إلى الانتصار. لمعت عيناه، وكان صوته قوياً. وأنا أعتقد أن محمداً في هذه اللحظة استعاد احترامه لنفسه واستعدنا نحن أيضاً حليفنا. صاح محمد قائلاً: "أنا أفهم ذلك كله. والله! لن يرتاح بالي إلا بعد تصفية حسابي مع عبد الله الذي خذلنا وباغنا. وأنتم يا أهل هوارى، أغبياء، وقد أهنتم ضيوف السيد سنوسى لأنكم تشبهون المرأة الحمقاء السوقية التى تشتري ذلك الذى يعرض عليها فى المرة الأولى!" وهمس فى أذن أحمد حسانين باللغة العربية وعلى نحو سريع لم أتمكن معه من فهم ذلك الذى قاله له. صاح الآخر بصوت أعلى من الأصوات الغاضبة "يا الله عليكم، اسمعوا وصدقوا، لأنى أقول الحقيقة!" وهنا توقف الشيخ زروق، شيخ الهوايج عن التعجب من أنه إذا لم يجرى مراسل من الجوف فى الصباح فإن الزاويين سيعرفون أننا خدعناهم وإن ذلك سيكون أمراً صعباً علينا. واصل حسانين كلامه "أنتم هنا لا تحصلون على الأخبار، وتصدقون أول من يجرى إليكم". "لقد قال لكم عبد الله إنكم يجب أن تثبتوا للغرباء أنكم شجعان وأقوياء مخافة أن يظن الناس أن بوسعهم دخول بلادكم بسهولة ويسر. أليس هذا صحيحاً؟" أقروا بصدق الكلام على مضض، بل إن البعض منهم كان يفتعل الابتسام، وهو يقول: إن ذلك هو واقع الحال. وهنا خطر على بالهم الفكرة التى غيرت ذلك التلاعب الذى يرمى إلى إحداث انطباع لدى الغرباء عن ذلك الواقع المرير. "أن عبد الله سيرسل مراسلاً إذا ما وافق الأخوان على رسالتكم وعلى استقبالهم لكم. المسافة قصيرة لكن أحداً لم يصل بعد".

اختفت وتلاشت الابتسامات بعد هذه الكلمات وازدادت الوجوه الشاحبة القاسية مكرًا على مكرها وشكًا على شكها. تجمع التيبون من خلفنا. قد تكون معركة جيدة، وهنا خطر ببالي وتساءلت فيما بينى وبين نفسى عما إذا كانت البنادق الزاوية من النوع الحديث أم لا. القتال عملية مثيرة دوماً وليست شبيهةً بذلك اليوم المخيف القاسى من العطش الذى عجز فيه الإنسان عن مقاتله الطبيعة! قال حساين منتصرًا "لم يأت مراسل بالفعل. ولن يأتى أحد مطلقًا. لقد خُدعتم، وخُدعنا نحن أيضًا معكم. كنتم ستمنعوننا غذا من السفر. وكانت ستحدث معركة. أنتم شجعان ولكن عبيد السيد السنوسى شجعان أيضًا. وربما يُقتل ضيوفه ويُقذَّ عبد الله. هل تعرفون سبب ذلك؟" وتلا ذلك سرد قصة المرشد الذى فقد صوابه وخسر سمعته فى ذات الوقت وهنا رحت أركز فجأة على مؤامرة عبد الله الصغيرة. إذا لم يعد أحد من القافلة إلى جدابيا، وإذا لم يظهر الغربيان، اللذان يعدان الشاهدين الرئيسيين عليه، فذلك يعنى نجاة عبد الله. لقد كان يعرف حق المعرفة أن أحدًا لن يستخدمه مرشدًا بعد الخطأ الذى ارتكبه فى تيسربو وانفضاح أمر ذلك الخطأ. هذا يعنى أن مستقبل عبد الله يعتمد على إغلاقنا لأفواهنا. هذا يعنى أيضًا أن أحسن فرص عبد الله تنهياً له بين أهله وأقاربه من الزاويين المتشككين، الذين لا يتقون دوماً بالغرباء، وهم متشددون ومحبون للحرب والقتال، ومع ذلك فإن القافلة لن يمكن الهجوم عليها طالما كان هو معها. ومن ثم اقترح عبد الله علينا تمهيد الطريق أمامنا فى تاج. وعندما وافقناه على ذلك، أصبح من السهل عليه إثارة كبرياء وشكوك الزاويين فى هوارى. "اكشفوا عن شجاعتكم بعدم السماح لأولئك الغرباء المتشككين بعبور حدود أرضكم. إذا صدقت قصتهم ووافق شيوخ الجوف على استقبالهم، سوف أرسل لكم مراسلاً". لم تكن لديه نية مطلقًا فى إرسال أى أحد لينقذنا من العداء المتزايد فى هوارى، وقدّر أيضًا أنه فى غضون يوم أو يومين سوف يتعين علينا القيام بمحاولة الهرب وبالتالي يجرى فتح النار علينا. وهنا سوف

يضطر السود إلى الدفاع عنا، وبذلك تدفن وتخفى قصه فشل عبد الله، مع القتل
إثر انتهاء المجزرة العامة.

بعد أن كشف محمد تلك المؤامرة، ارتفع حسانين إلى مستوى المناسبة.
وراحت كلماته تتدفق حاملة معها بلاغة الذهن البدوي، وعندما غاصت الأذهان في
نهر الكلام أخرج محمد رسالة سيدى إدريس. "هل تنتظرون أوامر من الجوف في
الوقت الذى أرسلنا فيه سيدكم إلى هنا؟ هل هذه هى اللعنة والإهانة التى توجهونها
إليه فى الوقت الذى يثق فيه بكم، فى مساعدتكم لضيوفه؟" قلت ذلك فترة من
الصمت غير المريح. لم تجرؤ الأعين الزائغة على النظر إلى عيوننا. وهنا راح
الشيخ سعد، فقيه البلدة - الذى كان يلعب دور المتحدث الرسمى ضدنا - يتمم
ببعض الكلمات غير المفهومة. وهنا قام منصور بوبدر بطلب شاه على وجه
السرعة. وبدأت الجماعة فى الانقسام إلى ثنائيات وثلاثيات. وبدأت جماعة تتشكل
لصالحنا. وهنا تعجب موسى غاريبيل، "ما يقوله هو الحق. لقد أخطأنا". تواصل
الجدل بعد ذلك مدة ساعة على الأقل، على الجوانب كلها، لكننا تجاهلنا كل ذلك
الجدل ورحنا نرتب فى خيمتنا فى صمت مع محمد انتقاماً لما جرى لنا. سعدت جداً
عندما أمسك محمد بناصية الأمور من جديد. "والله" كررها خمس مرات متتالية. "لن
أرى زوجتى مطلقاً مرة ثانية إذا لم يلق عبد الله جزاءه من السيد السنوسى!"

بعد أن انتهينا من إسقاط مؤامرة المرشد، استدعانا يوسف وهو يبتسم. قال
يوسف لأحمد حسانين: "كلماتك نارية. الناس يحسون أنهم ارتكبوا حماقة وهم
نادمون على ما فعلوا. أحسست أن ذلك كان انتصاراً لأحمد حسانين، وعليه تركته
يتلقى اعتذار الزّوايين فى شيء من البرود، لكن هذه الاعتذارات لم ترضهم. أصر
موسى غاريبيل هو وبوبدر على توديعى فى الصباح. قلت لهما فى برود "يسعدنى
أن ارتاح فى منزل سيدى إدريس. لقد قال لى إنها ستكون رحلة سهلة، لكنى أعتقد
أنه كان مخطئاً فى ذلك". لاذ الزّوايون بالصمت.

أبلغنى يوسف بعد ذلك أن عبد الله أصّر على أن القافلة يتحتم عليها أن تتبعه إلى الجوف فى اليوم التالى دونما انتظار لوصول أية أخبار من الكفرة. وفى سبيل التأكيد، كان قد أبلغ أهل هوارى أننا كنا نبحث عن الذهب فى الجبال، وأننا سوف نعود ومعنا جيش لغزو الأرض وأخذ الكنز الذى تحتوى عليه!

عندما دخل الظلام جاءت البنّتان العبدتان زينب وهوا إلى خيمتى. قالتا: "ظننا أننا سنموت جميعاً اليوم، لكننا سعداء الآن. الناس هنا ليسوا طيبين، لكننا أنقذنا!" وجاء انتصارنا الأكبر، فى اللحظة التى جاء إلينا فيها وفد من الزوايين، ليوقفنا ليسألنا ما إذا كنا لا نمانع فى الذهاب إلى هوايرى ونحن فى طريقنا إلى الكفرة فى الغد. لم يجرؤ الوفد على الاقتراب من الخيمة، وأنثروا إرسال يوسف حاملاً إلينا غصن الزيتون المقدم منهم.

الفصل العاشر

ولائم المكان المقدس

من هنا، يكون اليوم الثامن عشر من شهر يناير، قد شهد النهاية السعيدة لرحلتنا الطويلة، بدلاً من أن يشهدنا أسرى وسجناء، ننتظر ظهور حمار أبيض عند الأفق يركبه مراسل غاضب، ونحن جلوس وسط دوامة من شرابيب الطرابيش، والبنادق والأرجل الطويلة التي تنتهي بأحذية ناصعة الصفرة، في الوقت الذي تتمايل فيه شرابيب الطرابيش تمايلاً شرساً في موجات مختلفة. حدث ذلك كله لأن عبد الله تفوق على نفسه بالحيلة والدهاء. ولما كان عبد الله يستهدف تدميرنا تدميرًا كاملاً، فقد ذهب إلى القائمقام في الجوف وحذره من أننا كنا مسيحيين من إيطاليا متكرين كأننا مسلمون وأننا كنا نقوم بجمع كل المعلومات عن البلاد حتى نتمكن من غزوها فيما بعد. رد عليه ذلك المسئول قائلاً: "هذا مستحيل. إنهم يحملون رسائل من السادة." قال عبد الله "ماذا تعني هذه الكتابة؟" "أقول لك، إنهما خدعا السادة. وهما منذ أن بدءا التحرك أخذاً في السر، يرسمان بعض الخرائط. أنهن يركبن ساعات على أقدام الإبل، والسيدة^(*) تلبس ساعة في يدها طول الوقت [يقصد بوصلتى]. وهما يعلقان شيئاً غريباً على خيمتهما - سلاحاً يقتلونا به إذا ما اقتربنا من الخيمة [يقصد البارومتر^(**)] ومعهما نظارات تكبر البعيد عند النظر من خلالها." رسم عبد الله هذه الصور الأثمة لمخططاتنا الأمر الذي جعل القائمقام يصمم على حماية سادته المحبوبين بأي ثمن. من النتائج التي يمكن أن تترتب على الخطأ الذي وقعوا فيه. قال القائمقام بطريقة حاسمة "يجب ألا يغادروا هوارى. ويجب أن يرحلوا من هنا خلال أيام قلائل ويعودوا من حيث جاءوا. وبذلك يمكن

(*) استعملت المؤلفة كلمة 'ست' المصرية Sitt. (المترجم)

(**) البارومتر: جهاز قياس الضغط الجوي لتحديد الارتفاعات. (المترجم)

إنقاذ شرف وكرامة سادتنا." وافق عبد الله على ذلك على الفور عن رضا وطيب خاطر، ظناً منه أن ما تبقى لنا خلال الأيام القلائل القادمة هو العودة من حيث جننا! وطاشت الضربة. "يتعين عليك الآن أن تحمل أمراً إلى كل من يوسف ومحمد قميش." وهنا راح المرشد يحتج، ويدافع ويجادل. لكن القائمقام كان حازماً في كلامه. كان الوقت عصراً، وكان هناك متسع من الوقت، يُمكن من الوصول إلى هوارى قبل دخول الليل. وهنا قام المسئول النشط بالتعجيل بخروج عبد الله من البلدة، وهنا أدرك المتأمر أن خطته الوضيعة التي كانت تهدف إلى تدميرنا بدأ يتهددها الخطر.

كان عبد الله يعلم أن محمداً إنسان ذكي، وكان يعرف أيضاً أن يوسف معروف لدى كثير من الناس في الكفار. وكان على علم أيضاً بأن الاثنين مخلصان ومواليان. ومن ثم إذا لم نُقتلْ على وجه السرعة، خلال عملية التحري تلك، فإن خطته الخائنة سينكشف أمرها. كان عبد الله يهدف من وراء ذلك كله إلى عدم دعوتنا إلى دخول الجوف على الفور. لم تكن لدى عبد الله حتى ولو مجرد الرغبة في العودة إلينا حاملاً إلينا أمر احتجازنا، لأنه على الرغم من أن ذلك الأمر قد يثير بعض القلق لفترة وجيزة، فإن (عبد الله) سوف يعاني الأمرين بعد ذلك. ومن هنا أمضى عبد الله الليل في الجبال ولم يصل إلى مخيمنا إلا عند الساعة التاسعة صباحاً، أملاً في أن نكون قد دخلنا في شجار وصراع مع الزاويين، نظراً لأنه كان قد أصدر تعليمات ليوسف بتحريك القافلة عند طلوع الفجر.

لا أدري من منا كان مذهولاً أكثر من الآخر، عبد الله أم أنا! في تلك اللحظة لم أكن أعلم شيئاً عما فعله في الكفار. كل ما كنت أعرفه هو أننا قفزنا إلى استنتاجات خاطئة في اليوم السابق، وعندما راح يغمغم بعينين كسيرتين قلقتين، بأننا لن نستطيع مغادرة هوارى، نظرنا لأنهم كانوا يجهزون لنا منزلاً في الجوف، وأن تجهيز هذا المنزل سوف يستغرق أياماً عدة، لكن العبدتين يتعين عليهما مواصلة

سيرهما على الفور، هنا فقط أحسست أن هناك خطأ ما. حاول عبد الله، تجنب إطلاع يوسف ومحمد على المذكرة في وجودي، لكنني لم أتمكن من ذلك، وعليه فإن الورقة التي يفترض أن تكون خاصة، جرت قراءتها أمامي. كانت الورقة تقول: "يجب أن تفهموا أنكم لن تتحركوا من هوارى إلا بعد تلقى أوامر أخرى بذلك." غمغم عبد الله بكلام غير مترابط عن ذهابه إلى القرية، لكن هذه الملاحظة جعلتني أعجل بالتصرف. حيث إنه إذا ما عرف الزاويون بخبر تلك الرسالة فسنصبح في عداد الأسرى. وحتّم ذلك علينا إرسال شخص موثوق به إلى تاج لكي يستطلع ما الذي حدث قبل أن يقوم رجال القبائل المتشككون بوضع حراسة حول مخيمنا. كان محمد هو الشخص الوحيد الذي لم تعجبه الفكرة، لأنه لم يكن في حوزته الأمر الكتابي الصادر عن وكيل السيد السنوسي، والذي يقضى بعدم تحركه؟ ومع ذلك رضى محمد عن قناعة. اعتقد أن الأميال الطويلة التي قطعناها ومشيناها جنباً إلى جنب، عبر رمال ساخنة، وتحت سماء أكثر سخونة، واعتقد أيضاً أن الماء الثمين الذي تقاسمناه، والنكات التي أطلقناها على قدمي المتعبين، والليالي الباردة الأولى التي تقاسمنا خلالها البطاطين والمعاطف، إضافة إلى ذلك اليوم الذي مزقنا فيه سُرَج الأمتعة ووزعنا قشها على حيواناتنا الجائعة، على أمل تزويدها بوجبة غذائية أخرى، اعتقد أن ذلك كله أتى بثماره. أقسم عبد الله: "والله! سوف أكتشف الحقيقة." كاد أن يفقد عبد الله سيطرته على نفسه. ودخل مندفعاً إلى الخيمة ومعه عبد الرحيم الجبان، في الوقت الذي كان أحمد حسانين يسطر فيه خطاباً رقيقاً إلى القائمقام. إنسابت من بين شفثيه احتجاجات الغضب. هدد بإحضار واستدعاء الزاويين. ثأناً للقومندان الصغير في كلامه. وتراخت عزيمة محمد.

رأيت في تلك اللحظة حلمًا عن الكثير من الأيام شديدة الحرارة والليالي المرهقة وهي تنقضي مثل سراب وقت الظهيرة. هذا الهدف الذي ناضلت وعملت من أجله، والذي درست اللغة العربية من أجله، خلال أشهر الصيف الجميلة في

لندن، والذي اخترت برقة هدفاً له، والذي انكفأت من أجله على خرائط المسارات والخرائط العادية بدءاً من الخرطوم إلى طرابلس، والذي جعلنى أغوص خلال المجلدات الضخمة بدءاً من بطليموس إلى بهم Behm ودفيرير Duvyrier، هذا الهدف وجدته يهتز فى ذهن هذا الرجل. كل عصب وكل عضلة كانت لا تزال تعاني وتتألم من هذه الرحلة الشاقة، وهو يتحدث عن الجهد الفائق المضنى الذى بذلناه. وهذا كله لا بد أن يكون أثقل وزناً من مؤامرة عبد الله الدنيئة. وثبت ذلك بالفعل! لم يكن هناك بشكل أو آخر تواجد للمرشد أسمر الوجه أو القومندان المتذلل. طلب حسانين إحضار حمار لمراسلنا ووضع الرسالة بارعة الصياغة فى جيب سترته. وبعد ذلك أصبحت أنا ومحمد وجهاً لوجه، وأطلت النظر إلى عينيه اللتين تشبهان عيون الصبية الصغار، ورحت أشد على يديه، وأنا أبته كلمات قليلة تعبر عن تقى التامة به، وعرفت على الفور أنه لن يخذلنا!

بعد ما حدث لم نعد نهتم بمسألة عدم مغادرتنا للمخيم، ولا بوجه عبد الله العاصف، ولا باختيار الجنود فى خيامهم باستثناء فرّاج المخلص، الذى كان يقدم لى كل ساعة هدايا صغيرة من باب التعاطف معى، تمثلت فى الجزر الأبيض، ونوع من العشب الجاف الذى يصنع منه نوع من السبانخ السائلة! كان علىّ التظاهر بالمرض والرقود فى فراشى طوال اليوم خلف ستارة الحريم وذلك من باب الهرب من الزاويين الذين لا يوثق بهم، الذين كانوا يتلصصون على الخيمة كل دقيقتين أو ثلاث للتأكد من أننا لم نهرب. كان الوقت محرّجاً للغاية، والسبب فى ذلك هو انعقاد المجالس الواحد بعد الآخر خارج المخيم، لكننا لم نكن نُدعى لحضور هذه المجالس إضافة إلى أن أصدقاءنا التيببين لم يكونوا موجودين، وذلك على الرغم من دخول فتاة برونزية اللون، ذات مرة إلى خيمتى الموضوعت تحت الحراسة، وهى تبتسم، وفى أنفها حبة من حبوب الفول السودانى مغروسة فى فتحة فى أنفها، وقدمت لى أربع بيضات وهى تردد فى إشفاق كبير عبارة "كيف حالك".

جاء محمد عند غروب الشمس، وهو يبتسم منتصرا، ومقطوع الأنفاس، بعد أن قطع مسافة تزيد على عشرين كيلو مترا على ظهر حمار إلى بلدة تاج، في بلاد غريبة لم يسبق له أن رآها من قبل، وخالية من أى مدق من المدقات وأية علامة من العلامات الإرشادية، وبعد أن تجادل عن حق مع القائمقام من أجله المحافظة على نفوذ وسلطان امرائه، وبذلك أقنع القائمقام بحسن نوايانا، وعرف أيضا القصة الكاملة لخيانة عبد الله، ثم ركب حماره الأبيض بعد ذلك وعاد لإنقاذنا متكبدا مشقة السفر في تلك الرمال الوعرة- فعل محمد ذلك كله في ظرف ثماني ساعات. والذي لا شك فيه أن محمد أكد في ذلك اليوم ثقته الكبيرة بالعرق العربى ومستقبل هذا العرق. جاء محمد ومعه رسالة ترحب بنا ترحيبا شديدا. "بأصحاب السعادة ضيوف السادة الموقرين"، وتطلب الرسالة منهم التوجه إلى الكفرة فى صبيحة اليوم التالى، وأن يشرقوا البلدة ويباركوها بحضورهم إليها.

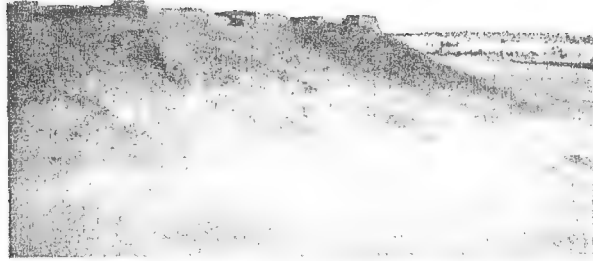
العقلية الليبية متغيرة ومتقلبة شأنها شأن البارومتر. فى تلك الليلة، تجمع حولنا أولئك الرجال، الذين كانوا يودون قتلنا قبل ساعات، وراحوا يحكون لنا القصص التى سبقت مجيئنا. تبينت هذه القصص تبانيا كبيرا، وعلى الرغم من أن القسم الأكبر من هذه القصص كانت تركز على أننا طلائع لجيش قائم لغزو البلاد، فإن واحدة من هذه القصص كانت تزعم أننا أبناء عمومة رولفز وأنا جننا نتحرى المعاملة التى لقيها ذلك الرجل. قال زرؤوق العجوز: "أنا أتذكر هذا النصرانى جيدا. لقد جاء إلى هنا بصحبة قافلة زاوئية Zouia". سألناه "كم كان عدد النصارى الآخرين الذين كانوا معه؟" قلنا ذلك وفى ذهننا الحكاية التى رويت لنا فى بُسيمه، التى مفادها، أن الرجل أثناء عودته ربما كان وحيدا. "لم يكن معه أحد. لقد جاء وحيدا ومعه حصانه الكبير وطباخ يدعى على Ali". كان الشيخ دقيقا فى هذه الرواية. لقد أبلغنا أن "مصطفى بك" ذهب إلى هواويرى من باب تحاشى القرية

الأكبر، ثم قام بعد ذلك بالاتجاه صوب شرقي كثبان الكفرة الرملية وتلالها الرملية أيضا، وأنه خيم خارج بويما Boema حيث جرى أسره هناك.

طلع علينا يوم الرابع عشر من شهر يناير بأشعث صور المناخ الصحراوي، كانت الشمس بلا أدنى شك حارة، لكن ريحا صرصرا هبت علينا من الشرق، مثيرة سحباً من الرمل جعلت تقدمنا في مسيرتنا أمراً صعباً. ومع ذلك أرسلنا القافلة إلى الكفرة رأساً، في حين قصصنا نحن هواويرى. سمح لنا الزأويون بالذهاب إلى حيث نشاء، لكنهم نبهونا إلى أننا ربما نرهق أنفسنا بلا داع، نظراً لوجود ثلاثة منازل فقط في الطرف البعيد من الواحة، من منطلق أن النخيل الذي في هذه المنطقة مملوك لأناس في كل من الجوف وبويما Boema. يزداد على ذلك، أننا أحسنا أنه يتعين علينا زيارة المكان، ليكون ذلك بمثابة درس للجنود، الذين رفضوا مرافقتنا في اليوم السابق. وبعد أن لففت نفسي حتى عيني في أسمك البطاطين، وفي الجرد^(*)، وبعد أن فتحت رجلى على ظهر الحمار العارى خلال دقيقتين، سرنا خلال الريح الشرقية لنصل إلى نهاية واحة هوايرى الضيقة.

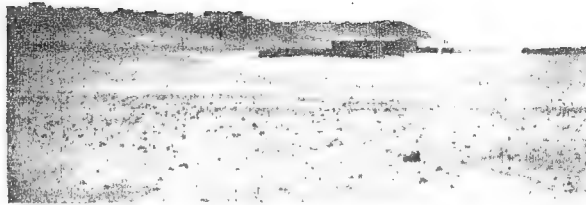
ثبت أن تلك القرية التى أسرنا فيها كانت كبيرة على عكس ما كنا نتوقع، فقد كان هناك مزيد من المنازل المبعثرة على طول طريق النخيل. وعندما سألنا عن عدد سكان الواحة، كانت الإجابة عبارة عن كلمة واحدة تتعلق بالحجم، والطول، والكبر، والعظمة، والقوة، والوفرة، والتعدد ألخ، ("واجد^(**)") - لكنى أتصور أن عدد السكان في هذه الواحة لا يزيد بحال من الأحوال عن مائتى نسمة أو ما يزيد قليلاً على ذلك. كانت هناك فجوة بين نخيل هوايرى ونخيل التابع الصغير الذى يتبعها، الذى لا تزيد مساحته على عدد يعد على أصابع اليد الواحدة من الكيلو مترات،

(*) الجرد: بكسر الجيم وتسكين الراء: كلمة ليبية تعنى "الزى الوطنى" وهو عبارة عن شريحة طويلة من الصوف أو الحرير. (المترجم)
(**) وابد' كلمة بدوية تعنى "كثير". (المترجم)



TAJ, ABOVE THE VALLEY.

قرية تاج : أعلى الوادي



TAJ, FROM THE VALLEY.

منظر تاج من الوادي

والذى كانت منازلها الثلاثة محاطة بقلة قليلة من أشجار التين الضخمة. كانت ثمار التين كلها صغيرة الحجم وغير ناضجة، لكن الزواوى شرس الملامح، صاحب الشعر الكستائى، والعينين الزرقاوين، وصاحب الجبهة المنخفضة، والجمجمة الضيقة، الذى كان يرافقنا أسقط بعض ثمار التين أرجوانية اللون من أعلى الشجر. كان طعم التين طيباً جداً، وأراحنا بعض الشيء من الريح المخيفة، التى جمدتنا ونحن فى منتصف النهار،

أثناء سيرنا على الغرود(*) الحجرية التى تقع على الطريق إلى الكفرة. تواصل الرمل الأحمر، وبدأ يختلط أكثر وأكثر بمناطق من الأحجار السوداء، فى الوقت الذى بدأت فيه سلاسل صخرية ترتفع فيما بين التلال المنخفضة السوداء أو الرُّبى الكبيرة، التى بدأت أحجامها تتزايد بعد هوارى، فى الاختفاء عن أنظارنا بجوار غرودها أرجوانية اللون. كنا كلما صعدنا سلسلة صخرية باهتة نرى أمامنا تلالاً سوداء نقول: "هذه هى التلال الأخيرة- وخلف هذه التلال يوجد سر الصحراء الكبرى". خاب أملنا عشرات المرات عندما كانت البقاع الحجرية والصخرية تحجب رؤيتنا. أخيراً وعندما بدأنا ننظر من فوق ربوة عالية لم نر شيئاً سوى روابى وتلال منخفضة، كانت فيها جلاميد الصخر المتكسر تغطي على الرمال الحمراء، بدأنا نتعجب ما إذا كانت الكفرة نكتة كبيرة استطاع بها الذهن الأفريقى الانتقام من الفضول الأوروبى. كانت الخرائط كلها تظهر واحة الكفرة على شكل كتلة صلبة منبسطة خضراء اللون، من خلف قارة هوارى، وبذلك نكون قد قطعنا بالفعل حوالى ٨٥ كيلو متراً فيما بعد تلك القمة الصخرية الكبيرة، وأصبحنا نرى حوالى نصف هذه المسافة أمامنا وليس فيها أى أثر من آثار النخيل. قلت: "انظروا! هذا هو الرمل بدأ يظهر من جديد عند الأفق. الرمل أكثر شحوباً

(*) 'الغرود' واحده 'غرد' بكسر الغين، وهو الكتيب الرملى الحجرى، وهى أصلاً كلمة عامية ليبية.
(المترجم)

فى هذه المرة وهناك أيضا المزيد من التلال." رد على رفيقى رثا حاسما "إن صح وكانت الكفرة بعد هذا الرمل وتلك التلال، فسوف أتوقف هنا وأرسل إلى الوطن طلبا لطائرة."

غطينا وجوهنا بعد ذلك فى جيرداتنا، ورحنا نواصل سيرنا على غير هدى، إلى أن أعطتنا الصحراء سرها فجأة، وعندما رأينا منظرا من أعجب المناظر فى العالم ينتشر أمام أقدامنا، حاولنا إطالة النظر إلى ذلك المنظر، ورحنا بعد ذلك نفرك أعيننا للتأكد من أننا لسنا نائمين ورحنا نصف أنفسنا بالغباء، لأننا لم نخمن تفسير هذا الغموض على أنه- واد من الوديان!

هذا الأمر هو الذى يجعل المرء يكاد يسقط على حافة الصخرة السوداء الأخيرة نازلا إلى رمل الواحة الناعم صاحب اللون قبل أن يدرك وجود مثل هذا الرمل. يقولون: إن التوقع أفضل من الإدراك. ويقولون أيضا: إن النجاح عديم الطعم، وإن القتال والصراع هما اللذان يخلقان الإثارة، لكنى لا أحس أى نوع من الخجل عندما أعترف بالإثارة عندما انكشف أمامى عالم كامل جديد. فى الناحية الشرقية حيث تمتد، المنحدرات الصخرية الشاهقة، نجد قرية تاج المقدسة تجثم فى مواجهة السماء، مرتفعة عن الواحة التى تحميها. ونجد أيضا كتلة الزاوية الضخمة ترتفع عن مجموعة المنازل المحصنة، الصلبة، مربعة الشكل، داكنة اللون والمبنية كلها من الطوب الحجرى أسود اللون والملاط أحمر اللون المصنوع من الرمل. هذه الجدران المغلقة التى لا نهاية لها، لا تقشى سرا من الأسرار، لكن فيما بين الأحواش الموجودة هنا وهناك، ترتفع المداخل الثلاثية ذات العقود، فى مبنى من المباني الكبيرة، كما كانت هناك بقع بيضاء فهمنا منها أن هناك مراقبين يراقبون وصولنا إلى المكان.

هذا هو المكان المقدس عند السنوسيين، والذى توجد فيه منازل السادة وقبة سيدى المهدي المشرقة، مع مجموعة من الأروقة الدراسية والتعليمية، ومسجد،

وكلها تبدو كما لو كانت قلاعاً مخيفة، ونظراً لأن تاج ليس فيها عود من العشب أو بقعة خضراء حتى تقلل من رتابة الصخر الأسود والرمال الأحمر. أسفل تاج، يوجد وادٍ يمتد شرقاً وغرباً؛ هذا الوادى مسطح، ورماله الشاحبة التى يميل لونها إلى اللون القرمزى الخفيف، تقطعه كتله كبيرة من النخيل والحدائق الخضراء، وأشجار السنط، وأشجار اللّين، والأدغال ريشية الورق، التى تطوق بحيرة متموجة شديدة الزرقة- هذه البحيرة فى الناحية الغربية؛ وفى الناحية الشرقية خلف المظهر الحارس الموجود على الصخرة شديدة الانحدار، يوجد المزيد من النخيل المبعثر هنا وهناك؛ وتجيء بعد ذلك بحيرة واسعة أخرى مستديرة وشبيهة بالزمرّد، فى حين تحيط بالوادى كله مجموعة من الغرود أو التلال المنخفضة بنفسجية اللون. تنتشر متبعثرة هنا وهناك، على صفحة الرمال التى اكتست حمرة بلون الورد، قرى تبدو جدرانها القوية الداكنة كما لو كانت محصنة ضد الأسلحة الضخمة أكثر منها ضد الأعين المتلصصة التى أصابها الإحباط نتيجة السرية الشديدة.

تقع بلدة الجوف فى المقدمة بجوار أكثر الحدائق خضرة، وفى الناحية الشرقية من البحيرة المالحة الأولى. أما زروق فتختبئ بين النخيل خلف الجوف. أما قرية طولاب Tolab هى قرية توليليب Tolelib فتقعان على بعد مسافة كبيرة يصعب معها رؤيتهما؛ لأنهما تقعان عند الطرف الغربى من الواحة، التى يتوهج عنده اللونان الزمرّد والمرجانى عند سفح التلال الغربية أرجوانية اللون. توجد قرية بوما فى الناحية الشرقية، على الطريق المؤدية إلى البحيرة الثانية، ومعها قرية بويما الأصغر منها، والقرية منها، ومن خلفهما يوجد أيضاً المزيد من النخيل، إلى أن تبدأ الرمال الشاحبة فى الارتفاع إلى القمم الصخرية الشاهقة قائمة اللون التى تغلق الواحة السرية من ناحية الجنوب.

أطلنا النظر، وحدقنا فى المنظر، تخوفاً من أن يتلاشى كل هذا المنظر الجميل ويختفى من أمام أعيننا ويتركنا ضائعين فى تلك الأرض الجرداء القائمة



JOE

الجوف

الموجودة خلفنا. أحسنا بعد ذلك بمدى نَوعنا وإرهاقنا جميعاً، نظرًا لأن البئر الوحيدة في هوارى - والتي سُمح لأتباعنا المشكوك فيهم والمراقبين، بالوصول إليها - كانت تحتوى على ماء سيئ جدًا فضلاً عن أننا جميعاً كنا نعانى من آلام فجائية غريبة. قال محمد: "والله! إنه جميل، وأنا حامد وشاكر، لكن كم أنا بحاجة إلى النوم!" ولف محمد نفسه بجرده وألقى بنفسه على أقرب رقعة من الرمل. وحذوت أنا حذوه أيضاً، إذ وضعت بطانية على رأسى، وراحت بقية الحاشية تفعل الشيء نفسه بجوارى، الأمر الذى جعل القافلة التى لحقت بنا، تَوقظ حوالى ستة أفراد من المستكشفين المرهقين قبل دخولنا الموقر والمحترم إلى المكان المقدس.

جاء عبد الله لاستقبالنا؛ لأنه كان قد أخذ كلاً من زينب وحواء فى الليلة السابقة، إلى منزل السيد رضا، نظرًا لأنه ليس من المناسب أن ينظر الناس إلى عبيد السيد رضا الشخصيين. حاول تجربة طلقته الأخيرة عندما رآنى راكبة جملًا. صاح بصوت عال على أن يسمعه المتتابة الآخرون. "أنزلى! أنزلى، يا خديجة! لا يمكنك الركوب فى هذه المكان المقدس!" كنا لا نزال على بعد حوالى نصف ميل من أقرب المنازل إلينا، ولذلك تجاهلناه، لكننا نزلنا عندما وصلنا الربوة الأخيرة، وقمت بتغطية وجهى كاملاً، ومشينا ومن خلفنا تسعة متخذين وضع القتال من خلفنا، متجهين صوب جماعة شديدة الاحترام جاءت لتحييتنا.

وإذا ما نحينا السادة والإخوان جانباً لمدة لحظة واحدة، وجدتنى أتحدث فقط مع تجار وموظفين حكوميين، وعدد من شيوخ الزوايا الصغيرة والبدو، يعد على أصابع اليد الواحدة. نحن الآن نلتقى رجال السنوسى العظام، الإخوان المهمين، رجال الدولة النجباء، فضلاً عن الرؤساء الدينيين. رحبوا بنا ترحيباً حاراً ووقوراً، ذلك الوقار البسيط غير المتكلف الذى لم يتعلمه الغرب من الشرق، نظرًا لأن المرتبة فى الوقار عند الغرب عبارة عن سلم يمكن أن يرتقيه الجميع، لكن الوقار فى الشرق أمر مختلف. هذا عالم غريب تماماً، يصعب الوصول إليه

بالمرة، من قبل أولئك الذين لا يرثونه، إلى حد أن الشيخ يمكن أن يعزم الجمال إلى الجلوس معه والتحدث إليه، وقد ينحنى أحد الإخوان من باب التأدب مع بائع الخبز. الناس يتكلمون عن ديمقراطية الشرق لأنه ليس هناك سوى فارق واحد - الحرُّ يُولد من العبد، هذا يعنى أن البنت السودانية السوداء قد تكون أمًّا لمهدى من المهديين! هذا الشرق غير المعيب ليس فيه أى ظل من ظلال الديمقراطية. لا يوجد سوى الوراثة. الرجل هنا يحيا بعظمه والده ووالد والده (جده)، وهو عندما لا يتباهى بهما فإنه يتعلق بأهداب عظمة قبيلته.

فى وجود تلك الشخصيات الوقورة التى كانت ترتدى جُرْداً^(*) ناصعة البياض ومن تحتها ألوان ثرية، برتقالية، وحمراء وأرجوانية، وكان كل واحد منهم يرتدى جبة فخمة مطرزة، دخلنا أول منزل من المنازل الكبيرة على حافة الصخرة. كان ذلك مسكن سيدى إدريس، وعليه كرمونا تكريماً كبيراً. كان هناك واحد من الأروقة المسقوفة التى شاهدناها من فوق التل وتطل على الحديقة، ممتداً بطول جانب من جوانب الحوش الرئيسى، وكان ذلك الرواق يفتح على غرفة طويلة أيضاً، سقفها مرتفع بما فيه الكفاية، ومفروشة بسجاد فاخر، وكانت جدران الغرفة المليسة بالجبس مزينة بنصوص من القرآن، وفجوات فى الجدار عبارة عن نوافذ غير مزججة محمية بشيش أخضر اللون، معلق فوقه كرات زجاجية كبيرة شبيهة بتلك الكرات التى نعلقها على شجرة عيد الميلاد. كان سقف الغرفة مغطى بقماش من الشيت المنقوش، وصف من المصابيح المبهرجة، ومعها المزيد من الكرات الخضراء والزرقاء التى تتدلى من السقف. وجدنا أنفسنا جالسين على شكل دائرة تواجه الباب المفتوح مع أربعة من الإخوان الموقرين. كان يجلس فى مكان الشرف السيد صالح البسكرى، وهو ابن عم سيدى العابد، وكيله ويشغل منصب

(*) واحده 'جبرد' وهو عبارة عن غطاء للراس والكثفين يصنع من الصوف أو الحرير، والكلمة ليبية عامية. (المترجم)



THE FOUR EKHWAN WHO RECEIVED US AT TAJ.

الاخوان الدريعة الذين استقبلونا في تاج

قائمقام الكُفرة، وكان يرتدى ثوباً شديداً الاصفرار وفيه شيء من السواد، وكانت أكمامه الكبيرة مبطنة باللون الأرجواني. كانت جبهته من النوع العريض الذي يسلم عن الذكاء، وكان خداه الأحمران حمرة البرونز بهما غمازتان، وكان لسه شارب طويل أسود اللون من فوق شفتي فمه الحاسم، كما كانت له لحية صغيرة أيضاً. كانت عيناه مشغوفتين، وابتسامته صريحة، لكنه كان رجل دولة شرقياً بمعنى الكلمة قليل الكلام، الأمر الذي كان يستر وراءه فكراً كثيراً.

كان السيد عبد الرحمن بوزينينة، جالساً بجوار السيد صالح البسكري؛ السيد عبد الرحمن بوزينينة رجل صغير الحجم، صاحب لحية عريضة رمادية داكنة، ووجهه يوحى بالتأمل، وحاجباه مستويان، وفتحاً أنفه متسقتان مع جسمه. ربما كان هذا الرجل فيلسوفاً أو مقدساً! وبيّجىء محمد بو فضل بعد هذين الاثنين، وهو شقيق القائمقام الغائب، وهو شخص ضخم الجسم، يرتدى ملابس شاحبة له ما صُفِّرة الزعفران، وكوفيه صفراء اللون ملفوفة مرات عدة حول رأسه على العمامة، بحيث يودى ذلك إلى إخفاء وجه الرجل الممتلئ المشرق، بابتسامته العريضة وعينه المضحكتين، بين ثنيات كوفيته. كانت الشخصية الرابعة لرجل كبير السن، طويل وواهن، له لحية مدببة متدلّية، وخدين غائرين، وبرشمان بلون ثيابه، لكن شيئاً من العرافة والتكهن كان يلمع في عينيه العامرتين بالحيوية. هذا الرجل هو السيد عثمان القاضي، الذي يعرف عجائب سيدى المهدي؛ يزداد على ذلك أن العقيدة العاطفية التي تصنع الشهداء، كانت متجلية في هذا الرجل. قرأ هذا المجلس الصغير رسائلنا مرات ومرات وأعربوا في هدوء وامتنان عن أقتاعهم بتلك الرسائل. وهنا أثير موضوع احتجازنا في هوارى، وصاحبته الابتسامات. قالوا: "أنتم لم تحسنوا اختيار مراسلكم. لو سمعتم ما قاله عبد الله لتعاطفتم مع ترددنا. نحن لم يعجبنا كلام الرجل. على كل حال، سوف نغفركم من عبد الله." تحدد القرار. ورحنا نتعجب من ذلك الذي يمكن أن يحدث لعبد الله. العدالة بطيئة في الشرق، لكنها عندما تحدث تكون فاصلة.

بعد انصراف زوارنا مباشرة، وبينما كنا ننصب حواجز من الخيش الملون في الغرفة الطويلة، جاءت إلينا عبيدات سوداوات يحملن وليمة في أطباق كثيرة زرقاء اللون، فوق صينية كبيرة من النحاس الأصفر. وضعت تلك الصينية على مفرش قرمزي اللون على الأرض وجلسنا بجانبها مربعين، ورحنا نغمس أصابعنا أولاً في طبق من الأطباق ثم بعد ذلك في طبق آخر. قال حسانين: هذه هي المتعة الحقيقية للكفار." قالها حسانين وهو يلتهم القسم الأكبر من الطلى المطبوخ في "الملوخية"، ذلك الصنف من الطعام الشبيه بصلصة السبانخ غير غليظة القوام. كنت قد التزمت الصمت بسبب فرحى التام- وسعدت جداً بذلك النوع من الخضار العجيب الذى اكتشفته فى خلطة من الخلطات، المكون من لحم مع شيء من المرق غليظ القوام وله طعم الزبد. تمنيت لو أن حسانين لم يعثر على ذلك الصنف، ورحت أشجعه على مواصلة التهام الملوخية، لكنه انقض على ذلك الصنف فجأة. "هذه بامية! وهى موجودة عندنا فى مصر." قال حسانين هذا الكلام ودار بيننا سباق على ذلك الصنف فيما بعد! الواضح أن الكفرة ليس فيها سكر. الأقة من السكر ثمنها فى الكفرة ثلاثة مجيديات، وعليه لم تكن الحلوى ضمن الوليمة التى أرسلت إلينا، لكن جرى بعد ذلك إحضار وعاء كبير طويل العنق ومصنوع من النحاس الأصفر يسمونه إبريق لنغسل أيدينا وأفواهنا، وعندما بدأنا ننفذ بقايا الرمال المتخلفة فى أكياس نومنا على امتداد خمسة أسابيع، كنت أحس سعادة غامرة. أشعر وكأنى لا يتعين على الاعتراف بذلك، لكن المؤكد أن اليوم الخامس عشر من شهر يناير يبرز فى ذهنى على أنه يوم الطعام! لقد وصفت كثيراً من أيام الصوم، الأمر الذى دفعنى إلى الإحساس بسرور بالغ فى تدوين مذكراتى اليومية عن تلك الليلة، فى الوقت الذى راح فيه أحمد حسانين يخط بعض رسائله الحارة معبراً بها عن شكره وامتنانه لسيدى إدريس والسيد رضا السنوسى؛ أملاً أن تصلهما هذه الرسائل عن طريق القافلة المتجهة إلى الشمال.

بعد أن استيقظت مباشرة رحت أحرق في البساط الذي يجمع بين اللونين الأحمر والأزرق، ووجدت أمامي السيد محمد الجدّاوى (الذي جاء إلى هنا من جدة قبل أربعين عامًا، كاتب من أتباع المهدي المقدس، وأصبح الآن وكيلاً لسيدى إدريس والسيد رضا السنوسى) ومعه هدية عبارة عن طبق مملوء باللبن المحمّض، طبق كبير مسطح مصنوع من سعف النخيل، محمل بتمر جميل بلا نوى، وكبير الحجم، وناعم ونظيف، وذهبي اللون ومن النوع الذى يذوب فى فم آكله- هذا النوع لا تعرفه ولن تعرفه أوروبا مطلقاً! أبلغونا أنه ستكون هناك مأدبة عند الساعة التاسعة صباحاً، للمجموعة كلها، وأن تلك المأدبة ستكون فى منزل السيد صالح، وعليه وصلنا إلى ذلك المنزل ونحن نرتدى أنظف ملابسنا، لم يكن المنظر بهيأً جدّاً، فقد تعين على ارتداء جيرد عليه حزام أحمر اللون، نظراً لأن البركان الذى أرّديه مضى عليه أربعين يوماً دون أن يُغسل!

جاءنا العبيد لكى يدلونا على الطريق، ومشينا خلف هؤلاء الأشخاص السود سواد حبات الكرز، فى طريق رملى متعرج بين جدران عالية، عبر فضاء واسع أمام المبانى الضخمة التابعة لزاوية سيد أحمد الشريف العالية ومربعة الشكل. بدأت ألاحظ قلة عدد المنازل فى تاج، لكن المنازل كلها كانت من النوع الكبير، بنايات مركبة لها مناهة من الأحواش والممرات. واقع الأمر أن أهم الأخوان، هم الذين يعيشون فى هذا المكان المقدس، هو مجموعة منازل السادة، التى تشغل حوالى ثلث مساحة هذه البلدة؛ كما يعيش فى هذه البلدة أيضاً العاملون كثيرون العدد فى هذه الزاوية. من هنا، لم نر سوى طبقتين من الناس بين جدران هذه البلدة قائمة اللون. رأينا عبيداً أكثر فى رداءات مقلّمة زاهية اللون، ويضعون فوق رؤوسهم عمام شديدة البياض وجرداً من الحرير فوق جلابيب أو ثياب خيالية الألوان. لاحظت رجلاً ضخماً بهي الطلعة يرتدى ثوباً له حمرة البرتقال "أبو دمه"، وشىء شبيهاً بشال أبيض له حواف قرمزية موضوعاً على كتفيه، لكن كان من الصعب أن أرى



HASANEIN BEY TALKING TO EKHWAN AT TAJ WHILE THE AUTHOR PHOTOGRAPHED THEM.

حسانين بك وهو يتحدث إلى الاخوان في تاج، في حين كانت
المؤلفة تقوم بتصويرهم

رؤية واضحة من خلال الفتحة الصغيرة جدًا التي سمحت بها لنفسى من خلال الثياب التي أسدلتها على نفسى.

كنت فى الصحراء مهملة فى مسألة الحجاب مثلما كنت فى مسألة سميتى خديجة، أولى زوجات محمد ﷺ، تلك السيدة قوية الشخصية، التى عمل النبى فى خدمتها عندما قاد قافلتها إلى سوريا قبل أن يتزوج صاحبة هذه القافلة التى كانت تكبره بعشرين عامًا. كان لابد من الحذر البالغ فى الكُفاره، وكان على تعلم القدرة على التحمل، وبخاصة ذلك الصداق المستمر الناجم عن ثياب الملابس الثقيلة، كما تعلمت أيضًا النقاط الصور السريعة من بين ثياب تلك الثياب. كان عبد الله الخائن قد علمنا شيئاً واحداً- إخفاء آلات التصوير وكمراسات الملاحظات بحرص بالغ!

كان منزل سيد صالح شبيهاً بمتاهة حوش هامبتون. يزداد على ذلك، أنى على الرغم من دخولى هذا المنزل، فإنى لم أكن قادرة على العودة مرة ثانية من الطريق الذى جئت منه. التقينا شخصاً زاهياً كان يرتدى عباءة لونها أخضر غامق، لها حواف مذهبة، من فوق زيه الكاكي، فى الحوش الثانى، الذى تركنا فيه جنودنا يتغذون غذاء ملكياً فى غرفة من غرف ذلك الحوش المؤدية إلى الخارج. أحصيت بعد ذلك أربعة أحواش أخرى وخمسة ممرات قبل أن يؤخذ كل من محمد ويوسف لحضور مأدبتهم المنفصلة. كان مرشدنا لا يزال ينتعل ذلك الحذاء الأصفر الذى كان يتخلى عنه أمام العديد من المداخل. أخيراً، وبعد أن تخطينا حوشين آخرين وعديداً من الممرات، دخلنا الحوش الرئيسى، الذى له شُرْف واسعة مفروشة بالحصير والسجاد تمتد على الجانبين.

بعد أن خلعنا أحذيتنا، دخلنا للقاء مضيفنا الرسمى، الذى رحب بنا ترحيباً حاراً، وراح يشير لنا بيديه عبر المكان الواسع فيما بين العقود ليرشدنا إلى الغرفة العالية الطويلة التى بدت لنا جدرانها وكأنها مغطاة بالساعات والبارومترات، والترمومترات وأشياء أخرى من هذا القبيل. وأنا لا أستطيع إحصاء عدد الأجهزة

التي كانت في تلك الغرفة، لكنني وصلت إلى الرقم خمسة عشر، وكان معظم هذه الآلات تعمل. شاهدت عند كل طرف من طرفي الغرفة صفًا من الصناديق المدهونة التي يحملها عظماء الرجال معهم في رحلات قوافلهم الطويلة، وشاهدت أيضًا في القسم الأكبر من الفجوات الموجودة في الجدار، والمفروشة بالسجاد، أدوات الشاي من مختلف الأصناف والأشكال والأحجام والألوان. شاهدت أيضًا بيانولا فيها شرائط من أوبرا باجلياسي Pagliacci وأوبرا كارمن Carmen. كانت هناك بسط سميكة داكنة اللون مكوّمة فوق الأرض المفروشة بالحصير، ومن فوقها صفوف من المخدات التي تطوق جدران الغرفة من الداخل، لكن الشيء الذي سرتني أكثر - بعد التعيينات الهزيلة التي كنا نعيش عليها طوال الرحلة - ذلك القماش قرمزي اللون، الذي له فرنشات على أطرافه، وموضوع في وسط الغرفة حول صينية مستديرة من النحاس الأصفر محملة بالطعام ومن حولها كل أنواع الأطباق والقوارير.

تمنى لنا مضيفنا شهية طيبة. "بالهناء! بالشفاء!" ثم اختفى بعد ذلك؛ وهنا رفع عبد إبريقًا من الفضة والنحاس الأصفر ليصب منه ماء على أيدينا في طشت له غطاء مزركش كان يحمله زميله العبد الآخر. قام عبد ثالث بإحضار أكواب القهوة السوداء التي لها نكهة الفلفل الأحمر. جلسنا بعد ذلك مربعين بجوار تلك الصينية، وقد انفتحت أعيننا دهشة على ذلك الذي وضع أمامنا. الكرم العربي خرافي وهائل. كل إنسان يقدم أحلى وأفضل ما عنده، لكن العظماء من الرجال هم القادرون على إقامة الولائم الشبيهة بولائم ألف ليلة وليلة؛ وكانت المأدبة التي أقيمت لنا واحدة من هذا القبيل. أعادت تلك المأدبة إلى أذهاننا ذكريات حفلات العشاء الهائلة التي أقامها لنا السيد رضا في إجدابيا، وبخاصة أننا مدينون له هو وسيدى إدريس بالترحيب الكبير الذي لقيناه في الكفرة، التي تعد أخلص وأوفى الواحات الليبية، لأنها تعد أساسًا للعقيدة السنوسية. استمعت إلى أحمد حسانين وهو يكرر على وجه السرعة النقاط الرئيسية في الخطبة التي انتوى أن يلقيها أمام



THE KAIMAKAAN AT TAJ.

قائم مقام تاج

القائمقام بخصوص رحلة العودة، وصافحته مهنته إياه على تلك النقاط. قلت له متعجبة "لا تتشغل بتلك التفاصيل الآن! إلى متى، فى رأيك، سيبتركوننا وحدنا مع هذا الطعام؟"

اشتملت المائدة على اثنى عشر طبقاً من لحم الطلى المطهى فى صلصات أو مرق دسم مختلف الأشكال، علاوة على إناء ضخم يحتوى على بقايا غريبة، أتصور أنها تنتمى إلى الأخرى إلى الحياة الخاصة لخروف من الخراف، وكانت تطفو فى مرق دسم وغزير. كانت هناك حوالى عشرين بيضة مسلوقة ومقسرة موضوعة فى أطباق من الفضة، علاوة على خمس عشرة كومة من الملوخية الخضراء اللزجة التى كانت تخفى كل أنواع الأشياء الفاخرة المركبة. ثلث ذلك سلاطين من اللبن الرايب، الذى بدأت أستسيع طعمه، أو أوراق النعناع المطحونة، وسائل غير معروف ظننته خلأ طيب الرائحة، فضلاً عن قوارير الماء، نظراً لأن العقيدة السنوسية لا تبيح المشروبات الروحية. وعندما توقفنا لالتقاط أنفاسنا أحضر لنا عبد آخر طبقاً آخر، كان فى ذلك الطبق عصير ليمون حامض، لكى يفتح شهيتنا وعندما لم يحقق العصير هذا الهدف، ظهر أمامنا كوب آخر من القهوة المغفلة قبل أن نقوم بغسل أيدينا وأفواهنا. وأعطيت لنا بعد ذلك مذبات، واتكأنا على الحشيات الجافة ونحن نحس نوعاً من التخمّة الجميلة، إلى أن انضم إلينا مضيفنا، وبدأنا مسائل المال والأعمال على الطريقة الشرقية، فى الوقت الذى أعدت فيه لنا ثلاثة أدوار من الشاي، كان أولها مر المذاق، والثانى معطراً فى حين كان الدور الثالث مُنعِناً. كان لدى مضيفنا طقم من أطقم الشاي المصنوعة من الفضة، جرى نشره أمامه، فى الوقت الذى راح هو بنفسه يُسخن براد الشاي على نار هادئة، فى حين قمنا نحن بالدوران حول الموضوعات القريبة من قلوبنا، محاولين طول الوقت الاقتراب، والتراجع ومتحاشين العقبات أو شبهات العقبات، ومحاولين الحصول على موافقته الكاملة عن طريق ترك مسألة أسفارنا المستقبلية

بين يديه. وعندما أنهيت كوبى الفارغ الثالث، قام أحد العبيد بسكب العطر على، وقام عبد آخر بتقديم مبخرة مصنوعة من الفضة من فوقها بخور مشتعل له دخان ذكى الرائحة كى أجفف يديّ المبتليتين فوقه! لم يسبق لى من قبل مصادفة هذه العادة الطيبة فى سائر أنحاء الشرق صاحب الجود والكرم.

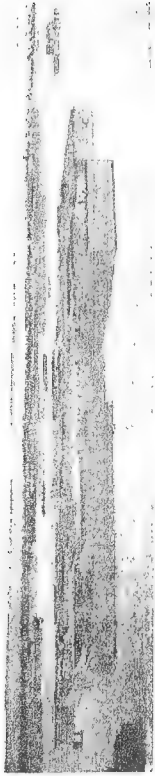
بعد أن ناقشنا مستلزمات الزيارة الأولى- التى تعد أمراً بسيطاً فى نظر الأمريكيين- ودعنا مضيّفنا وعدنا إلى منزلنا البارد الموجود على قمة الصخرة العالية. وطالما قلت إن هذا يوم أكل، أسمحوا لى أن أضيف أنه عند الظهر جاء الوكيل بهي الطلعة يحمل وعاء مملوءاً "بالكسكس" قطره حوالى قدمين. ومن فوقه كان يوجد القسم الأكبر من فك خروف مذبوح فى حين كان جسم الخروف كله محاطاً بخط مستمر من الصلصات المختلفة وصف متراص من البيض المسلوق. وأنا أقول هنا: إنه إذا كان هناك شىء أحبه على الأرض، فإن هذا الشىء هو "الكسكس"، لكنى لم أنظر إليه بلا مبالاة سوى مرة واحدة. اقترح حسانين بعضاً من العلاجات المتباينة التى لا طائل من ورائها، والتى كان من بينها السير على الفور حول الوادى، لكنى آثرت عدم الافتراق عن "كسكسى". كنت أنظر إلى الكسكس باشتياق، وبعد نقاش عنيف مع فراج حول مسألة تسخين بعض من الماء لاستعماله فى الاستحمام، وجدت فى طاقة كافية مكتنتى من إحداث ثقب صغير فى جانب من جوانب ذلك الطعام اللذيذ المصنوع من الدقيق.

بلغ يومنا ذروته عند غروب الشمس، عندما استُدّعينا مرة ثانية لحضور مأدبة ضخمة أقيمت فى منزل سيدى صالح بالغ الجود والكرم، الذى أصرّ على تكريم ضيوف السيد بكل ما وسعته قوته. لقد بهت لتلك المأدبة، لكنى أعتقد أن الطبق الرئيسى فيها كان يحتوى على القسم الأكبر من خروف فسوق كومة من الأرز، الذى على جوانبه سلاطين من حليب حار شديد الحلاوة. وبينما كنا ننتظر مضيّفنا كى ينضم إلينا ليساعدنا بلطف وكياسة على تسريع وقع أعمالنا ومهمتنا،

رحت أهني حسانين على إتقانه وتمثله لشخصيه الشيخ العليم المحترم. كان حسانين ينظر إلى نظرة بلهاء، ثم قال: المسألة ليست مسألة الكرامة. إنه الخُدار!

من الطبيعي أن تكون هناك لحظات أخرى في ذلك اليوم. فقد جاء إلينا شخص صغير بهي الطلعة يبلغ من العمر حوالى تسع سنوات، جاء للقائنا بعد عودتنا من زيارة القائمقام وحضورنا مأدبته الصباحية. هذا الشخص الصغير صاحب أكبر عينين بنيتين، تحيط بهما رموش سمكة مشوبة بظلال من الكحل يزيد من جمالهما. هذا الشخص الصغير أمير وابن أمير، هو سيدى عمر الصغير الذى يتمثل فيه كل الاحترام والتوقير لعرفه. كان سيدى عمر الصغير يرتدى جلابية من الحرير أرجوانية اللون من فوق جُبّه مطرزة وردية اللون، فى حين كان وجهه الشاحب الصغير مطوقاً بكوفية بيضاء من تحت طربوش أرجوانى اللون. أصر سيدى عمر الصغير على مرافقتنا أثناء تجوالنا حول القرية المقدسة، مقدماً لنا النصائح القيمة. كان يقول لى عندما كانت تظهر أطراف ملابس الإخوان البيضاء، عند أحد الأبواب بصورة مفاجئة "ست خديجة، غطى وجهك الآن"، أو يقول: "سيدى أحمد بو حسانين، يجب أن تُحىّ فلان؛ لأنه ولد فلان الفلانى".

من فوق حافة الصخرة العالية، حيث تطل المنازل الأخيرة على المنحدر الشديد، كان منظر الوادى شديد الروعة. كان بوسع المرء السير فى شرقى تاج ويلقى نظرة على الرمال الشاحبة، التى تتكسر حداثها بفعل خضرة الشعير والقمح، وصولاً إلى البحيرة الموجودة بين النخيل والطرف الضيق من الوادى الذى تطبق عليه التلال. بوسع المرء إطالة النظر مباشرة إلى الجنوب حيث توجد حدائق السيد التى تمتد إلى جدران الجوف الصلبة التى ترتفع على شكل أحزمة فوق ربى صغيرة فيها زوايا شهيرة قديمة متفرقة عن بعضها البعض، ويرى الرائي عن بعد خط نخيل زروق، حيث يعطى انكسار الكتبان الرملية الحارسة ومضة توحى بأن الرمال مسطحة ومنبسطة. وفي الناحية الغربية كان المنظر مقصوراً على نظر الرائي نفسه.



VIEW OF JOF.

منظر لوادى الجوف



LAKE AT JOF.

البحيرة الموجودة فى الجوف

كانت هناك قلة قليلة من المنازل المنعزلة تقع إلى جوار كتلة كبيرة من النخيل، كانت تلتف حول الشريط الثانى من المياه الزرقاء الموجودة بجوار مستنقع جاف مالح، يأخذ فى التوسع فى اتجاه الأفق حيث تقع كل من طولاب Tolab وطولليب Tolelib فى عتمة داكنة لأن الوادى يمتد إلى ما وراء التلال المضيق.

عندما بدأنا المسيرة نازلين منحدرًا من المنحدرات يودى من السهل الصخرى الواسع إلى الرمال الناعمة الموجودة أسفله، اختفت ابتسامة سيدى عمر الصغير. حتى قائلاً: "لا تنزلى إلى الأسفل وحدك. الزاويون رجال أشرار. ربما يوجه إليك أحدهم بعض الأسئلة- لماذا جئت إلى بلدهم وماذا تبغين منها؟" وعليه بقينا فى ذلك اليوم على الهضبة والتقطت صورًا عديدة من بين ثنيات ملابسى. حدث ذات مرة أن عرفت فضل الحجاب الإسلامى، فقد كان حسانين يستغل احتياله فى جذب أنظار رفاقنا إلى النظر إلى منظر بعيد، فى الوقت الذى كنت أقوم أنا فيه ببطء وعلى استحياء، مستغله فى ذلك خطو الحريم المتردد، بالاتجاه صوب نقطة مفضلة، ثم أعجل بعد ذلك بإخراج آلة تصويرى طراز ٨ أ كوداك، من كُمى الواسع وألتقط خلسة صورة لجانب من جوانب الوادى المسحور قبل أن أعود إلى التلكؤ من جديد. خاطرت بأخذ لقطة ضوئية وأنا أمام المبنى الرئيسى للزاوية فى الوقت الذى كان حسانين يحيى فيه شيخًا من العلماء، لكنى أحسست بخطورة ما فعلت، نظرًا لوجود قلة قليلة من الطلبة كانوا يتسكعون حول الباب بجوار البرج الذى فى الجدار ولا بد أن يكونوا قد رأوا وميض العدسات بين ثنيات جردى المحزّم أبيض اللون.

الفصل الحادى عشر

مدائن " الكفرة "

بدأت معاركنا من جديد فى اليوم السادس عشر من شهر يناير. ومن سوء الطالع أن حسانين كان مريضا، لكنه تمالك نفسه وكان على رأسنا فترة قصيرة، وسبب ذلك أننا لعدم اقتناعنا بزيارة كل من تاج والجوف، اللذين يمثلان المركز الدينى ومقر الحكومة، قمنا مؤخرا بوضع خطة لاستكشاف الواحة إلى آخر جزء فيها. وبلا طائل، حاولت مجموعتنا التعيسة أن ذلك يمكن أن يكون حالة أخرى من أحوال هواويرى Hawawiri. قالت جماعتنا "الزّاويون موجودون فى 'مدينيتين'. والقرى ليس فيها شيء. بوسعك إلقاء نظرة على بوما Buma من فوق هذه الجدران، فلماذا تتعبين نفسك بالذهاب إلى هناك؟" أحسنا أن هذه الفكرة المفاجئة المتعلقة براحتنا تتطوى على دافع خفى، وعليه أصررنا على ما صممنا عليه. قلت ليوسف: "أود أن أرى هؤلاء الناس". سترينهم كلهم فى سوق الجوف. هم يأتون إلى السوق كل أسبوع كى يبيعوا ويشترؤا. هم غير متحضرين، أقصد الزّاويين الذين يعيشون على حافة الواحة، وهم أناس فقراء لا أهمية لهم". "هذا كلام طيب، ولكنى أود رؤية الطرف الغربى من الوادى". بدت الحيرة على يوسف. قال بصدق: "لكن بوسعك رؤية كل شيء فى الكفارة، من هذا الجبل". وقصرت كلامى على أنى أود رؤية المنازل الحقيقية فى كل من طولاب وزرّوق. كان رفيق حاشيتنا المتين بتمتع بروح الدعابة. ذكرنى "لن تستطيع رؤية منازل هواويرى من مخيمنا!" "أنا أود. أن ألتقى رؤساء الزّاويين، وأنا إذا ما ذهبت إلى القرى أستطيع التحدث معهم". ركز يوسف على هذه المسألة فى شيء من السعادة. "بوسعهم أن يأتوا إليك وتسألهم عن أهلهم".

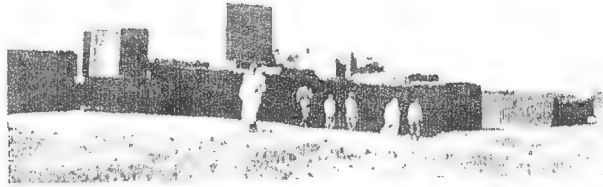
وتأسيسنا على ذلك، صدر أمر من القائمقام يقضى بحتمية مجيء الرؤساء القبليين إلى بلدة تاج للقاء الغرباء المهمين، وتحدد موعد ومكان ذلك اللقاء المهم "بأربع ساعات قبل غروب الشمس وفي منزل سيدى إدريس". كنا نتوقع حدوث عراك، لأن عبد الله كان غائبا عنا طوال أربع وعشرين ساعة، وكان قد بلغنا مؤخرا أن عبد الله كان قائما بجولة فى القرى الصغيرة، ينشر خلالها قصص الخيانة التى فشل فى ترويجها فى المراكز السنوسية، لكننا لم نكن ننتظر لقاء كارثيا بمعنى الكلمة. كان الشيوخ الأربعة عشر الذين جاءوا إلى مكان الاجتماع متأخرين ساعتين، ضعافا، وعلى قناعة من أنهم ما نفذوا خططهم سيكونون يتصرفون على عكس ما يوده السادة الذين يحترمونهم ويجلونهم. ومع ذلك، كانت كراهية هؤلاء الشيوخ للأغراب شديدة جدا، وقد أذكت عزلة هؤلاء الشيوخ تلك الكراهية وقوتها، إلى أن أصبحت جزءا من مذهبهم شأنها شأن الشهادة أو الزكاة، إلى حد أنهم كانوا مصممين على منع اختراقنا، بأى ثمن، لأى جزء من بلادهم. وهنا بدأت أستوعب بصورة متدرجة شيئا من فكر هؤلاء الناس المتشككين الغربيين، أثناء جلوسى وسط هذه الدائرة من الوجود الكنيبة المربية.

الزوايون معروفون، منذ أجيال، بأنهم قبيلة خارجة على القانون. هذه القبيلة جاءت أصلا من فزان على شكل مجموعات من العائلات، ولكل عائلة من هذه العائلات رئيس، لكن لم يحدث أن كان لهم رئيس أعلى. كان عبد الله الشيكارى هو وهلياج أشهر قدامى شيوخ تلك القبيلة، على الرغم من أن عجيل Agil كان هو الذى التقى سيدى بن على السنوسى فى مكة، وأخبره عن تلك الأرض الغربية المطوقة فى وسط الصحراء الكبرى التى كان الزاويون قد استولوا عليها من التبو Tebu بعد أن دب فيهم الضعف والوهن. كان ذلك الزهد والنقشف الكبيران قد أوقدا شعلة الخيال الدينى فى شمال إفريقيا بدءا من مراكش (المغرب) وفى اتجاه الشرق، لكن سيدى بن على السنوسى لم يكن يعرف شيئا عن جنوبى ليبيا. ومع ذلك، أبلغ سيدى بن



ZAWIA TOWER AT TAJ.

برج الزاوية فى تاج



SAYED AHMED SHERIF'S HOUSE AT TAJ.

منزل سيدى احمد الشريف فى تاج

على السنوسى، رجال القبائل شبه المتحضرين أنهم سيعثرون فى وادى قريب من تيسيربو على شجرة من أشجار الأراك، المأخوذ اسمها من الخشب الذى يصنع العرب منه فراش أسنانهم البدائية. وبناء عليه جرى اكتشاف الشجرة فى الوقت المناسب، وذاعت تلك المعجزة بين أفراد القبيلة، ثم ذهب عجيل بعد ذلك ناحية الشمال مرة ثانية إلى الجبل الأخضر فى برقة، ليقدم فروض طاعة وولاء أهله وناسه للسنوسى العظيم. وبذلك أصبحت الكفرة، السلطنة الأصلية للتيبين Tebus، منذ أن غزاها الزاويون قبل مائتين وخمسين عامًا، مكانًا خطيرًا على القوافل كلها، نظرًا لأنها تعد معقلًا دائمًا للعصابات التى تعيش على السلب والنهب.

جرى العرف على أن يقوم المسافرون - وبخاصة التجار منهم، الذين يسرون عبر الواحة - بدفع 'ضرب' (*)، هو نوع من المكوث يتباين طبقًا لقيمة البضاعة، وإلا جرى الهجوم على القافلة وسلبها ونهبها.

قبل مجيء السنوسى لم يكن فى الواحة سوى النخيل، وكان رجال القبائل راضين بملابسهم شديدة البدائية، التى لا تفرق كثيرًا عن ملابس التبو المصنوعة من جلود الحيوانات. ومعروف أن سيدى المهدي هو الذى أدخل الجبرد والجبة.

جاء فجر الحضارة مع الإخوان الذين جاءوا من قبل سيدى بن على، لكن المهدي هو الذى جعل الكفرة بالشكل الرائع الذى هى عليه الآن، ومع التوسع فى الزراعة بدأت زراعة الحبوب، والفواكه، والأزهار. يحظى سيدى إدريس بشيء من النفوذ بين الزاويين، نظرًا لأنه ولد من أبناء المهدي العظيم، على الرغم من أن شخصيته القوية تمثل الكثير فى أرض تندر فيها الفردية بشكل واضح. أضطر الزاويون فى ظل الحكم السنوسى إلى التخلي عن أعمال العصابات المنظمة، لكنهم خلفوا وراءهم تاريخًا طويلًا من القتل والسلب والنهب - هذا يعنى أن نصف مأسى

(*) كلمة ليبية واطن أنها فصيحة فقد قرأت فى المعجم الوسيط: 'ضرب الشيء عليه': ألزمه إيّاه، ويقال ضرب عليه خراجًا ونحوه: فرضه وقثره. (المترجم)

الصحراء الكبرى يمكن أن تعزى إلى هذا الصنف من البشر - ولا غرابة عندما نقول: إنهم لا يزالون خارجين على القانون وهمجيين. الكل يخافونهم، وقوة المهدي الكبيرة هي وحدها التي ألجمتهم. كان الزاويون في حقيقة الأمر، كفاراً قبل خضوعهم لسيدى بن على، وكانوا قد ارتدوا عن الإسلام قبل فترة وجيزة، وذلك على الرغم من مجيئهم من اليمن، وربما كانوا يشكلون جزءاً من الجيوش التي كانت تابعة لبنى سليم Sulcim في القرن الحادى عشر، والتي جاءت من مدين عبر سوريا ومصر قاصدة برقة، التي استوطنتها بعض القبائل، وبخاصة العبيدات، وحسان، وفايد، والبراهسة، واليوشا، وعبيد أو اغير ومغاربه Mogharba. أختلط ذلك التطرف الدينى الوحشى الذى تشربته أولئك الزاويون حديثاً من أولئك المتقشفين الذين كانوا ينادون بإسلام نقى جديد، أختلط بكراهية واحتقار كل أولئك الذين لم يلتقوا أو حصلوا على تعاليم هذه الحركة الجديدة. وجرى تطبيق مقوله "من ليس معنا، فهو ضدنا" تطبيقاً حرفياً وأغلقت الأرض فى وجه الغرباء سواء أكانوا مسيحيين أم مسلمين.

من هنا، كان من السهل فهم موقف الأشخاص مرتدى الثياب البيضاء، الذين تقوقعوا بلا حراك فى طرف من أطراف الغرفة الطويلة. أحسوا أنهم لا يدافعون فقط عن بلادهم المخبأة بسبب الغيرة والحقء وإنما أيضاً عن دينهم فى مواجهة الغرباء الذين يكرهونهم ويخافونهم أصلاً. كانوا فى دواخلهم لا يصدقون أن السادة الموقرين قد رخصوا لنا القيام برحلتنا. انعدام الثقة المستمر والشك المتواصل أيضاً رفيقان يوميان سيئان. كانا ظاهرين ومرسومين على الوجود الواجمة المحيطة بنا، الأمر الذى ترتب عليه عدم وجود أحد من البدو الصُرحاء الذين لا يخافون. كان حامد بو كُريم، ولد الرجل الذى أنقذ رولفز الألمانى، يجلس فى جانب من الجوانب، ووجهه الضيق الداكن يحمل مسحة من العناد الصامت. وكان يجلس أمامنا الشيخ سليمان بو مطر، وهو البقعة الوحيدة الملونة فى المجموعة كلها، لأنه

كان يرتدى تحت جبرده لباساً برتقالياً فاقع اللون؛ وكان يجلس معه أيضاً بو شناف الفضاض، ذلك الرجل كبير السن صاحب اللحية الرمادية، الذى كان يصب الحين والآخر شيئاً من الزيت على المياه المتحركة. وكان كل من الشيخ بدر والشيخ مبروك بو حلايق Helayig من بين الحاضرين أيضاً.

صمم الحاضرون كلهم على معارضتنا وعدم الاستماع إلى أية حجة مهما كانت. صاحوا قائلين: "خلاص! انتهى الأمر! انتهى الأمر! ما فائدة المزيد من الكلام؟" قال بو كُريّم: "إذا كان معكم رسالة من سيدى إدريس، تنص على قيامكم بزيارة قرانا كلها بالاسم، فسوف تسمح لكم بذلك". "أنتم تعرفون أن لدينا تصريحاً من السيد بزيارة الكفرة. ولا يستطيع أى مسافر أو رحّال أن يصل إلى خارج إجدابيا بدون إذن أو تصريح من هذا القبيل. هل تظنون أنه كان يتحتم علينا المخاطرة بموت محقق؟ نحن نعرف أن أحداً لا يمكن أن يتطلع إلى زيارة الحدود الخارجية لبلدكم دون موافقة من سيدى إدريس، لكننا ضيوف على سماحته!" غيروا أسباب شكواهم. قال سليمان بو مطر محتدّاً: "لقد زرت الكفرة. أما الجوف هى وناج 'مركاس' (١) الحكومة. القرى ليست مهمة. وهى خالية من الزوايا". لم يكن هناك طائل من وراء الجدل، لأن أحداً لم يكن مستعدّاً للتنازل أمام الآخرين. رأينا أن واحداً أو اثنين كانا يضعفان من باب احترامهما للحقيقة التى مفادها أننا كنا ضيوفاً على حكامهم، لكن الغريزة القديمة الموروثة هى التى كانت تربطهما إلى بعضها البعض. جرت العادة أن مسألة بقاء خمسة عشر عربياً فى مواجهة حجج قوية - حتى ولو لمدة ربع ساعة - تعدّ أمراً مستحيلًا بين العرب، لكننا كنا نقاوم مبدأ متأسلاً فيهم ويشكل جزءاً من وجودهم شأنه شأن الطعام والشراب. دوى صوت يقول "خلاص! خلاص!" من كل الجوانب، دونما انتظار حتى لشرب

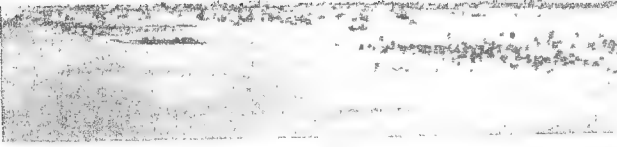
(*) مركاس: كلمة ليبية عامية تعنى "مقر". (المترجم)

الشأى، لينفض الاجتماع على الفور. قالوا: "لقد تكلمنا، ولا فائدة من الجدل". وأضاف الشيخ قائلاً: "إذا ذهبتم فليكن ذلك من قبيل مخاطرتكم أنتم". وقبل انطلاق آخر دفعه من التهديد، كانوا جميعاً قد قرءوا "الفاتحة" ليثبتوا أنهم كرموا السيد فى شخص ضيوفه!

وبذلك يكون المجلس الغريب قد انتهى، عندما بدأت آخر شخصية من الشخصيات التى ترتدى ملابس بيضاء البحث عن حذائها حافة الحصير المفروش من فوقه سجاد، وهنا وجدت حسانين يتحول ناحيتى يائساً. قال حسانين: "لقد فشلنا فشلاً ذريعاً!" لن أوافق على ذلك. لقد جاء إلينا الضيوف وهم مصممون على أمر ما، متخذين تشكيل المعركة، وكل واحد منهم عازم ومصمم على مساندة الآخرين، وهم سيفترقون الآن، ويصبح كل واحد منهم وحده، وسوف يراود كل منهم ذلك الإحساس البارد الذى يسائل المرء فيه نفسه عما فعل وعن النتيجة التى يمكن أن تترتب على ما فعل. قلت له: "انتظر! سيستشعرون على وجه السرعة أنهم اثبتوا لنا مدى الخطورة المترتبة على عبور حدودهم، لكنهم سيتذكرون أيضاً بيتاً من ذلك الذى التقونا فيه!"

فى ساعة متأخرة من فترة العصر جاءنا تاجر من المجابره، يدعى تواتى Tawati حيفان، ولدعمَ صديقنا القديم شيب، وصديق واحد من الاخوان، يدعى سيد محمد سمن، جاء لزيارتنا من قبيل الترحيب بنا من ناحية ومن قبيل تهدئتنا بسبب المسلك الذى سلكه الزاويون. قال: "هم أناس سينون. وهم دوماً على هذه الشاكلة!"

تغرب الشمس وتنهال علينا الدعوات لتناول العشاء فى المنزل كثير الأحواش. وادى الكفرة جميل بصفه دائمة، لكنه يصبح ساحراً عند غروب الشمس، والسبب فى ذلك أن حزام التلال الغربية يبدأ فى التلون بلون أرجوانى فاتح عجيب وأضواء بنفسجية، فى حين يكون نصف الواحة فى ظل هو خليط من لون الزمرد واللون الأزرق الياقوتى الصادر عن النخيل والبحيرة، أما النصف الثانى من



RUFARA WADI, FROM TAJ.

منظر وادى الكفره من تاج



RUFARA VALLEY, FROM TAJ.

منظر وادى الكفره من تاج

الواحة فيبدو كما لو كان مشتعلا حيث تعكس الرمال المحترقة روعة السماء. هذا المنظر كان يُمسك على أنفاسي، بصورة مفاجئة في كل مرة أخرج فيها من الباب الصغير المميز، في أعقاب العبد أنوسى البثرة، الذى كان يهتم اهتماما كبيرا بمسألة شهيتي، ولم يفهم مطلقا السبب الذى جعلنى لا أستطيع مسايرة الإفطارات الثلاثة التى أرسلت لى من قبل كثير من المضيفين.

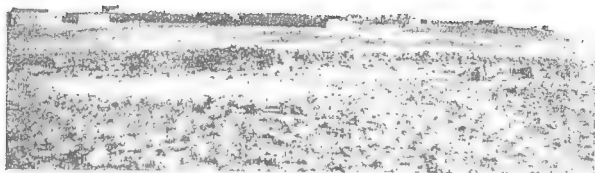
لم أدرك قط إدراكا كاملا مسألة بعد الكفرة، إلا بعد أن قام العبيد المهرة بإبعاد الصينية الضخمة المصنوعة من النحاس الأصفر، ومعها بقايا وجبتنا، فقد جلسنا بلا حراك بجوار مضيفنا فى الغرفة الطويلة المظلمة، فى الوقت الذى راح هو فيه يُصلح لنا الشاى ببطء وعناية. أدت الاحواش الكثيرة عاليه الجدران إلى إحداث نوع من الصمت فى تلك الغرفة المعتمة كثيفة السجاد والأبسطة، ونادرة الأضواء، كان ذلك الصمت عميقا مثل سكون الصحراء. لم يكن للكلمات، أو حتى الابتسامات. مكان فى ذلك الاحتفال الصغير، فى حين كان ماء الورد أو النعناع يُكأل بواسطة أصابع مضيفنا الحساسة. كانت توجد خلف دائرة الضوء الناجم عن سمعة واحدة موضوعه فى شمعدان عالٍ مصنوع من الفضة أشكال غير واضحة لمخدرات أو صناديق كبيرة ظهرت لنا فى الأركان البعيدة. داخل دائرة الضوء هذه، كان يوجد شيخ شاب، يرتدى ملابس كلها من اللون الأبيض، وذلك بدءا بكوفيته المصنوعة من الحرير وانتهاء بحيرده الفضفاض، وكان يجلس إلى جواره مضيفنا المتأمل جاد النظرات، وعلى كتفيه شال شديد الاخضرار له قيطان أرجوانى اللون، وكان وجهه البرونزى المطرق على جبهته الطويلة الخضراء، التى كانت تكشف من تحتها عن صدىرى فخم مطرز تطريزا رائعا. كانت هناك يد مزينة بالمجوهرات تسكب ببطء قطرة بعد قطرة من انعطر الخام فى قوارير العنبر، فى حين كان الدخان ذكى الرائحة منبعها عن مبخرة صغيرة فى الصورة. كنت أتمنى للزمن أن يتوقف برهة كي أمسك بظلال الأفكار التى كانت تتأرجح بين النور والظلام، كان

الصمت صوفيًا إلى حد بعيد جدًا. ثم ينطلق بعد ذلك فجأة ذلك الصوت الواضح الذى أكمل ذلك الانسجام - صوت المؤذن وهو يؤذن لصلاة العشاء!

هبطت فى اليوم التالى جماعة صغيرة بانسة إلى حد ما نازلة من واحد من الشُعاب المنحدرة إلى الوادى. كانت تلك الجماعة مكونة من حسانين ومنى، ونحن راكبان على حمارين صغيرين جامحين، وكان معنا قومندان الشرطة، الذى كان يرتدى زيًا رماديًا زاهيًا، ومشروطًا وعليه كلفة حمراء اللون، ويضع على كتفيه تلفيحة ضخمة لها شراشيب، ومعه أربعة جنود مسلحون تسليحًا تامًا، وكان معنا أيضًا شيخ مرموق من شيوخ الزاوية يدعى محمد تفتيحات Teifaitah، ذلك القبلى الوحيد الذى بلغ من الشجاعة حدًا جعله يرافقتنا. كان ذلك الشيخ يركب على ظهر حصان عربى رائع أبيض اللون، منحنى العنق، طويل الرسغين، عليه سرج قرمزي اللون، منحنى المقدمة، ومن تحته خمسة مراشح^(*) مختلفة الألوان، وركاب من الفضة شبيه بوعاء حمل الفحم.

واحة الكفرة تضيق عند طرفها الشرقى، وفيها شرخ أو كسر فى جدارها الصخرى الجنوبى، حيث يوجد فراغ واسع يمتد إلى أن يصل إلى ما وراء زرؤوق، ويأخذ ذلك الكسر فى الاتساع كلما اتجه ناحية الغرب. تبدأ كتلة النخيل الرئيسة بين الجوف وتاج وتمتد غربًا إلى طلاك Talakh، لكن هناك تجمعات متعددة ومنعزلة من النخيل، وتعد تجمعات بويما وبوما أكبر هذه التجمعات. اتجهنا صوب الشرق فى البداية، بطول سفح القمم الصخرية المرتفعة، وأدركت عندما كنا نتبختر خلال الرمل الكثيف المكتسى لونا مرجانيًا شاحبًا، أن الإنسان إذا ما أراد الاحتفاظ بانطباع عن واد ساحر فإنه يتعين عليه عدم مغادرة المرتفعات مطلقًا. هناك بقاع جميلة فى الوادى، تختلط فيها ظلال أشجار النخيل بظل أشجار الأثل، وظل عيدان

(*) واحده 'مرشحه'، وقد يقال له 'عراقه'، وهى قطعة من الخيش أو اللباد الملون توضع تحت السرج على ظهر الحصان أو الحمار لامتصاص العرق. (المترجم)



VIEW OF TAJ, FROM THE NORTH.

منظر تاج من ناحيه الشمال



KUFARA OASIS, FROM TAJ.

منظر لواحة الكفره من تاج

السمار بعضها ببعض؛ كما توجد أيضا بحيرة ساكنة إلى حد ما، لكن المرء لا يقف إلا من عل على كل هذه العجيبة من عجائب الماء والغابة والبلدان ذات الجدران داكنة اللون، الموضوعة داخل دائرة مغلقة من التلال الشبيهة بالمجهرات.

عندما اقتربنا من بويما، بمنازلها القليلة، الكبيرة مربعة الشكل أو بيضاوية الشكل التي يميل لونها الأرجواني إلى الاحمرار، والواقعة أسفل القمم الصخرية الشمالية المرتفعة، التي تبعد مسافة قليلة عن حدائق بويما، بدت العصبية الشديدة على الشيخ. وهنا خرجت أشكال بيضاء للنظر إلينا، وحثنا الشيخ على الابتعاد عن تلك الأشكال، لكنني أردت أن ألتقط صورة! أرجو أن يخيل المرء أن مسألة تطويع الحمار البري ليست بالأمر السهل، لأنها تتسبب في الإبقاء على وجه المرء مخبأ تماما، ناهيك عن وجود آلتى تصوير بلا جرابين، وفيلم احتياطي من أفلام التصوير!

الواحة جميلة في قرية بويما، وسبب ذلك هو التدخل الذي بين مجموعات النخيل وأنواع متباينة من النباتات الشوكية، وأشجار الزيتون القليلة داكنة الخضرة، وأشجار الأثل، وأشجار السنط وكذلك الأشجار الرمادية الريشية التي يصفها الناس "بالحطب". تقع بويما على بعد كيلو متر واحد من هذه المنطقة. توجد في ناحية من الواحة بعض المنازل سيئة الحال التي تعد على أصابع اليد الواحدة، يقيم فيها العبيد الذين يقومون على أمر الحدائق، والتي بُنى البعض منها من النخيل، والبعض الآخر من الطوب الرملى غير المستوى، في حين توجد هناك بحيرة جميلة لونها أزرق فاتح جميل، تحيط بها عيدان السمار العالية من جميع الجوانب، وهي موجودة في وسط انقرية. شاهدنا على الشاطئ الجنوبي، حيث توجد رقعة من الأرض البور الجافة المالحة، أنقاض قلعة كبيرة من قلاع التبو Tchu. هؤلاء الناس القدماء اختاروا مواقعهم بعناية، نظرا لأن المكان الشبيه بقرص العسل الواقع على حافة الماء، هو وجدرانه الرمادية المكسرة، والتي تكسر جدار منها بفعل الحجر الملحي الذي يحيط به، يجعل الوصول إلى ذلك التجويف بالغ الصعوبة عن طريق البر. كان

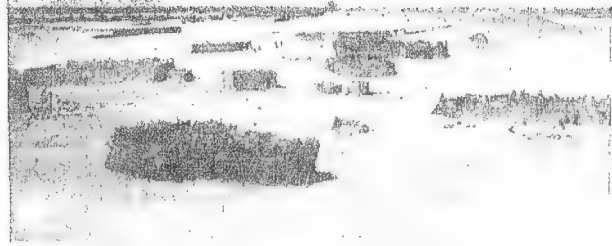
هناك منزل أو اثنان من المنازل الصغيرة المستديرة مثل الفرن، مبعثران على مقربة من البحيرة، مما جعلنا نتساءل عما إذا كانت بويما هي عاصمة الكفرة التيبية القديمة - التي كانت تسمى تاذر Tazerr - وقتئذٍ - نظراً لأن هذه القلعة كانت أكبر من أية قلعة أخرى في بئيمة، لكنها كانت بلا سقف أو نوافذ كالعادة.

انتقلنا من مزارع القرع العسلى الأصفر، ومزارع الفجل، والجزر الأبيض، والبصل والتي فيها مناطق مروية مزروع فيها القمح والشعير، صوب الجنوب بطول تلك المساحة الطويلة المستوية من الرمل المخلوط بالحصى إلى أن وصلنا إلى زرؤوق تلك المنطقة الطويلة من النخيل المملوك لسيدي إدريس وبعض السادة الآخرين. هذا الجزء القصى من الواحة في الناحية الجنوبية ليس فيها أية قرية من القرى. لا يسكن هذا المكان سوى العبيد السودانيين الذين يباشرون أحوال التمور ويتولون شىء من النخيل. توقفنا عند سور مصنوع من سعف النخيل، لنسأل شخصاً أسود سواد الأبنوس، يرتدى ثياباً مهلهلة، كى يعطينا شيئاً من التمر. ويغوص العبد فى كوخه المصنوع من سعف النخيل المضفور، ليعود إلينا بقرعة مجوفة مملوءة بالتمر الجاف كبير الحجم، الذى يميل لونه إلى اللون الأرجوانى، المخلوط مع حبات التمر غير الناضجة التى لونها مثل لون الليمون والتي يأكلها العرب لكى يرووا ظمأهم. ركبنا المسافة كلها بطول شريط نخيل زرؤوق، نظراً لأن الزواوى Zouia كان قد تخلص من شكوكه وبدأ يصبح أهلاً لتقتنا. سألناه عن موعد مجيء أهله، فى الزمن القديم، إلى الكفرة، وأجابنا "والدى. وجدته، وجد جده عاشوا فى هذا المكان، لكن القبيلة كانت قد جاءت إلى هنا قبل ذلك الزمان." كان عمر الشيخ محمد ستة وخمسين عاماً، وعليه استنتجنا أن الغزو حدث قبل حوالى مائة وخمسين عاماً. وأنه لشيء محزن أن يختفى التبو من الوادى على نحو أسرع من اختفاء أنقاض منازلهم المستديرة العجيبة. لم يكن فى هذا الوادى قبل خمس سنوات فقط سوى حوالى خمسمائة نسمة من أصحاب البشرة السمراء، والوجود

المدوّرة، والشعر الناعم، وفتحات الأنف الواسعة، والأفواه الواسعة أيضاً، التى ليست لها شفاة زنجية. لا يوجد الآن سوى ما يتراوح بين خمسين ومائة نسمة. يعيشون كلهم تقريباً فى قرية من سعف النخيل، وأكواخ قليلة مصنوعة من الطين وموجودة على الحدود الخارجية للجوف. هؤلاء السكان يغلب عليهم الطابع الرعوى أكثر من العرب، وعليه وعلى الرغم من قلة استخدامهم للزرايين، فإنهم يمتلكون عدداً كبيراً من الماعز والغنم مع عدد قليل من الإبل.

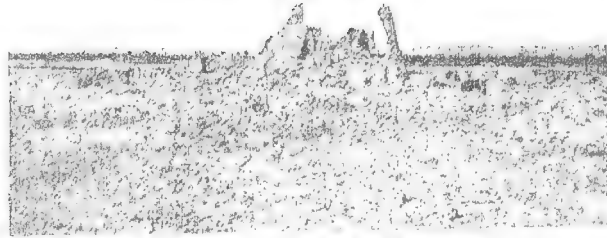
لا توجد من الناحية الفعلية مراعى فى الوادى، اللهم باستثناء قليل من الأعشاب أو أعواد السمار الخشنة التى توجد بالقرب من البحيرات، كما توجد بعض الحزم المتفرقة بنية اللون، التى هى فى معظمها حطب مغطى بالطحلب، ومن النوع نفسه الذى رأيناه فى بؤسمة. وعليه لا يوجد سوى عدد قليل جداً من القطعان، ولذلك يعد الحليب واللحم من الكماليات عند معظم الناس، باستثناء الأخوان الأغنياء الذين يعيشون فى تاج. يزداد على ذلك أن الماء ليس وفيراً، لعدم وجود عيون مائية. المطر لا يسقط مطلقاً فى هذه المنطقة. وقد لا يسقط المطر طوال ثمانى سنوات متتالية. والحدائق كلها تروى بمياه الآبار، لكن عمالة العبيد متوفرة وكثيرة. ومع ذلك تصبح الكفرة فى فصل الصيف جئات عدن بحق. وهى تصنع من كرومها الخل الذى نشربه على موائد الطعام، ومن ورودها يصنع العطر الخام الذى نضعه فى الشاي، كما تصنع منها أيضاً العطور الأثقل من ذلك والتى نوضع فى مناقدا^(*). الكفرة أيضاً فيها الزيتون الذى يصنع منه الزيت، وفيها اللوز، والليمون، والتين، والشمام، والخوخ. والجلود تأتى إلى الكفرة من السودان، وصناع الأحذية فى الجوف يصممون ويصنعون أحذية حمراء بهيجة بلا كعب، من الجلد الطرى دون استعمال المسامير فى ذلك؛ لكن هذه الأحذية تكون لها أربطة

(*) واحده 'منقد' وهو 'المدفأة'. (المترجم)



TEBU VILLAGE IN KUFARA.

قرية تيبة في الكفرة



RUINS OF FEBU CASTLE IN KUFARA.

انقاض قلعة تيبة في الكفرة

تُلف حول الساقين. التبو يصنعون السلاسل والحبال من سعف النخيل، لكن الكفرة ليس فيها نسيج. وملابس الإخوان الفاخرة، التي كانت دوما محل إعجابنا، تأتي من مصر. "قبل الحرب العالمية الأولى، كانت هناك قوافل كثيرة. كانت تلك القوافل تجيء بمعدل قافلة كل يوم". (وهذا يعني أن قافلة من هذه القوافل تكون دوما داخل حدود الواحة، وربما كانت تصل الكفرة قافلة كل أسبوع). قال الشيخ محمد: "القوافل أصبحت قليلة هذه الأيام."

عرفنا أن القافلة التي تأتي من السودان تكون مكونة من مائة وخمسين جملاً، قد تكون مملوكة لأثنى عشر تاجرا مختلفا، وأن تلك الإبل كانت تحمل عاجا، وريشا، وصنادل من الجلد؛ لكن مسألة تهريب العبيد أصبحت أمرا صعبا نظرا لأن القانون الفرنسي الصارم ينص على مصادرة القافلة كلها إذا ما عثر فيها على مجرد عبد واحد. واقع الأمر أننا كنا قد أمضينا سبعة وثلاثين عاما على الطريق من إجدابيا، ولم نلتق أية قافلة من واداي Wadai، ولم تصل أيضا أية قافلة طوال مقامنا في الكفرة؛ لكن ذلك ربما يكون راجعا إلى حد ما، إلى الحقيقة التي مفادها أن البدو يفضلون السفر في فصل الصيف، حيث يمشون فيه معظم الليل وينامون القسم الأكبر من النهار. وبذلك يقطعون مسافة أكبر، دون معاناة شديدة من البرد القارس في فترة الفجر في فصل الشتاء. علاوة على ذلك أن فصل الشتاء هو موسم ولادة الإبل في ليبيا، الأمر الذي يؤثر تأثيرا كبيرا على عملية السفر والترحال.

تقام في الجوف سوق كبيرة بواقع مرتين كل أسبوع، والناس يأتون إلى هذه الأسواق من أماكن بعيدة مثل هوارى وطولاب Tolab لمقايضة الحمام والبيض، والدواجن، والقرب والمواد الغذائية. العبيد لم يعودوا يباعون الآن في الميادين العامة في أيام الاثنين وأيام الخميس، لكن صفقات بشرية كثيرة تعقد في المنازل المغلقة نوافذها. الرجل يشتري بمائة مجيدى والمرأة تشتري بمائتي

مجيدى، أما الفتيات الصغيرات اللاتى يتراوح عمر الواحدة منهن بين أربعة وخمسة عشر عاما فيمكن شراء الواحدة منهن نظير مائتين وخمسين مجيديا (حوالى ٥٠ جنيها إنجليزيا). قال الزواوى Zouia: "هذه أسعار مرتفعة". لكن الناس فى برقة أشتروا كثيرا من العبيد فى الفترة الأخيرة، كما تجيء إليها قلة قليلة من القوافل." عرفنا أن الطوارق الذين يعيشون فى الجهة الغربية لديهم مزارع دورية للعبيد، وأنهم يربون فيها المخلوقات البشرية ويبيعونها مثلما نبيع نحن الماشية. قال الشيخ الوصى علينا "يمكن رؤية ستين عبدا فى مزرعة واحدة." ضرب لنا ذلك الشيخ الوصى علينا مثالا على عدم تحضر الزواويين قبل مجيء السنوسى، بأن قال لنا: إن شيخا يدعى محمد الشريف ذهب إلى بنغازى، نهاية العالم، وعاد معه مصباح يعمل بالزيت، اعتبره القبليون فى الكفرة معجزة من المعجزات. وبذلك استطاع بقوة شىء قليل من الكيروسين حكم هؤلاء الناس سنوات عدة، وإصدار أحكام والكشف عن الأثمين من خلال تفسير ضوء هذا المصباح.

استغرقنا الحديث، ورحنا ندور حول الأرض الصخرية الوعرة الموجودة فى الناحية الجنوبية من حزام نخيل الجوف العريض، إلى أن وصلنا إلى طلاخ Talakh، عند نهاية الطريق توجد منطقة يمتلك السيد أحمد فيها كثيرا من الحدائق. كانت هناك مستعمرة كاملة من العبيد الذين يقيمون فى مجموعات من التواكل^(*)، الموجودة داخل أسوار أنيقة مصنوعة من سعف النخيل، كما كانت هناك أيضا بعض المنازل الأكبر من تلك التوكلات، مبنية من الطوب الرملى، التى كان يجرى فوق أسطحها تجفيف كميات كبيرة من التمر فى ضوء الشمس. كانت فترة العصر متقدمة فى ذلك الوقت، لكن الزواوى كان يود أن يُرينا بقعة الجمال فى الواحة،

(*) واحدة 'توكل' وهو 'كوخ مستدير'، والكلمة ليبية عامية. (المترجم)

وعليه سرنا ونحن نركب مطايانا عبر بيارات النخيل الكثيف بين رواب من الأدغال رمادية اللون إلى أن وصلنا فجأة إلى بحيرة صغيرة مستديرة، والتي كان ماؤها الساكن يعكس كل جريدة متدلّية من جريد النخيل الذي يحيط بها، تحت ظل ضفاف كهرمائية عالية تطوق البحيرة من جميع الجوانب، الأمر الذي جعل البط يلعب فيها في أماكن دون أن يخاف الناظرين إليه. كانت صورة جميلة، ظهرت فيها عن بعد تلال لها حمرة الورد، لكننا أحسنا بالسعادة عندما أدركنا رءوس حمرنا نحو المنزل، بل وزادت سعادتنا أكثر عندما بدأت تظهر لنا منازل تاج الضخمة عن بعد، فوق أكثر الصخور اندحارًا.

أسماء قرى الكفرة شيء مهم ومسلّ أيضًا، وإذا كان الاسم الإنجليزي Taj يعني 'تاج' في اللغة العربية، وهو ما نسميه في الإنجليزية A crown، وإذا كان الاسم الإنجليزي Jof يعني 'جوف' في اللغة العربية، فإن الاسمين 'زرُوق' و 'طولاب' هما اسمان لقبيلتين لا تترالان موجودتين في مصر. أبلغنا الشيخ محمد أن هاتين القبيلتين ساعدتا الزواويين على غزو التبو التعساء وأنهما حصلتا على المكانين اللذين يحملان اسميهما على اعتبار أنهما نصيبهما من الغنائم. وأبلغنا أيضًا أن هاتين القبيلتين بدأتا تعربان عن لقبهما من بعد الوادي ومن المنازعات التي بين الزواويين والتبو، والتي استمرت إلى أن جاء السنوسي، وبذلك عادت القبيلتان إلى بلادهما.

شهد اليوم الثامن عشر من شهر يناير النهاية الحقيقية لهذه الرحلة الشاقة. وعندما كنا نستأذن سيدي صالح في الانصراف، بعد أن تناولنا كوبنا الثالث من الشاي المنعنع، سألنا الشيخ ما إذا كنا نود زيارة زاوية الأسياذ (*) Assayad. كنّا كل يوم نمر على المجمع السكني الكبير الذي كان ينطلق منه صوت يرتل القرآن.

(*) المقصود هنا 'السادة'. (المترجم)

كنا نعرف أن قبة المهدى موجودة داخل هذه الجدران القوية، باعتبارها رمزاً ليس إلا، لأن السنوسيين يعتقدون أن وليهم لا يزال حيًا، ومع ذلك يحظى مقصد الحجاج السنوسيين وضريح وليهم بالتقدير والاحترام مثل قبر النبي ﷺ. ومن خلال الحوار الهادئ المحترم، الذي تخلله قدر كبير من وقفات الصمت المناسبة، استطعنا الاقتراب من موضوع زيارتنا للضريح المقدس، ولم يرد الرجل علينا بشيء سوى "إن شاء الله". الزمن والتاريخ أمران غير معروفين في الشرق. وعليه كان علينا الانتظار إلى أن يقنع القائمون باللمحة المناسبة لتلك الزيارة.

مررنا من خلال المسجد الكبير المنخفض الملحق بالزاوية. كانت هناك صفوف من الأعمدة مربعة الشكل مغطاة بالجبس تحمل جذوع النخيل الثقيلة التي تشكل الدعائم الحاملة للسقف المسطح. لم يكن المسجد مزينًا بأي حال من الأحوال، وكان المنبر شيئًا بسيطًا للغاية، وغير مدهون وبدون نحت أيضًا على الخشب؛ ومع ذلك، نسيبت لمدة لحظة، وأنا أقف على عتبة قدس الأقداس في واحدة من تلك الhdh. متاعب وأخطار الرحلة الطويلة التي قمت بها. فهمت شيئًا من خوف وتوقير، كل حاج من الحجاج الذين يخلعون أحذيتهم، بعد السفر الطويل، ليمشي في النهاية فوق الحصير الأبيض المفروش في المسجد، ليدخل بعد ذلك إلى الغرفة المعتمدة التي يقبل فيها القبة المقدسة. وهنا أدركت لأول مرة، معنى الارتياح الكبير الذي يعقب الرحلة، ومع ذلك، جاءت تلك الغرفة الطويلة الضيقة على العكس من فكرتنا الغربية عن الضريح. كان القسم الأكبر من مساحة الغرفة عبارة عن قبور لأفراد من أسرة السنوسى، وهذه القبور ببيضاوية الشكل ومبنية من رمل الصحراء، ولها حواف من الحجر وشاهد من الحجر عند كل طرف من طرفي القبر. وكان هناك ممر ضيق مفروش بالسجاد يدور حول هذه القبور ويؤدي إلى الطرف البعيد من الغرفة حيث توجد قبة المهدى - التي هي عبارة عن إطار من الخشب على شكل عقد ومغطى بقماش أحمر اللون.

كانت بساطة الغرفة شينا واضحا، كي تناسب عقيدة تقوم على نبذ الترف بكل أشكاله. لم يكن في الغرفة ما يحدث انطبعا في نفس أى حاج من الحاج سوى توقيده للمكان. هذا يعنى أن عبادة الحاج ينبغى أن تكون شينا روحانيا وليست متعلقة بالحواس. ومع ذلك فإن هذه الغرفة المنخفضة المعتمة، التى تقع فى وسط الصحراء الكبرى، لها تأثيرها تماما مثل الغرفة التى للقديس بطرس فى روما، أو معبد السماء فى بكين! قد يدخل الكرادلة هم والموظفون الذين يتشبثون بالرسميات دوافع مختلطة إلى عبادتهم، لكن البدوى متوحش العينين الذى يرتدى برنسا أبيض خشناً، ويمسك بمسبحة خشبية تتدلى من بين أصابعه التى جففتها الشمس، يؤدى صلاته ببساطة وشغف قويين، لا بد أن يكون لهما تأثير على الجو العام من خلال إخلاص عبادته لله بـ. وعليه أحسست عندما ارتفعت الأيدي إلى السماء بشيء غريب وقلت: "بسم الله الرحمن الرحيم" فى حين كانت الأعين تراقبنى؛ لكن عندما خرجنا إلى ضوء الشمس اختفى ذلك الانطباع وعاد إلى موضوع الحرس المرافق لى من جديد!

فى البداية حدثت مشاجرة مع السود الذين أصبحوا بلا ضابط أو رابط تماما. بعد أن أصبح تغيب السود أمرا ملحوظا فى حال وجود خطر حقيقى، أما الآن فقد راحوا يكرسون أوقاتهم للطعام والنوم والحديث عن شجاعتهم. وهنا، قررنا إعادة السود إلى جالو من طريق القافلة الرئيسية ونذهب وحدنا إلى واحة جغبوب. فى هذه المرة احتجت الحاشية المرافقة لنا لكن احتجاجهم كان بلا جدوى. كنا قد عانينا الكثير من مخاوفهم الناجمة عن التفكير فى محاولة العودة عن طريق بلاد الزواويين. طريق واحة جغبوب، أقصر بكثير من الطريق الآخر، لأنه يختصر زاوية جالو، والأهم من ذلك كله أن هذا الطريق غير معروف للأوربيين. ولما كان ذلك الطريق يحتم الاستغناء عن الماء طوال اثنى عشر يوما، إذ يصل طوله إلى حوالى ٦٠٠ كيلو متر، فإن أحدا لا يفكر فى استخدامه فى السفر، اللهم باستثناء القوافل الكبيرة



A TRAVELLER WITH ROSARY.

رجال يحمل مسيحه

جذا المزودة تزويدا جيدا بالمون والمعدات، والتي تتحمل فقدان قليل من الإبل على الطريق، أو بواسطة عائلة السنوسي، الذين لديهم القدرة على إرسال إبل محملة بالماء لملء بعض الخزانات الموضوعة خصيصا لهذا الغرض.

كنا قد خبرنا أخطار السفر مع قافلة كبيرة نسيًا تنقصها الكفاية، وعليه قررنا أن نأخذ الخيار الآخر. عزمنا على أن نصطحب معنا محمدا ويوسف وحدهما، ليكون أحدهما مرشدا والثاني جمّالاً. كان محتمًا علينا أخذ أربعة إبل لحمل الماء فقط، وجملين آخرين في أضعف الأحوال لحمل العلف، قبل أن تعمل حساب الأمتعة والمون. مسألة الأمتعة والمون مسألة سهلة، إذ إن الأمر لا يقتضى مؤنا لأكثر من سبعة عشر يوما بعد مغادرتنا قرية هواويرى. وهذا يعنى أن المسافرين إذا لم يتمكن من الوصول إلى جغبوب فى غضون هذه المدة فذلك يعنى أنه قد هلك، نظراً لأن الطريق خلو من الآبار بعد أن يغادر المسافر قرية ذاكار Zakar، التى تبعد عن هواويرى مسيرة ثلاثة أيام. فى كل الأحوال ستكون رحلة مثيرة، وإذا ما نظرنا إلى الفراغ الأبيض الذى على الخريطة المساحية التى معنا، وليست ذا ذاكار موقعة عليها، نجد أننا كنا مشاقلين إلى وضع خط أحمر طويل على ذلك الفراغ. القوافل القادمة من مصر يتعين عليها استعمال طريق جغبوب اللهم إلا إذا كانت قادمة من سيوة، الأمر الذى يعنى مسيرة نصف يوم إضافى بلا ماء أيضا. البديل عن ذلك هو السير سبعة أيام إلى جالو، ويوم إلى بطفال Buttafal، ثم سبعة أيام إلى زاغن Zieghen، ثم بعد ذلك خمسة أيام إلى هواويرى. أبشع ما فى هذا الطريق المباشر، أن أربعة أيام منه تكون خلال الكثبان الرملية السينة قبل الوصول إلى واحة جغبوب. على كل حال، كان أى شىء يعد أفضل من محاولة التوفيق بين البدو والسودانيين طيلة ثلاثة أسابيع، وموضوع الأقدام الملتهبة، والإبل المحملة بأحمال أكبر من طاقتها، والماء الذى تجرى بعثرته، والوقود الذى جرى استهلاكه كله خلال الأيام القلائل الأولى، فضلاً عن التأخير الذى لاشك فيه عند كل بنر من الآبار.

أمضينا القسم الأكبر من فترة الصباح فى نقاش مع الجنود، الذين كانوا يريدون الزواج فى جعبوب، وربما كان ذلك تأسيساً على المكافأة التى كانوا يأملون الحصول عليها مقابل مرافقتنا إلى هناك. بدأ الزوار يتوافدون بعد ذلك، مما يعنى أن التفكير بدأ يتغير. بدأ ذلك الإحساس التشكى البارد الذى سبق أن توقعته، بسبب القلق والمتاعب عند الزواويين الذين سبق أن خرجوا غاضبين من مجلسنا قبل يومين. كان حامد بو كريم أسمر اللون أول من جاء. كان حامد بو كريم واحداً من أعلى الناس صوتاً فى عدم الرضا عن وجود الأجانب. قال حامد بو كريم: "وددت لو أن الناس جميعاً خرجوا للقائكم بالطبول، لكنهم كانوا غير راضين عن ذلك. ما قلنوه فى الاجتماع كان صادقاً، لكن لو وافقتم على ما قلتم لكان ذلك فى غير مصلحتى. كنت مضطراً إلى تأييد الآخرين، نظراً لأننا كنا متفقين على ما سنقوله قبل مجيئنا." كانت تلك عينة ضعيفة من عينات العقلية العربية، لكنه أتبع بنوعية أخرى مختلفة تماماً، سليمان بو مطر، ذلك الرجل كبير السن كثير الأسفار، ومن المخلصين والموالين تماماً لأسرة السنوسى. كان سليمان بو مطر هادئاً فى الاجتماع الأساسى، ولم يقل سوى أننا سنضيع الوقت فى الذهاب إلى القرى. لكنه قال الآن باعتداد شديد بالنفس: "كان كلامك حكيمًا، لكن يجب ألا تحكمى على الناس هنا بنفس الطريقة التى تحكمين بها على الناس فى بلدك. مصر أم الدنيا. القرويون هنا جاهلون جدًا." ثم عرض علينا بعد ذلك مرافقتنا إلى الجانب الآخر من الواحة.

ترتب على ذلك أن أصبحت المجموعة المرافقة لنا أقل تخوفاً، ثم ذهبنا بعد ذلك إلى الجوف بلا متاعب. سرنا على الطريق المرتفع الذى يعبر البحيرة الكبيرة المتموجة الموجودة وسط حدائق نخيل الجوف، وعندما وصلنا إلى المستقع المالح وعر المسالك الموجود على الجانب البعيد، عثرنا على أنقاض قرية كاملة من قرى التبو. كانت بعض المنازل صغيرة على نحو يدعو إلى الدهشة، لكنها بحالة جيدة

جدا- كان الملاط النصلب ناعما ولامعا من الخارج- وتبدو كما لو كانت أفراننا مستديرة من الصلصال. ومثلما رأينا فى بوما Buma، كانت هناك أيضا قلعة على حافة الماء. ويبدو أن التبو كانوا يحاربون باستعمال الرماح فقط، ومن هنا يصبح شريط الماء حماية جيدة من الهجوم. ومن ثم، حيثما وجدت بحيرة فى واحة الكفرة أو بؤسمة، يتأكد الإنسان تماما من العثور على أنقاض القرى والقلاع البدائية. حقق الزواويون انتصارا سهلا لأنهم كانت لديهم البنادق والبارود. والجوف مدينة محلية كبيرة تمتد مسافة كيلو متر على شكل خط من الجدران الطويلة الصلبة الخالية من الأبواب والنوافذ. فى طرف من طرفى هذا الخط توجد زاوية قديمة أسسها إخوان سيدى بن على. هذه الزاوية عبارة عن مبنى غير مهم، منخفض جدًا، وفيها مسجد معتم غير مفروش، هذا المسجد كبير ومرتب، وفى الغرفة البعيدة ضريح لبنات سيدى المهدي. هذا القبر محاط بإطار خشبي أخضر اللون ومعلق عليه كميات من بيوض النعام. هذا القبر يحظى بتوقير كبير وشاهدنا فى حوش من الأحواش بعض الحجاج الذين جاءوا من وادى، وهم عبارة عن أناس سود شرسى الملامح، يحملون مسابح أضلاعا طويلة يصنعونها من النخيل.

تمضى حياة أية بلدة من البلدان العربية داخل جدران عالية لا يمكن اختراقها. والمدن والبلدان التى ليست على هذه الشاكلة هى مدن الموتى. وأنا أشك أننا رأينا اثنتى عشرة شخصية بعد وصولنا إلى مستوطنة التيب، ومع ذلك فإن عدد سكان هذه المستوطنة يقدر بحوالى سبعمائة نسمة. النساء فى هذه المستوطنة لا يخرجن من بيوتهن مطلقا. طوال فترة وجودى فى تاج لم أر قط أية امرأة اللهم باستثناء عبدة أو اثنتين سوداوين كبيرتى السن. هذا يعنى أن الحياة لا بد أن تكون غير عادية داخل بضعة أقدام قليلة مربعة مسورة بجدران خالية من الأبواب والنوافذ. تستطيع سيدات أسر السادة من زيارة بعضهن البعض نظر لأن منازل الأسرة السنوسية تجاور بعضها البعض الآخر. لكن لم يحدث مطلقا أن دخلت بلدة

شرقية فيها الحياة متحفظة وبمعزل عن الآخرين كما في الجوف. من الطبيعي أن يسمر الرجال ويتبادلوا أطراف الحديث، لكن ذلك لا يحدث إلا عندما يكونون في منازل بعضهم البعض، إذ يستحيل أن يرى المرء تجمعات في الشوارع. المرء يلاحظ بين الحين والآخر شخصية مهمة ومعها إبريق من النحاس الأصفر، أو يراد شاي عادي، يتوضأ منه عند غروب الشمس قبل أداء الصلاة، أو قد يرى المرء شخصاً متأملاً رمادي اللحية واقفاً أمام باب مفتوح. الفارق الكبير بين البلدات السنوسية وأية مدينة صحراوية أخرى يتمثل في عدم وجود المقاهي في المدن السنوسية، والمعروف أن المقاهي تمثل مركز الحياة والحركة. المدن العربية تتباين من حيث الحجم والعظمة، لكن بدءاً من أم درمان في السودان إلى توغورت Tuggourt، يجد المرء في كل قرية من القرى - في أضعف الأحوال - غرفة مبنية جدرانها من الطين، فيها مقاعد غير مريحة وطاولات صغيرة، أو قد يجد في الأماكن الأكثر بدائية، مجرد مصطبة مرتفعة تمتد بطول الجدران، يجلس الناس عليها يتسامرون ومن أمامهم نرجيلات طويلة السيقان، في وجود راقصة تقوم باستعراض بعض التتويجات من رقص هز البطن. في ليبيا تحرم الشريعة السنوسية التدخين، والشرب، والراقصات. ومن هنا لا يكون هناك مبرر لوجود المقاهي، وبذلك تتسم المدن والبلدان بالهدوء، إذ تبدو كما لو كانت مهجورة، ومتحفظة تماماً!

مررنا على كتل منازل الجوف المبعثرة، والتقينا شقيق شيب She-ib، المدعو أحمد الخضري، وهو كاتب سنوسي شهير، حيانا ناحية حارة وانشرح صدره للأخبار التي وصلته عن عائلته. ثم تسلفنا بعد ذلك مجموعة الغرود الصغيرة الموجودة بعد البلدة ونظرنا من على قرية التبو التي يرأسها سعد التيبى. كانت المساكن التي شاهدناها بعد المباني الزواوية الصلبة، بدائية إلى حد بعيد جداً، لأن القسم الأكبر من هذه المساكن كان عبارة عن أكواخ مصنوعة من

سعف النخيل. كان الرجال طوالاً بشكل عام، ويرتدون جلود الأغنام بحيث يكون الصوف في اتجاه الجسم. طعام هؤلاء الناس أثناء السفر، يتكون من الجراد المطحون والتمر المطحون الذي يجرى خلطه بالجراد المطحون أيضاً. النساء لا يلبسن سوى قطعة واحدة من القماش أسود اللون، تلفنّها من حول أجسامهن مثل البركان (الشال) لكنها عادة ما تكون رثّة ومهلهلة، ولا تقي بالتغطية الكاملة. أما النساء الصغيرات فهن جميلات بشكل واضح، ووجوههن مستديرة وجميلة، وعيونهن واسعة، ورموشهن طويلة، وبشرتهن شبه سمراء، لكنهن خاليات من السمات الزنجية.

اكتشفت أثناء عودتنا عبر الوادي الصفة الصحيحة التي يمكن استعمالها في وصف القمم الشاهقة في الكفاره. صحيح أن هذه القمم كانت كهربائية اللون، بلون الشام، الذي كان ينتقص من لون النخيل الأخضر، الأمر الذي يجعل حدائق الجوف تكتسى شكلاً رمادياً فضياً رائعاً على خلفية لون التلال الذهبى المحروق.

فى تلك الليلة، وبينما كنا نحصى مقدار الشاى، والسكر، والتوابل، عرض القائمقام أن نطلعنا على الرسالة الأصلية التى أرسلها سيدى بن على السنوسى إلى الناس فى واجانجا Wajanga على الطريق إلى واداي. وأعتقد أن تحمسنا لرؤية تلك الرسالة أعجب القائمقام، لأنه قام على الفور بإخراج مفتاح ضخم من حزامه وناوله لأحد العبيد الذى أحضر صندوقاً ليس أكبر من المفتاح. ووضع ذلك الصندوق فى دائرة الضوء فى هدوء، على السجاجيد الداكنة المكوّمة، فى صمت مثل الصمت الذى يخيم على المنزل كله، وأخرج سيدى صالح فى شىء من الوقار ورقة واحدة كان ثلاثة أرباعها مغطاة بلغة عربية قديمة. وقد أوردت الترجمة الحرفية لهذه الورقة فى ملحق الكتاب لأن هذه الرسالة لها أهمية تاريخية لأنها تفصح عن نية السنوسى فى الموافقة على ولاء الزواويين، وعلى مجيئهم إلى الكفرة فى ظل فهم واضح من جانبهم على قبول حكم السنوسى فى

الجزء الجنوبي من واجانجا Wajanga. كانت تلك الوثيقة بالغة الأهمية، وقد
ثمنت قيمتها عالياً في منزل سيدى العابد الغريب الموجود في وسط هذه الواحة
الأسطورية.

الفصل الثانى عشر

الهروب من تاج

عشنا بعد ذلك يوماً أو يومين فى حياة تاج الهادئة المتحفظة. استيقظنا بعد طلوع الفجر بفترة قصيرة، فى الوقت الذى لم تبدأ فيه الحركة بين الجدران المعتمة الداكنة الخالية من الأبواب والنوافذ، رحنا نتجول بين القمم العالية محاولين الوقوف على المواقع الدقيقة للوحدات والقرى المختلفة. هذه القرى تكاد تكون غير مرئية، فى ظل وجود بعض الأضواء، والسبب فى ذلك أن هذه القرى مبنية من الرمل والأحجار. اكتشفنا أن الوادى يضيق متحولاً إلى شريط من الأرض فى اتجاه الشمال الشرقى فى المنطقة الواقعة وراء بويما Boema، فى حين وجدناه يتسع ناحية الغرب متحولاً إلى منطقة واسعة مغطاة بالحطب، وإلى روابٍ عالية تغطيها الأدغال غير الورقية والقش. وترتفع تلك الروابي من اثنى عشر قدماً إلى عشرين قدماً. وفى المنطقة الواقعة بعد طُلاب Tolab، التى توجد على بعد يصعب معه رؤيتها من فوق هذه القمة الصخرية الشامخة التى نقف عليها، نجد الحطب يختلط بصورة متدرجة مع الأرض المستوية.

استكشفنا ذات صباح المستنقع المالح بكامله، الذى بنى التبو بيوتهم من مادته الحجرية الصلبة الرمادية اللون. عثرنا أيضاً على أنقاض قرية كاملة، على الرغم من بعض المنازل كانت دوائر محطمة على الأرض. كانت فى القلعة الرئيسية غرفة واحدة قطرها عشرة أقدام وأعلى نقطة بارزة فى الجدار يصل ارتفاعها إلى حوالى أحد عشر قدماً، لكن كانت حول هذه النقطة كتلة من الجدران المهتمة والغرف الأصغر من الغرفة الرئيسية، أو ربما كانت مباني مستقلة، نظراً لأن كلاً منها كان مشطباً تشطيئاً أنيقاً وكانت لها أسطح مستديرة استدارة كاملة، شأنها فى ذلك شأن الأوعية الصلصالية الرطبة التى يراها الناظر مرسومة على العجلة الدوارة. وأنا

أرى أن التبو لابد أن يكونو قد اكتشفوا أن الرمل الجامد المالح يصلح بصفة خاصة في صنع الملاط شديد التحمل، نظرًا لأن حطام قراهم يجرى العثور عليه في المستنقعات، كما هو الحال في بُسِمة، وبوما والجوف. وعندما علمنا أن هناك أطلالاً تيبية في تيسيربو Taiserbo وعن وجود تيبين فعلاً في ربيانة، استنتجنا على الفور أن هناك مستنقعات في هاتين الواحيتين وثبتت صحة ذلك الاستنتاج.

بعد عودتنا من جولاتنا الصباحية كانت شهيتنا مفتوحة مكنتنا من التعامل مع ضيافة سيدى صالح الحاتمية. في كل صباح وعند الساعة التاسعة تماماً كنت أسمع نقرة خفيفة على بابى المصبوغ باللونين الأخضر والأصفر، ثم أرى دورور Durur بوجهه الأبنوسى اللون والمبتسم، جاهزاً لإرشادنا عن طريق الممر الرملى والحوش المركب والممر المركب أيضاً، إلى الرواق المكشوف الواسع المفروش بالسجاد، الذى ينتظر فيه مضيفنا الكريم ليصحبنا إلى داخل الغرفة الطويلة التى تفوح منها رائحة الورود والقرفة. وبعد غسل أيدينا فى الوعاء الدمشقى جلسنا مربعين بجانب تلك الصينية الضخمة المصنوعة من النحاس الأصفر، وتلت ذلك لحظة من الانتظار المثير إذ قام عبد آخر برفع أغطية اثنى عشر طبقاً. كانت توجد، أحياناً، صينية صغيرة منقوشة ومطعمة بالفضة، وموضوع عليها حوالى عشر سلطانيات مملوءة بالمكسرات، وأنواع من المهلبية مختلفة الألوان والمزينة باللوز، ومعجنات شديدة الحلاوة شبيهة ببودنج يوركشير، والجنكت(*) الذى يصنع من حليب نعجه وضعت حملاً منذ فترة قصيرة، إضافة إلى كل أنواع التمر والكسكى المطبوخ مع الزبيب والسكر، والقشدة اللزجة بيضاء اللون التى لها طعم النعناع. كانت سلطانيات الحليب الحار حلو المذاق، وأكوام من الخبز الرقيق، والخبز المحمص، فضلاً عن الخبز الثقيل المُحمّر مع الزيت والذى يؤكل حاراً مع

(*) جنكت: نوع من الحلوى يعد من اللبن المُختر المضاف إليه المنفحة. (المترجم)

المسكر ويسمونه في مصر "لقمة القاضي"، أشياء دائمة الوجود على المائدة. العادات والتقاليد العربية تقضى باستضافة الضيف مدة ثلاثة أيام، لكن القائمقام لم يكن يسمح لنا بشراء أى شيء لأنفسنا. تكررت قصة إجدابيا هنا مرة ثانية. وفور احتجاجنا على الوجبات الهائلة التى قدمت لنا فى منزل سيدى العابد، وصلنا فى اليوم التالى تذكر مفاده أن ضيافة الشرق ليس لها حدود ولا بد من قبولها بنفس البساطة التى تقدم بها، وبذلك تضاعف عدد الأطباق ولم يكن هناك أقل من عشرين رغيفاً موضوعاً حول الصينية، فى حين لم يكن الطبق الرئيسى مجرد سلطانية وإنما كان كومة من الأرز الناضج ذهبى اللون موضوع فيه الأجزاء الخلفية من خروف كامل. كنا نمضى صباح كل يوم ساعتين فى تلك الغرفة الهادئة نتجول خلالها بين هذه الحفاوة مختلفة الأنواع المخصصة "للإفطار". وبعد الانتهاء من شرب القهوة المضاف إليها الفلفل، يجيء الدور على أكواب الشاي الحار الأخضر الثقيل الثلاثة، التى يجرى احتساؤها خلال حوار بطيء محترم، تتخلله وقفات عدة، فى حين كان الدخان الصادر عن المبخرة يرتفع على شكل حلزونات، ومن خلال الباب كان ضوء الشمس يزحف على الجدار ذى الشرفات المفرزة، ليسقط على لون السجاد الأرجوانى والوردى بين عقود الرواق الذى يطل على الحديقة مباشرة. فى حوالى الساعة الحادية عشرة، وبعد الطيب، والأحساس بالتخمة والامتلاء استأذنا من مُضيفنا وانصرفنا بهدوء، لكن فى اللحظة التى أغلقت بعدها أبواب منزل سيدى إدريس بعد قول "عليكم السلام" الصادرة عن العبد المنصرف، أسقطنا المشية المتألمة المصاحبة لمنزلتنا المرتفعة ورحنا نجرى عبر الفناء لنحبس أنفسنا فى "الحرملك"، ذلك المكان الوحيد الخاص بحق فى هذا المنزل، ومعنا الورق وأقلام الرصاص. أحسنا بالأسف ونحن نقاوم انعدام الثقة المقصود من جانب الزواويين، الذى تمثل أيضاً فى نظرهم إلى البوصلة. دار نقاش حاد حول خرائطنا البدائية، لكن حسانين كان دائماً على صواب فيما يتعلق بالاتجاه، فى حين

كنت أنا على صواب دوماً فيما يتعلّق بالمسافة، وذلك راجع إلى الرحلات الكثيرة الطويلة التي قمت بها في الصحراء، التي تظهر العلامات الأرضية فيها أقرب بمعدل ثلاثة أضعاف المسافة التي هي عليها في حقيقة الأمر. كنا نعمل بجد حتى الساعة الرابعة أو الخامسة، على الرغم من وجود وقفات بين الحين والآخر - كان من رأى محمد أننا يتعين علينا شراء جمّال نظير عشرين جنبياً ثم نبيعه ثانية في جغبوب، وهذا يوسف يقول: إن القرب لا يزال يتسرب منها الماء على الرغم من تعامله ومعالجته الدقيقة لها؛ وهذا هو سيدى عمر الصغير، مألّق في جبته الصفراء الرائعة، يلمح إلى ندره المطاوى في الكفرة؛ وهذا هو الشيخ موسى، الهوارى، يقول لنا إن رجال قريته بلغوا من الخوف حدّاً منعهم من زيارتنا في منزل السادة، لكنهم ندموا أشد الندم على استقبالهم لنا.

وتتقضى الساعات الحارة، وعند الساعة الخامسة تقرّينا خرجنا نتجول لمشاهدة غروب الشمس العجيب على الوادى، في وقت كانت فيه الواحة كلها مصطبغة لبضع دقائق قليلة بتوهجات قوس قزح. جرت العادة، أن يقوم العبد سرور - قبل غروب قرص الشمس القرمزى خلف الرمال الغربية - بمسح الأرض للإعلان عن موعد العشاء. كنا قد نسينا منذ وقت طويل حساب الزمن الأوروبى. تعودنا أن الشمس تشرق عند الساعة السادسة صباحاً وتغرب عند الساعة السادسة مساءً، لكن فيما يتعلّق بالمسائل العلمية كلها كنا نتبع التقويم العربى الذى يبدأ بعد ساعة من غروب الشمس. كنا نضبط ساعاتنا مساء كل يوم على التوقيت الشمسى ونجد أنفسنا نحصى الشهور المتغيرة بحساب الستة القمرية الإسلامية. لم أكن أعرف أى يوم من أيام الأسبوع إلا عندما يجرى يوم الجمعة، الذى كنا ننضم فيه إلى جمهور المصلين الذين يرتدون أفضل ملابسهم، ويروحون يقصدون المسجد. فى الصحراء، نجد أن الأكثر علماً هو الذى يقرأ القرآن ويدعو ببعض الدعوات البسيطة. وفى الوقت الذى كان المؤذن يؤذن للصلاة قائلاً: "لا إله إلا الله! حى على

الصلاة! حى على الفلاح!" من فوق البرج المدور الموجود عند نهاية جدار الزاوية، مررنا بين المنازل مغلقة النوافذ، ونحن نحى بحق الأشكال التى كانت ترتدى ملابس بيضاء وتعرض طريقنا. وعندما دوى النداء الأخير "الله أكبر!" دخلنا أول باب منخفض وطوقنا سرية المنزل، ما عند الحيوانات الكثيرة التى جرت خلف شيش النوافذ الخشبية، التى لم تفتح مطلقاً أمام العيون الكحيلية حتى تتمكن من النظر ولو خلسة إلى الغرباء المتجمعين! فى بعض الأحيان كان سيدى عمر الصغير يجرى لكى يقبل يدى ويقول: "على رأسى وعلى عيني، فأنا أحبك!" رأينا فى بعض الأحيان صفاً طويلاً من الشباشب الجلدية حمراء اللون أمام مدخل من المداخل المسقوفة الصغيرة ونظرنا نظرة خاطفة أشكالاً بيضاء منحنية على طبق كانوا يأكلون منه على نحو سريع باستخدام الإبهام وأصبعين آخرين - إذ ليس من الأدب أن يوسخ المرء من يده جزءاً أكبر من هذا الجزء. وفيما عدا ذلك كان المنزل يحتفظ بكل أسرارهِ، ولم نعرف قط أولئك الذين يعيشون فيه أو حتى كيف يعيشون!

تحسن الجو بعد تناول وجبة العشاء وشرب الشاي المنعنع على ضوء الشموع. تحدث مضيفنا إلينا عن السادة الذين خدمهم، وعن تاريخهم العظيم ونفوذهم الكبير. عرفنا أن سيدى أحمد الشريف كان يحظى بالاحترام والتقدير بصفته مؤيداً للنظام القديم. معنى ذلك أن سيدى أحمد الشريف كان يمثل القوانين السنوسية الصارمة التى لا تلين. كانت أحكام الرجل قاسية لا تعرف الرحمة، وسريعة التنفيذ، مثلما حدث لمختار التعيس. لم ير الجانى سوى شكل مهيب أبيض، مُقنَّع تماماً، ومن خلف ذلك القماش الأبيض بياض الثلج جاءت كلمات الحكم الذى لا يقبل النقض. كان السيد أحمد يكسر الرجال، ولا يطويهم. ومع ذلك كان الإخوان الذين يكبرونه سناً، جادين وبسطاء يوقرونه لأنه كان يمثل لهم قوة الموروث، والإسلام الصحيح، وكان معارضاً تماماً للتقدم الأوروبى. على الجانب الآخر، كان سيدى إدريس محبوباً. ولما كان القديس السنوسى واحداً من أبناء المهدي، وقد



HARRAKING: A TOO SUDDEN DESCENT!

تبريك الأبل: منزل مفاجئ شديد الانحدار



A LUNCH IN KUFARA VALLEY.

تناول الغداء في وادي الكفرة

بدأت أعماله وكلماته تتخذ الطابع الأسطوري، فقد أصبحت له سلطة وقوة كبيرة. البدو بطبيعتهم يودون أن يعبدوا شيئاً محسوساً بعد الله ﷻ. البدوى لابد أن يحس عن قناعة أن هناك مخلوقاً على الأرض يمزج بين القوة الروحية والقوة الدنيوية حتى يتمكن هو نفسه من البقاء في شكل من أشكال الأمن الصوفي. "إن شاء الله، وإذا ما أراد سيدنا إدريس!" عبارتان تتكرران على ألسنة الناس بصفة دائمة. والأمير ذائع الصيت بسبب عدله وصبره. متشدد وقاسٍ مثل أسلافه الذين سبقوه، لكن هذه القسوة تخف بسبب صبره الذي لا ينفذ، الذي يتجلى في دراسة وفحص كل أركان القضية قبل إصدار الحكم. وهذا يعد أمراً ضرورياً في ساحة العدالة القرآنية وهي الدستور الوحيد. 'العين بالعين. والسن بالسن.' السُّكْر عقوبته الجلد. واللص تقطع يده اليمنى. والخيانة جزاؤها الموت. لو لم يكن سيدى إدريس مسلماً حقاً، ومتصوفاً عظيماً بحق، لما حصل على ولاء أتباع والده، هذا في الوقت الذي أكسبته سياسته الخارجية الذكية واسعة الأفق احترام العنصر الحديث. اتفاق رجيم Regima كان واحداً من انتصارات سيدى إدريس الكبيرة. هذا الاتفاق برهن على قوة سيدى إدريس الكبيرة. هذا الاتفاق برهن على قوة سيدى إدريس فى برقة. وقد أعلن شيوخ قبائل الساحل وبلا استثناء أن "كلمة إدريس هي كلمتنا!"

سيكون آخر مشاهد اليوم مرتبطاً دوماً فى ذهنى بقراءة القرآن فى الزاوية وضوء النجوم الساطع، أثناء عودتنا إلى منزلنا فى صمت، لا يقطعه سوى الحفيف الناجم عن شباشبنا التى بلا كعوب ونحن نسير بها على الرمل. وبينما الضوء الأبيض البارد يعاكس شموعنا، وبينما كانت كلمات 'الكتاب الحكيم' (القرآن) لا تزال تطن فى آذاننا، بدأ الزوار فى الظهور بصورة متدرجة: القاضي، ثم عثمان القاضي، محمود الجدأوى، الوكيل، وقلة قليلة من الإخوان المتقدمين الذين كان من بينهم محمد التواتى "أحد أصدقاء المهدي المقربين". محمد التواتى هذا مصاب بشلل جزئى، وهنا انبرت الذهنية السنوسية، اليقظة دوماً للعلامات والمعجزات، تفسر أن

ذلك الرجل التعيس (المشلول) تحدى أوامر سيدى الريفى المباشرة وقام برحلة فى اتجاه الشمال. ونفق جملة وأصيب هو نفسه بالشلل قبل أن يصل إلى هوارى.

كان الحديث فى تلك الأمسيات المعتمة، وأنا أقوم بإعداد الشاى المعطر، خلوا إلى حد ما من الرسميات. عرفنا ما فعله المهدي من أجل الكفرة، وكيف أنه أدخل إليها - بعد الزهور والفواكه والخضروات - الحمام والبط وزراعة الحبوب. وعلافا أيضا أنه هو الذى بنى القلعة المخطورة فى تاج، التى يصل عمق الآبار فيها إلى ستين قدما الأمر الذى يجعل الماء نادرا بصفة دائمة، وتصبح القرية المملوءة بالماء شيئا ثميناً، نظراً لأن عبيدين قويين يتعين عليهما رفع الدلو الثقيل قدماً بعد آخر. كان موقع القلعة من المواقع التى جرى انتقاؤها بركة، لكن بلدة تاج تعتمد حياتها على جيش من العبيد، نظراً لأن كل الحاصلات البستانيه وكل زهرة من الزهور، وكل ثمرة من التمر، وكل حطبة من الحطب يتعين نقلها من الوادى المنخفض. الوقود فى هذه البلدة هو الحطب الجاف وسعف النخيل كبير الحجم. يجرى أيضا فى الوادى عمل الفحم النباتى. والمهدى هو الذى أنشأ طريق القوافل المنتظمة إلى وادى، وهو أيضا الذى شجع على توسيع نطاق التجارة بين السودان وبرقة. وهو الذى اكتشف "بطريقة عجيبة جداً" الآبار التى على الطريق الجنوبى، وحكى لنا الشيخ سليمان بو مطر كيف كان والده بصحبة الولى، عندما خذل الماء القافلة فى سارة Sarra، فى الطريق إلى وادى. وأشار الزعيم السنوسى إلى بقعة كانت تبدو صخرة صلبة وطلب من الرجال الحفر فيها. وساعة بعد أخرى، راح الرجال يواصلون الحفر إلى أن وصل العمق إلى مرحلة أصبح من الصعب معها رؤية المرافقين الواقفين فى الأعلى. ثقة هؤلاء الرجال بالمهدى هى التى جعلتهم يقومون بهذه المهمة الجبارة، نظراً لأن الماء يظهر على عمق ١٢٠ قامة (القامة هى طول الساعد واليد من الكوع إلى السبابة). قال الشيخ سليمان: " الرجل حاد البصر هو الذى يستطيع رؤية الماء والحبل الذى لا ينتهى طوله ".

عرفنا أيضا قائمة الأسعار في الكفرة، من خلال تاجر متأمل، ذكرنى جيرده المخطط باللونين البنى والأصفر بصورة من صور الكتاب المقدس. يتراوح ثمن الهجين (الجمال العداء). التى لا توجد إلا عند التبو، بين سبعة عشر وثمانية عشر جنيها ذهبيا. كان سعر الخروف خمسة مجيديات، وسعر العنزة نصف مجيدى، والداجنة تباع بنصف مجيدى، وتباع الحمامة الواحدة بأربعة قروش ونصف القرش. كان البيض رخيصا جدا - المائة بيضة تباع بمجيدى واحد (أى أن البيضتين تباعان ببني واحد)، لكن السكر كان يباع بواقع مجيدين للأقة الواحدة من السكر (أى أن الرطلين الإنجليزيين كانا يباعان بثمانية شلنات)، وكانت أقة الشاى تباع بثلاثة مجيديات. كان الزبد يباع بواقع ثلاثة أرطال عربية (حوالى رطل واحد إنجليزى) لكل مجيدين. وليس هناك، فى واقع الأمر، منتجات أخرى معروضة للبيع. أصحاب الحدائق هم الذين يفلحونها بأنفسهم. تطوع محمود الجداوى بإعطائنا مزيدا من المعلومات عن التمر. "الرعى طيب فى بارسا Barca هذا العام، ولذلك يمكن شراء أحمال عدة نظير مجيدى واحد، لكن عندما يقل العشب فى الشمال يأتى الزواويون إلى هنا على شكل قوافل كبيرة ويشترون تمرنا كلها، الأمر الذى يجعل الناس يبيعون بضعة أرطال من التمر بمجيدى واحد!"(*) أردف محمود الجداوى قائلا: إن أطنانا كثيرة من تمر السادة كانت قد أصيبت بالعفن فى ذلك الوقت، نظرا لعدم وجود الإبل الكافية لنقلها.

قلت: "لقد لاحظت قلة عدد الإبل فى الكفرة". ردّ على "الرجال قليلون جدا أيضا فى الكفرة". لقد أخذ الزواويون إبلهم إلى بارسا Barca هذا العام لكى تتغذى على العشب والكلأ الطيب هناك. هم يفعلون ذلك كل عام فى فصل الشتاء عندما

(*) سعر الصرف المعتاد هنا هو ستة مجيديات للجنيه الإنجليزى، أما الجنيه الذهب فيباع بسبعة مجيديات. العملة الورقية لا يجرى التعامل بها فيما عدا إجابيا. والمجيدى الواحد يساوى عشرة قروش.

تبدأ النوق فى وضع حملها، وبخاصة عندما يقل العلف هنا. والزواويون يتركون عائلاتهم فى الكفرة ويعودون إليها فى فصل الصيف.

كان النوم يغالبنى قبل رحيل الزائر الأخير، الذى حثنا بشدة على عدم السفر عبر طريق جغبوب. الزائرون هنا محبطون فيما يتعلق بالقيام بالرحلات، نظراً لأنهم يتذكرون دوماً قصص الموت المرعبة الذى ينتج عن العطش أو عندما يضل المسافر الطريق والاتجاه، وبخاصة عندما يروحون يروون هذه القصص بالتفصيل. وعليه عرفنا أن جبل فاضل، الذى يقع فى ناحية الشرق من طريق زايغن، سُمى بهذا الاسم لأنه قبل عشرين عاماً ضل شخص يدعى جبيل فاضل طريقه إلى بئر زايغن zieghen وهو فى طريقه قادماً من جالو، ووافت المنية هذا الرجل هو وأسرته فى الجبل. وفيما يتعلق بطريق جغبوب كانت أكثر الجمل المشجعة، "إذا ضللتكم هذا الطريق، فإنكم ستصلون إلى سيوة أو جهنم!" قالها صاحبها بنعمة لم تترك أى شك فى أى من هذين الاحتمالين!

كنا قد حصلنا على خدمات سليمان الحارس الوحيد فى المكان، وتأكدنا من أنه قام بهذه الرحلة قبل أربعة أعوام، وأنه سبق له القيام أيضاً بهذه الرحلة بصحبة يوسف. كان يوسف رجلاً صغير الجسم كبير السن هادئ الطبع، منحنى الظهر قليلاً وأشيب، وقليل الكلام. وعندما سألنا عن طول الرحلة قال: "والله، أنا لا أستطيع القطع بذلك. أنا أقطع هذه الرحلة فى اثنى عشر يوماً بدءاً من ذاكار، لكنى لا أعرف كيف تسيرون". أكدنا له بكل السبل والحماس أن سيرنا فى معظم الأحيان سيكون شبيهاً لسيره هو، لكنى شخصياً ظننت أن القافلة كلها يمكن أن تجلس أرضاً وتموت بسبب الجوع الشديد. لم أكن أنا ولا حسانين قد تعودنا على السير طوال اثنتى عشرة ساعة. كان محمد قد أوشك على الموت عندما حاول الإقدام على محاولة من هذا القبيل. وهذا هو يوسف تعافى من جديد بسبب التغذية الجيدة فى تاج، فى حين كان سليمان يبدو عجوزاً وهشاً لا يقوى على القيام بهذه المسيرة

الطويلة. ونحن بدورنا كان ضعفنا مساوياً أيضاً لضعف الحيوانات، نظراً لأن أفضل هذه النوق كانت قد وضعت حملها، وكان المتبقى لنا، نوفاً صغيرة لا يمكن الاعتماد عليها، وعمر الواحدة منها ثلاث سنوات، هذا فضلاً عن زوج من الإبل الكبيرة، بالإضافة إلى بعض الإبل الشبيهة بالصور الكاريكاتورية والتي أصابها العرج، بسبب أقدامها المجروحة! يزداد على ذلك، أننا أصبحنا متواكلين تماماً. واقتراحنا أن نأخذ معنا مخزونات كبيرة من الماء، وتركنا الباقي على الله تعالى.

اقتراحنا أيضاً مغادرة الكفرة بأسرع ما يمكن. وذلك لأن مُضَيِّفينا كانوا أولاً وقبل كل شيء أسخياء في كرمهم إلى حد أننا لم نطق بحمل ذلك الكرم أكثر من ذلك، وإحساسنا بأن ذلك يجب ألا يتجاوز ما هو ضروري. ثانياً، إنه على الرغم مما يمكن تسميته بالجماعة المسئولة مسئولية مباشرة أمام الحكومة، كانوا متعاطفين تماماً مع ضيوف حكاهم، في حين كان الإخوان القدامى بمعزل عن هذا التعاطف. لم يستوعب هؤلاء الإخوان القدامى فكرة حصول الغرباء على تصريح أو إذن يسمح لهم باختراق خصوصية هؤلاء الإخوان. كان أولئك الإخوان مششتين بين رغبتهم في تكريم وتشريف سادتهم وبين الرعب الذي أصابهم نتيجة حيدهم قيد أنملة عن العادات والأعراف الراسخة من قديم الأزل. كان الزواويون منقسمين فيما بينهم إلى حزبين. كان الكثيرون منهم قد أصابتهم عدوى القصص التي ترونها عائلة البزما وعبدالله، لكن جماعة صغيرة كانت قد تشكلت وراحت تعمل لصالحنا بقيادة سليمان بومطر.

كانت هناك دوماً تيارات وتيارات أخرى متعاطفة تسرى تحت السطح في بعض الأحيان، وتنموج متحولة إلى شكوك. يزداد على ذلك، أنه كانت هناك أيضاً أسئلة واستفسارات ملحة من جانب العناصر الخارجة على القانون حول التاريخ المحدد لرحيلنا والطريق الذي سنسلكه. كان معلوماً للجميع أن الجنود لن يكونوا بصحبتنا أثناء السفر، وعليه يمكن أن نكون فريسة سهلة إذا ما أراد رجال القبائل أن

يلعبوا ورقتهم الأخيرة. وعليه روجنا شائعة مفادها أننا يتعين بقاؤنا في تاج أربعة عشر يوماً، نروح خلالها نرتب فيما بيننا وبين أنفسنا هروباً جديداً، وأن يكون ذلك الهرب بمساعدة وعون من القائمقام، الذى وضع خطة صغيرة تقضي أن تسبقنا قافلتنا الصغيرة بمسيرة يوم واحد، فى الوقت كنا لا نزال فى تاج. وأننا يمكن لنا اللحاق بالقافلة، تحت إرشاد شيخ موثوق به، عن طريق الإبل سريعة الخطو.

كان من الضروري علينا أيضاً، تحري الطرف الغربى من الواحة. وتحقيقاً لهذا الهدف عرض الشيخ سليمان أن يقوم بدور المرشد والمضيف فى آن واحد. قال الرجل فى هدوء "سأرتب كل شيء. لا تتعبوا أنفسكم. ستسافرون فى راحة وأمان". تعجبنا من فكرة هذا الرجل عن الراحة عندما أعلن أننا سنبدأ التحرك قبل طلوع الفجر بساعتين، نظراً لأن الطريق كان طويلاً جداً. وعليه استيقظنا عند الساعة التاسعة بالتوقيت الليلى العربى (المصادفة للثالثة صباحاً)، وبعد فترة قصيرة أُنذرتنا طرق خفيف على الباب بأن الحرس قد وصل. أسرعنا إلى خارج المنزل، ونحن نمسك بكل ما لدينا من بطاطين، لأن الجو كان شديد البرودة. كان القمر قد غاب، ولذلك ظننت فى البداية أن برجين هائلين قد قفزا واقفين خارج المنزل أثناء الليل. كشفت النظرة الثانية أن هذين الرجلين كانا عبارة عن هجينين عاليين جداً. جري تبريكهما بصعوبة، وركبت أنا فوق سرج هو أشد السرج التى لقيتها فى حياتي إقلاقاً وإتعاهاً. لا بد أن الراحة المقصودة كانت تتعلق بالإبل، من منطلق أنها إبل خفيفة الحركة للغاية، لأن السرج كان عبارة عن عمودين يبعدان عن بعضهما عشر بوصات تقريباً، وفيما بينهما سجادة مزدوجة لها شعاع، من الأمام وشعاع من الخلف، لكن هذا السرج كانت فيه كل الصفات التى تسبب آلام العظام لراكب الجمل. وهنا خطر على بالي كيف أنى سوف أمضى ما لا يقل عن سبع عشرة ساعة على هذا المقعد المتعب. كان القومندان صالح أفندى، بعباءته الذهبية الخضراء مفرودة على جيرده بالغ السماكه، هو وحسانين يركبان حمارين،

كان يبدوان لى صغيرين جدًا من الارتفاع الكبير الذى أنا عليه فوق الجمل. وكان هناك جنديان راكبان الواحد خلف الآخر على الهجين الثانى، ومشينا عبر الوادى نشق طريقنا ببطء إلى أن وصلنا إلى مجموعة النخيل، التى وقفت الجماعة عندها استعدادًا للركوب.

كان حجر المستقع فضي اللون يبدو فى ضوء النجوم كما لو كان متجمدًا ورمادي اللون، فى حين بدت منازل الجوف كما لو كانت غشاوة على سلسلة منخفضة من الجبال. أما الأكواخ المصنوعة من سعف النخيل فكانت تخشخش كما لو كانت أصابع امتدت لتسد علينا طريقنا، فى حين بدت لنا، فى ظلال النخيل، الدعامات الكبيرة فى "الشدوك" (الآبار) كما لو كانت مشائخ.

بركنا إيلنا خارج جدار من جدران الجوف الخالية من النوافذ والأبواب، وبعد أن طرقت الباب طويلًا جاءنا عبد شبه نائم ليقول لنا: إن الشيخ سليمان ليس جاهزًا بعد. الحياة العربية تقبل التكيف والتغيير والتبديل. وخلال دقائق معدودات من تلقى هذا الخبر، كانت سجاجيد السُرَج قد جرى فردها بجوار الجدار، وأشعلت نار فى سعف النخيل (جاءتنا من قبل مضيقنا، وجرى إحضار التمر من المنزل المضيف نفسه، وجلسنا كلنا أرضًا فى انتظار طويل فى ضوء النجوم الساطع. وأنا اعتقد أنى نمت لحظات قليلة، بعد أن وضعت رأسى على حجر، لأنى عندما استيقظت على "السلام عليكم!". الرقيقة كانت النجوم أقل بريقًا، وكان هناك هجين ثالث يقف على خلفية السماء الرمادية. توجهنا فى مسيرنا صوب الجنوب، وسرعان ما أصبح المربع السكنى الطويل لمنازل الجوف، هو وحدائق السادة المسورة تسويرًا جيدًا، وراءنا فى الخلف. ترفقت الحمير فى سيرها بخطى بطيئة، فى حين راحت الإبل تسير بلا كلل، شبه مسرعة، وشبه مهرولة، وهذا هو خطو الإبل المريح فى العالم كله — ومع اكتمال طلوع النهار وجدت أن هجينى من النوع التبستى Tebesti كبير الحجم، ولونه رمادى شاحب، وشعره طويل وشكله

مهيب، لكنه لم يكن طيب السلالة مثل الهجينين الآخرين. كان الهجينان الآخران من سلالة إيل الطوارق التي لونها خليط من الرمادي والأبيض، ولها أعين زرقاء، ونحيفة جدًا مثل كلاب الصيد في رشاقتها. هذا النوع من الإبل قادر على الدخول في سباقات الإبل إذ يستطيع قطع عشرة كيلو مترات في الساعة الواحدة.

واصلنا مسيرتنا راكبين طوال فترة الفجر، وإلى أن بدأت ترتفع حرارة الشمس، كل ذلك كان في اتجاه الغرب مع انحراف قليل ناحية الجنوب. وهنا بدأ نخيل الجوف يخفى من على يميننا. وتركنا زروق على الجانب الآخر. وبعد أن وصلنا إلى الأرض المفتوحة، التي تبدأ عندها تلال الحطب، تبيننا أننا كنا نترك الوادي المسحور خلفنا. ذرنا حول حزام النخيل الطويل الذي كونا طليبايب Tolclib. لا توجد قرية حقيقية في الواحة، لكن المنازل مبعثرة خلال المنطقة الخضراء، التي يلمح الإنسان فيها بعض المنازل القليلة التي يعيش فيها العبيد الذين يقومون على رعاية النخيل. وعندما توغلنا إلى مسافة أكبر في اتجاه الغرب بدأت الروابي في التحول إلى تلال صغيرة، وبدأت خصلات الحشائش الخضراء تتخلل الرمل الأحمر هنا وهناك، في حين بدأت كتل الأدغال رمادية اللون تتسلق الغرود (كتبان) الرملية الصغيرة. وبعد أربع ساعات من شروق الشمس، وبينما كانت طلاب Tolab تبدو أمامنا عن بعد، نادي الشيخ سليمان بالتوقف. كانت ريح شمالية باردة قد هبت علينا وطالت الجزء الضعيف من كتفي، ولذلك سعدت جدًا عندما اختار الشيخ سليمان أكبر التلال الرملية كي نتناول عليه طعام الإفطار. جرى فرد الأكلمة ذات اللون القرمزي الفاقع على الجانب البعيد عن مهب الريح، لكي يجلس عليها الرجال، وجرى فرد سجادة وردية اللون لي خلف ربوة صغيرة، من منطلق أن المرأة لا تستطيع تناول الطعام مع الجنود. تخيلت أن ذلك يمكن أن يؤدي مشاعر الزواويين، إذا ما وجدوا أنفسهم مضطرين إلى مصادفة أنثوية في إناء مشترك.

بعد تناول هذه الوجبة كنا قد فهمنا ذلك الذى يعنيه البدوى بالسفر المريح. لابد أنه كانت هناك أدوات مطبخ كاملة مخبأة فى الخروج المخططه زاهية اللون المعلقة على جانبي الجمل أزرق العينين. وسرعان ما فاحت أجمل الروائح من إناء يسوى فيه الطعام على نار الحطب. جاء إلى جندى يحمل إبريقاً طويل العنق من النحاس الأصفر ومنشفة قبل أن يجرى تقديم إفطارى إلى فى تواضع بواسطة خادم كبير محترم من خدم الشيخ، ويدعى محمد، والذي جرى المسافة كلها بدءاً من الجوف، وبلا تبرم، بجوار سيدة، على الرغم من أنه كان يحمل بندقيّة ثقيلة. أعطوني صينية صفراء مملوءة بالتمر كى أكلها وأنا مشغولة بكتابة فقرة عن الفوائد المختلفة لأكل التمر واستعمالاته فى الكفرة. التمر يجرى تناوله فى الكفرة للتخليه الداخلة فى عملية الطهى. والتمر عندما يجرى خلطه ببعض العناصر المحلية الأخرى يتحول إلى مادة لزجة شبيهة بالغراء. التمر الطرى إذا ما دُهِس بعض الشيء، يمكن استعماله مكان الفللين وكل زجاجات وقوارير الزيوت يجرى غلقها باستعمال هذا المعجون. نوى التمر تصنع منه أزرار تضعها بنات التبو فى فتحات أنوفهن. وأنا على يقين من أن هناك استعمالات أخرى للتمر، لكن منظر الطعام هو الذى أوقفنى عن التفكير فى الاستعمالات الأخرى للتمر، فى ذلك الصباح، وأنا بين الروابي التى تعج بالحطب.

رفعت غطاء مضافوراً من سعف النخيل مطرزاً باللون الأحمر لأرى ما يقرب من اثنتى عشرة بيضة مسلوقة من حول كومة من الخبز الرقيق المقرمش. وكشفت كمية أخرى من سعف النخيل عن كمية كبيرة من لحم بارد من الضأن، جرى طهيهِ مع الفلفل الأحمر والبصل، تكفى لا طعام المجموعة كلها، وكان ذلك كله متوازناً مع سلطانية من الحساء الكثيف اللذيذ العامر بالشعرية والجزر وخضروات أخرى غير معروفة.



SULEIMAN BU MATAR'S PICNIC IN KUFARA WADI.

رحلة سليمان بومطر في وادي الكفرة

كان ذلك كله حاراً وعليه شرائح من الفلفل^(*) قرمزي اللون. كان النهم والخوف يتصارعان في ذهني، لكن النهم هو الذي فاز في ذلك الصراع، ولم تستطع ريح الشمال الباردة كلها ترطيب لساني الذي أصابته الحمى بعد أن شاركت في التهام ذلك الطبق المتبل تنبيلاً شديداً.

انضمت - عندما كان صف من برادات الشاي الصغيرة يجرى تسخينها على أكوام منفصلة من النار - إلى المجموعة الجالسة تحت الربوة الكبرى وشربت معهم شايًا حارًا حلواً، كان له مذاق القرية التي كان الماء مخبأ فيها تحت خرج السرج. تلا ذلك صمت دام حوالي نصف ساعة، تخللته ملاحظات بين الحين والآخر حول الحياة النباتية والحيوانية في الوادي، كان ذلك أقل الموضوعات إثارة للشك، يژاد على ذلك أن محمداً كان ميالاً إلى الشك بشكل واضح. ولم يكن بإمكاننا إطالة الحوار حول هذا الأمر نظراً لعدم وجود حيوانات برية في الكفرة، إذ لم أشاهد فيها مطلقاً أى نوع من الطيور، على الرغم من قولهم: إن أنواعها عدة، من بينها "أبو فصادة"، تظهر في شهر مارس، في فصل الحصاد - نظراً لأن الحبوب من المحاصيل الشتوية في الكفرة. هناك تشكيلة كبيرة من الحشرات في الكفرة، وتتميز تلك الحشرات بالنهم الشديد! صل^(**) كليوباترا، ذلك الثعبان الصغير طحيني اللون، يكمن مترصداً بين الرمال، كما يوجد في الواحة أنواع متعددة من الثعابين الكبيرة والصغيرة، والقسم الأكبر منها سام. وأكدوا لنا وجود ثعبان داكن كبير يصل طوله إلى حوالي ٦ أقدام، يخشاه المواطنون ويخافونه بصفة خاصة. وربما كان ذلك هو وحش الهواويش الأسطوري!

بدت لنا طولاب Tolab بعد تناول الوجبة الممتازة أكثر قربنا كما بدت الريح أيضاً أقل عنفاً. سرنا مدة ساعتين أخريين وتحققنا من شكوكنا التي مفادها

(*) استعملت المؤلف كلمة "فلفل" بنقظها العربي. (المترجم).

(**) الأفعى الصغيرة السامة. (المترجم)

أن الوادى ليست له نهاية محددة؛ ودار بيننا نقاش حاد حول مسألة الدرجات المستخدمة فى القياس، لأننا لم نجروا على إحضار حتى ولو مجرد بوصلة معنا، وقد حُسم هذا النقاش لصالحى عند غروب الشمس، واتجهنا بعد ذلك إلى حدائق طولاب المبعثرة، التى شاهدت فيها زهوراً، ورعى الحمام^(*)، وأشجار ليمون صغيرة الحجم، كلها مربوطة ربطاً أنيقاً بحصير ليفى بالطريقة التى يستعملها البستانيون الإنجليز. لا يوجد أى شيء يمكن رؤيته فى هذه الواحة الأخيرة من واحات الكفرة، التى تتبعثر بيوتها المصنوعة من الطوب الرملى بلا انتظام، حول المناطق المزروعة. لاحظنا أيضاً بعض "الشواريك" (الأبار)، التى يجرى جلب الماء منها باستعمال حمير صغيرة رمادية اللون، واستعجلنا مضيفنا لإلقاء نظرة سريعة على جبل نيرى الذى يقع على بعد مسافة كبيرة، نظراً لأن المضيف أصبح هو الآخر مهتماً بمسألة الاستكشافا لتى نقوم بها. تعد هذه الجبال معالم أرضية رائعة تمتد مسافة مسيرة يومين على الأقل، فى اتجاه الجنوب والشمال، لكن عندما مررنا بهذه الجبال أثناء خروجنا من بُسِمة لم تكن لدينا الوسائل التى تمكننا من معرفة ارتفاع هذه الجبال. ظننا أنها ربما يتراوح ارتفاعها بين ١٥٠ — ٢٠٠ متر، فوق أرض المنطقة المحيطة بها، الأمر الذى يجعل ارتفاعها عن مستوى سطح البحر يتراوح بين ٧٥٠-٨٠٠ متر، لكن هذا مجرد تخمين.

تقع ربيانة على بعد مسيرة يومين ونصف اليوم فى اتجاه شمال غرب طولاب، خلف قارة يصل حجمها إلى ضعف حجم قارة بُسِمة. قيل لنا إن عدد سكانها يقدر بحوالى مائة نسمة من الزواوين والتبو. توجد فى ربيانة زاوية قديمة أسسها الإخوان الأربعة الذين أوفدهم إلى ربيانة سيدى بن على. شيخ هذه الزاوية اسمه أبو بكر. وهناك مستنقع مالح بين الجبل وشريط النخيل الذى يقدر طوله

(*) نبات زهرة مختلف الألوان. (المترجم)



A TEBU AT AWARDEL IN KUFARA.

تبيى من أواردل فى واحة الكفرة

بحوالى ثمانية عشر كيلومتراً، والزاوية موجودة عند نهاية الطرف الجنوبى من هذا الشريط، فى حين توجد عشرة منازل فى الطرف الشمالى منه. حصلنا على هذه المعلومات من الشيخ سليمان عندما كنا ندور حول الطرف الغربى من طولاب، ثم عدنا إلى منزلنا عن طريق أرض الحطب المنخفضة الجرداء فى اتجاه طَائِب Tolelib. أصبحت الساعات بعد ذلك أمراً لا قيمة له. لم يكن هناك شيء يقترب منا، فى حين كان عمودا السرج يبدوان مثل حدى سكينين. جاءت الفسحة الوحيدة عندما توقفنا لأداء صلاة العصر. وبدأنا ندخل بصورة متدرجة، الطرف الشمالى من شريط نخيل طَائِب، وزاد شكرنا وامتناننا، قبل غروب الشمس مباشرة، عندما نادى الزوَّاي الذى لا يعرف التعب بالتوقف بجوار سد رملى ضخم، ورحنا نكرر الوجبة التى تناولناها فى الصباح. "سوف نتناول كوباً من الشاي" قالها مضيفنا بتواضع، فى الوقت الذى كان يجرى فيه تسوية طبق شهى فى الإناء الكبير، بعد أن قام صالح أفندى بإحضار بعض من النعناع الطازج الذى أعطى لمضيفنا عندما كان فى طولاب Tolab. كان الجميع يأكلون بطريقة سريعة فى هذه المرة، إذ كانوا يغمسون قطعاً كبيرة من الخبز فى وعاء الخضار المطبوخ مع اللحم، لكنهم فى هذه المرة قدموا إلى وجهه مُعدة بطريقة فاتحة للشهية على أطباق مصنوعة من أغصان شجر الصفصاف. ركبنا من جديد راحلتنا خلال نصف ساعة، لكن الحيوانات كانت مُتعبه وكان غروب الشمس يبدو خافتاً من خلفنا قبل اقترابنا من خلال زُرُوق المعتمة. وهذا هو القمر فى تربيعة الثالث يختلط لونه الفضى مع حمرة الغروب المتقد والرمال الكهربائية اللون تعكس هذه الألوان الأكثر غرابة، التى تغيرت فى الضوء الوهمى شأنها شأن المشهد التحويلي فى التمثيل الإيمائى. بلغت سرعة سيرنا فى الرمل الناعم العميق، مبلغاً جعلنى أتعلق باهذاب راحتى طيلة ثلاث ساعات أخرى. كنا قد غادرنا الجوف على ضوء النجوم. وعدنا إليها على ضوء النجوم، وعلى هدى من نار جرى إشعالها لنتبدى بها إلى الطريق

المؤدية إلى حدائق السيد رضا، التي طلب محمود الجداوي أن يحضر لنا منها بضعة جوالات من التمر، لكي نستفيد بها في رحلتنا. تكرر منظر الصباح الباكر، نظراً لأن عبيد السيد رضا، تلك الشخصيات الخرافية التي ترتدي خيشاً مهلهلاً أو أسماً من القطن، قاموا بإحضار حزم من سعف النخيل لكي يشعلوا فيها النار، وسكبوا كمية كبيرة من التمر الناشف ذهبي اللون، على شكل كومة، فوق طبق كبير صنعوه من سعف النخيل المضفور. ورحنا نقرقش ذلك التمر، ونحن نريح أقدامنا المتعبة على السجاد الذي جرى فرشاه على عجل، في الوقت الذي ينضم فيه المزيد والمزيد من الأشخاص الذين لهم لون الأبنوس، إلى الجماعة، ولم نكن نرى من خلال دائرة ضوء النار المتمايل سوى رعوس الإبل، وهي تجتر طعامنا في هدوء في ضوء النجوم.

جاء ركوبنا خلال الساعة الأخيرة شديد البطء، نظراً لأن الهجن لم تكن معتادة على حمل الأثقال، لكن مسيرة تلك الساعة مضى مصاحباً لصوت موسيقي كان يتناهي إلى مسامعنا وهو زغاريد النساء، قادمًا إلينا من البلدة، ومختلطاً بإطلاق نيران البنادق ودق الطبول. قال صالح أفندي عن العريس: إنه يتزوج من بنت صغيرة جداً. عمرها ثلاثة عشر عاماً فقط. انصرف ذهني إلى المرأة الطفلة وهي ترتدي ملابسها الخشنة الثقيلة، وهي تمسك في خجل وبأس النقاب الذي سوف يتعين عليها رفعه أمام رجل غريب، ذلك الرجل الذي أعطاه أبواها إياها!

كان يوسف ومحمد ينتظرانا عند قمة الصخرة — شخصان لا يمكن التعرف عليهما تماماً ملفوفان في جيردين صوفيين كبيرين الحجم. وبنفس البشاشة العربية المعتادة توصلاً إلى استنتاج مفاده أننا قد قُتلنا بالفعل بواسطة الزوايين!

كان طول قامتي هذين الرجلين مميزاً جداً طوال فترة إقامتنا في تاج. كان كل منهما قد عرف عند هذه المرحلة إن الهدف من هذه الرحلة هو كتابة كتاب عن واحة الكفرة. ظننا أن هذا الكتاب لابد أن يكون لمصلحة السنوسي، نظراً لأننا كنا

ننتقل تحت رعاية السيد وحمایته، لكنهما اختلفا فى هذا الأمر بعد ذلك. أحس يوسف أنه أنجز مهمته عندما وصلنا الكفرة بسلام. انشرح صدره لأنه جرى استقبالنا وإكرامنا من قبل الحكومة، لأنه كان يعرف أننا لابد أن نَعْجَب بالكرم الذى أولانا السادة إياه. أما محمد، فقد أحس بفطرته أننا لسنا بحاجة إلى ذلك الإعجاب، وأن كل ما يريده هو إنجاز عمل سيدى إدريس بطريقة ناجحة. كان الرجلان يعيان الاضطراب والقلق الذى تدور تحت السطح. أما يوسف - الذى كان يتعامل معنا على أننا غرباء، وأنه واحد من أهل الكفرة - فقد أوضح لنا بحياد كامل أن الموقف يرجع إلى أخطائنا الخاصة إلى حد بعيد. كنا نثق فى كثير من الأحيان بمن لا يستحقون هذه الثقة. والمؤسف أنى أنا، نسييت فى كثير من الأحيان الظلال اللطيفة للخلق الأنثوى الإسلامى، فى غمرة تعطشى إلى المعرفة. نحى محمد جانباً هذه الأمور كلها. كان محمد يعول على أنه هو وسيدى إدريس كانا يستجمعان كل قواهما للحظة التى سيكونا فيها فى مواجهة ضد أولئك الذى يعوقون عن وعى أو غير وعى عمل السيد. من هنا راح محمد يشجعنا بطريقة ودية، ويجمع لنا الأخبار، ويشرح لنا أسلوب التعامل مع الشائعات، ويحثنا على الصبر والمثابرة. كان يوسف يعمل جاهداً على تقوية شرف السادة. ولما كان محمد يعرف أن هذا التبرير لا مبرر له، فقد راح يعمل جاهداً، على أن يحقق من خلالنا، المهمة التى كُلف بها قبل أسابيع فى إجدابيا. كان محمد مشغولاً بمسألة الكسكسى وسرج الإبل المبطنة بالعراقات، أما الفكرة الثانية - التى كان يطلق عليها بطريقة غامضة اسم العمل - فقد كان منطقياً أن تتمثل فى أقلام الرصاص وكراسات الملاحظات التى كانت مثار شكوك الرجل!

كان اليوم التالى للرحلة التى قمنا بها إلى طولاب مصادفاً ليوم الجمعة، وعليه ومن يمن الطالع أن أرسل الإفطار - تلك السلطانية الكبيرة من الحمام، والبيض والجزر - إلى منزلنا، وبقينا فى المنزل لحين دخول وقت الظير، حتى

أذن المؤذن للصلاة، وراح مُطَوِّع يَدُقُّ على باب كل منزل من المنازل داعياً الناس إلى الصلاة. ارتدى حسانين أفضل جيرد (شال) لديه واتجه إلى الزاوية بصحبة محمد المتدين. ودخلت أنا إلى غرفة من الغرب الموجودة خلف المسجد، نظراً لعدم وجود مكان للنساء داخل المسجد، ورحت أراقب المشهد المهيّب، وأنا مختبئة خلف عمود من الأعمدة. كان الإخوان جميعهم حاضري الصلاة مرتدين أبهى جُباتهم الحريرية الرائعة، ومن فوقها خُمُرٌ ببيضاء بياض الثلج، من فوق كوفياتهم متعددة الألوان. كانت جُرْد (شيلان) البدو الخشنة تحتوى على طرطشات من اللون الأحمر القانى، واللون البرتقالى واللون الأخضر. بعد الأذان^(*) الأخير، وعلى دق الدفوف والطبول، وبصحبة حرس من الجنود والعبيد الذين يرتدون ملابس الاحتفال، الكاكي المطرز بأشكال مختلفة، يصل القائمقام فى موكب رسمى مع سيدى محيى الدين، وسيدى إبراهيم، ابنى سيد أحمد الشريف، وسيدى السنوسى ولد سيدى العابد. وتتبدى شخصية القائمقام واحترامه ووقاره عندما اعتلى "المنبر"^(**)، ومن شخصية ضخمة ترتدى ثوباً مخططاً خليطاً من اللونين الوردى والأرجوانى، ومن فوقه سترة زرقاء اللون ومن تحتها كوفية كثيرة الشراشيب، فيها خيوط ذهبية، من فوق عمامته شديدة البياض يتدلى منها خمار من أفخم أنواع الحرير والصوف. يبارك القائمقام فى خطبة صلاة الجمعة على الخلفاء الأربعة أبى بكر، وعمر، وعثمان وعلى، وعلى الأولياء الاثنى عشر الآخرين أتباع وأصحاب النبى ﷺ. بعد أداء صلاة الجمعة، يتحرك موكب مهيب، برئاسة أبناء السادة السنوسيين، وفى صمت مطبق لا يسمع خلاله سوى الأصوات الناجمة عن سير الأقدام الحافية على الحصى المصنوع من سعف النخيل، إلى الغرفة الداخلية المعتمدة لتحية قبة سيدى المهدي.

(*) استعملت المؤلف هذه الكلمة بلفظها العربى : Azzan (المترجم)

(**) استعملت المؤلف هذه الكلمة بلفظها العربى (المترجم)

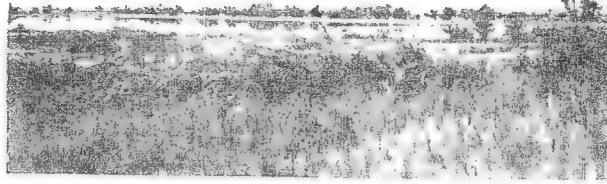
وإذا ما تمكنت تاج من الخطوة بالمزيد من التقدير والاحترام على غير العادة، فإن ذلك يتحقق لها يوم الجمعة، نظراً لأن المرء يقع بصره طول اليوم على الإخوان الذين يرتدون ملابس فاخرة ويتحركون ببطء بسين الجدران وجردهم الحريرية مرفوعة لإبعادها عن الرمل. بعد صلاة العصر جاء الوفد المكون من الأربعة الذين استقبلونا: القاضي، سيدى صالح، سيدى أحمد السنوسى وسيدى عمر، لتوديعنا نيابة عن المدينة، على الرغم من أننا لم تكن نتوقع مغادرة المدينة قبل أيام عدة. جاءت هذه الزيارة إيذاناً لنا بأننا أصبحنا الآن فى حل من الاستقبالات والمآدب الرسمية، على الرغم من أن الكرم العربى يمكن التعبير عنه عن طريق إرسال وجبات كبيرة إلى منزلنا طوال فترة بقائنا فى تاج. ومعنا القاضي وكبار الأعيان دخلنا إلى حوشنا الذى تضيئه أشعة الشمس، لكنهم أصابهم الرعب عندما قمت بالتقاط صورة لهم. كان علينا معاملتهم كما لو كانوا أطفالاً فى عيادة طبيب الأسنان، والمحافظة على استمرار الحوار الضاحك عن هذه العملية التى لا تتطوى على أى ألم، فى الوقت الذى راحوا فيه يتداخلون مع بعضهم البعض طلباً للراحة والمساندة!

زارنا، فى ساعة متأخرة من النهار، كل من حسن وحسين بازاما من رببانة. وهما أقارب لأولئك الناس الذين نشروا عنا الكثير من التقارير الزائفة، والذي لا شك فيه أن هذين الرجلين جاءا إلى تاج، فى المقام الأول، للوقوف على مدى صدق الحكاية التى أطلقها أقاربهم عنا. وعندما وجدانا ضيوفاً على سيدى إدريس، قررا أن القسم الأكبر من تلك الحكاية غير صحيح. كان حسن أسمر اللون وضعيفاً، وشبيهاً بعبد الله إلى حد بعيد، الأمر الذى لم ينشرح له صدرى، لكن أخاه كان شخصاً لطيفاً ممثلناً بعض الشيء، ميالاً إلى الدنيا بشكل يدعو إلى الإشفاق، لأنه قال لنا بصوت ينم عن الشكوى والأنين عندما حاول أخوه الأكبر أن يبيع لنا جملاً: "إنه جمل عجوز جداً".



LAKE AT BUMA.

بحيرة فى يوما



LAKE AND RUSHES IN KUFARA.

بحيرة ونبات السمار فى الكفرة

كنا عند هذه المرحلة قد تعلمنا طريقة عمل الشاي العربى. لابد أن الشاي كان مخدراً فى ذلك اليوم، لأن الأخوين: حسن وحسين أكدا لنا كل المعلومات التى أعطانا إياها الشيخ سليمان عن ربيانة، وحثانا على زيارتها. رفضنا ذلك العرض فى أدب جم، لأننا كنا قد شاهدنا الكثير من شرائط النخيل المنعزلة، التى فيها القليل من المنازل الحمراء المعتمة المهجورة. وجدنا أن شعورهما جرح بعض الشيء، فأوضحنا لهما أن إبلنا لا يمكن لها فى واقع الأمر السير لمدة أسبوع آخر قبل رحلة جغبوب الطويلة. واقع الأمر أننا كنا مهمومين كثيراً بقاقلتنا. وكانت خمس من النوق قد وضعت أحمالها وبذلك يصعب إبعادها عن أبنائها. وكنا قد أعطينا الجنود ستاً من الإبل فى رحلة عودتهم عن طريق زابعن وجالو، وكانوا قد اشتكوا مر الشكوى من عدم كفاية هذا العدد من الإبل. وكان موراجا قد تزوج تلك المرأة الشاحبة سوداء العينين التى سافرت معنا من بئيمة، وكان يريد اصطحاب زوجته معه إلى إجدابيا. ومن الطبيعى أن يرفض عبد الرحيم إعطاءهم المزيد من الإبل لعدم وجود عدد كاف من الدواب. غضب الرقيب وهدد بالتخلف، لكننا لم نعد نهتم بمتاعبهم، لأننا كان لدينا ما يكفيننا من المتاعب.

يزاد على ذلك أن القرب التى اشتريناها من السوق كانت جديدة على نحو جعلها غير آمنة، وكنا بدورنا خائفين من ضياع مائتنا بسبب هذه القرب الجديدة، أعلن سليمان، المرشد، فجأة أن السيد وحده فقط هو الذى ذهب إلى واحة جغبوب، وقال أيضاً إنه نظراً لأن أي أحد لم يسافر من هذا الطريق منذ أكثر من ثلاثة أعوام، فإن البئر الوحيدة فى ذاكار zakar لن تكون قد رُدمت فقط، وإنما ربما يكون كثيب رملى قد غطاها تماماً! ونظراً لوجود الماء على عمق كبير فى تلك البئر فإن الوصول إليه قد يستغرق ثلاثة أيام من الحفر. والأسوأ من هذا كله أننا ليس لدينا سوى سبع من الإبل. ويتعين أن يحمل الماء أربع من هذه الإبل، ويحمل اثنان العلف المطلوب. وبذلك لا يتبقى لنا سوى جمل واحد للطعام الخاص بستة أفراد، إضافة إلى أمتعتهم وخيامهم!

حاولنا استئجار إبل من التبو بأثمان باهظة، لكننا لم نعثر على أحد منهم على استعداد لجعل حيواناتهم تذهب إلى الشمال في منتصف فصل الشتاء، نظرًا لأن أغطية الإبل خفيفة جدًا في الكفرة، وعادة ما تتفق عندما تذهب إلى مناخات أبرد من المناخات التي تعيش فيها. شرحت لهم أنه ليس هناك فرق في درجة الحرارة بين كل من العجيلة وتاج، لكنهم قالوا لي: إن طريق جغبوب سيكون قارس البرودة وإن الريح فيه لا تطاق. وفي ظل هذه الفكرة السارة اقترحنا شراء جملين، لكن لم نعثر على إبل للبيع غير الجمل البازامي القديم الذي كان يرتعد بالفعل. قال يوسف وهو يساوم على شراء الجمل. "سيموت على الطريق" قلت "أنا ليس عندي مانع في نفوقه، شريطة أن يبقى على قيد الحياة أربعة أو خمسة أيام بعد تجاوزنا بنر ذاكار. سنكون قد شربنا حمولته من الماء عند هذا الحد، ولن نكون بحاجة إليه بعد ذلك". قال يوسف محاولاً فك نفسه من أي ارتباط: "هل تعتقدن أنه سيموت قبل قطع هذه المسافة؟" قال يوسف متنازلاً عن كلامه: "أنا أرى النفوق في عينه، لأنه ينتوى الموت خلال يومين".

تحرك صديقنا محمد الجداوى تحركاً نشطاً لمصلحتنا، وبعد أن بحث في الجوف كلها، عاد إلينا منتصراً، إذ أحضر معه أعظم جمل مدهش رأيته في حياتي. بدا الجمل وكان قسماً منه ترك في عملية الخلق. تحلقنا كلنا حول الجمل في صمت مطبق في محاولة منا لاكتشاف ذلك الذي ينقص هذا الجمل. هذا الجمل يوحى شكله بالرضا عن النفس الذي يتمتع به العقيد الهندي القصير، المتين المحب للكارى، والمؤكد تماماً أن شكل هذا الجمل كان فيه شيء غريب. نظرت إلى يوسف مناشدة إياه "أنه كثيف الوبر". رد يوسف قائلاً في يأس متأدب "نعم، هو كثيف الوبر". قررنا عدم شراء الجمل وكوفئنا في آخر لحظة بإحضار رجل من التبو جملاً رائعاً بحق وحقيقة، نصفه هجين والنصف الثاني من إبل النقل. كان سعر الجمل مرتفعاً جداً،

حوالي مائة مجيدى، لكننا لم ننتظر المساومة على الثمن. كان الجمل لازماً وضرورياً لنا بشكل لا يمكن الاستغناء عنه. كرهت فكرة إبعاد الجمل عن عيوننا ولو للحظات، لكن صاحب الجمل أصر على أننا لا يمكن لنا الحصول على الجمل إلا فى اليوم التالى، واضطررنا إلى ترك القافلة تتحرك بدون الجمل.

جاء الهرب فى هذه المرة منظماً وتنظيماً جيداً، على الرغم من استباقه بطعنة أخرى من طعنات عبدالله. علمنا أن عبدالله، كان ينشر على نطاق واسع، حكاية مفادها أن سيد أحمد الريفى، معلم المهدي ومستشاره، تنبأ بهزيمة أى غريب يحاول السفر من طريق جغبوب. كان عبد الله قد قال: "إنه طريق مقدس بين مكانين مقدسين. هذا الطريق مخصص للسادة ولمريديهم فقط لا يمكن لأى أحد السير فيه بسلام!" ونحن لا نعلم إن كان هناك مصدر آخر لهذا الكلام غير ذهن عبدالله المشتت، لكن هذا الكلام قد يكون له تأثير مزعج على التشدد الذى يسهل استثارته بين المرافقين لنا. من هنا، عجلنا بتحريك القافلة الصغيرة فى ساعة مبكرة من الصباح وحددنا لها هوارى هدفاً ينبغي الوصول إليه، نظراً لوجود منطقة رعوية صغيرة على مقربة منها، ولذلك قد يكون من الطبيعى أن تأخذ الإبل قسماً من الراحة فى هذا المكان، لمدة أسبوع أو عشرة أيام قبل أن نبدأ السفر إلى جغبوب. حدث، أن القافلة الصغيرة دارت حول القرية والواحة الرئيسة ثم خيمت فى بيارة منعزلة من بيارات النخيل على بعد بضعة أميال، بحيث لا يتطرق إليها المزيد من الشكوك.

اتخذنا فى اليوم التالى بعض الاستعدادات الواضحة للقيام بجولة فى الوادى، ثم قمنا بعد ذلك وعقب غروب الشمس مباشرة، وبينما كان أهل تاج المتدينون مشغولين بصلاة المغرب، بالخروج من باب دارنا الصغير المميز، ورحنا نتجول بلا هدف حول جدار بارز وعثرنا على جملين مُسْرَجين بالفعل وفى حوزة يوسف الشكّاء الذى يكره فكرة الترحال أثناء هبوب ريح الشمال القوية، قارسة البرودة.

بعد أن لففنا أنفسنا فى جرد (شيلان) خشنة، لم يظهر منها سوى الحذاء الجلىدى وردى اللون، وقرمزى اللون فى الجزء العلوى منه، ومربوط بشرائط جلدية قرمزية اللون واضحة للناظرين، خرجنا متلكنين من البلدة الصغيرة ومن خلفنا يوسف وسليمان وبجير (جمل حديث الولادة) عمره أسبوعان! كانت الريح عاتية على نحو لم نتمكن معه إلا بصعوبة بالغة، من إلقاء نظرة خاطفة على الواحة الموجودة خلفنا والتي أرتنا الكثير منها خلال فترة قصيرة.

لقد خلفنا وراءنا فصلاً كاملاً من حياة أحسننا بأننا درسناها فى صفحات هذه الحياة دراسة كاملة، لكننا كنا نعرف أننا لم نقرأ كل ما بين السطور! لقد سمح لنا بالنظر إلى مرآة معتمة لتلقى نظرة خاطفة على حضارة مؤكدة منعزلة ومختلفة اختلافاً تاماً عن حضارتنا. بقينا نتحرك على امتداد أيام قلائل بين صداقة وعداء جماعة دينية منعزلة ومتشددة، وكنا نستشعر شيئاً من تطرفهم الشديد، وكرمهم الحاثمي. كما استشعرنا أيضاً قليلاً من بساتنهم المثيرة للإشفاق التى تقف وراء مؤامرات ومؤامرات أخرى مضادة. ومع ذلك كله، كنا غرباء فى أرض غريبة، نحظى بكرم أهلها الكبير، لكننا لم نتمكن مطلقاً حتى ولو لدقيقة واحدة من معرفة ذلك الذى يدور فى أذهانهم. استطعنا إلقاء بعض النظرات الخاطفة على ما يدور خلف الكواليس. وُضعت مؤخراً بين أيدينا بواسطة يوسف الثرائر بعض الخيوط لكشف الأشياء الغامضة التى لا يجرى الحديث عنها، لكن أسرار تاج لا تزال معنا فى مامن!.

يتعين على كل واحد منا كشف هذه الأسرار بطريقته الخاصة، لأن أى رجل لا يستطيع فور دخوله من أعتاب هذه البلدة، تبين أى شيء عن ذلك المنزل الكبير الذى فوق قمة الصخرة العالية، ولا عن حياة هؤلاء الناس الذين يعد ذهن الواحد منهم جزيرة مستقلة بحد ذاته، وأسراره مؤمنة مثلما تؤمن الطبيعة الواحة نفسها.

لقد سددت الصحراء ديونها. لقد هزمتنا قحولتها الخالية من الماء، وقهرنا أيضا كثبانها الرملية الخطيرة. لقد كسبنا حق الوصول إلى سرها، وكانت سخية في إطلاعنا على هذا السر، ومع ذلك كنا نعرف أنها كانت كارهة لانتصارنا. بعد اختفاء المنازل المعتمدة المبنية من الحجر سريعا بين الرمل الأحمر والصخور السوداء، إلى حد أنى عندما نظرت إلى الخلف بعد دقائق قليلة، ظننت أنى كنت أحلم بالوادي وبأهله، وجدتي أتساءل فيما بينى وبين نفسى عن الثمن الذى يتعين دفعه نظير المعرفة التى حصلنا عليها.

وقف فجأة خلف السلسلة الأولى من الصخور شخص شبيه بالأقزام كان يرتدى على رأسه طرطوراً أخضر، ويلبس عباءة، وبجانبه حمار ضئيل الحجم رمادى اللون، فى الوقت الذى كان هناك شخص آخر متكراً فى عباءة قرمزية اللون لم يظهر منه سوى عين واحدة من عينيه ومع خروف عاص. هذان الشخصان هما: القومندان صالح أفندى، الموفد لمرافقتنا إلى مخيمنا الأول، ومعه جندى ليقوم بذبح الخروف على شرفنا وتكريماً لنا. وما إن انتهينا من التحيات والسلامات حتى ظهر لنا شخص متين كان يلهث، مرتدياً جيرداً أبيض كان يهفهف من فوق جبة زرقاء داكنة، وعلى رأسه عمامة، ونظارة معوجة أعوجاجاً خفيفاً، ويسعى جاهداً فى ارتقاء الصخور. هذا الشخص هو أحمد السنوسى الذى جاء ليباركنا للمرة الأخيرة بكثير من التوصيات التى عهد بها إلى المرشد وطلب منه أن يدير باله علينا تماماً. بعد قراءة "الفاتحة"، أمسك أحمد السنوسى بكم رداء يوسف وغمغم بطريقة غامضة "ألن تتوقف بقاقلتك بعض الشيء عند الغرد (كثيب رملى) التالى، أود أن أرسل إليك طعاماً لرحلتك - لحماً، وخبزاً، وأرزاً!" وشرح له بصوت أكثر انخفاضاً أن كثيراً من الإخوان الودودين تمنوا أن يعزمونا على الطعام، لكنهم خافوا من إيذاء مشاعر القائمقام بالقيام بمثل هذا العمل، وبخاصة أن الرجل كان يعتبرنا ضيوفاً عليه. العرف العربى يقضى أنه فى حال مجيء غريب

إلى البلدة، فإن كل من يزوره يتحتم عليه إرسال الطعام إليه أو دعوته للطعام فى بيته! وهنا جاء على بالنا أن أبناء سيد أحمد الشريف وسيد العابد، وهم صبية تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة كانوا ينتظرون فى معظم الأحيان ليحيونا ونحن نغادر منزل سيدى صالح. قال أحدهم فى خجل "كنا نود أن نرى ما إذا كانت الست خديجة ترتدى الملابس نفسها التى ترتديها نساؤنا". لكنهم كانوا يتخوفون من التصوير، لأنهم لديهم فكرة مفادها أن الإنسان إذا ما امتلك صورة لشخص آخر، فإنه يمتلك روحه أيضا، أو أن تكون له - فى أضعف الأحوال - سيطرة تنويمية مغناطيسية عليه.

اضطررنا آسفين لرفض العرض الجميل الذى قدمه سيدى أحمد، نظراً لأن السرعة كانت أمراً ضرورياً. وعليه، عجلنا بالسير فى اتجاه الشمال بأقصى ما نستطيع سرعة موكبنا الصغير - المكون من الإبل، والحمار، والخروف، والبعير الصغير. هدأت الريح بعد الساعات الثلاثة الأولى، وطلع القمر فى سماء صافية نصف شفافة. كانت ليلة بهيجة ورائعة إلى حد بدت معه غير حقيقية. كنت أعرف الألاعيب الغريبة التى يمكن أن يلعبها ضوء القمر فى الصحراء، لكنى لم أر هذه الألاعيب وأثارها المدهشة سوى مرة واحدة فى مدينة (شون شن شو). سقوط ضوء القمر الأبيض على الرمل الأبيض يجعله يبدو كما لو كان بحراً فضياً متقزح الألوان، وبارداً ويكاد يكون قاسياً تماماً فى عدم القدرة على إدراك ذلك الشحوب. لكن ضوء القمر الذى أمامى هنا ضوء ذهبي على عالم أحمر حُمْرة الكهرمان، اللهم باستثناء أن المرء لا يمكنه الرؤية إلى مسافة بعيدة، وكان ضوء القمر صافياً صفاء النهار. كانت أشجار النخيل قد أحدثت ظلالاً مختلفة من اللون الأزرق، الذى اكتسب لوناً فضياً عند حوافه، فى حين كانت ظلال النخيل ساخنة، وأرجوانية اللون بشكل واضح تماماً. مضيئاً راكبين خلال عالم بلغ من الروعة والعجب حدًا جعلنا بعد أن درنا حول قرية هواى الحاملة وبعد أن ضللنا طريقنا تماماً فى الواحة



OUR CAMP AT AWARDEL.

مخیمنا فی اواردل

التالية - ذلك لأن عدم خطأ المرشدين يعد خرافة واهية تماماً في ليبيا - لم نعبأ بالأمر، لكننا طرحنا عنا جُردنا ورحنا نتمتع بذلك الصمت المطبق والألوان التي لا يصدقها عقل. ومع أننا ذُرنا دورتين كاملتين، في ضوء القمر الذى كان يخبو ويضعف، اكتشفنا فجأة مخيمنا المخبأ تماماً في تجويف بين مجموعة كبيرة من النخيل وشيء شبيه بأشجار الست المستحية، لم نتمكن من دخول الخيمة وسط اللونين البنفسجى والكهرمانى، وعلى الرغم من التمر والخبز المضاف إليه القرفة، رحنا نتفكر في مسألة حتمية استيقاظنا في ساعة مبكرة.

أدى عدم وصول جملنا الجديد إلى ما بعد عصر اليوم التالى، إلى إحباط أو فشل رغبتنا في الرحيل سرّاً وعلى وجه السرعة عن بيارة النخيل القريبة من هوارى. فى ذلك الوقت، وهذا شيء طبيعى، كان السواد الأعظم من سكان قرية أورادل المجاورة موجودين فى مخيمنا. كان الزواويون ودودين للغاية وفصوليين بشكل مخيف. كانت عيونهم المتشككة، وجوههم الشاحبة الوضيعة تطوق بنظرها خيمتى طوال النهار، أملاً فى حظوة بنظرة خاطفة تشبع فضولهم، لكن من باب العناد ليس إلا، أخفيت وجهى فى البركان (الشال) وصورتهم خلسة عندما كانوا لا ينظرون إلى!

من سوء الطالع أنى خلفت ورائى شيئاً شبيهاً بسمعة الطبيب، بقيت لدى مرضاى بعد رحيلى، كنت على امتداد اليوم بكامله أجد خيمتى تغص بعدد كبير من النساء اللاتي كن يشكين من أمراض وأوجاع غريبة تماماً. كانت النساء الفقيرات تجلس خارج الخيمة، وبركاناتهن (شيلانهن) الصوفية قرمزية اللون على النقيض تماماً من ثيابهن السوداء، مُشكلات بذلك أروع منظر رآته عيناى إلى الآن. كانت زوجات كبار الشيوخ يشار إليهن بالدخول إلى خيمتى على أن يغلق باب الخيمة بعدهن بواسطة الأقارب الذكور الغيورين. هؤلاء الزوجات - إذا ما كن شابات صغيرات - لا يكشفن مطلقاً عن وجوههن حتى عندما يكن أمامى، ولكن يجلسن



LOADING AT AWARDEI.

التحميل فى أواردل

صامتات ويتلى من فوق وجوههن حزم متهدلة من ثنيات الأقمشة، هي عبارة عن ثلاثة بركانات من النسيج الداكن الثقيل، الواحد فوق الآخر، وكن يجلسن على سريري في الخيمة في حين كانت تقوم صديقة حميمة بعملية الترجمة كي أفهم ما تحتاجه هذه الزوجات. كن يردن منى أن أتخس الأمراض الجلدية من تحت ملابسهن، وأن أصف دواء لأعين غير مرئية وأخمن أوجاعهن من خلال وصف أقاربهن الكبار لتلك الأوجاع، والذين كانوا يحثونهم في كل الأوقات، دون فائدة بطبيعة الحال، على عدم الخوف من تلك الأوجاع. سرتنى مجوهراتهن، لأنهن كن يلبسن في أيديهن أساور من فضة شبيهة بالقفازات القديمة التي كانت تصنع من الحديد، وكانت تلك الأساور تمتد من رسغ القدم إلى منتصف الساعد وفيها حلقات مسطحة غريبة، كبيرة ورقيقة وشبيهة بالقطعة المعدنية من فئة الشلنات الخمس.

انتهى اليوم بمشاجرة عنيفة بين محمد وعبدالله، الذي تقرر له العودة إلى إجدابيا مع الجنود، لأن القائمقام كان يرى أن سيدى إدريس سيعاقبه بأقسى مما فى سلطته. كان المرشد قد قال لمحمد إنه سيقطع أنفه، وتلك سببة مهينة؛ ولأن الضوضاء والغوغاء كانت كبيرة، أثناء تلك المشاجرة، وكان كل واحد يصيح فيها بأعلى صوته، فقد راح خادمتنا الأمين يبكى مثل طفل صغير! ولم يهدأ إلا بعد السماح له بشراء العبدية التي كان يريدتها. قال محمد: "لقد مشيت الطريق كله قادمة من دارفور. وبذلك تكون قادرة على السير معنا إلى جغوب". واستطعنا بعد ذلك إقناعه بأن يعيدها إلى جالو فى مرحلة لاحقة. كانت حمولة القافلة أكثر من اللازم قبل أن يضاف إليها طعام وماء العبدية الأبنوسية البشرة، على الرغم من اقتناعنا تمامًا بعد علمنا أنها طبّاخة ماهرة ونظرًا لندرة الجمالة فى ذلك الوقت فى الكفرة، ونظرًا أيضًا لغلو أسعارهم، فقد وافقنا على أن نأخذ عمار Amar تابع محمد، ليقوم بعمل الجمال. كان عمار صبيًا شجاعًا ومطيغًا، وهو أيضًا واحد من تلاميذ زاوية جغوب، لكنه للأسف لم يكن طبّاخًا! وكانت الطريقة التي أتلّف بها أرزنا أن أتصل إلى حد المأساة.

أمضينا مساء اليوم الرابع والعشرين من شهر يناير فى عملية اكتسبت سمة العادة وتمثلت فى تصنيف أمتعتنا الآخذة فى التناقص حتى يمكننا الوقوف على ذلك الذى يمكن التخلّى عنه. تحتم علينا فى هذه المرة التخلّى عن الخيمة وأسرة المخيم. لن يكون أمامنا متسع من الوقت على طريق جغوب لنصب الخيام. فى ظل وجود جماعتنا الصغيرة والضعيفة إلى حد ما، يصبح المرء بلا حول ولا قوة، فى الصراع مع أوتاد الخيمة، وبعد مسيرة دامت اثنتى عشرة ساعة فى اليوم الواحد، وضد اتجاه الرياح القوية، وبعد حراسة الإبل، وطبخ الأرز أو الدقيق. أقصى ما يتمناه المرء فى مثل هذه الظروف هو كيس النوم، من فوق فرشاة الأرض، فى الملجأ غير الكافى الذى يتمثل فى الزريبة التى نصنعها من جوانات طعامنا وعلف الحيوانات الذى معنا. لم يعد معنا الآن سوى حقيبة ملابس واحدة، وجوال واحد من المؤن، ولفافتين من الفراش. قلّت بطريقة عابرة - وأنا أنظر حولى إلى كومة مقتنياتنا الصغيرة على أمل الاستغناء عن أى شيء آخر: "بوسعنا وضع فرشاة الأرض ضمن فراش النوم". كيس نومك هو أرق الأشياء ويمكن وضعه فيما بين يابى الخيمة". أحسست بشيء من العصبية فى عيني حسانين عندما بدأنا فك الربطة الكبيرة، لكنى لم أفهم تلك العصبية، حتى بعد سقوط زجاجة من زجاجات العطر، وسقوط حقيبة أخرى كبيرة، تبعثر على أثرها طاقم كامل من أطقم طلاء الأظافر واختلط بالرمال. كنت قد تعودت على مثل هذه الأمور فى ذلك الوقت، لكننى اندهشت إلى حد ما عندما صدر احتجاج عنيف عندما حاولت إدخال الملاء المانعة لتسرب الماء. "احترسى! انتبهى! ستأذنين نفسك!" "ماذا تقصدين بحق السماء؟ أكياس النوم الصوفية لا تغض!". خطرت الفكرة على بالينا فى آن واحد أن ما نفعله ليس صحيحًا فى مثل هذه الظروف ورحنا نضحك نحن الاثنان لأننا نحاشينا ألما كبيرا كان يمكن أن ينزل فى يدي بفعل قرص بقعة من أكبر البق اللبى. تساءلت بعد أن شهقت "ما هذا؟" ثم أخرجت بعد ذلك منشارا حاميا! ظننت أنى فى

غضون لحظة أن رفيقي تكونت لديه ميول جنون قتل الغيرة، وأنا أقف فاغرة فمي وأمسك بالآلة الحادة في يدي، قال رفيقي الأثم: "لقد خبأت هذا الشيء اللعين في فراشي طوال ثلاثة أشهر، وكنت كلما تقلبت عليه ينغرس في كتفي، وقد جرحت نفسي ثلاث مرات بفعل هذا المنشار!" جاء الرد "ظننت أنه قد يكون مفيداً". لابد أن رؤى الصحراء الخالية من الأشجار، والتي ليس فيها أية حزمة من الطحلب، أو أية قبضه أو حتى نصّل من أنصال الحشائش، خطرت على باليهما في آن واحد، لأنني قبل أن أسأل بصوت خفيض "ما الذي كنت تتوى قطعه؟"، أجابني "لا أعرف" وأردف قائلاً بسرعة كل ما في الأمر أنني ظننت أنه قد يكون مفيداً — في عمل بعض الأشياء — لم أكن أود لك أن تريه. كنت أعلم أنك ستضحكين". تعجبت احتقاراً وأنا أمصمص أطراف أصابعي "أضحك!" أولاً وقبل كل شيء، أنت لست بحاجة إلى عمل كل هذه الجلبة! المنشار ليس أقل سوءاً من خبزك!". وهنا خطرت على بالي تلك الأيام ونحن في الطريق إلى تيسيربو Taiserbo، عندما أصررت على الاحتفاظ بكسرة خبر عمرها عشرة أيام في الحقيبة التي أحملها على ظهري عندما كان يراودني الإحساس نفسه "أنها ربما تكون مفيدة في ظرف ما". تسبب رفيقي، أثناء بحثه عن الكبريت — كان الكبريت والصابون على الرغم من عدم استعمالنا الصابون مطلقاً هما الشيءين الوحيديين اللذين رفضنا تقاسمهما — في جرح نفسه جرحاً بالغاً بسبب حافة رغيقي الثمين الحادة الجافة، ومن ثم راح يتكلم بعد ذلك عن الطعام باعتباره أخطر العناصر في الصحراء.

الفصل الثالث عشر

خلال الجبال

إنطوى تحميل الإبل فى اليوم الخامس والعشرين من شهر يناير على شيء من الصعوبة. كان كل سكان هوارى الذكور قد خرجوا لمساعدتنا أو تعطيلنا، فى حين كانت مختلف النساء المغطيات قد اختفن بين ظلال كتل النخيل أملا أن يقابضن بعضنا من البيض بالشأى الأخضر، لكننا كنا قد خلفنا وراءنا آخر مؤننا فى الكفرة، ولذلك لم نتمكن من تلك المقايضة. قدم لنا تاجر شاب من وادى جلد شاة كاملاً مصبوغاً باللون القرمزى نظير ثلاثة مجدييات ونصف المجيدى. وسوف يجرب هذا الشاب حظه بسهولة بين محلات الأحذية فى لندن! جاء ذلك اليوم أيضاً بمثابة دليل جديد على الشخصية الزاوية، نظراً لأننا كلما تركنا أى شيء بعيداً عن أنظارنا كان يختفى على الفور. لقد ضاع منى إشاربى الصوفى الذى اعتدت لفه حولى من تحت ملابسى القطنية الخفيفة، والذى كان يمثل حمايتى الوحيدة من رياح الشمال. فرش محمد فى أدب سجادته كي يجلس عليها اثنان من الإخوان المحترمين. وفى غضون لحظات قليلة اختفى الرجلان هما والسجادة. ضاعت بطانية يوسف زاهية الألوان بالطريقة نفسها، ومعها الطاقة التى يلبسها حسانين عند النوم. ومن ثم لا يكون مستغرباً أن تكون ودائعنا منطوية على شيء من البرود. وهذا عمار Amar غاضب هو الآخر لأن ربة من ربات البيوت سرقت المصْبَع الذى يُسَوَّى عليه خبزه الذى لا يؤكل. وكانت فرائصنا ترتعد لفقدان ذلك المصْبَع! (*)

انتهى عند الساعة الثامنة صباحاً تلقينا لآخر الدعوات، وآخر التحذيرات، وجوقة "الترحيبات والسلامات!" التى خبت وتضاءلت بين مجموعات النخيل، وهبط علينا بعد ذلك إحساس بالأمن والسلام. وهذه هى المرة الأولى على امتداد ثلاثة

(*) المصْبَع: شبكة من أعواد الحديد تستخدم فى تسوية وانضاج الخبز. (المترجم)

أشهر التى أصبحنا فيها مجموعة متوادة تماما ومتحدة من أجل هدف مشترك عن طريق العمل الجاد والقدرة على التحمل. كان ذلك إحساسا طينيا! كان الجميع سعداء ولم يتصل أحد. يزداد على ذلك أن يوسف المتين نفسه تناسى شكواه، وراح وهو يبتسم ابتسامة عريضة بجمع الحطب ويستحث الإبل على السير. ومن سوء الطالع أن جملنا التيبى الرمادي الكبير راح يعاني معاناة شديدة من وجبته الثقيلة الأولى من التمر مثلما حدث للقافلة كلها عندما كنا فى بطفال قبل شهر. وفى اللحظة الأخيرة، وبعد أن وجد سيدى محمد الجداوى أن التمر المخصص لعلف الماشية يصل إلى ثلاثة أحمال كاملة، أعارنا واحدة من نوق السيد رضا. لم يكن معنا لتلك الناقة سرج من سرج نقل الأمتعة ("حاوية")، وعليه قمنا بثنى خيمة الذباب الفردية، على ظهر هذه الناقة، بعد أن كنا قررنا التخلي عنها. أخيرا قام يوسف المقتصد دائما بحشر الأعمدة الثلاثة الخفيفة فى مكان ما.

بدأنا بقافلة مكونة من تسع من الإبل، لكنها جميعا كانت مُحَمَّلة بأحمال أكبر من طاقتها، نظرا لأنه نَحْتَم علينا حمل ما يكيفنا مدة ستة أو سبعة أيام، نظرا لأن مرشدنا لم يكن متأكدا من المدة التى سيستغرقها حفر البئر فى ذاكار. مشينا فى ذلك اليوم عشر ساعات فى شمس حارة وريح شمالية غربية قارسة البرودة. غادرنا قارة هوارى، تلك الكتلة المعتمدة فى الناحية الغربية، هى والقمم نبليه اللون العالية فى جبل نبرى، والتى تقع خلف هذه القارة. ورحنا نبُتعد بصورة متدرجة عن رمال الكفرة الساخنة الحمراء بأماكنها المكونة من الأحجار السوداء الغربية. وبدأنا فى فترة العصر الدخول إلى منطقة شاحبة يغلب عليها الاستواء وموصله إلى سفح جبال هوايش. يضاف إلى ذلك، أن هذه الجبال بقيت مختفية عنا إلى أن خيمنا عند غروب الشمس، نظرا لرفض الجمليين الصغيرين التحرك إلى أبعد من ذلك. أحسنا بافتقادنا للسود عندما كنا نناضل لإنزال الأحمال من فوق الإبل العاصية، التى كان اثنان منيا يبلغان من العمر ثلاثة أعوام وكان من المستحيل

تبريكهما بدون كفاح ونضال كبيرين. شيدنا زريبتنا بحيث تكون ظهور الإبل مواجهة لريح الشمال العاتية، لكن الطبيعة خدعتنا، فقد انخفضت درجة الحرارة انخفاضاً كبيراً لايسر الخاطر. جلسنا مرتاحين في أكياس النوم ونحن نطبخ أرزاً ونعد قهوة، ونراقب القمر الذى يختفى ويقلل من ضوء شمعتنا الوحيدة.

أيقظنا محمد قبل فجر اليوم التالى بوقت طويل وبدأنا الرحيل عند الساعة السابعة صباحاً، لكننا كنا قليلي العدد، نظرًا لأن عماراً هو وسليمان كبير السن بلغا من الضعف حدًا عجزا معه عن رفع أعمال العلف الضخمة، يزداد علي ذلك أنني وحسانين لم نكن أكفاء بالمرّة فى هذه المسألة! وعلى الرغم من هذا كله كان البشر يعد الجميع. وراح البدو يؤلفون ويغنون قوافى شهبانية تعكس ميولهم الشخصية،

" إذا لم يمش سيدى يوسف اليوم،

فلن يصادف فى طريقه زوجة جديدة صغيرة".

شاهدنا عند الساعة الثامنة صباحاً جبال الهوايش، التى هى عبارة عن خط طويل من القمم المدورة عند الأفق، واكتشفنا فى ذات الوقت أن مرشدنا يعانى من نقص فى البصر. كان المرشد بدويًا كبير السن صغير الحجم فقير الحال، لكنه كان ثاقب الرأي تمامًا على الرغم من بساطته الظاهرية. لم يكن ذلك المرشد يرتدي فى قدميه سوى صندل بال، وطاقية من الجلد، وجيرد مهلهل رمادي اللون. كان أميًا تمامًا وكان يتحدث بلهجة نادرة وجد محمد شيئاً من الصعوبة فى تتبعها. كان يجر خطاه طول اليوم، متكناً على عصاه المصنوعة من جريد النخل، بلا كلل دون أن يرد علي أحد، على الرغم من ظهور صوته بين الحين والآخر ضمن أصوات المجموعة عند الغناء. لم يخبرنا هذا المرشد أنه تدخل مندفعاً ذات مرة فى شجار بين رجلاً أسودين، لقي خلاله ضربة على رأسه أضعفت بصره، لم يخبرنا بذلك إلا بعد أن فى الوصول إلى تل متصدع القمة. توقعنا كلنا بعد ذلك أن

نضل طريقنا، لكن المرء يصبح قدرئاً بصورة مخيفة عندما يكون فى الصحراء. المترحلون والمسافرون كلهم فى تلك الصحراء القاحلة يرددون العبارة "الله وحده الذى يعلم".

كنت عند هذه المرحلة قد فهمت جيداً مسألة إهمال البدو، وافتقارهم إلى الفكر الاستباقى وثقتهم الطفولية بالعناية الإلهية. أولاً وقبل كل شيء، ما الذى يمكن أن يحدث فى طريق يقدر طوله بمسيرة اثني عشر يوماً بلا ماء، إذا ما قام الإنسان بتحميل جملة بقرتين إضافيتين من قرب الماء، علاوة على "جعتة" (*) jaata كبيرة من العلف من أجل ضمان يومين إضافيين من الحياة؟ هبات قليلة من القبليات (**) Giblis كفيلة بتجفيف كل المياه التى معنا. قد يفسد الماء، وقد يتسرب من القرب، وقد يقع حمل من الماء على أحجار حادة تؤدى إلى انفجار القرب. على الجانب الآخر قد يفقد المرشد ذاكرته أو "غريزته". عن السير يوماً بعد يوم فى ظل عدم وجود علامات أرضية، وفى ظل إصرارنا المعرفى على أن أى خطأ بسيط يمكن أن يعنى الدمار والهلاك، وهذا كفيل بإرباك أكثر الناس خبرة وتجربة. المسير السيئ الذى يمكن أن ينتج فى يوم من الأيام، عن خلل فى توازن الأحمال، أو التهاب ظهور الدواب، أو حتى عن التغذية غير المعتادة بالتمر، يمكن أن تنزل الخطر بالوضع كله، وسبب ذلك هو أن طريق ذاكار — جغبوب أو طريق ذاكار — سيوة هما أكثر الطرق المعروفة الخالية من الماء. يزداد على ذلك أن طريق بويما — الفرافرة الذى يقدر طوله بمسيرة اثني عشر يوماً، هو الآخر خال من الماء. تصل الإبل من هذه الطرق منهكة تماماً وإذا ما زادت المسيرة يوماً واحداً عن المدة المحددة لها فربما أدى ذلك إلى عدم وصول الإبل مطلقاً. قد تتورم أقدام

(*) "جعتة" كلمة عامية ليبية تعنى: "جوال كبير مصنوع من الجلد". أوردت المؤلفة هذه الكلمة فى المتن باللهجاء jarfa، لكن صحيح هذه الكلمة هو Jaata (المترجم).
(**) القبلى: كلمة عامية ليبية تعنى "الريح الجنوبية المحملة بالرمال". (المترجم)

الرجال، أو قد يصابون بالحمي، لكنهم لا يمكن أن يركبوا الإبل المحملة بأحمال أكثر من طاقتها. يضاف إلى ذلك أن ريح الشمال المربعة قد تهب ليلاً أو نهاراً، مما يجعل السير شاقاً ومتعباً، ومع ذلك يتحتم الحفاظ علي معدل السير اليومي. من هنا نجد البدو، يبتسمون إذا ما قام أحد من البشر بتحصين نفسه ضد الطبيعة، محاولاً بذلك وقف أو استباق قسوتها. البدو يقولون : "سنصل بمشيئة الله"، ثم يوجهون مسار الحوار إلى موضوع آخر.

راح يوسف، يتأسي بكل من محمد وموراجا، حول ما إذا كانت زوجة أو زوجتان يمكن أن تسرا قلبه الحنون أكثر من الجمل. تهتد يوسف وقال: "المرأة أرخص بكثير من الجمل"، وقال لنا إن الإخوان فيما بينهم لا يدفعون مهراً لوالد العروسة. يكفي إعطاء هدية صغيرة من الحديد أو الذهب لأم العروسة وأخواتها، وربما عقد أو سوار للنبت نفسها، وبذلك ينتهي كل شيء. قال يوسف: "خمس وعشرون مجيداً تكفي لتحقيق ذلك كله؛ لكن إذا ما أراد إنسان أن يتزوج ابنة شيخ من شيوخ البدو، فإن ذلك يحتم عليه تقديم عدد كبير من الإبل". سألته : "كم يقدم من الإبل؟" "آه، عشراً من الإبل، أو عشرين، أو خمسين، ويتعين عليه أيضاً تقديم حريز اللبنت، فضلاً عن قماش لتصنع منه ملابسها!" ويصمت يوسف بعد ذلك داخلاً في حالة من التأمل.

بدأنا الواحد بعد الآخر نرى العلامات الأرضية لمدق زايفن في الناحية الغربية وعرفنا أن الطريق الشمالي الغربي الذي نسير فيه كان هو طريق زايفن الرئيسي إلى أن قام شخص يدعى محمد شريف بإنشاء الطريق المباشر الحالي. رأينا جارديا Gardia في البداية، وهي عبارة عن كتلة مربعة من قمة صخرية داكنة؛ ومن بعدها رأينا أيضاً قارة Gareet الشريف، التي سُميت باسمه، الذي قصّر طريق الكفرة — جالو بمعدل مسيرة يوم عن المسافة المعتادة، ورأينا في ساعة

متأخرة من فترة العصر تلاً شبيهاً بالقمّع يطلق عليه المجابره Mojabras أسم
الخيمة، فى حين يسميه الزواويون "الموغن".^(٤) هذه الرحلة تمتاز بميزة كبيرة عن
الرحلة السابقة. كانت الشمس وراء ظهورنا طول الوقت فى هذه الرحلة. كان
الفارق كبيراً جداً. كان الركوب أو المشى مدة اثنتى عشرة ساعة يومياً، ويوماً بعد
يوم فى ضوء الشمس الحارق، بلا حافة للقبعة أو مظلة، عملية مُجهدّة تماماً لعينى
ورأسى. كل ما فى الأمر أن غياب الوهج، والإحساس بأننا قطعنا القسم الأكبر من
رحلتنا، وأن الأمر لا يتطلب تطيب خاطر الجماعة المستاء بصورة دائمة، أو
ربط أكثر العناصر البشرية فقدانا للألفة والوئام بعضهم ببعض، كل ذلك جعلنا
ننظر إلى الكيلو مترات المتوحشة المتبقية لنا على أنها أكثر أجزاء الرحلة أمناً.

قلت وأنا استحت جماعتى على المضى قدماً فى التلال التى لها لون خليط
من اللونين الوردى والأرجوانى: "أود رؤية الرمال البيضاء مرة أخرى. الهوايش
ليست جبلاً فى حقيقة الأمر. لكنها فى واقع الأمر كتلة من التلال الصخرية
المستديرة غير المنتظمة؛ هى مجموعة من القمم الصخرية المرتفعة، والأقماع
الصخرية؛ واتجاه الهوايش يمكن أن يضلل الجغرافى الخبير. أمضينا لحظات وقت
الفراغ عند طلوع الفجر وعند غروب الشمس جالسين فوق ربوة منحدره ومعنا
نظارة الميدان، والبوصلة وكراسة الملاحظات، ورحنا ندرس المواقع المشابهة
للجبال المحلية، لكن شغرتنا شاب وقصرت سوافنا فى هذا العمل. كنا نرى فى كل
مرة حائطاً جديداً من التلال عن بعد، ممتداً كالعادة بزاوية غير متوقعة، وكنا كلما
سألنا أفراد المجموعة عن تفسير ذلك، كانوا جميعاً يقولون: "الله وحده الذى يعلم".

وددت لو أننا خيمنا فى الصف الأول من هوايش، لأنى عند هذه المرحلة
كنت حريصة على مغادرة تلك الأرض المسحورة الغامضة مثلما دخلتها من قبل.

(٤) الموغن : كلمة عامية ليبية بمعنى "القمّع". (المترجم)..

بدا لنا أفق هذه التلال الغريب المستدير وكأنه يعزلنا في إطار الرمال الحارة الملونة، لكن الكثبان الرملية البيضاء التي كانت فيما بعد ذلك، تتأدينا لافتتاح صحراء الشمال.

وعندما تردد سليمان في الإشارة إلينا بالتحول إلى يمين أو يسار صخرة من الصخور الكبيرة، جاء يوسف وعمار إلينا، بعد أن تسلقا غرذاً (كثيلاً رملياً) كنا قد تجاوزناه بأخبار أفلقت راحة بالنا على الفور. واقع الأمر أن يوسف المتين كان يهرول هرولة سريعة غير متساوية الخطى، الأمر الذي جعله يلهث وهو يصيح قائلاً: "هناك قافلة وراءنا في الخلف!" كانت مسألة الحديث في هذا الأمر محيرة نظراً لأن أحداً لم يسافر من هذا الطريق منذ حوالي أربع سنوات، وكنا نعلم أيضاً عندما غادرنا الكفرة، أن أحداً لم يكن مستعداً أو جاهزاً للقيام بهذه الرحلة. قلنا في البداية أن يوسف كان يحلم بقافلته. كنا علي بعد مسيرة يومين من هوارى، ذلك المكان الذي يبدأ منه كل المترحلين، وعندما تركنا الواحة لم يكن هناك ذكر لأي إنسان آخر ينتوى السفر إلى الشمال مستخدماً الطرق المؤدية إلى هناك. كان عمار هو الآخر، إيجابياً. قال عمار: "لقد نظرنا في المرايا؛ ووجدنا هناك حوالي أربع أو ست من الإبل ومعها ما يقرب من إثني عشر رجلاً. وهم يتحركون حركة سريعة، ويبعدون عنا حوالي ثلاث ساعات إلى الخلف!" كان الكلام دقيقاً علي نحو اضطرنا إلى تصديقه إضافة إلى قيام محمد هو الآخر بوضع النقاط فوق الحروف. "سيجرى الهجوم علينا في هذه الليلة. هذه عادة من عادات الزواويين. فقد درجوا علي الانتظار إلى أن تصبح القافلة خارج منطقتهم حتى لا يلومهم أحد، ثم يفترسون القافلة بعد ذلك!" قال المرشد مكدباً "هم ليسوا زواويين! الزواويون يكونون احتراماً كبيراً للسادة. إنهم تيبويون. التيبويون لديهم إبل سريعة. وهم يهاجمون في الجبال، في المناطق التي لا يرتادها المترحلون مطلقاً ثم يهربون بعد ذلك في اتجاه الجنوب إلى البلاد الفرنسية قبل انكشاف أمرهم".

خيّم الاكتئاب الشديد على الجماعة الصغيرة. كان ضوء غروب الشمس أخذاً في الاضمحلال، كما كشف الانكسار الوحيد الذى حدث فى الصخور الأرجوانية التى أماننا عن رقعة من الرمل شديدة الوضوح يتخللها خمسة هياكل عظمية جميلة لم يكن لدينا سوى ثلاث بنادق بالإضافة إلى مسدساتنا!

تعد الفطنة فى مثل هذه الظروف أفضل أركان الشجاعة، وعليه قررنا القيام بهروب كبير. تركنا المنطقة المجاورة للممر الواسع المؤدى إلى ذاكار، ورحلنا نحس طريقنا فى الظلام، متجهين غرباً، عبر الشعب الملتوية وفوق السلاسل الجبلية المنحدرة، وكنا نسوق الإبل بصورة مستمرة عبر الأماكن الحجرية تحسباً لترك آثار لأقدامها على الرمل. وعندما رأى سليمان أننا ابتعدنا كثيراً عن المسار وبما يسمح لنا بتجنب المطاردين لنا، قمنا بتبريك إبلنا فى تجويف مناسب بعيداً عن أنظار أولئك الذين ليسوا واقفين فوق التلال المحيطة بنا مباشرة. قال محمد مشدداً: "ممنوع فتح النيران. ممنوع الإضاءة مطلقاً! وسوف نترك الإبل أماناً على بعد مسافة قصيرة. وسوف تتحرك الإبل إذا ما جاء أى إنسان". تأوه يوسف شاكياً "ما الذى سنأكله؟" "لابد من وجود نار حتى نطهى الطعام"، قلت وأنا أتفق مع ما قاله يوسف، وفى ظل إحساسى بأنى ينبغى أن أكون أشجع مما أنا عليه، وبخاصة بعد احتساء شيء من القهوة الساخنة، نظراً لأن الجو كان قارس البرودة فى تلك الليلة، لكن محمد كان مصرّاً على التزامنا بما قاله. لف محمد مسدسه حول عنق سليمان، وهو يصدر تعليمات صارمة للمرشد "بفتح النار مباشرة وأن الله يُمّهُ هو الذى سيوجه المقذوف!" واقتراح محمد بعد ذلك إقامة زريبه محصنة على جانب التل. بعد أن ألقيت أنا ويوسف نظرات محبطة على الأحمال الضخمة، فى الوقت الذى ارتسمت فيه فى أذهاننا صورة المسيرة الطويلة التى تنتظرنا، تبين لنا أن الموت المريح سيكون أفضل فى هذا التجويف. قلت له "وجودنا فى هذا التجويف سيطيّل

أمد القتال إذا ما رحنا ندافع عن التل. أنا أود النوم علي تلك الرقعة اللطيفة من الرمل الناعم". لكن من سوء الطالع أيضا أن كلا من حسانين وعمار كانا يعارضاني. وعليه اضطررنا إلى جر أكياس العلف بجهد شديد إلى أعلى سلسلة من سلاسل تلك التلال، وشكلنا من تلك الأكياس صفًا مترصًا على حافة تلك السلسلة. لم أعود الجدل في حياتي كلها، لكن تلك الزريبة تحولت بعد اكتمالها إلى قلعة صغيرة محصنة. أحسست أن الطلقة المصوبة تصوبنا جيدًا هي التي يمكن أن تخترق جوانات التمر الضخمة هذه، وكنت موقنة أيضًا أن الموقع سيصعب اختراقه ما دام المدافعون عنه باقين على قيد الحياة. وضعنا قرب الماء أمانًا، وحميناها بالأحجار، وفي ظل ضمان الماء والطعام، يصبح بوسعنا تحمل الحصار. كانت الإبل في التجويف الموجود خلفنا في الأسفل. اقترحت أنا ويوسف إشعال نار صغيرة جدًا، لكن محمد رفض ذلك، ورضينا لأنفسنا بخبز مضي عليه أربعة أيام وعلبه من اللحم المحفوظ. فردت بعد ذلك في صمت كيس نومي استعدادًا لوضع مسدساتي هي وجهاز قياس الارتفاعات، والترمومتر بجوار الوسادة. قال حسانين بصورة قاطعة "أنا لن أنام. لابد أن نتقاسم المراقبة". رد محمد قائلًا: "أنت علي حق فيما قلت. هل بندقيتك مُعَمَّره يا ولدي عمار؟ سنقوم جميعًا بالمراقبة". كان ذلك أمرًا مبالغًا فيه بطبيعة الحال. تجاهلت أنا ويوسف تلك الملاحظة، لكنني عندما مددت رجلي كي أتسحس بأصابع قدمي الطرف الصوفي السميك من كيس نومي، سمعت صوت حسانين في مكان ما فوقى، وهو متأهب ومتوتر "إذا ما ظهر أحد وأصبح علي مرأى مني فهل أتحدث إليه أم أفتح النار على الفور؟ ما العرف الذي تتبعونه هنا؟" اختلطت الإجابتان بنعاسي. جاءت إحداها من يوسف شبه النائم "تكلم أولاً!" في حين قال محمد: "افتح النار على الفور، واضرب مباشرة! وإلا فإنك لن تتكلم مرة ثانية!".

كان الشيء الوحيد الذى أقلق نومى فى تلك الليلة هو ذلك الفأر الرملى الأصفر الصغير. استيقظت من نومى على إحساسى بشيء يتحرك على خدى والمضحك أن ذلك الحيوان الصغير كان جالساً على أنفى. قفز الفأر متنقلاً إلى الجانب الآخر من الزريبة بعد أن تحركت، وكان عمار المتعطش لشرب الدماء، قد أفلح بعد جهد لا طائل من ورائه، فى الإمساك بذلك الفأر ثم أكله! لم يعكر أحد من التبو علينا أمننا، لكن المؤسف أن الخوف من هؤلاء التبو هو الذى جعل محمد يوقظنى عندما كان القمر لا يزال عاليًا وبرأفاً. جرت العادة ألا أتحرك بدون إفطار، وعليه عجلنا بطهى شيء من الأرز مع شيء من الشاي الحلو فى الضوء غير الصافى صفاء فترة الظهيرة ورحنا بعد ذلك نعمل جاهدين فى تفكيك الزريبة التى نصبناها فى الليلة السابقة. دحرجنا جوانات التمر الثقيلة إلى أسفل التل لأن الرجال كانوا بعد أربع وعشرين ساعة، قد بلغوا من التعب، مبلغاً جعلهم غير قادرين على نقل جوانات التمر. انفجر جوال من تلك الجوانات وتبعثر التمر يمينا ويساراً! اختلط التبذير بالخوف فى أذهان أفراد الجماعة، لكن التحسب للطرق الطويل الذى ينتظرنا كان هو كل ما يشغل ذهنى! رحنا نلتقط ذلك التمر فى صمت ووضعنا الحمل على الإبل المحتجة، والاستياء شبه الكامل مرسم على وجوهنا. ولحقنا بالركب من جديد، وكان نور القمر لا يزال طالعا، ورحنا نتخير طريق روغاننا بحيث يمر حول التلال غير المنتظمة. وعندما اقتادنا سليمان فى النهاية إلى الممر الرئيسي، خطر ببالنا أن أية قافلة كانت تحاول اللحاق بنا لابد أن تكون سبقتنا بمسافة كبيرة، لأن الشمس كانت قد طلعت علينا قبل ساعتين.

عند هذه المرحلة غلب على تفكيرنا جميعاً أن الإبل الأربع أو الست والاثنى عشر رجلاً كانوا موجودين فقط فى خيال كل من يوسف وعمار، لكننا ما إن دخلنا إلى المنحدر الرملى الواسع المؤدى شمالاً إلى الأماكن المفتوحة التالية لأول سلسلة من سلاسل مرتفعات هوايش حتى عثرنا أمامنا على آثار حديثة لأقدام الإبل انشرح

صدر المتين (يوسف). قال يوسف متعجباً: "لقد كنت علي حق! لقد كنت علي حق! ونحن الآن آمنون، لأنهم إذا لم يفلحوا في الإمساك بنا، سيظنون أننا خُذَرنا وأنها قُصدنا زايغن من باب تحاشينا لهم". ربما كان كلامه صحيحاً. لكننا لم نتيقن من ذلك. لم نعثر بعد ذلك علي أى أثر لتلك القافلة العجيبة. وقد بقى أصل هذه القافلة ومقصدها في طي الأسرار. لقد قطعت تلك القافلة مسير يومين ونصف اليوم على طريق ذاكار، في منطقة ما وراء النقطة التي كان الرحالة والمسافرون يتحولون عندها إلى الناحية الغربية قاصدين واحة زايغن!.

وعلي الرغم من تلك الليلة التي لم يَمْ فيها البدو فقد أمضوها في السير في ذلك اليوم. كان سليمان قد قال عند الساعة الحادية عشرة صباحاً، عندما رأينا السلسلة الجبلية الثانية من تلال هوايش، والتي يجمع لونها بين اللونين الأزرق والبنفسجي، وتقع فيما وراء رقعة واسعة من الموجات والكثبان الرملية شاحبة اللون: "إذا ما وصلنا إلى تلك الجبال هذه الليلة، فذلك يعني أننا سوف نصلي العصر غداً في ذاكار". وعليه تشجعنا ومضينا في مسيرنا بهمة ونشاط. كان الجور بارداً وغائماً، وكانت تهب علينا ريح الشمال المعتادة وكذلك السراب الذي لم ينقطع عن صنع برك وبحيرات في كل تجويف من التجاويف؛ اتضح أن الجمل العجوز الذي ركبته عندما غادرنا إجابيا كان يعرف الطريق. فقد شق الجمل طريقه صوب فالق محدد في التلال. لاحظ يوسف الشيء نفسه وسألني إن كنت أعرف قصة الرمال والجمل. قال المتين (يوسف) وهو يبتسم: "كانا يتجادلان حول من هو الأمهر منهما". قال طهيوچ الرمل: "أنا أضع البيض بطريقة عشوائية في الصحراء الخالية من الطرق والمدقات؛ ثم أطير بعد ذلك إلى أماكن بعيدة بحثاً عن الطعام، لكنني أستطيع العودة مباشرة لاحتضان البيض إلى أن يتفرخ". عطس الجمل احتقاراً واستهزاءً لهذا الكلام "إذا ما شربت من بئر وأنا بعير صغير أجري بجانب أمي، وعلي الرغم من عدم رؤيتي لتلك البئر مرة ثانية، فأنا أستطيع شق

طريقي إلى تلك البئر عندما أبلغ من الكبر عتياً وأنا أعمى!" قاطع محمد الكلام قائلاً: "لا، لا، الجمل أمهر من ذلك! الناقة، إذا ما ذافت طعام ماء بئر من الآبار عندما تكون عشاراً، فإن البعير الذي تلده يمكنه العودة إلى تلك البئر بكل تأكيد." قلت: "دعونا نتمنى أن يكون ذلك الجمل قد شرب من تلك البئر التي في جغبوب". رد يوسف بإيمان قوى "إن شاء الله!".

عثرنا في تلك الليلة علي مكان محمي حماية جيدة فيما بين تلّين، وعليه لم نشغل أنفسنا بإنشاء زريبة. سجل جهاز قياس درجة الحرارة (الترمومتر) وجود صقيع، لكنني أرى أن الترمومتر كان متأثراً بالحالة الجوية الذهنية لليلة السابقة التي لم نحس فيها بالبرودة الشديدة أذكر أنني شربت قدراً كبيراً من القهوة الأمر الذي منعني من النوم، وعليه لم أمانع عندما أصر البدو على إشعال نار قبل طلوع الفجر بثلاث ساعات ليطهروا "عصيدتهم"،(*) تلك الكتلة الرطبة من الدقيق المضاف إليه البصل والزيت. لم تكن حاذقين تماماً على مسألة التحميل، لأنه على الرغم من ذلك الإفطار المبكر، فإننا لم نتحرك إلا قبل هنيهات قصيرة من شروق الشمس. وهذا هو الجمل الرمادي الجديد يترك علي الفور، لأنه لم يشف بعد من جشعه وطعمه. تعين علينا توزيع القرب التي يحملها هذا الجمل على الإبل الأخرى، نظراً لاحتمية وجود الماء لاستعماله في تثبيت الرمل عند حفر بئر ذاكار. رحنا نراقب القافلة باهتمام كبير، لأنها بعد أن غادرت الكتلة الثانية من تلال هوايش، عبرت منطقة متدحرجة من القراميد الحجرية المسطحة والتي منها المكسر والزلق. ومع ذلك، شقت القافلة طريقها عبر هذه القراميد بأمن وسلام؛ وعند الساعة العاشرة صباحاً بدأنا التحرك فوق رمل أبيض ناعم، براق ومبهر في الشمس المحرقة. لم تكن هناك ريح في ذلك اليوم، وكان طبيعياً أن يخلع يوسف معطفه الخارجي بعد أن تسلق ربوة كي يشير

(*) استعملت المؤلفة كلمة "عصيده" asida بلفظها العربي، كما استعملت أيضاً كلمة "زيت" zeit. (المترجم)

إلى قارة صلبه، سوداء مربعة الشكل وسط مجموعة من الغرود الحجرية. قال يوسف: "البئر على مقربة من هذه القارة. وسوف نصل إليها خلال ساعة واحدة أو أربع ساعات". واقع الأمر أننا رأينا عند الظهر مجموعة النخيل القصير اللتين تدلان على بئر ذاكار، وبدنا لنا بيضاوين مثل الثلج وبين الرمال وكأنهما على قيد باع منا، لكننا لم نصل إلى هاتين المجموعتين إلا بعد ذلك بساعتين.

يبدو أن القافلة التي مرت قبلنا من هذا المكان عانت الكثير على هذا الطريق، فقد وجدنا أجزاء من أمتعة مكسرة بين هياكل الإبل العظمية. تمنى يوسف لو أنه يتجاهل العديد من الأرجل الملفوفة بالدروع الواقية، في إنشاء الزريبة، لكني رحلت أبحث عن مكان غير هذا المكان المخيف، وعليه وصلنا إلى حل وسط بأن أعطينا ظهورنا للبئر هي والأشياء القريبة التي تحيط بها. قال سليمان في هدوء: "الحيوانات تتفق دوما في نهاية رحلتها، اللهم إلا إذا كانت قوية. لأنها في مثل هذا الحال تشرب قدرا كبيرا من الماء مما يحتم على المرء التحرك ببطء، مستغرقا بذلك خمسة أيام وربما أكثر في الانتقال من هذا المكان إلى هوارى". كانت البئر عندما وصلنا إليها. عبارة عن تل من الرمل، لكن المرشد أبلغنا أن البئر لها جدران من الحجر، وأن الأمر لا يتطلب سوى الحفر فقط. وقال أيضا: إن من الضروري الوصول إلى هذه البئر ومعنا رصيد من الماء، وقبل أن نبدأ عملية الحفر، يتعين علينا ترطيب الرمل كي يتماسك مع الأحجار مثل الملاط. وبغير ذلك تنهال الأحجار على كل من يحفرون وهذا عمل جد خطير.

عمل البدو في حفر البئر طوال فترة العصر. كانت فتحة البئر ضيقة، تقدر بحوالي قدمين ونصف القدم، الأمر الذي حتم نزول سليمان العجوز الضعيف للحفر في البئر. يبدو أن هذه المهمة لم تكن مريحة، لأن الماء كان على عمق حوالي ١٥ قدما، لكن سليمان قبل النوم في تلك الليلة أحس بالرمل الرطب بين أصابعه. اكتمل العمل في صبيحة اليوم التالي، المصادف لليوم التاسع والعشرين من شهر يناير،

وملأنا قرابنا الأربع عشرة ووضعناها على شكل صفيين لطيفين كانا جاهزين للتحميل، لكننا لم نستطع التحرك في ذلك اليوم لأن عاصفة رملية شديدة هبت علينا واستمرت إلى الساعة الرابعة عصرًا، لم نستطع إشعال النار أو حتى الخروج لجمع الحطب المطلوب لرحلتنا. كانت الإبل تتأوه وهي تتكوم على شكل دائرة بانسة، وقبعنا تحت البطاطين وأكلنا رملًا مختلطًا بالتمر مع خبز يابس. بذل حسانين جهدًا كبيرًا في إصلاح حذائه الذي يجمع بين اللونين الوردى والقرمزي، مستخدمًا في ذلك سلكًا من النحاس الأصفر، لكنه أصابه الإحباط الشديد عندما لم يتمكن من قطع سلك النحاس بمنشاره!

هدأت الرياح قليلًا في فترة المساء، لكن غروب الشمس ينطوي على شيء من الكآبة. كانت الشمس عبارة عن قرص يميل لونه إلى الزرقة على خلفية سماء خضراء شاحبة، وسط عتمة رتيبه من الرمل فوق صحراء رمادية اللون. أغلقنا فناطيسنا الثلاثة إغلاقًا محكمًا بوضع السيكونتين حول طباب الفناطيس حتى لا يجرؤ أحد على استعمالها إلا في اللحظات الحاسمة. ثم أعدنا تغطية البئر بالغطاء القديم نفسه والجلود التي عثرنا عليها تحت القبة التي كانت تغطي تلك البئر. لقد تسلل الرمل من خلال هذه الجلود، طوال أربع سنوات، وكأنها لم تكن موجودة، لكن إذا ما أراد أي رحّال أن يأتي بعدنا على وجه السرعة، فإن ما فعلناه سيوفر على ذلك الرحّال، تكرار العمل المضنى الذي قام به مرشدنا سليمان العجوز.

بدأنا رحلتنا الطويلة في اليوم الثلاثين من شهر يناير، بأن غادرنا منطقة البئر عند الساعة السابعة صباحًا بعد إجراء تعديل كبير في الأحمال. كان الجو باردًا مع رياح شمالية خفيفة اشتدت ونحن نصعد الغرد (الكثيب) الحجري الموجود في الناحية الشمالية الشرقية من البئر. وعندما نظرنا إلى الخلف لإلقاء نظرة أخيرة على مجموعة النخيل المنعزلة، التي كانت عبارة عن بقعة صغيرة خضراء وسط امتداد غير محدود من الرمال المتموجة، تناهى إلى مسامعنا صوت مكتوم انبعث من

الكوفية متعددة الألوان التي كان حسانين يلفها على أنفه وفمه. قال ذلك الصوت: "عزأونا الوحيد هو إما الوصول إلى جنيوب في غضون اثني عشر يوماً أو الوفاة!" سألته بطريقة رقيقة "هل يؤلمك هذا من جراء وجود ذلك السلك النحاسي فيه؟".

حدونا إبلا مدة ساعة سرنا خلالها ببطء عبر أرض حجرية وعرة تنتشر فيها القراميد الكبيرة السائبة هنا وهناك. ثم أسلمتنا التلال إلى رمال بيضاء، ونظرنا إلى الكثبان الرملية في الأسفل فبدت لنا مثل كاسرات الأمواج في بحر عاصف. ألقى يوسف نظرة أخيرة على آخر الأحجار الداكنة الموجودة خلفنا. قال يوسف: "نحن محظوظون لمغادرتنا هذه المنطقة الحمراء دون تبادل للبارود. لكن أصدقاء السادة يكونون دوماً مباركين. وأنتم بصفة خاصة، كنتم في حماية الله ﷻ لأن الزواوين أناس غير طيبين". لم نكن نرى المتين جاداً بحق إلا عندما يتهدد الخطر طعامه أو منامه، وعليه خمتنا أنه ربما يكون لديه ما يقوله أكثر مما قاله لنا. أدت ريح الشمال الشديدة إلى تقليل الكلام والحوار، وقبل وصولنا إلى الصف الأول من الكثبان الرملية تحولت تلك الريح إلى شيء شبيه بالعاصفة الرملية مثلما حدث في اليوم السابق. كانت الريح قارسة البرودة. إذا ما ركب واحد منا دابته، فإن الريح كانت تخترق كل البطاطين التي يلف نفسه بها، وتكاد تطيح به من فوق الجمل. وإذا ما سرنا (بجرد) ملفوف فوق رأسنا، تسرب الرمل من خلال القماش الصوفي داخلاً إلى أعيننا، وأفواهنا، وأنوفنا، وكنا نترنج ونحن نصعد السلاسل الجبلية الواحدة بعد الأخرى، وكنا نلقى العاصفة الشديدة عند قمة كل سلسلة من تلك السلاسل. كنت أحاول الكفاح مسافة ميل أو ميلين ثم أحاول دفن نفسي تقريباً تحت الجانب غير المعرض لهبوب الريح في كثيب من الكثبان، إلى أن تلحق بي القافلة المتعثرة، شبه العمياء.

أنفقنا يوماً مرهقاً في تكرار هذه العملية، إلى أن بدأ الجميع ينظرون إلى المرشد غير المتعثر باعتباره عدواً شخصياً، لن يتوقف عن السير فوق الكثبان

الرملية والمنخفضات، التي جعلته دوماً بعيداً عن متناول احتجاجاتنا. كنا في كل مرة يتوقف المرشد فيها برهة، بحثاً عن أفضل الأماكن لعبور سلسلة من السلاسل الجبلية، نتطلع إلى أن نسمع منه نداء تبريك الإبل، لكنه كان يواصل - علي العكس من ذلك - سيره الرتيب بلا كلل أو ملل وهو يرتدى حذاءه المقطع. هدأت الريح عند غروب الشمس، لكننا واصلنا السير في الضوء الرمادي الخافت، في وجود وميض خافت ليمونى اللون في اتجاه الغرب، ولم يسمح لنا سليمان بالدخول في أكياس نومنا ونحن شبه متجمدين وشبه جوعانين، إلا بعد أن أكملنا سيرنا مدة اثنتي عشرة ساعة؛ نمنا لأن الجميع كانوا قد بلغوا من التعب مبلغاً منعهم من طهي الطعام.

أعتقد أنني خلعت حذائي، ولم أخلع أى شيء آخر، لأنني أعلم جيداً مدى كبر حزامى أحمر اللون في هذه المساحة الضيقة؛ لكنى نمت مدة تسع ساعات جيدة وأكلت أكثر من نصيبى من السردين والتمر في الصباح. كان الأرز غريباً، إذ كان لونه رمادياً يميل إلى الإسمرار، والسبب في ذلك ماء القرية. كان لون ورائحة ماء هذه القرية بعد مرور بضعة أيام حائلين كبيرين ضد العطش. كنا قد عدنا إلى تمويننا القديم الذى يقضى بتناول ثلاثة أكواب من الماء في اليوم الواحد، إضافة إلى كوب رابع في عملية الطهي. وسرعان ما اكتشفنا أن القهوة الحارة تسبب العطش، أما الشاي الثقيل بلا سكر فله تأثير معاكس إلى حد ما. طالعنا في صباح اليوم الحادى والثلاثين من شهر يناير شديد البرودة اكتشاف شيء. كانت ثلاث من القرب قد جفت أثناء الريح المحملة بالرمل أو بسبب تسرب الماء منها. تحدثنا إلى المجموعة بطريقة صارمة عندما وجدناهم يسرفون في شرب الماء، لكننا احترنا بسبب قدريتهم. كان لا يزال لدينا ماء يكفى بواقع قرية واحدة في اليوم وفنطاسين على سبيل الاحتياط، وعليه رفض أفراد الجماعة أخذ احتمالات التأخير بعين الاعتبار. قال يوسف: "المكتوب مكتوب. ولن نستطيع الهرب منه. وهذا هو ما قاله النسر لسليمان ^{عليه السلام}". سألته متشككة "أى نسر تقصد؟".

كان سليمان عليه السلام جالساً على تل، كان يرى منه مدناً كثيرة عندما جاءه نسر وقال له: "تظن أنك حكيم لأنك تعرف حكمه الناس جميعاً، لكني سوف أخذك إلى أنحاء الدنيا وأريك حكمة بلاد لم تسمع عنها". وبعد أن قال النسر هذا الكلام أمسك سليمان من حزامه بمنقاره وطار به شمالاً وجنوباً، وشرقاً، وغرباً، حتى يرى عجائب كثيرة. وبعد أن طاراً وتقلداً في أصقاع بعيدة هنا وهناك، عاد الطائر إلى بلاد النبي وأسقط تلميذه في حقل نصبت فيه فخاخاً. وقبل أن يعبر سليمان عن شكره رأى أن الطائر الكبير جرى الإمساك به في واحد من تلك الفخاخ، وكان يناضل ضد القضبان. "أوه، أنت يا من أردت أن تعلمني الحكمة، أين حكمتك يا من تعرف الدنيا كلها، ولا تعرف كيف تتحاشى فخاً صغيراً؟" قال النسر أسفاً: "المكتوب مكتوب. ولا يستطيع الإنسان الفرار من قدره". نظر إلى يوسف منتظراً تعليقي. قلت ليوسف بصورة قاطعة: "كان يتعين على النسر النظر أين هو ذاهب، وأنت يا ولدي يتعين عليك النظر إلى ما تشربه".

تأخر استئناف مسيرنا في صباح ذلك اليوم نظراً لأن أذن سليمان كانت بحاجة التطبيب. هذا المرشد شبه الأصم، وشبه الأعمى أيضاً، كان لابد من تحاشيه، وعليه أعطينا كل ملابسنا الداخلية الزائدة على حاجتنا، وكانت أوجاع ذلك المرشد تتركز في الحقيقة التي مفادها أن الرجل في درجة حرارة صفر المئوية، كان ينام على الرمل في قميص قطني مهلئ وجرد خفيف ورقيق ومهلئ. لقد بدأ الرجل في مسيرة تزيد على الألف ميل (بما في ذلك رحلة عودته بعد أن أخذ معه الإبل إلى إجدابيا) وليست معه سوى الملابس سائلة الذكر فضلاً عن أنه لم يكن معه قرش واحد من النقود! قال المرشد في بساطة بعد أن لف سترتي القصيرة على رأسه وربط بنطالين من بناطيل حسانين القصيرة حول صدره تحت قميصه "الله كريم. وسيرزقني". رغبة العربي الوحيدة تتمثل في لف كل ما هو ممكن من الملابس —

بغض النظر عن الجزء المخصص له من هذه الملابس — حول رعوسهم وأكتافهم —
ويتركون كل ما عدا ذلك للمصادفة وريح السماء!.

كان واضحاً أن الطبيعة كانت مصممة على أن ترينا كل ما فى وسعها من
أحوال المناخ، ففى ذلك اليوم لم تتحرك نسمة ريح واحدة، وتسلمت علينا شمس
موجعه إلى أن أحسنا برقابنا وكأنها مكسورة وأحسنا أيضاً برعوسنا ثقيلة غير
صالحة للاستعمال. دعونا لليل، دعاء حاراً مثلما فعلنا فى اليوم السابق، وبخاصة
عندما بدأت تظهر أمامنا فى اتجاه الشرق سلسلة أخرى من جبال الهوايش. قال
محمد على سبيل التهينة: "لن ترى أى شيء من هذه الجبال بعد يوم واحد من الآن.
لكنهم يقولون إن الكتبان الرملية تمتد غرباً إلى أن تصل إلى مصراطه Misurata
— والله وحده هو الذى يعلم!" بعد مسير دام ثلاث ساعات، أى على بعد حوالى ٦٠
كيلو متراً من ذاكار، توقفت الكتبان الرملية تماماً وتجاوزنا أرضاً حجرية غير
مستوية، إلى أن وصلنا قبل غروب الشمس بساعة، إلى خط فردى طويل من الكتبان
الرملية الكثيفة الضخمة التى تمتد من الغرب إلى الشرق. ارتفعت تلك الكتبان الرملية
فجأة - مثل الدقيق الذهبى الصافى - بارزة من بين الأحجار الداكنة التى امتدت إلى
سفوح تلك الكتبان، وعلى الرغم من تتبعنا لتلك الكتبان على امتداد أربعة عشر كيلو
متراً فى اتجاه الشرق فى تلك الليلة، وإلى مسافة ٢٤ كيلو متراً فى صباح اليوم
التالى، فإننا لم نر هذه الكتبان تتدمج مع الأرض الصخرية الجرداء. كانت تلك
الكتبان منعزلة دوماً، وضخمة الحجم، و متموجة، ومكونة من سلاسل، وشبيهة
بأمواج بحر يضيئه ضوء الشمس، علامة أرضية جميلة يمكن للرائى أن يراها على
بعد مسافة فى الأمام تقدر بمسيرة نصف يوم.

كان الجو فى تلك الليلة أدفاً من سابقتها، وجلسنا نتسامر حول النار التى
أوقدناها ورحنا نأكل عصيدة يوسف، التى يحبها الرجل أكثر من حبه للإبل، حكي

لنا، واستمع إلى قصص سليمان المرشد، عن الرحلات التي قام بها في الماضي. ونظرا لأن تلك القصص كانت تحتوي على كل أشكال الهزائم التي يمكن أن تنزل بالإنسانية وتضعها في قبضة الطبيعة التي لا ترحم، فقد حورنا الحديث إلى أن بدأ يتكلم عن الناس الذين كانوا يعيشون علي هذه الأرض الجرداء "منذ زمن بعيد". كان الطعام والعلف وفيرين هنا، كما كانت هنا أيضا أحجار متماسكة ببعضها بواسطة الملاط، وكنا نعثر في بعض الأحيان على أحجار الطحن التي كانت تستعمل في طحن الحبوب". شككت في روايات هذا الرجل لأنه أشار في عصر ذلك اليوم إلى آثار لما اعتقده هو جدراناً مبنية بالملاط، لكنني أرى أن تلك الآثار كانت مجرد تشكيل من الحجر الرملي الذي له أشكال كثيرة غريبة. وأنا أرى أن أحجار الطحن التي تحدث عنها المرشد، يرجع تكوينها إلى الطبيعة، نظراً لاستحالة وجود الماء في الأرض الصخرية.

بدأنا نحرركنا في اليوم الأول من شهر فبراير عند الساعة السابعة صباحاً وبركنا إيلنا عند الساعة الثانية والثلاثين دقيقة بعد الظهر، في الميمسه Mehensa، وهي من أراضي تغذية الحيوان، فقد جرى العرف على إطلاق الإبل ترتاح ساعات قليلة، وتتناول وجبة جيدة قبل الشروع في عبور أرض جرداء ليس فيها عود واحد من العشب أو عود واحد من الحطب. هناك بضعة هياكل عظمية لإبل، هي بمثابة دلائل على الطريق الموجود أسفل الكثبان الرملية العالية، والمرء يصادف أثناء سيره في هذا الطريق بعض الأحجار الكبيرة التي نصبها وأقامها الرحالة الذين جاءوا إلى هذا المكان. هذه العلامات المرتجلة لها قيمة كبيرة وقد شاركنا نحن أيضا في إقامة هذه العلامات بوزاع من الدين. يبدو أناس طيبون في هذه المسألة بالذات. لقد رأيت محمد وهو يحاول الصعود إلى قمة تل وهو يحمل قرميذا من الصخر، بعد رحلة استغرقت يوما واحدا، لكي يضع علامة قد تدخل السرور وتسرخ خاطر قافلة قد يتصادف مرورها بهذا المكان بعد سنوات من الآن.



CAMP AT MEHEMSA : YUSUF, MOHAMMED AND AMAR.

المخيم الذي أقمناه في مهمة: يوسف، محمد، عمّار

عبرنا الكثبان الرملية من منطقة فيها فتحة واسعة من الأرض الحجرية، وتمتد خلال سلسلة منخفضة متموجة، ووجدنا على الجانب الآخر من تلك الفتحة أعشاباً كبيرة وكتلاً من الأدغال الرمادية الجافة، وعلفًا ممتازًا وحبًا ممتازًا، لكنها شديدة الحرارة في وقت الظهيرة. استدارت الكثبان الرملية غربًا ثم شمالاً لتصل إلى مكان مفتوح يقدر بحوالى أربعة كيلو مترات. خلف هذا المكان، توجد أيضًا منطقة من مناطق الحطب. خيمنا في هذه المنطقة وتركنا الإبل ترعى. كان أفراد الجماعة مختلفين اختلافًا كبيرًا. قال يوسف: "سنصل - بمشيئة الله - إلى جغبوب، لكننا سوف نترك جملين أو ثلاثة علي الطريق". كنا قلقين تمامًا علي إبلنا، كانت النافقتان الصغيرتان نحيفتين تمامًا، وكان الجمل الكبير الأشقر مريضًا؛ وكان جملان آخران ضعيفين ومنهكين. كان مفترضًا إراحة تلك الإبل وتغذيتها في الكفرة لمدة لا تقل عن أسبوعين. كنا علي علم بذلك ونحن في تاج، لكن السياسة المعقدة فى تاج حتمت رحيلنا عن المكان على وجه السرعة. قال لنا يوسف، إن القافلة المسافرة عن طريق الكفرة - جغبوب تمضي ما لا يقل عن شهر في الاستعداد لهذه الرحلة. ويجري اصطحاب ما بين أربعة وخمسين جملًا، ويجرى تغذية هذه الإبل عدة أسابيع قبل بدء الرحلة، إلى أن تصبح قوية وسمينة. طوال هذه الفترة لا تقوم تلك الإبل بأى عمل من الأعمال، لكن يجرى تدريبها بصورة متدرجة إلى ما قبل الثلاثة عشر يومًا الأخيرة، على عدم الشرب وذلك عن طريق إطالة الفترات التى يجرى بعدها عرض هذه الإبل على الماء. كانت إبلنا عندما وصلت إلى الكفرة قد قطعت رحلة طولها حوالى ثمانمائة ميل، إضافة إلى فترة زمنية تقدر بحوالى عشرة أيام لم تشرب خلالها تلك الإبل، واثنى عشر يومًا بلا غذاء كاف، وكانت الإبل تكاد تموت جوعًا خلال الأيام الثلاثة الأخيرة. وبعد فترة راحة دامت تسعة أيام تحتم علي تلك الإبل قطع واجتياز واحد من أصعب وأشق الطرق فى شمال إفريقية، وهى تحمل أحمالاً أكبر من طاقتها وفى فترة سينة من العام، يكون المناخ

فيها في أسوأ حالاته. من هنا، كان هناك مبرر لمخاوفنا، وعندما ابتعدت الإبل عن العلف الوفير في المهرسة، بدأت جماعتنا الصغيرة تفقد شيئاً من روحها المعنوية العالية.

الفصل الرابع عشر

الكتبان الخادعة

يوجد على مقربة من أرض الرعى خزانان كبيران جرى تشييدهما بأمر من السيد المهدي. عندما كان واحد من أسرة السنوسي يود السفر من هذا الطريق، كان يجرى إرسال الماء بصورة مسبقة وتخزينه في هذين الخزانين، اللذين يوجد بالقرب منهما عشة صغيرة بحاجة إلى الترميم. واقع الأمر أن وجود الماء في المهمسة يجب أن يكون أمرًا لا شك فيه. الأرض هنا هي الأرض نفسها التي في كل بطفال وذاكار، كما أن فيها أيضًا عددًا وفيرًا من الأدغال الجيدة. سقوط المطر منعدم في هذه المنطقة ولا يحدث فيها ندى حتى يمكن تعليل وجود هذه الأدغال الوفيرة. لاحظنا في هذه المنطقة أيضًا بعض الطيور، التي برز من بينها نوع أسود أكبر من "أبي فصاده". حضر العبيد في زمن سيدي المهدي بحثًا عن الماء ووصلوا إلى عمق ٢٠ قدمًا في المهمسة، دون أن يصلوا إلى الرمل الرطب، لكن أخذوا لم يحاول الحفر بحثًا عن الماء منذ ذلك الحين.

بدأنا في اليوم الثاني من شهر فبراير تحركنا صوب الشمال عند الساعة السادسة والنصف صباحًا، بعد جدل عنيف حول أفضل الطرق للاقتصاد في الإبل. كنت أرى أن نتبع خطة الصيف التي تقضى، بأن نبدأ الحركة قبل غروب الشمس بساعة، ونسير الليل كله، ونخيم بعد الفجر بساعتين. وهذه الطريقة تمكن من يسير عليها من قطع مسافات كبيرة، لكن يبدو كانوا مترددين في مواجهتهم لبرد الليل. على الجانب الآخر، كان محمد خائفًا تمامًا من هبوب عاصفة رملية أخرى، الأمر الذي سيعطلنا بلا أدنى شك. كان محمد يود لنا السير مالا يقل عن خمسة عشر ساعة في اليوم. من سوء الطالع أن الجمل يمشي ثلاث عشرة ساعة، بمعدل ٤ كيلو مترات في الساعة، وهذا يكون أسهل على الجمل من السير عشر ساعات

بسرعة ٥ كيلو مترات في الساعة الواحدة. يمكن للجمل أن يسير متكناً وبصورة منتظمة دون أن يتوقف، وكلما تباطأ الجمل زادت مدة سيره. لم يكن محمد حمالاً جيداً. وكان متخوفاً خوفاً شديداً من الطريق الطويل الذي ينتظرنا، والذي يتعين قطعه في اثني عشر يوماً، فقد كان من رأيه التعجيل في البداية لضمان شيء لوقت الحاجة؛ هذا مع العلم، بأن الأحمال - وبخاصة علف الماشية - سوف تخف يوماً بعد آخر. وعليه، رفضت السير أكثر من اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة ساعة في اليوم، نظراً لأن إبلنا لن تتغذى غذاءً صحيحاً في الظلام أو الطقس البارد. وأفضل طرق السفر هي البدء عند الساعة الخامسة صباحاً، وتبريك الإبل لمدة ساعات قلائل عند الظهيرة، ثم تغذية الإبل في فترة العصر عندما يصبح الطقس بارداً، ثم السير في ساعة متأخرة من الليل. وهذا يعني التحميل مرتين ولم يكن معنا رجال تكفي للقيام بهذه المهمة، وعليه يتحتم على دوابنا أن تعاد التغذية في ضوء النجوم أثناء الليل وفي الصباح أيضاً.

هبت علينا في ذلك اليوم من أوائل شهر فبراير ريح باردة، الأمر الذي جعلنا جميعاً نسير منشرحى الصدور عبر رقع متواصلة من الرمل الرتيب طحيني اللون. وهنا تحولت الدنيا من أماننا إلى قرص مستو من جديد، ومنبسط بلا حدود، وكانت نعمة ذلك القرص المستوى تفرق بفعل وهج الشمس، إلى أن بدأ السراب يكسر الحواف، التي بدت على بعد ياردات قليلة منا. سألت سليمان العجوز عن طريقة تعرفه الطريق. "تضعين برج الجدي فوق العين اليسرى وتسيرين مسافة طويلة علي هذا النحو. ثم تتحرفين قليلاً في اتجاه القبلة ثم تقطعين مسافة أكبر، وبعدها تصلين بمشقة الله". لم تكن هذه الإجابة مطمئنة بعد أو هام محمد، وعليه سألت سليمان المرشد من جديد، عن موقع برج الجدي في تلك اللحظة. ورد علي بصراحة كاملة "أنا لا أعرف أين ذلك النجم". سألني "أين هذا النجم؟" أريته النجم عن طريق البوصلة، وجرى بسرعة وهو مسرور ويقضم ثمرة صغيرة كانت ملفوفة في طرف شاله المهلهل.

عندما بدأ غروب الشمس يصيغ دنيانا بلون الذهب الأحمر، بدأت النجوم فى الظهور الواحد بعد الآخر لتثبت لنا البعد اللانهائى "للك السلطانية المقلوقة التى نسميها السماء". كان محمد من أنصار بذل المزيد من الجهد. حثنا محمد - وهو يشير إلى أسطح نقطة فى اتجاه الغرب - "هيا بنا نتجاوز ذلك النجم". بعد أن لاحظنا أن الإبل كلها كانت تتعث وتتحرف عن الخط المحدد، أدركت أن الدخول فى سباق مع نجم المساء يمكن أن يكون نوعاً من الخطأ، ولذلك أصررت على التوقف وتبريك الإبل. لم ننشئ زريبة وتركنا الأحمال فى مكانها انتظاراً لطلوع النهار. كنا قد أحضرنا من المهمسة قليلاً من الحطب نظراً لكبر أحمالنا من ناحية والتخفف من هذه الأحمال من ناحية ثانية، وعليه أشعلنا ناراً صغيرة بكل المقاييس، وغالبنا النوم فى غضون ساعة، لولا النقاش الطويل الذى دار بين محمد وسليمان المرشد حول مسألة تقييد الإبل. قال سليمان "الإبل لم تتحرك يا ولدى. إنها متعبة مثلى، وأنا رجل عجوز". رد محمد فى أدب "عجوز أيضاً فى الخبرة. لكن أرح قلبي بتقييد الإبل". وراح محمد يحكى قصة الإبل السبعين التى استولى الذعر عليها وهربت فى منتصف الطريق المؤدى إلى زاغن. عادت الإبل كلها سالمة إلى جالو، لكن بعض الرجال الذين بقوا لحمل الطعام قضوا نحيبم أثناء السير. وهنا أصبح سليمان مثل الفأرة النائمة عندما تكون بين "حاويين" (*) وراح يطلب العون والمساعدة. سألته هل تعرف ما قاله النبى ﷺ يا عم سليمان، عندما جاءه رجل يسأله ما إذا كان يعقل دابته أو يتوكل على الله؟" جاء الرد "إعقلها أولاً ثم توكل على الله".

عرفت من مختلف الهمهمات والتمنمات التى اختلطت بنومى، أن سليمان المرشد تأثر كثيراً بتعليمى اللاهوتى، ويبدو لى عندما صحت بعد ذلك بدقائق معدودات على صوت يوسف وهو يقول: "قَوَاك الله! هل أنت مستعد لسألك؟"

(*) واحدة "حاوية" وهى كلمة عامية ليبية تعنى "فتحة واحدة" من فتحتى سرج حمل الأمتعة.
(المترجم)

حركت رأسي وأنا أحتج بأننا لازلنا في منتصف الليل، وأنا أخرجها من كيس نومي، ومحاولة إفراغ الرمل من بين ثياباتها، ورأيت على بعد ياردات قليلة تلك الصور الصغيرة الحية الغريبة، التي تومض فجأة في حياة الإنسان ولا ينساها مطلقاً. شاهدت ناراً تطلق لها رائحة، وكبيرة بشكل مذهل في مثل هذه الظروف التي نحن فيها، محدثة دائرة ذهبية مرتجة وسط الرمل المسطح المظلل، المهمل الذي لا يعرف الحدود. ورأيت على خلفية النجوم الساطعة خيال شخص طويل يرتدي ثوباً أبيض، ويداه مرفوعتان إلى السماء، ورأيت غطاء أبيض يحيط بذلك الوجه الأسمر، الذي كان صاحبه يؤذن لصلاة الفجر. دوت "الله أكبر!" حاملة إيماناً خالصاً، وشجاعة واضحة، صاعدة إلى المرشد Guide الواحد الذي يثق به البدوي وبقدرته التي توجه القافلة السائرة عبر الصحراء والكتبان الرملية، لتصل بها إلى الواحة المرجوة. كان سليمان منحنياً على قدر كبير، بجوار الحطب، وراح يقلب "عصيده" الصباح بصورة رتيبة، وكانت عصاه الطويلة تتحرك على إيقاع غناؤه المرتعد، في حين كان عمار، يقوم وهو متدثر بتلفيحته الخشنة، بتقليب صلصة حمراء اللون لها طعم الفلفل. كان وجه يوسف الممتلئ يوحى بالاستياء على خلفية النار المشتعلة، وهو ملفوف بكل ما يخطر على البال من ملابس ولفائف من القماش، وكان يقوم بتلقيم النار عوداً بعد عود. ثياب بيضاء، ونار، ونجوم شاحبة، ودائرة من الإبل الخائفة على خلفية من الظلام الدامس. تلك كانت الصورة التي رأيتها، لكن صوت يوسف أفسد على هذه الصورة عندما قال: "قربة الماء"(*) سيئة للغاية. سيكون الأرز أسود اللون!". قلت وأنا أرتعد "معلش!!"(**) سوف لا أرى الأرز!؛ لكنني تذوقت الأرز بعد ذلك بدقائق معدودات، وعندها مر على يوسف

(*) استعملت المؤلفة هنا girba water بدلا من water Girba، على لسان يوسف الطباخ لكي توضح للقارئ أن يوسف لا يتقن الإنجليزية. (المترجم).

(**) كلمة "ما علش" العامية بمعنى "ما عليك من شيء". (المترجم).

المتين وهو ممسك في يده بطاسة التحمير. كان هناك أثر من الرمل على أنفه وجبهته، لكي يثبت أنه أدى صلاة الفجر، لكن في الوقت الذي كان أفراد الجماعة فيه يحنون رؤوسهم ثلاث مرات في اليوم على أقل تقدير، كنت أشك دوماً أن يوسف كان يرش دوماً على وجهه بعضاً من الحصى أثناء تحركه.

نفذ البيض المسلوق في ذلك اليوم، ولذلك تعين علينا التغلب بالسردين على الأرز الذي يطعم القرية. تكونت وجبة غذائنا عندئذ من التمر وحفنة من "البقسماط"،^(*) نظراً لأننا أهدينا كيسين من هذا البسكويت الناشف غير المخمور، المحلي بشيء من السكر مضافاً إليه نكهة بذور الكراوية،^(**) أهديناها للإخوان الطيبين في تاج. وتقاسمنا في المساء علبه من لحم البقر المحفوظ لكن، المؤسف! أن دعمنا ومساندتنا الكبيرة لرحلة تيسيربو Taiserbo خذلنا نظراً لأن التمر الذي أحضرناه من هوارى كان طازجاً تماماً، ولدغ أفواهنا، وألعب اللثة في أفواهنا وجعلنا نعاني أوجاع العطش والامه. كانت مخصصات الماء صغيرة على نحو لم يُسمح معه بالشرب إلا في الصباح والمساء فقط، الأمر الذي جعلنا نتخلى عن نصيبنا من التمر. أصر يوسف على أكل تمره واحدة كل يوم، لأن المثل العربى يقول "التمرّة على الطريق أو الفتاة المبتسمة تجعل الرحلة ممتعة".

بدأنا تحركنا عند الساعة السادسة والنصف صباحاً، في اليوم الثالث من شهر فبراير وواصلنا سيرنا حتى الساعة السابعة مساءً، إلى أن جلست الجماعة كلها، رجال وحيوانات على حد سواء، وراحوا جميعاً يشكون وبدعوا يتأوهون. كان الجو شديد الحرارة، وخال من الريح تماماً. بدأ حجم قراب الماء يصغر شيئاً فشيئاً بشكل واضح، وبدأ صوت الماء في الفناطيس يوحى بأن قدراً كبيراً من الماء قد تبخر. من سوء الطالع، أن الطقس كان شديد البرودة بعد العاصفة الرملية التي

(*) استعملت المؤلفة هذه الكلمة بلفظها العربى bucksumat. (المترجم).

(**) استعملت المؤلفة هذه الكلمة أيضاً بلفظها العربى caraway. (المترجم).

هبت علينا مساء اليوم السابق قبل رحيلنا عن بئر ذاكار إضافة إلى أن الإبل لم تشرب كما ينبغي أن يكون. كان يوسف قد عبر طوال اليوم عن بعض التكهّنات الكنيّية، وعندما وصلنا إلى ربوة من الرمل، انجرفت على بعض الأواني القديمة التي تخلصت منها قافلة سابقة، وراح يقلب تلك الحاويات بطريقة رذيلة. وراح يسأل عن القدر "كم من الأواني سيتعين علينا التخلص منها بهذه الطريقة؟".

طقس الصحراء لا يعرف المنطق. فبعد حرارة الظهيرة دخل علينا ليل شديد البرودة. أذكر أنني تناولت عشائي البارد وأنا أرتدى قفازي، ولم أندش عندما اكتشفت وجود صقيع، عندما هبت عاصفة مفاجئة من البرق والرعد، تسببت على الفور في إخراجي من كيس نومي ووجدتني أسقط فوق الترمومتر في الظلام. كانت الإبل قد جن جنونها، لأنها وعلى الرغم من عقلها (تقييدها) كانت تدور وتلف حول نفسها محدثة ضوضاء شديدة، في حين كان أفراد الجماعة يحاولون إبعادها عن قرب الماء التي رتبناها ترتيباً أنيقاً وحميناها كعادتنا بسياج من الأمّعة.

بدأنا تحركنا في اليوم الرابع من شهر فبراير عند الساعة السادسة والرّبع صباحاً، وأبلينا بلاء حسناً، نظراً لسباق التحميل بين كل من غمار ويوسف في مواجهة المرشد سليمان ومحمد. وأنا أعتقد أن الاثنين الأولين هما الفائزان، لكن الأحمال كلها كانت مترججة إلى حد ما في ذلك اليوم. طارت بطه سوداء على ارتفاع منخفض معترضة طريقنا ومتجهة صوب الشمال. قال سليمان وهو يشير إلى الأمام "لقد ذهبنا إلى البلد المقلوب رأساً على عقب" وشاهدنا عند الأفق كتباناً رمليّة شاحبة وسلاسل جبلية، واضحة المعالم، ولها ظلال بنفسجية عند أسفل القمة والجرف المنحدر. بدت لنا هذه الكتبان وتلك السلاسل وكأنها تبعد عنا سويّعات قليلة، وفرحنا كلنا على الرغم من أننا نعلم أنها على بعد مسير يوم منا.

وتزداد حرارة الطقس من جديد، لكن يوسف الذي كان يتمتع دوماً بالشمس الحارقة، أخذ على عاتقه مسألة التهوين على المجموعة كلها. كان

يوسف كلما برّك جملاً من الإبل وراح يتأوه ويقوم بعمل صفّ من "العصيدة" اللعبة في الرمل، بحيث يجعل الفتحة العلوية الصغيرة للصلصة. كان يوسف يقول وهو مبتسم "هذه العصيدة له كى يأكلها وبعدها يصبح قوياً من جديد". وعندما اشتكى سليمان المرشد قال يوسف المتهين: "سوف أركب وأتقدم كى أستطلع الطريق". ثم ركب عصاه، وأخذ يلف ويدور مقلداً كل حركة من حركات الفروسية تقليداً محكماً. أخيراً وبعد أن غلبتنا الحرارة على أمرنا، وعلي نحو لم نعرف معه ماذا يمكن أن نخلعه بعد ذلك، وجدنا يوسف يملأ فى صمت تنورة قميصه بالرمل وراح يبذره يميناً وشمالاً مثل البذور. قال محمد متعجباً: "ماذا تفعل أيها الرجل، بحق السماء؟" قال ببساطة: "سيعثر الرخالة التالى على رقعة خضراء وسوف يسعد بها". ومع ذلك، وبعد أن فشلت الكتبان الرملية المضللة فى أن تصبح حقيقة واقعة، حتى ولو علي سبيل الظلال عند الأفق، بدأ القلق يتسرب إلى نفوس الجميع. وهذا هو حسانين وقف موازناً نفسه علي ظهر جمل من إبل التيبو، لكنه لم يبلغ عن أى شيء، وعليه راح يهدئ نفسه بأن بدأ يعيد إصلاح حذائه الأصفر.

دار طوال فترة العصر جدل طويل حول ما إذا كان يتحتم علينا الاتجاه إلى الشرق أو الغرب من بعض الكتبان الرملية غير المرئية لنا، واختلفت الجماعة اختلافاً كبيراً حول مدى سعة رؤيتنا لتلك العلامات الأرضية أو تبين اتجاهها. وعليه لم أندش عندما سمعت خلفى جدلاً شديداً. كانت اللعنات واللوم ينصبان على سليمان، الذى رد على ذلك بقوله: إذا كان كبير السن ولا يستطيع الرؤية جيذاً. صاح محمد "لقد ضل ويتحتم علينا الوقوف. نحن لا نستطيع مواصلة السير". شارك يوسف فى النقاش. "هل هو متأكد من أنه ضل الطريق؟ فكر، أيها الرجل! أقول لك، دعه يفكر!" توالى العتاب والمقترحات على شكل جلبة كبيرة

كنت قد سبق لى التعامل مع نزاع من هذا القبيل ذات صباح، حول مسألة وجود أو عدم وجود سلسلة من الجبال على الشمال أو اليمين! صممت أن يكون لحسانين نصيب فى هذا النزاع. لما كان حسانين يعاني ضعفاً بسيطاً فى السمع، فقد انكسب على حذائه — بعد أن سبقنا بمسافة كبيرة راكباً جملة الرمادى. اندفعت نحوه غاضبة. قلت وأنا غاضبة وممسكة بالجمال من عنقه إمساكاً شديداً، وقد بدت الدهشة على وجه الرجل "أنزل فوراً". وأمسك حسانين بأقرب الجبال إليه، وهو ممسك بحذائه، استعداداً لتبريك الجملة عنوة! "أمسك نفسك، لقد ضل سليمان الطريق. وهم يتساجرون حول هذا الموضوع. إذا كانت العلامة الأرضية التى ضلها من العلامات المهمة، فالأفضل لنا الانتظار لحين طلوع النهار. وأستحلفك بالله أن تسرع!".

أسفرت نظرة القلق التى ألقاها حسانين على الجماعة الغاضبة فى المؤخرة، والذين كانوا جميعاً يسيرون إلى الخلف، عن جعل الرجل يعود أدراجه دون أن يقول كلمة واحدة. راقبته وهو يقحم نفسه فى الجدل عندما سمعته يقول: "والله! ويكررها مراراً وهو غاضب، ورأيت أيدى مرفوعة إلى السماء، واندحشت عندما رأيته يخلص نفسه من يدى محمد اللتين كانتا تحاولان تعطيله، ويسير ببطء عائداً إلى جملة، وهو يلم المقتنيات التى بعثرها عندما داهمته بحضورى إليه. سألته وأنا قلقة: "حسن، ماذا حدث؟ ما الذى فقدته سليمان؟" أنتظر حسانين إلى أن أقترب منى تماماً ثم نظر إلى نظرة توحى بالازدراء، ثم قال بصوت خفيض، لاقطاً كل كلمة على انفراد: "هى — مجرد — حقيبته — صغيرة — من الجلد — التى — أعطاه — إياها — القانمقام — لكى — يبيعها — فى — جغوب. لقد — تركها — سليمان — خلفه — هناك!".

قوضنا مخيمنا عند الساعة السادسة والنصف من صباح اليوم الخامس من شهر فبراير، ولم أعبأ بالقهوة المخلوطة بالشمع والأرز، والتى فيها شعر من الجلد

المصنوع منه القربة، لم أعبأ بذلك طمعاً في مشاهدة سراب الصباح. كانت الكتبان الرملية تبدو لنا أقرب في هذه المرة. استطعت رؤية الخطوط المتموجة علي طول السلاسل الجبلية وعلي امتداد كل ربوة من الروابي المنعزلة، ومع ذلك، وبعد ذلك بساعة اختفى كل شيء، وراح القرص المنسبط طحيني اللون يمتد من جديد، بلون سنجابي رتيب علي كل الجوانب. كان سليمان واثقاً، من حتمية نومنا في الكتبان الرملية في تلك الليلة. وكان يوسف متأكداً تماماً من أننا مادمناً لم نر سلسلة جبال ماسول Masul في الناحية الغربية، فذلك يعني أننا يجب ألا نرى الأرض "يوماً آخر. البدو أثناء ترحالهم عبر الصحراء الخالية من الدروب يطلقون اسم "الأرض" علي المناطق المعروفة لهم. الأمر شبيه هنا برحلة بحرية طويلة والمرشد يلعب فيها دور الرّبان. هذا يعني أن المرشد يحاول دوماً توجيه رأس القافلة صوب الاتجاه الصحيح عن طريق النجوم وعن طريق الوقفات حتى يهتدي إلى علامة أرضية معروفة قبل أن يتجه مباشرة إلى واحته. عند الساعة العاشرة صباحاً نطق المرشد بشيء شبيه بالصرخة ثم ألقى بنفسه على عنق يوسف. تعجب المرشد قائلاً: "أنا أرى سلسلة جبال ماسول Mazul! والسلسلة قريبة، إنها قريبة جداً". بعد أن تركنا خط الروابي البعيدة الشاحبة علي يسارنا، يمينا سيرنا صوب الشمال قاصدين كتباناً رملية أخرى بدأت تظهر أمامنا، على شكل وهج خافت في الأفق. شردت الناقتان الصغيرتان بعيداً متجهتين صوب الغرب طوال النهار في طريق معروف لهما. قال يوسف: إن الناقتين الصغيرتين عرفتا أن أميهما اللتين فصلناهما عنهما في تاج Taj، تسافران الآن على طريق زايغن — جالو، وأن العزيزه هي التي تدفعهما نحو قافلة الجنود العبيد.

كانت شخصية المتين (يوسف) لها ميزتها في الظروف الصعبة. فعندما تسير الأمور على ما يرام يتجههم وجهه علي نحو يكشف عن تحمل مشوب بالقلق وعدم الرضا. تراه وقد تحولت عيناه إلى شفين طويلين وتحول صوته إلى ما يشبه

التوَجُّع. وعندما تنشأ مللمات صعبة، وعندما نتعب الإبل ويصبح الجميع متعبين، نرى يوسف يهب للتخفيف والتسرية عن القافلة كلها. كانت أغنياته القصيرة المضحكة تتقاطر علينا ساعة بعد أخرى، إذ كان يروي لنا حكايات طويلة عن المردة والأميرات، وكان يلقي نكاتاً لطيفة كنا نقبلها منه كل يوم باهتمام كبير. وعليه، عندما كانوا هم أحد من الناس، كنا نحبيهم دوماً عندما ينضمون إلى القافلة، كما لو أنهم جاءوا من غياب طويل، وكان هم بدورهم يردون علينا بأنهم جاءوا من إجدابيا وجالو خلال يومين أو ثلاثة، وكنا نحبيهم على مسيرتهم، ونسألهم عن أدق الأخبار الخاصة بأصل المكان. لم نمل هذه اللعبة مطلقاً، وكنا جميعاً نتقنن فى اختراع الكلام على حساب أهل إجدابيا الطيبين.

يحسب الإنسان أنه فى مسيرة تدوم ثلاث عشرة ساعة يومياً، أن يكون لديه متسع من الوقت للدخول فى المزيد من الحوار، لكن الصحراء تولد التَّحَفُّظ. كبر حجم الصحراء يجعل من مخططات الإنسان ومشروعاته شيئاً يبلغ من الصغر حدّاً يصعب معه الحديث عنها قياساً إلى حجم الصحراء الشاسعة الواسعة. كنا نسير ساعات دون أن نقول كلمة واحدة، إلى أن يقوم يوسف المتين بكسر ذلك الصمت بفكرة عن زواجه القادم أو مرضه الذى رآه فى عين جمل من الجمال. عند هذه المرحلة كنت قد تعلمت كيف أجعل الناس يفهموننى. الأسماء تكاد تكون كلها مختلفة، لكنى بعد أن تعلمت قائمة من الأسماء استطعت التحسن تماماً باستعمال فعل أو فعلين. التعبير عن العمليات المسالمة من قبيل التوقف، التحميل، التنزيل؛ الإسقاط، البدء.... الخ يكون باستعمال الكلمة "شيل" shil. وإذا ما أراد المرء أن يعنى العمل الهجومي العامر بالحيوية، مثل القتال، والهجوم، والتسلق السريع، الأكل، الحرق، أو الغضب فإن الفعل "عقل" كاف للتعبير عن هذه المعانى.

وصلنا إلى الكتبان الرملية فى نهاية المطاف قبل غروب الشمس بساعتين، ومن يمن طالعنا أننا تجاوزنا كثيبين رمليين يعدان علامتين أرضيتين معروفتين

للجميع. كان من رأى يوسف أن ندور من خلف هذين الكثيبين، لكن سليمان أصر علي السير فى خط مستقيم، الأمر الذي ترتب عليه وصولنا رقعة واسعة منبسطة من الأرض طولها حوالى اثنى عشر كيلو مترا. برّكنا إبلنا فى نهاية هذه الرقعة المنبسطة الواسعة وسط ريح آخذة فى التزايد، عجلت بإطفاء فانوسنا الصغير، الأمر الذى نجم عنه ضياع كل شيء فى الظلام بما فى ذلك فتاحة العلب، كانت ليلة بائسة، نظرا لان الحطب الذي أحضرناه معنا من مهمة كان قد نفذ، وبالتالي باءت بالفشل محاولتنا عمل شيء من الشاى على نار صغيرة أوقدناها فى بعض من "الليف" (*) الذى انتزعناه من حاويه (خرج) من الحاويات.

كان الماء الذى حصلنا عليه من القربة التي فتحناها فى تلك الليلة سينا للغاية. كان طعم انماء ولونه غريبين تماما وعليه قررنا استخدامه فى الطهى فقط. كان سليمان ينظر إلى هذا الماء باهتمام كبير. قال سليمان: "لدينا ما يكفيننا من الماء، الحمد لله. وأنا، فى كل الأحوال، يمكننى البقاء بلا شرب مدة أسبوع. وعندما راجعناه فيما قال رد علينا قائلا: جرت العادة أن يرسل سيدي المهدي قوافل لاستكشاف المنطقة المحيطة بالكفرة. كان سليمان هو ورجل عجوز قد شكلا واحدة من تلك الجماعات وأنهم تجولوا إلى أن وصلوا إلى مرج merg، التي تبعد مسيرة ثلاثة عشر يوما جنوب شرق النقطة التي بدأ منها سيرهم، وان إبلهم سرقت فى احدي الليالى بواسطة عصابة من اللصوص. ولا بد أن يكون أمر ما قد حدث لقرب الماء، نظرا لان جماعة الاستكشاف وجدت نفسها فى فترة الصباح وليس معها من الماء والتمر سوي ما يكفيها مدة يوم ونصف اليوم، وان الجماعة كانت تبعد مسافة تقدر بمسيرة ستة أيام إلى أقرب الآبار وهى بئر العوينات oweinat. يزداد على ذلك، أن الثلاثة بدعوا السير وصولا إلى تلك البئر، وكانوا يحملون

(*) استعملت المولفة كلمة " ليف " leaf بلفظها العربي لتعنى بها " ليف النخيل " (المترجم).

بنادقهم بطبيعة الحال ومرض الرجل كبير السن بعد مسيرة يوم واحد وأصر على أن يتركه الباقون وراءهم. وبعد يومين تخلى رفاقه المخلصون عن بنادقهم. وبعد ثلاثة، أصيب سليمان بالحمى، ورقد أرضا وكاد يلقى حتفه، لكنه واصل سيره إلى أن وصل إلى البئر بسلام. وشفى مرشدنا من مرضه بطريقة غير متوقعة بعد أربع وعشرين ساعة، وبدأ مسيرته من جديد، بأن راح يسير أثناء الليل ويتوقف عن السير أثناء النهار. ووصل مرشدنا إلى العوينات في اليوم السابع مجهذا وعطشانا إلى الحد الذي عجز معه عن إدخال الماء في حلقة، وعليه ألقى بنفسه في ماء البئر مدة يوم كامل وبعدها استطاع شرب الماء. ومن حسن الحظ أن قافلة كانت قد تخلصت من بعض التمر، وبمخزون بسيط من هذا التمر والماء القليل الذي استطاع حمله، واصل سليمان سيره في اتجاه الكفرة، في رحلة استغرقت أسبوعا آخر وكان العجوز الذي تركوه يلقى حتفه على الطريق قد وصل بعد ذلك بيوم حاملا بندقيته. هذه القصة شيء لا يصدق عقل، لكن يوسف أمّن على صدق هذه القصة، وحكي لنا عمار أنه لم يشرب سوى مرة واحدة طوال اثنتين وسبعين ساعة عندما تلف الماء الموجود في القربة وبعد ذلك، حكي لنا محمد، الذي لا يفوقه أحد في القدرة على التحمل، أنه سافر من جالو إلى جغبوب في غضون أربعة أيام وأربع ليال، بلا نوم، وأنه كان يأكل أكل الإبل طوال مسيرته، نظرا لأن القرب كانت كلها يتسرب منها الماء، وأنه كان يتخوف من نفاذ الماء الذي معه.

عند هذا الحد أحسنا أن جيئنا الصغير لوضع خط أحمر جديد على خريطة المسح، تضاعل كثيرا وأصبح غير ذي بال، وأننا يتعين علينا أن نكون قادرين على السير إلى جغبوب حاملين معنا فطاسنا وعليه من اللحم المحفوظ إذا تطلب الأمر ذلك! وثقنا بذلك الكلام في صبيحة اليوم التالي عندما أدارت الإبل أنوفها لوجبة التمر التي قدمناها ليا وهربت منا عامدة متعمدة. لم يكن أمام الإبل مكان تهرب إليه بين الكثبان الرملية، وعليه تمكنا من استعادة الإبل، بعد مجهود

استمر ساعة، ولكننى شعرت أن كلمة "عقال" agal ليست كلمه الكفرة، هي النسي سترسخ فى قلبى مستقبلا! لم نوقد النار فى ذلك الصباح، ولم يكن الأرز المنقوع غير المطهى فاتحا للشهية. أذكر أننى كنت أربط بقايا جوربى حول قدمى عندما سمعت صوتا كئيبا يقول: "لقد أكلنا آخر كرتونة من كراتين السردين فى الليلة الماضية لأنك نسيت فتاحة علب اللحم فى الرمل كما أن الأرز أسود سواد الفحم. أتمنى ألا تكونى بخيلة أو مقتررة معنا فى فناطيس الماء!" لم الق بالا لما قيل لأنى لم يعد معى أى شىء من الجوارب. من الواضح أن الحذاء الوردى القرمزى اللون الذى اشتريته بأربعة مجيديات (حوالى ستة عشر شلنا) من الجوف لم يعد صالحا للمشى، نظرا لأننى كنت ألبس طول الوقت زوجين من الجوارب الصوفية الواحد فوق الآخر وهذان الجوربان الآن متلمعان حول قدمى. ومع ذلك؛ وجدتني أنظر إلى الأعلى عندما تواصلت تلك الشكوى. "لقد عثرت على سردينه واحدة. لابد أن هذه السردينه سقطت عندما قلبت أدوات المائدة على الأرض فى الرمل" أصابني الفزع عندما وجدت كتله سوداء ومن فوقها كتله صفراء شبيهة بالسّمكه، لكنى لم أكن ممن يثبطون الهمم. سألت وأنا مستاءة "هل أنت متأكد أن هناك سردينه فى هذا الرمل؟" استاء حسانين هو الآخر "هل ستتحينها أنت أم أنحتها أنا؟".

دخلنا فى اليوم السادس من شهر فبراير مباشرة فى منطقة الكتبان. وكانت تلك الكتبان بصفة عامة، تمتد من اليسار إلى اليمين على طريق سلاسل كبيرة متموجة، يصعب أو يستحيل على الإبل تجاوزها. كانت توجد فيما بين الكتبان رقع واسعة من الأرض المدورة التى كانت ترتفع بصورة متدرجة صاعدة إلى الكتبان المنخفضة التى راح سليمان يشق طريقه خلالها بثقة واقتدار. كان الرجل صغير الجسم شديد الهدوء. قال سليمان: "أنا لم يسبق لى مطلقا المرور من هذا الطريق، لكنى إن أبقيت على نحم الجدي jedi فى عيني اليسرى سنصل، بمشيء الله!" وعندما اشتكى يوسف شكوى شديدة من عدم وجود الحطب — كانت القافلة قد

أكلت دقيقاً خاماً وشربت ماءً في ذلك الصباح — رد عليه سليمان قائلاً: "سيرزقنا الله بالمؤمن". بعد ذلك بدقائِق قليلة صادفنا هيكل جمل، وذلك منظر يرحب به الجميع، لأنه أثبت لنا أننا كنا نسير في المسار الصحيح؛ كان بداخل هيكل الجمل العظمي، وبين الضلوع بعض القراميد الكبيرة من الروث الجاف. سحب محمد تلك القراميد وهو فرح. "سنوقد النار! سنوقد النار! الحمد لله!" وهنا تهلّل الجميع إلى أن جاء عمّار بخبر مرض يوسف. كنا قد رأينا يوسف المتين وهو يرقد في مكان ما في مؤخرة القافلة، لكننا حسبناه ينتظر مدة ساعة، وهذا الأمر نفعله نحن جميعاً بالتناوب، وهنا تجلّى الفارق بين طبيعة الشرق وطبيعة الغرب، ففي الوقت الذي كان البدو ينامون فيه آمنين في المؤخرة ثم يروحون يجرون بعد ذلك وراء الإبل، كنت أنا أسبق القافلة وأسترخي في طريقها، حتى أستيقظ على أصوات مجيئها. اتضح أن يوسف سقط على الأرض مغشياً عليه لمدة ساعة، وكان الرجل محظوظاً لأنه استطاع اللحاق بالقافلة. أركبنا يوسف على الجمل التيبّي الذي كان أقوى إبل القافلة، لكنه بدأ يكشف عن دلائل العطش، وراح يواصل السير.

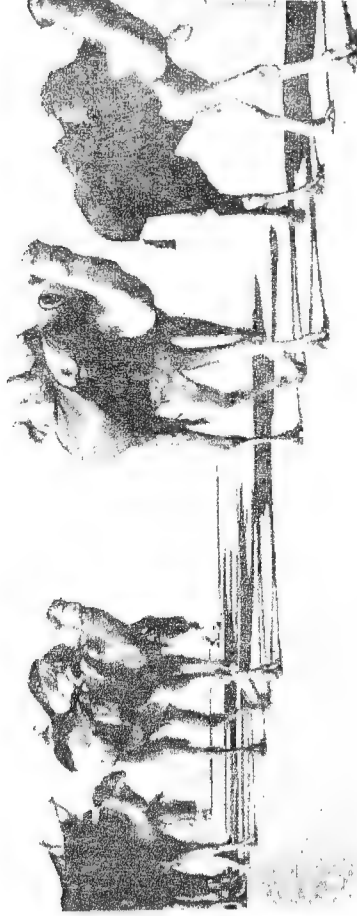
كان السير في الكثبان الرملية أكثر مشقة وصعوبة، نظراً لأن الرمل كان ناعماً وعميقاً في بعض المناطق، لكن السلاسل الجبلية المتموجة، الصفراء صفرة الزبد الأيرلندي، والتي كان ويوسف ينظر إليها نظرة حب ووله؛ لأنها كانت تذكره بمحبوبته "العصيدة"، جاءت بمثابة الأرواح الخيرة بعد الأيام الأربعة الشاقة السابقة. كانت لحظات مثيرة، وبخاصة عندما يتسلق الإنسان غرداً (كثيباً) مرتفعاً، أملاً في رؤية منظر من المناظر. منطقي أن يتوقع الإنسان قماً صفراء متموجة، ومساحة واسعة من واد يسقط عليه ضوء الشمس، وجبل يمتد في كل الاتجاهات، لكن المستحيل قد يحدث في بعض الأحيان. قد يرى الإنسان قافلة أو واحدة — أو شيئاً من الحطب في أضعف الأحوال!

ولهذا السبب كنا نسارع دوماً بصعود المرتفعات الكبيرة لكي نلقي نظرة على السلاسل الجبلية التي تهب عليها الرياح، ومع دخول المساء كوفتنا على جهدنا بظهور بعض القمم السوداء الصغيرة وفي تجويف من التجاويف. قال يوسف: "حطب" وهنا شفى يوسف جراء هذه الكلمة - وربما كان شقاؤه بسبب الصفة التي أعطيناها إياها في اليوم السابق! تسابقنا على تلك السيقان الهشة من الخشب، التي انطوت على أمل إشعال النار، والطعام الحار في تلك الليلة، وراح الجميع يتحدثون عما سيأكلون في تلك الليلة!

وصلنا عقب غروب الشمس مباشرة إلى كثيب رملي شبه عمودي رفضت الإبل صعوده. وتعين علينا حفر مجرى منحدر فيه، ورحنا ندفع الإبل فيه الواحدة تلو الأخرى. تعب الجميع وكانت فكرة غبية بشكل لا يُعقل. نزلت النوق الصغيرة نحو الأسفل، مطيحة بأحمالها أمامها، ونفذ صبر محمد لهذا المنظر وزاد الأمر سوءاً بان راح يضرب الحيوانات، التي كانت لا تزال مترددة عند القمة، تعثرت الإبل وهي تتحرك إلى الأمام وتكومت، وهنا وجدت قرب الماء يتهددها الخطر. من يمن الطالع أن الجمل التيبى كان يحمل القسم الأكبر من تلك القرب. نزل الجمل على قدميه الكبيرتين، وكنت قد استنفدت طاقتي ولم يعد بوسعي الإمساك برأسه وجره بعيداً عن تلك الفوضى برّكنا الإبل قبل أن يأخذنا قصير النظر عبر جرف آخر، ونظروا لأن الإسراف يعد معلماً من معالم الفرح في تلك المرحلة، فقد أشعلنا مالا يقل عن ثلاث نيران، بل إننا وضعنا كل ما وصلت إليه أيدينا في المقلاة - وضعنا فيها أرزاً، ولحماً محفوظاً، ولفنا محفوظاً - لدرجة أننا أكلنا وجبه حارة، بل حارة جداً. شربنا أيضاً كوب الشاي وهو حار أيضاً، ونحن نتناقش ما إذا كانت القهوة هي الأفضل، لأننا على الرغم من أننا تسبب العطش فإنها تخفي مذاق ماء القرية.

عند هذه المرحلة كانت الأشياء كلها لها بعض من طعم الشمع ، والسبب فى ذلك أن الأيام شديدة الحرارة أدت إلى صهر الشمع فى أوانى المائدة. صحيح أن الرمل يمكن أن يستعمل فى تنظيف الأوانى تنظيفا جيدا ، لكنه يحتاج إلى طاقة كبيرة، وأنا أتحدى أى إنسان أن تكون لديه الطاقة التى تمكنه من القيام بذلك بعد عملية تحميل وتغذية الإبل قبل مسيرة قد تستمر اثنتى عشرة أو ثلاث عشرة ساعة، وتنزيل الأحمال وتغذية الحيوانات المتعبة التى تفوح منها رائحة خاصة بعد نهاية مثل هذه المسيرة، ثم ربط هذه الإبل، وهى تحاول الإصرار على الهرب، ثم القيام بعد ذلك بتجهيز وجبة، والأدهى من ذلك كله، العواصف الرملية التى كانت تذكر صفو ليالينا! لعل أولئك الذين يحلمون بالصحراء الشاعرية التى صورها سوينبرن، يأتون إلى ليبيا! نحن لم نغسل أى شيء سوى أيدينا منذ أن غادرنا هوارى قبل ثلاثة عشر يوما، أو بالأحرى منذ أن غادرنا بئر ذاكار، هبت علينا منذ ذلك الحين عاصفة رملية ملأت كل مسامنا بحبات الرمل الدقيقة الناعمة، الأمر الذى ترتب عليه أننا كنا نتحمل ذلك الحال أثناء النهار، لكن أثناء الليل، وفى ظل الدفء والمكان المحدود داخل كيس النوم، يصبح التهيج أمرا لا يطاق. تعودت على ألا أسمح أو أتحمل إهدار الماء، مادمت باقيا على قيد الحياة.

قسا علينا القدر من جانب واحد، لأننا فى اليوم الذى قضياه عند بئر ذاكار، عندما كنا نحلم بحمامات رملية فى غطاء خزانة أدوات المائدة ونحن خلف نخلة صديقة، أرسل القدر علينا أول عاصفة رملية، ولذلك اقتصرنا على كوب من الماء لغسل أصابعنا. وكنت أسترخى أثناء الليل، وأنا قلقة، واتهersh، وأروح أطيل النظر إلى النجوم، وأروح أتعجب كيف يمكن للمرء أن يتماشى مع الصحراء فى هذا اللغز الأخير من ألغازها. ومع ذلك، وفى البرد الشديد، الذى يصاحب طلوع الفجر، كان التعب والإرهاق يخفیان، وعندما يقوم المرء بإشعال نار كبيرة لتجهيز الإفطار، وأكل الأرز أسود اللون بشهية مفتوحة. كان يوسف فخورا بمهارته



THE AUTHOR ASLEEP ON A CAMEL.
(Second Camel from the left. Note the stick.)

المؤلفه قائمة فوق جمل (الجمل رقم ٢ من الناحية اليسرى - لاحظ العصى

كطباخ، وعليه لم نود إخباره بالأجسام الغريبة التي كنا نجدها في طعامنا - قطع من ليف النخيل، والقش الذي يأتي من سُرُج الأمتعة، والحصي، والشعر والفقاقيع، والرمل - كان ذلك هو الصلصة اللببية، وأنا أعتقد أن حسانين كان هو الآخر يعاني في صمت، لأن هذه كانت أول رحلة صحراوية له، وكان لا يزال يعول كثيرًا على مسألة النظافة وكنت قد اعتدت على مشاهدة حسانين وهو يروح يدعك في السر طبقه بطرف رداءه الحريري، وعندما كان يتأخر عن تناول الإفطار، كنت أعلم أن ذلك بسبب انشغاله بكوبه أو شوكتته قبل أن يقوم باستعمالها.

بدأت المساحات المسطحة تقل في اليوم الثاني من وجودنا بين الكثبان الرملية، الأمر الذي جعلنا نصعد وننزل السلاسل الجبلية معظم الوقت. بدأت الإبل تكشف عن أعراض تعبها وإرهاقها وهذه واحدة من النوق كانت تُخَشَب عنقها معظم الوقت. وهذا هو الجمل الأشقر كبير الحجم، يتعين إعفاؤه من حملته. كانت الإبل تفوح منها رائحة كريهة، وهذا هو أول مؤشر من مؤشرات إرهاق الإبل؛ ومن يمن الطالع وجدنا بقعا من الحطب الأخضر، وذلك الدغل الشوكي، الشبيه بأدغال مبعثرة عند سفوح الكثبان الرملية، راحت الإبل تتسابق فيما بينها علي الوصول إلى القضبات الطازجة الأولى. أصيب عمار بالحمى وكان لابد من السماح له بالركوب، في الوقت الذي كنت أحس أنا فيه بالتعب والإرهاق مما جعلني أضع نفسي فوق مشابك سُرُج الأعمدة، بحيث تكون ركبتيّ ملفوفتين حول مشبك من المشابك ورأسي على المشبك الآخر. ونمت وأنا في هذا الوضع غير المريح تماما في الوقت الذي كان يوسف يتجول فيه حولى متشككا. قال يوسف في أدب "أنت فارعة الطول، أظن أنك ستسقطين من فوق الجمل" وراح يوسف يحاول تثبيت قدم متدلية كما لو كانت قطعة من أمتعتنا أو شكت على السقوط.

لم أفهم معنى وجود الأدغال الخضراء إلا بعد أن وجدت مخدتي مبللة بندى بقي في تلك الليلة. هنا أدركت أننا غادرنا الأراضي الجنوبية وخلفناها وراءنا،

وفى اليوم التالى المصادف لليوم الثامن من شهر فبراير شاهدت سحباً قليلة فى السماء، مجرد بقع بيضاء منقوشة فى السماء، لكننا كنا قد اعتدنا على اللون الأزرق المنصهر الذي يخيم على ارض الكفرة حمراء اللون والأراضى الجرداء المحيطة بها. كان ذلك اليوم بمثابة أتعس الأيام عندى. فى ذلك اليوم أصرت الإبل الصغيرة على التخلص من أحمالها مختلةً التوازن نظراً لأن العلف خف وزنه. وهبت أيضاً فى ذلك اليوم ريح شرقية باردة، أدت إلى تفرُّج البشرة من ناحية، فى حين أحرقتها الشمس من الناحية الأخرى. يزداد على ذلك أن الإبل لم تتجمع مع بعضها، ولكنها تفرقت متجهة إلى كل بقعة من البقع الخضراء. وبدت الكتبان الرملية لنا أكثر اندحاراً من سابقتها، كما بدا الرمل لنا أكثر نعومة وأكثر ثقلاً. لم يكن أحد منا على يقين بالطريق. كما أن سليمان نفسه بدا مكتئباً بعض الشيء فى مسألة العثور على العلامات الأرضية التى سبق أن تعرف عليها فى الرحلات السابقة. أصر سليمان على مواصلة السير فى اتجاه الشمال، على الرغم من معرفتنا أن جغبوب تقع فى الشمال الشرقى، وكان تفسير سليمان الوحيد لمواصلة السير فى اتجاه الشمال هو أن الوصول إلى المكان المطلوب من ناحية الغرب أسهل وأيسر. أما أنا فكنت أرى أن من المنطقى السير فى اتجاه الشرق من باب أن تجاوزنا لجغبوب يمكن أن يوصلنا إلى سيوة فى أسوأ الأحوال. كما أنه لا يوجد فى الناحية الغربية سوى ذلك الجزء من الأرض الخالية من الماء والمؤدى إلى جالو، ويقطعه المسافر فى غضون سبعة أيام.

على كل حال أصر سليمان على موقفه ، وواصلنا سيرنا ونحن مرهقون ، وكنا نحرك أقدامنا بحزم مشوب باليأس ، وكنا نلقي بأنفسنا منبطحين على وجوهنا على الأرض، لنحصل على بضع دقائق من النوم الجميل كلما كانت الإبل تتطفل بحثاً عن الغذاء. اذكر أنى كنت أسأل نفسى بعد تعسيلة من تلك التعسيلات القصيرة، عن عدد الآلام والأوجاع التى يحسها جسم الإنسان فى كل لحظة من هذه

اللحظات. اهتممت أكثر بهذه المشكلة عندما بدا لى وجه حسانين البرونزي اللون، مجوفًا خلال الأيام القلائل الأخيرة. كان حسانين يحاول تحريك قدميه الملتهبين بعد مسيرة دامت اثنتى عشرة ساعة فى اليوم السابق. قال حسانين: "عندما نعود إلى القاهرة سيقول الجميع "يا لها من متعة تلك التى لا بد أن تكون قد تمتعت بها!" صحيح ، أنه كان ذلك اليوم عبوسًا، لكنه انتهى فى نهاية المطاف بالتعرف على بضعة أماكن من الحصى أسود اللون، والتى تعد علامة أكيدة على اقترابنا من الحافة الشمالية للكثبان الرملية. يزداد على ذلك أن الطبق الشهى الذى نجم عن الجهد الذى بذله حسانين فى تنظيف المقلاة، لم يفلح فى بقاى مستيقظة فى تلك الليلة، فقد نمت نومًا عميقًا إلى أن استيقظت على صوت يوسف الشكاء، وهو ينادى فى نفس واحد قائلاً: "الله يقويك النار جاهزة لاستقبال الأرز!" استيقظت والنجوم طالعة والجو شديد الرطوبة، لكننى أتصور أن حبات الندى الثقيلة هذه أفادت الإبل العطشى إفادة كبيرة، لذلك لم أندم على الشال المبتل الذى كان يلف نفسه حول كل شيء إلا أنا.

يعد اليوم السابع من شهر فبراير واحدًا من الأيام المشيرة التى لا تنسى، وسبب ذلك أننا عندما تسلقنا الكثيب الرملى الذى كنا مخيمين تحته، شاهدنا من قمته عند الأفق الشمالى الشرقى سلسلة من الجبال زرقاء اللون الخافتة. تعجب محمد "أخيرًا، هذه هى الأرض! لا بد أن هذا هو الجبل الموجود بين جيبوب وسيوة! لم يدفع هذا التنويه التأكيدى مرشدنا إلى تغيير اتجاهه صوب الشمال، لكنه كان مؤشرًا على أننا بدأنا نغادر الصحراء المحيطة بنا. كانت الكائنات الحية التى لقيناها حتى هذه المرحلة عبارة عن خنافس كبيرة الحجم كربيعة الشكل، سوداء اللون، وكاننات حيه لونها بني فاتح، ويصل طول البعض منها إلى ما يقرب من أربع بوصات، بدت لنا كما لو كانت أحجارًا مبعثرة إلى أن بدأت ترفع نفسها على

أرجل طويلة ثم فرت هاربة؛ علي كل حال، شاهدنا في ذلك الصباح كثيرًا من الطيور السوداء والطيور الرمادية، ويعد أن بدأت مناطق الحطب خضراء اللون في التحول إلى ما يشبه الأعشاب الصغيرة بُنية اللون، ثم أثار أقدام الغزال. عثرنا أيضًا على جمجمتين كاملتين وقرونهما بحالة جيدة بدأت ملامح المكان تتغير بشكل ملحوظ. في اليوم السابق، كنا قد شاهدنا بين الرمال بعضًا من أحجار جغبوب رمادية اللون، الأمر الذي شرح صدور أفراد الجماعة، وفي اليوم التاسع من شهر فبراير بدأت كتل كبيرة من تلك الصخور تظهر على شكل كتل رائعة راحت ترتفع أمامنا من بين الكثبان الرملية ومن التجاويف. لاحظنا أيضًا قطعًا مبعثرة من الحفريات الخشبية، التي اتضح أن البعض منها كان عبارة عن أجزاء من جذوع أشجار كبيرة. بدأت المناطق التي بدت لنا وكأنها حصى أسود اللون — تومض في أقصى المكان خلف سلسلة من السلاسل الجبلية .

أخيرًا، وبعد أن صعد محمد فوق قمة رملية هائلة، عند الظهر، قام بخلع عباءته، وربطها حول عكازه، وراح يلوح بها مثل العلم من فوق رأسه، وهو يصيح بصوت ' أنا أرى بلادى. الأرض أصبحت قريبه! "كانت الإبل هي المخلوقات الوحيدة في القافلة التي لم تلق بالاً لذلك الكلام. كانت الإبل قد بلغت من التعب مبلغًا يمنعها من تسريع خطوها الذي انخفض معدله بواقع ميلين في الساعة خلال اليوم أو اليومين الأخيرين. هزلت الإبل، وأصبح شكلها كئيبيًا، لكن من حسن الحظ أن كانت هناك فرص طفيفة لالتقاط الأنفاس من الحرارة المحرقة، عندما كانت الإبل تنزل للرعى في أحد المنخفضات. بدأنا نلاحظ خطوطًا من السحاب الأبيض في السماء الشاحبة، وتخيلت أنا وجودي في ذلك النسيم الشمالى، الأمر الذي جعلني أحس فجاء بحنين جارف إلى الوطن ونحن نغادر هذه الصحراء الكبيرة، التي لا تعرف القانون، والتي ليس لها حدود. كنا نرى أمامنا الأراضي

المريحة التي يخيم فيها البدو الرحل بنجّاتهم^(*). المهلهلة، يرعون قطعانهم هذا هو جبل أخير Gebel Akhbar وبرقة وترحيب سكان الخيام بكل القوافل التي عبرت "المسارات الكبيرة".

في مكان ما، "في الناحية الشرقية منا" على حد قول البوصلة، إلى الشمال منا "على حد قول سليمان المرشد، يقع آخر موضع من مواقع الأرض الخراب، إذا لم يكن هو محل ميلاد الحركة السنوسية، فهو في أضعف الأحوال منطقة التدريب على هذه الحركة، لكن سحر المكان هو الذي أرجع الذهن إلى الماضي. كانت مخالب الصحراء تمزق السلام الذي يجب أن يتمثل في نهاية الرحلة. وأنا لا أظن أن إحساسي بالتسطح الذهني قد زاد، قبل الساعة الثانية صباحا، عندما مررنا عبر المنخفض الصغير الأخير الذي اختلط فيه اللون الأخضر والذهبي، وأصبح حزام الكتبان الرملية العتيد إلى الخلف منا. كانت أمانا منطقة جرداء رمادية اللون مثل الإردواز، الذي تتخلله خطوط من الرمال والحصى الأبيض بياض الطباشير، وبعض الغرود (الكتبان) الكنيبة أو القمم الصخرية. أضفيت علي هذه اللحظة مسحة من الأهمية التي مفادها أن أحدا من أفراد القافلة لم يكن يعرف أين نكون، لكن نظرا لأنني كنت مصممة على أننا يتعين علينا السير في اتجاه الشرق، بغض النظر عن كلامهم جميعا، فإن الأمر لم يكن يهم كثيرا.

اعتلى سليمان كثينا رمليا وقال: إننا كنا بين هيتي^(***) بو عاليه BU Alia وبو سلامة علي الطريق المؤدية إلى جالو. اعتلي محمد كثينا آخر وقال: إن هذين المكانين يقعان إلى الشرق منا. جلس يوسف أرضا على مكان ناعم وقال: إن المنطقة المعروفة كلها كانت لا تزال على يسارنا، وأنه سوف ينام إلى أن يحسم المرشد موقفه من جديد.

(*) واحده "نجه" بضم النون وتشديد الجيم وفتحها ، وهي كلمة عامية تعنى "خيمة" المترجم
(**) واحده "هاتيا" وهى عامية لبيبة تعنى " منخفض عامر بالأشجار المتشابهة " المترجم



COUNTRY BEYOND THE DUNES ON THE WAY TO JAGHABUR.

البلاد في المنطقة الواقعة بعد الكثبان الرملية على الطريق المؤدية إلى جغبوب

تملكتنا جميعاً روح السعادة البدوية أثناء المسيرة، ولذلك لم يندهش أحد، بعد السير على الطريق الذي بيّنته البوصلة وأصررت أنا عليه، بعد أن اهتدينا إلى مدق محدد غرست فيه بعض الأحجار لتكون علامات أرضية. واقع الأمر أننا كنا قد اهتدينا إلى طريق جالو - جغبوب، الذي يبعد عن المكان الآخر بمعدل مسيرة يوم واحد، في اتجاه الغرب، لكن أحداً لم يكن على يقين من موقعنا الحقيقي. يزداد على ذلك، أن عمّاراً أعلن هو الآخر أن بو عاليه تقع خلفنا بلا شك، وبعد أن وافقت الجماعة كلها على هذه النقطة، بدأت تظهر أمامنا بداية الهاتيا (المنخفض) التي تحمل هذا الاسم على مئات من الiardat وأصبحت في مرمى أبصارنا! "قال محمد متعجباً، وراح يسرع من خطو القافلة على الرغم من تحفظات يوسف: "الحمد لله! سنخيم الليلة في بلادنا! بدأت تكثر أمامنا آثار أقدام الغزال، وحاولنا تتبع أثر أربع من الغزال، على أمل اصطيد أي منها، لكن سليمان كان قد أصبح شبه ميت، قال سليمان: "الكلمة الفصيل بيدك انت. ولكني رجل عجوز ومتعب تماماً. هيا بنا نبرك إيلنا هنا".

كانت الهاتيا (المنخفض) في واقع الأمر عبارة عن واد يمتد مسافة خمسة كيلو مترات من الشمال إلى الجنوب، ويصل عرضه إلى حوالي أربعة كيلو مترات. كان الفراغ الذي بين الصخر الرسوبي الأبيض والصفاف الرملية مملوءاً بالربى وأعشاب الحطب خضراء اللون في معظمها، في حين كانت هنا وهناك كتل كبيرة من الحجر الرملي التي يضرب لونها إلى اللون الرمادي، تبرز على شكل أشكال غريبة. وبينما يتجول الإنسان تجوالاً بطيئاً خلال الأدغال المنخفضة الموجودة على مسافة بعيدة في اتجاه الشمال، كانت هناك سلسلة طويلة من الجبال التي يميل لونها إلى اللون القرمزي، وفيها ربوة عند نهايتها، شبيهة بضريح مسجد من المساجد، تمسك بأول حُمْرة من احمرارات شمس الغروب. قال يوسف متعجباً: "هذا غرْد" (كثيب) القبة. وظهر البشر على وجهه المتعب المدور. "انظروا، هذه هي قارة السيد المهدي في

الأمام!" كانت هناك كتلة هائلة من الحجر الرملي، في الطرف البعيد من الهاتيا، ومرفوعة إلى أعلى بفعل أيدي مارد غير معروف، فوق قاعدة قويه لونها أبيض براق، إلى حد أنها بنت وكأنها مذبح بدائي لإلهي الأرض والسماء. تعود سيد المهدي التوقف بقوافله الكبيرة في رحلته إلى جالو، والصلاة في ظل هذا الملاذ الفطري الطبيعي طلبا للمغامرات الناجحة أو شكرا لله على سلامة العودة.

وحتى سليمان نفسه لم يطرق بعد موضوع تبريك الإبل. ودون أن ينطق أحد بكلمة واحدة، أحس الجميع أن صلاة المغرب يجب أن تؤدي في المكان الذي سترحب فيه روح المهدي بالمرحّلين القادمين من الواحة البعيدة، التي حول حمرتها ولونها الكهرماني إلى ثروة من الحبوب والفواكه والزهور. وجرى التعجيل بإحضار الإبل المرهقة التي كانت ترعى بين الشجيرات الجافة. وعندما أضاء الغرب الذهبي بنور روعته ذلك المذبح الغريب، المتوازن بين السماء وظهر من بين ذلك الوهج هلال فضي خافت لقمر جديد متوهج توهجا خافتا وسط هذا اللهب، وعندما التقفنا حول ناصية الصخرة ورأينا أبسط شكل من أشكال القبلة، التي تُرى أن المؤمنين عندما يولون وجوههم شطرها يكونون مستقبلين للكعبة (المشرفة). كانت تلك القبلة عبارة عن ثلاثة جلاميد صخرية رمادية اللون ومن حولها دائرة من الأحجار تحدد شكلا لمسجد خيالي، ومع ذلك كان المكان مقدسا وتعين علينا خلع أحذيتنا في الخارج، قبل أن نحني وجوهنا لرمال الصحراء. وأنا لا أعرف الدعاء الذي كان محمد ﷺ يقوله عندما يبدأ بالبسملة "بسم الله الرحمن الرحيم". وأنا لا يمكن لي تخمين الشكر الذي كان مرشدنا يتم به، أو الدعاء الذي كان يقوله عمار تلميذ الزاوية صغير السن عندما كان ينجو من الأخطار، أو عندما يدرك يوسف للحظة أنه ليس هناك من شيء بعد أسلوبه العملي المريح؛ لكنني أعلم أنني في حياتي كلها لم أقدم المزيد من الشكر الصادق للقوة، التي تسمى بأسماء مختلفة في كثير من المدن المختلفة، والتي يسمونها في الصحراء القوة القادرة على كل شيء.

الفصل الخامس عشر

نهاية الرحلة

خيمنا في تلك الليلة في بو سلامة، الذي هو الهاتيا (المخفض) الثانية على الطريق إلى جغبوب. كان الخشب أخضر إلى الحد الذي تعذر معه استعماله في إشعال النار، على الرغم من نجاح كل من حسنين ومحمد في إشعال النار على الرمل. كان باقي أفراد القافلة قد بلغوا من التعب حدًا جعلهم عاجزين عن الاهتمام بما جرى، شريطه أن نرقد على الأرض ولا نتحرك طوال ساعات. كان واضحًا أن الجمل الرمادي يشاركنا المشاعر نفسها، لأنه هو أيضًا كان قد سقط باركًا على الأرض، وراح عمار، وهو يدور حول الجمل مكروبا، دون أن يقدم أدنى مساعدة للراكب، يتوسل مرارًا باسم سيدي المهدي، هذه الثقة الكاملة التي يوليها السنوسيون لقوة السادة الروحية والفكرية تعد أمرًا مذهشًا بحق. عندما هربت النوق الصغيرة، كان سليمان العجوز يقف بلا حراك ويروح يكرر على الفور، يا بركه سيدي إدريس! يا بركة سيدي إدريس! حدث ذات مرة أن كنت نائمة في وضع غير عادي تمامًا، وترتب على ذلك أن أوشكت على السقوط عندما تعثر جملي في كثيب من الكثبان الرملية، وهنا وجدت يوسف يتمم ذاكرًا أسماء كل السادة الأحياء منهم والأموات، متوسلا بهم لضمان أمني وسلامتي.

لم يسبق لي التجوال في بلد موحد في إخلاصه لحاكمه كما الحال في ليبيا.. من المسلم أن سيدي إدريس أقل قوة من الله تعالى في عيون السنوسيين، لكنه هو الأقرب إليهم! تقنهم بلا حدود في قدراته وأن هذه القدرات قد تشمل السيد نفسه. هذه القدرات تتدرج من شفاء جمل على بعد حوالي ألف ميل إلى توقيف العاصفة الرملية، ومن غزو العالم إلى ظهور بئر في مكان ليس فيه ماء، كل هذه الأمور داخله ضمن قدرات ولد سيدي المهدي، وقد انخفض نفوذنا كأصدقاء لشخصية مهمة

من هذا القبيل، انخفاضاً كبيراً عندما اقترحنا قيام القافلة بترك أسلحتها في جغبوب؛ لأننا لا نضمن إن كانت سلطات الحدود المصرية ستسمح أو لا تسمح لهم بدخول سيوة، بدا يوسف أبله. قال: "ستكتب رسالة..." كان يوسف يعرف التأثير القوي، وربما السحري الذي للرسائل التي تأتي من سيدي إدريس في ليبيا، وقال إن ضيوفه يمكنهم تدبير أمر البنادق البسيط هذا في بلدهم عن طريق الورقة والقلم. وعندما اعترفنا بعجزنا، راح يتشكك إلى أبعد الحدود في مكانتنا وفي احترامنا أيضاً!

كنا قد قررنا إرسال محمد ليسبقنا إلى جغبوب قبل طلوع الشمس حتى نتمكن من النوم في منزل الليلة التالية، وعليه - وبعد فترة طويلة من دخولي في كيس نومي - رأيت حسانين ويوسف وهما يحلقان لرفيقنا على ضوء نار المخيم مستخدمين في ذلك موسي موضوعاً بين فكي زرادية. وراح كل من سليمان وعمار يسوقان ملاحظات مهمة تتخللها بعض الملاحظات عن الشعر الأشيب الذي نتج عن الرحلة.

وعلى الرغم من الرحلة التي استغرقت ثماني ساعات، فإن محمداً ارتدى أبهى ملابسه لكي يقدم نفسه إلى الزاوية التي تلقى تعليمه فيها، وعليه، اندهشت في صبيحة اليوم التالي عندما ارتدى يوسف قميصه الأبيض المبهل ومعطفة المرقع، قال يوسف بصورة قاطعة، وهو يركب أقل الإبل إرهاقاً: "أنا أركب دوماً اليوم الأخير من كل رحلة من الرحلات التي أقوم بها".

فوضنا مخيمنا عند الساعة السابعة صباحاً ومشينا الهولنا بين الغرود (كثبان منخفضة) الموحشة ومناطق رملية وحجرية غير مستوية وعديمة اللون إلى هاتيا (منخفض) صغير، يسمى باحة هافان Bahet Hafan، الذي ينمو فيه بعض النخيل بين جلاميد صخرية رائعة الجمال. كان الحر شديداً عندما دخلنا منطقة من الروابي البيضاء المنخفضة، فيها قراميد من الصخر الرسوبي الرخو تسببت في تعثر الإبل أكثر من ذي قبل، لكن النهاية جاءت بسرعة غير متوقعة، لأن المرشد بعد أن قال لنا في شمس الظهيرة، إن اليوم سيكون بمثابة مسيرة طويلة إلى



JAGHABUB.

جغوب



WELI. IN ZAWIA AT JAGHABUB.

بئر في الزاوية في جغوب

جغوب، استطاع يوسف رؤية قبة الزاوية بيضاء اللون من فوق غرد (كثيب) من الغرود الصديقة، وإن هي إلا دقائق معدودات حتى انفتح الوادي المستدير بكامله أمامنا، بكل خطوط نخيله وأدغاله، ومن بعده صف من صخور الحجر الرملي مربعة الشكل، والتي تشكل جدران جغوب بيضاء اللون، والتي بدت لنا قريبة جدًا والتي استغرق وصولنا إليها أكثر من ساعتين.

يعد منزل سيدي بن علي، إلى حد بعيد، أبهى ما في الواحات السنوسية، نظرًا لأن هذا المنزل بلونه الأبيض يبهج العين في ضوء الشمس - هذا المنزل له قبة ناعمة لامعة، ومنذنة عالية، وبه رواق ذو عقد مفتوح، هو رواق منزل سيدي إدريس الذي يرتفع فوق جدران الزاوية الضخمة الشبيهة بجدران القلعة، هذه الجدران كلها بيضاء اللون - بيضاء مثل طواحين الهواء التي تشبه الأعمدة الرخامية، عندما تنتظر إليها من بعد، أو الطوب الرملي الشاحب الذي تبني منه المنازل القليلة الكبيرة التي تحيط بالزاوية. جغوب ليست بلدة أو مدينة بالمعنى المتعارف عليه لهذه الكلمة، جغوب عبارة عن مبنى واحد ضخم له جدران سميقة بلا نوافذ ويحيط بمناهة من الأحواش والممرات، والمدارس والمسكن الخاصة بإقامة الطلبة، والمنازل الكبيرة الخاصة بالأسرة السنوسية، هذا بالإضافة إلى المسجد الكبير وقبة سيدي علي، هذا المبنى الضخم مقام على صخرة عليها سلالم (درج) نازلة إلى حدائق النخيل، وإلى بئر كبيرة تستعمل في إمداد المستوطنة كلها بالماء، توجد خارج مجموعة المنازل المجمعّة متعددة الطوابق والخاصة بالزاوية قليل من المنازل المبعثرة، ولكن جغوب تعد جامعة خالصة وبسيطة، عندما نقل سيدي المهدي مركز رئاسته إلى الكفرة، حرر حوالي خمسين عبدًا وأعطاهم الحدائق التي زرعوها، وأمر من جاءوا بعده باحترام حقوق العبيد، وعليه توجد الآن مستوطنة من هؤلاء السود المُحرَّرين يعيشون في الوادي بين أشجار النخيل، وهم يعملون بجد في بساتين الخضروات المملوكة لهم، والتي يجرى ريها من

منظومة القنوات والخزانات الممتازة التي تعتمد على العين الموجودة تحت الزاوية، ويبيع هؤلاء العبيد المحررون تمورهم ومنتجاتهم إلى الكلية.

التقىنا في منتصف الطريق أثناء عبورنا الوادي طالبين كانا يحملان مذكرة من محمد تفيد أنه كان يجري لنا تجهيز محلات إقامة في الزاوية وهنا سارع يوسف إلى تبديل ملابسه، مزق يوسف قميصه المهلhel، كاشفاً بذلك عن بنية عضلية أمام أعين المجتمع، ثم تناول يوسف لفة عجيبة من داخل جوال كان على جملى، وأخرج من تلك اللفة صديرياً مطرزاً، وشالاً من الحرير، وحذاءً أصفر اللون، وقميصاً شديد النظافة من الكتان الأبيض، وارتدى كل هذه الأشياء أثناء سيرنا على الطريق. وعندما اقتربنا تماماً من الجدران بيضاء اللون رحنا نفتح نيران مسدساتنا في الهواء معلنين عن وصولنا وجاء محمد لاستقبالنا، وعلى وجهه ابتسامة عريضة، مررنا خلال عقد كبير أبيض اللون، لدخل مكاناً واسعاً مفتوحاً في منتصفه بئر، تجمّع حوله جمع من الطلاب الذي رحبوا بنا ترحيباً حاراً. رأينا عن يميننا جداراً صلباً شبيهاً بجدران القلعة، كان ذلك الجدار لواحد من منازل سيدى إدريس، الذى تطل شرفته العليا - فى الجانب الآخر - على حوش القبة المربع الجميل ببواكيه المعتمدة ذات العقود الواسعة. تخترق الواجهة القريبة من المربع عدداً قليلاً من النوافذ ذات الدرف، هى والباب الرئيسى المحفور، الذى يمر الداخل من خلاله ليصل إلى حوش القبة. كان المربع محدوداً من الناحية اليسرى بصف من الأبواب الصغيرة التى لها عوارض أفقية مدورة، ومن فوق هذه العارضة يوجد شق صغير على سبيل النافذة، وتلك هى محلات سكنى الطلاب، كان هناك بعد ذلك منزل كبير مكون من طابقين، التقانا عند باب هذا المنزل رجل كبير السن يسر الناظر إليه، وكان وجهه نحيفاً وشاحباً، وكانت لحيته الطويلة بيضاء مثل بياض شاله، وإن شئت فقل الجدران عديمة اللون الموجودة خلفه.



OUR HOST AT JAGHABUB.

مضيفنا في جغبوب

قال مُضَيَّفُنَا " حياكم الله ، وعليكم السلام " ثم أدخلنا إلى مسكن أكثر تعقيدا من منزل القائمقام المكون من أحواش عدة فى تاج . صعدنا ونزلنا سلالم بدت وكأنها لا لزوم لها، تحت العقود المنخفضة، ومررنا إليها من خلال ممرات صغيرة عجيبة الشكل، وأحواش لها جدران مبنية من الطوب اللبن، إلى أن وصلنا إلى درج (سلم) رئيسي أدخلنا بدوره إلى سطح منبسط، سرنا فيه خلف مضيفنا إلى أن وصلنا غرفة عالية كبيرة، مفروشة بالحصير والسجاد، لكنها خالية من الأثاث. ولأول مرة وجدتي أعيش فى منزل عربى تطل نوافذه على المنظر الخارجى، نظرا لعدم وجود فناء يعزل الإنسان ويحبه داخل عالم عجيب صغير له خصوصية شديدة جدا. من هذه النوافذ المركب عليها قضبان مستعرضة، والتي لها درف متحركة، يطل المرء على المربع الكبير ويرى الأشكال البيضاء وهم يتحدثون ويتسامرون حول البئر، أو يرى الإبل المرهقة وهى تمتلئ بعد أن شربت حتى الشبع، أو النظر إلى الطلبة وهم يجلسون على أبواب غرفهم ومع كل واحد منهم مصحف ومسبحة.

كان مضيفنا، سيدى يادم بو حميره، أحد الإخوان المهمين، متشوقا لسماع القصة الكاملة لرحلتنا، إلى حد أنه لم يتركنا إلا بعد أن نشرب القهوة الحلوة، ونحن جالسون على أفخر سجادة، وبعد أن نجيب على كل أسئلته عن السبب الذى جعلنا نأتى من الكفرة الى جغوب من ذلك الطريق الوعر. وقبل أن نشبع فضول سيدى يادم، كان سيدى الفقيل، الممتلئ والذى يحمل وجهه سُمرة الأبنوس، وله شارب دب فيه الشيب، ويشغل منصب إمام المسجد، وهو أيضا من الإخوان، قد سارع إلى زيارتنا، كنت قد بلغت من الإرهاق مبلغا عز على معه المحافظة على توازنى، كان أنفى ملتها ويتقشر، وكان وجهى كله ملتها، وعيناى تدمعان، وكنت جوعى تاما، كان كل عصب من أعصابى ينبض ويؤلمنى، يزداد على ذلك كله أنى كنت أحس بالقذارة، أحسست بالغموض تاما وأنا أتكى على الجدار، وعندما سمعت

همهمة الأصوات فى الأسفل، عن إمكانية القيام بزيارات أخرى، تركت حسنين بصفة أساسية ليقوم هو باستقبال الإخوان والترحيب بهم، وانسحبت أنا ونزلت من سلم صغير إلى غرفة غريبة الشكل كانت موجودة تحت عقد من العقود المتعددة، وأظن أنها لم تخطر على بال المهندس المعماري، الذى ربما كان ذهنه ملتوياً ومعتقداً إلى أبعد الحدود كانت تلك الغرفة مليئة بالتراب والطين، لكنى أحسست بأن المزيد من القذارة أمر لا يهم، وقد عثر على يوسف الحنون فى هذا المكان بعد انصراف الزائر الأخير، وأنا غارقة فى النوم على شال حسنين المتسخ.

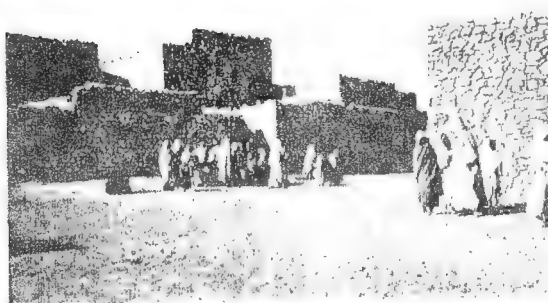
قال: يتحتم على الست خديجة أن تأكل. لقد أرسل وكيل سيدى إدريس إليك عشاء. أثارتنى هذه الكلمة السحرية ، وجاء منظر الصينية اللمعة المصنوعة من النحاس الأصفر، والموضوعة على طاولة صغيرة ارتفاعها حوالى ستة أقدام وسط بحر من السجاد المنصل، بمثابة العلاج لتلك الإثارة، عندما رفعنا الأغطية المصنوعة من سعف النخيل عن الأطباق وجدنا فيها بيضاً وحمماً وخضروات مطبوخة فى مرق شهى عجيب، ومعها أكوام من الخبز اللذيذ، منه الأسمر والمثلث، لكن، يا أسفاه ! كان كل صنف من أصناف المرق مشبعاً بالفلفل الأحمر الحريف، إلى حد أننى كنت أنتشل الحمام وأروح أزيل عنه كل آثار الفلفل الأحمر قبل أن أكله، وقمنا بعد ذلك بدفن قسم كبير مما تبقى من الوجبة، فى حفرة حفرتها بعناية فى الفناء الخلفى مخافة أن أخرج مشاعر المضيف، كنا قد أزلنا بالفعل عن أنفسنا كل آثار الخسة عندما جاءنا المضيف لتناول الشاي معنا.

كان سيدى حسين - الوكيل، دون سائر المضيفين - هو أكرم من استقبلنا نيابة عن السادة ، وكان أكثر الناس بشراً وبشاشة لأنه كان أبسط المضيفين كلهم، جغوب ليست مركزاً سياسياً أو تجارياً، مثل الكفرة أو جالو. تتمتع جغوب بالسلام الحالم الذى يحيط بأية مدينة جامعية صغيرة، زملاء هذه الجامعة وحدهم هم الذين يحظون بالتقدير والاحترام، وهم عبارة عن شيوخ ملتحين يرتدون شيلاناً بيضاء



SIDI IDRIS'S HOUSE AT JAGHABUR.

منزل سيدى إدريس فى جغبوب



LOADING CAMELS AT JAGHABUR.

تحميل الإبل فى جغبوب

اللون فضفاضة من فوق ثيابهم الخضراء خضرة الحشيش الأخضر، أو الزرقاء زرقاء نيلية. طلبة هذه الجامعة، شخصيات جادة، يتعاملون مع الكتب والتسبيح، وهم أكثر جدية من طلبة كليات الثلاث أو الكليات اللاهوتية الأخرى، أما خدم تلك الكلية، فهم على حد معرفتي، العبيد السود بشعو المظهر، الذين يعيشون في حوش خاص من أحواش الزاوية، لكنى على يقين أنهم أوفر جهذا وأكثر عملاً من نظرائهم الإنجليز الذين يعيشون على ضفاف نهري إيزيس وكام Cam.

أعد سيدى حسين شايًا رسميًا على الشاكلة نفسها التى أعدها لنا القائمقام الشاى عليها عندما كنا فى تاج، لكن حديث سيدى حسين لم يكن احتفانيًا مثل حديث القائمقام. لم يكن الحديث قائمًا على قواعد الإتيكيت التى جرى اتباعها فى حديث القائمقام وفى أسئلته وأجوبته. وما إن اختفى تيار الشك والقلق حتى فردنا هوائياتنا الذهنية إحساسًا منا بالامان الكامل. هذه البلدة الصغيرة، البعيدة عن العالم فى وادىها المنعزل، كانت مفرخة لجماعة كبيرة، يجرى فيها تفريخ قوة يستشعر الناس نفوذها وتأثيرها على امتداد شمال إفريقيا، وكانت تتمنى لنا الخير والسلامة. سادت الجمع كله روح من الود والصدقة الحميمية فى دُجى الغرفة المضاءة بالشموع. كانت لحية الوكيل الضخمة تتساقب ناعمة ورمادية اللون على جبهته السوداء، التى يلبس تحتها صديريًا متعدد الألوان، لم يكن هناك استعراض للحريز أو المطرقات، نظرًا لأن إخوان جغوب كانوا أكثر انكبابًا على العلم أكثر من الترف. قال أحدهم بطريقة بسيطة للغاية، ونظرة حاملة من عينيه العجوزتين الداويتين "نحن أناس على قدر حالنا نمضى وقتنا فى الصلاة". كان الإخوان يتباهون بقببهم، وقد انعكس أثر ذلك على وجه يوسف عندما جاءنى، ليلة وصولنا وهو يحمل شمعة يسيل شمعها على جانبها، عندما انتهيت من إزالة الطبقة الأولى من الأوساخ، وكنت أفكر فيما إذا كان من اللياقة أم لا، أن أطلب إلى عمار أن يسخن لى مكيالاً أو مكيالين من الماء، ليقترح على الذهاب فوراً إلى المكان المقدس. قال يوسف: "لن يكون هناك بشر فى هذه الساعة". لكن بعد أن عبرنا المربع الذى تضيئه النجوم

وبعد أن تركنا أحياناً داخل أول ممر من ممرات بواكى المسجد، سمعنا ترتيلاً رتيباً منخفضاً يتأهى إلى مسامعنا قادماً إلينا من خيالات وظلال فى المنطقة الواقعة خلف الحوش الأبيض الكبير! كان ذلك الترتيل ينسجم مع روح الليل الوقورة ومع المشهد الوقور، والسعادة البادية على وجه يوسف، وهو يقنادنى عبر طرق طويلة معتمة، كان يمشى خلالها بلا تعثر، إذ كانت مترسخة فى خياله منذ أيام الصبا، التى كان طوالها متعلماً تقياً ومخلصاً، شأنه فى ذلك شأن الطلبة الذين مروا علينا فى الميدان المربع.

مررنا خلال باب منحوت نحاً دقيقاً ومدهون دهاناً أنيقاً، لندخل بعد ذلك إلى المسجد، شديد الهدوء، شديد البياض وواقر الاحترام، ويشكل السجاد داكن اللون المفروش على الأرض، العلامة الوحيدة التى تشذ عن بساطة هذا المكان المتناهية. بدأ الصمت بطرق على طبلتى أذنئى بانطباع الصلوات العديدة، والآمال، والقرارات التى يرددها هؤلاء الشبان بهمة ونشاط فى تلك الأروقة المنخفضة، والتى يتذكرونها ثانية عندما يزورون أول مركز من مراكز عقيدتهم. لم ينقطع يوسف عن ذلك المركز. الأعين هنا فى هذا المركز فيها بريق نور لم أراه من قبل فى حياتى، أشار إلى يوسف للدخول فى القبة نفسها، ووقفنا فى غرفة مدهونة، مزينة باللون الذهبى وألوان أخرى كثيرة، تحت القبة الضخمة التى تتدلى منها مصابيح زجاجية ضخمة الحجم رائعة الشكل. غمغمت ببعض الدعوات العربية السريعة أمام تقفيسة مربعة الشكل من البرونز المطوى، كانت تحيط بقبر السنوسى العظيم. كنت خائفة حتى من مجرد الهمس بقراءة "الفاتحة"، مخافة أن يخل ذلك بصمت المكان، نظراً لأن أصوات أقدامنا كانت مخنوقة بفعل السجاجيد الكثيفة، لكن الرجل الذى تخيلت أن ذهنه مثبت دوماً على الأشياء الأرضية، الأشياء الدنيوية، كسر ذلك الصمت بصوت مفاجئ، شبيه بالصرخة، وشبيه بالتأوه، وهو ينحني منعلاً مقبلاً القضيبي البرونزي ثم قبل بعد ذلك اليد التى لمس بها ذلك القضيبي البرونزي!

ذهبت في الصباح مرة ثانية وألقيت نظرة على قبور سنوسية أخرى، بعد تناول الإفطار الممتاز الحريف الذي أحضره مبارك، ذلك العبد الذي له وجه شبیه بالمشة، والذي اعتدنا على مراقبته وهو يجرى عبر الميدان حاملاً سلطانية كان يدس إصبعه خلسة فيها ليرى، ما إذا كانت لا تزال حارة أم لا. اكتشفت أن العقود الواسعة البيضاء كانت أكثر جمالاً في ضوء الشمس، لكنني لم أنعم مطلقاً مرة ثانية بتلك الروح الصوفية التي التمتعت وتوهجت فيها قوة الإسلام أمام عيني.

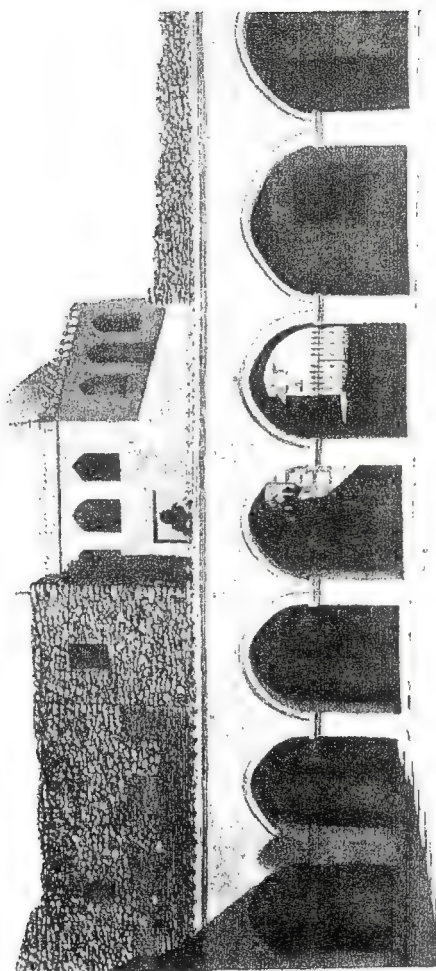
أثبت يوسف أنه كان مرشداً ممتازاً لنا في الرحلة التي قمنا بها إلى جغبوب. فقد اصطحبنا يوسف بكل فخر عبر متاهة مباني الكلية، وهو يحدد لنا في كل منزل من منازل آل — السنوسي، سيدي رضا، سيدي إدريس، سيد أحمد الشريف، سيد هلال، والسيد صفي الدين، تلك المنازل التي تشكل مربعا سكنياً كبيراً حول الكعبة البيضاء. ثم أعلن يوسف في الميدان الكبير الذي يقيم فيه طلبة الزاوية "كل واحد منا له منزل في هذا المكان. عمار له منزل. وأنا لي منزل أيضاً. بوسعنا المجيء إلى هنا كلما أردنا ذلك إنه بلدنا". هذا يعني أن الزوايا تبقى على تلاميذها إلى فترة طويلة بعد خروجهم إلى المدن والصحراوات. الإخواني البدين، والتاجر الميسور، والشيخ البدوي، أو حتى الكاتب الجائل، كل هؤلاء يحق لهم أن يعرجوا على الزوايا التي تلقوا تعليمهم فيها، وهم على ثقة من أنهم سيحدون فيها مكاناً ويلقون فيها ترحيباً. يزداد على ذلك أن المترحل العابر يحق له المطالبة بضيافة الأيام الثلاثة السنوسية، وكلما زاد فقر المترحل ازدادت تلك الضيافة كرمًا وسخاء.

أمضينا يومين في البرج العالي فوق الميدان، ونحن نتحاور مع الإخوان في أشياء بسيطة، وفي تطبيب بعض الطلبة باستعمال أدوية وعلاجات غير كافية، مستخدمين في ذلك اللت والعجن الكفاري اللت والعجن المصري مع قليل من التجار المتجهين صوب الغرب. وقمنا بعد ذلك بالمرحلة الأخيرة من رحلتنا، عازمين على التنقل البطيء الآمن، بحيث نعطي الإبل فرصة الرعي ونحن على

الطريق، وأن نركب فترة قصيرة أثناء الليل لمجرد التمتع بالنجوم، وتبريك الإبل طلباً لعمل الشاي المنعنع في الأماكن التي تغرينا بحطبها وظلها.

لابد أن القدر سخر منا، لكن صدي ذلك الضحك لم يصل إلينا، عندما كنا نُحْمَلُ جمالنا الأربعة داخل الزاوية، أو لأننا كنا ننتظر وراء الغرد (الكثيب) الأول في الوقت الذي كان سيدي حسين يقرأ "الفاتحة". أنا وحدي أدركت أن تلك كانت البركة العربية الأخيرة التي ستصيبها رحلتي، وفجأة أحسست بحنين إلى الأرض التي كنت أغادرها. الجدران البيضاء النمطية، والقبة البيضاء الموجودة خلف هذه القبة، كل هذه الأشياء تمثل الجهد الكبير الذي بذلناه، تمثل الهدف الذي ناضلنا من أجله، هذه الأشياء كلها أكبر بكثير مما أحدثته الكفرة فينا. لقد أنك محمد بالفعل بفعل هذه الرحلة وأصبح عاجزاً عن مواصلة السير معنا، وعليه وفي ضوء هذه الأرضية الصغيرة من الأمل والخوف، والنجاح والفشل، وعلى خلفية شهور الشتاء بالغة الإثارة، والقدرة الشديدة على التحمل، بدأنا نفقد صديقاً! تملكني ألم غريب ونحن نفترق في النهاية وسط الرمل العاصف الناعم، والريح تطير شاله على وجهه بطريقة هو جاء، ساعة أن كان يوسف يقول وهو معجب بذاته: "الست خديجة سعيدة. ستصل إلى بلدها بعد فترة قصيرة". وهنا عرفت أن الصحراء هي التي انتصرت أولاً وأخيراً. هؤلاء الذين يستخفون بأسرار الصحراء هم الذين يقعون في إسارها إلى الأبد. أعتقد أن صوتي كان يوحى بشيء من التردد عندما رددت على كلام يوسف "لا ، لا ، أنا حزينة لأنني أخلف ورائي بلاد السنوسي!" سرعة التعاطف العربي، وسرعة الاستجابة العربية الفطرية هما اللذان جعلوا وجه يوسف يعكس تعبيرى الحزين. أسر يوسف إلى عمار "لقد مسّت قلبي. لو بكّت السيدة خديجة لبكيت معها لأن لديها مشاعر رقيقة كثيرة".

هبت في ذلك اليوم ريح شمالية غربية قوية، لكنها كانت إلى الخلف منا، وعليه سرنا ببطء راكبين راحلتنا خلال المنطقة الرملية المشوهة، وخلال



MOSQUE AND QUBBA OF SIDI BEN ALI AT JAGHABUR.

مسجد وقبة سيدى بن على فى جغوب

الصخور الرسوبية الرخوة الموجودة في الجانب الشرقي من جغبوب. أنا لا أدري إن كان المردة اللعوبون ينقبون هنا عن الكنوز، أو أن الآلهة الشبان يبنون قلاعاً هيكلية وتحصينات في تلك الأرض الجرداء، لكن ترتفع في كل ناحية هنا أشكال رائعة ناتجة عن الرمل المحمول بواسطة الرياح. هذه طبقات يميل لونها إلى الإحمرار من فوق قواعد بيضاء لامعة شبيهة بالطباشير. وتلك سلاسل جبلية الواحدة بعد الأخرى، وهي عبارة عن غرود (كثبان) لامعة بفعل العواصف، محصورة داخل متاهة من الروابي الغربية التي تختفي بين الحين والآخر ترحيباً بالمنخفضات الخضراء. انكشفت القافلة إلى أن أصبحت ثلاثة أفراد: يوسف، عمّار، ومرشد جديد، يدعي أبو بكر منفي، شبيه تماماً بذلك الخليفة الشرير، في الرسوم التي رسمها دولاك بوجي من قصص ألف ليلة وليلة، نظراً لأن هذا المرشد له أنف كبير يشبه المنقار، من تحت عمامة كبيرة غير محكمة اللف، ومنحنية حتى تلتقي لحيته المدببة وفكه الشبيه بكسارة البندق. كانت عيناه الفضوليتان تسألان دوماً، لكن لكنته كانت صعبة على فهمي.

مشينا ببطء شديد نظراً لأن الإبل كلها كانت متعبة، إضافة إلى أن المرافقين لنا كانوا قد زادوا بطريقة سرية، أحمال تلك الإبل كانت جراراً ضخمة من الفخار كي يملئوها بالزيت من سيوة، لكن ذلك لم يهم كثيراً، نظراً لأن هذه صحراء صديقة كريمة وسخية في حطبها ومائها. توقفنا في الغمره El Amra التي بنى فيها المهدي خزانين كبيرين يصل طول الواحد منهما إلى ما يقرب من خمسين قدماً ولهما سقفان على شكل قبتين، ومن خلال ثقوب في السقفين يتقاطر الماء نازلاً إلى الغرفة الكبيرة الموجودة في الأسفل. أعد أبو بكر شايًا سريعاً على نحو يوحى بأن الخليفة سلفه أورثه خدمات صديقة من الجن. ثم واصلنا مسيرتنا بعد ذلك ببطء، ماشين أحياناً، وراكبين أحياناً أخرى، وقطعنا مسافة اثني عشر كيلو متراً أخرى وصلنا بعدها إلى مكتوه Maktuh، التي أطلقنا الإبل عندها ترعى

وطبخنا أرزنا "وعصيدتنا" في ظلال دغل جميل ذكى الرائحة، في حين راحت الطيور السوداء المتطفلة، والتي لها بقع بيضاء على مناقيرها تقفز سعيدة من حولنا. وأثناء حمرة غروب الشمس بدأنا تحميل إيلنا، ولاحظنا أن أبا بكر كان ماهراً في وصل صلاة "عصرة" وفجرة "وعشائه"^(*) ببعضها البعض من باب تحاشي القيام بأى شيء في الطريق.

كان هلال ذهبى يضىء عالماً أبيض ونحن نغادر المنخفض، ونشق طريقنا خلال السبخة التي بدت لنا فيها كثبان رملية ضخمة عن يميننا. أحسست بأمن كامل وسط ذلك السكون الفضى البراق، ولم يكن شيء يقطع ذلك الصمت الرهيب سوى وقع أقدام الإبل أو عويل يوسف الغنائى المفاجئ، الذى يمتدح به قلبه الحبيبة إلى نفسه "بيضاء مثل صدر العذراء". كانت الصحراء فى أقصى حالاتها السحرية، وكنت أنا أتشوق إلى الاتجاه جنوباً مرة أخرى، وأعود من جديد داخلية إلى نطاقها الذى لا يعرف الحدود على الضوء الخافت الصادر عن نجمى الجدى وسهيل. ثم تلا ذلك صوت همهمة غريبة بين الكثبان. بدا الأمر وكأنه، ريح عاتية كانت تحمل طنين تشكيلة كبيرة من النحل مختلف الأحجام. قال يوسف متخوفاً. "الجن مستيقظ هذه الليلة! سيحدث لنا مكروه. الجان يأتون ضوضاء كبيرة فى الرمال!" ضحكت ساخرة من كلام يوسف، وتساءلت أن ذلك ربما كان الطين الناجم عن دوي النسيم فى جرار الزيت الفارغة، أو أن ذلك ربما أزيز طائرة إذا ما كنا قد اقتربنا تماماً من العمران. وهنا خطرت على بالى طبول الصحراء فى الصحراء الفرنسية، التى ليست من مسئولية أصابع البشر، وتساءلت عما إذا كان المرء يمكن أن يسمع نبض الأرض عندما يكون على مقربة تماماً من روح Spirit الأرض^(**) Earth.

(*) استعملت المؤلفة هذه الكلمات بلفظها العربى. (المترجم)

(**) أوردت المؤلفة هاتين الكلمتين بحروف عالية فى بداية كل منها، إشارة منها إلى مفهوم العناصر الخمسة المكونة للكون فى التاريخ الطبيعى القديم. (المترجم)

أدرت جملى الأشقر الكبير كى أسأل حسانين عن رأيه فى ذلك الطنين
الغريب، ورأيت بدلاً من الشخص الذى يترنح ترنحاً رتيباً فوق الجمل التيبى،
كومة تحاول رفع نفسها من بين مجموعة من الأحجار. قال صوت ضاحك هادئ:
"أظن أن عظمة ترقوتى قد كُسرت". قلت له وأنا أستحضر فى ذهنى السقوط الناجم
عن الصيد. "لو أن العظمة قد كُسرت لما قلت لى هذا الكلام بهذه البساطة!" قال
رفيقي وهو يصعد من جديد راكباً جملة "ربما لا تكون قد كُسرت. سواء كُسرت أم
لا، المكان متورم تورماً كبيراً. أظن أن هناك كسراً". وعلى الرغم من أن الصوت
كان لا يزال يضحك، فقد عرفت فجأة أنه يقرر حقيقة واقعة! جرى تبريك الإبل
بصورة غير منظمة. وعندما علم يوسف بالخبر، راح يدور حولنا فى صمت
عارضاً تقديم يد العون والمساعدة، ومقدماً فى ذات الوقت القسم الأكبر من ملابسه
لاستعمالها ضمادات. كان أبو بكر بحكم وحشيته وطابعه العملى يتمنى تذليك الورم
كما لو كان التواء. وهنا وجدتني سعيدة بطول الحزام الأحمر. فقد استعملته لفافات
وحبالاً للرفع فى آن واحد، واستعملت أحد طرفيه فى تثبيت مخده تحت الإبط.

كان حسانين يشرح طول الوقت وهو منشراح الصدر، أن الجمل التيبى تعثر
فى اللحظة التى كان حسانين يقوم فيها ببعض الأعمال البدنية لكي يُخرج بطانية
من مكان غريب بين جوانات الأمتعة، لكننا لم نسمح له بكثرة الكلام. وعجلنا
بوضعه فى "باسور"(*) جرى عمله على عجل، وواصل موكبنا العظيم سيره مرة
ثانية، نظراً لأن الليل الفضى تحول فجأة إلى وحشة مميتة، وازدادت حدة طنين
الجن، كما ازدادت صعوبة السفر إلى سيوة، فى ظل وجود إبل مرهقة، ورجلين
غير راغبين فى قطع هذه المسافة التى لا تطاق.

(*) كلمة عامية ليبية تعنى "الهورج" الذى تركب فيه المرأة على ظهر الجمل. (المترجم).

تحولت رحلتنا بعد ذلك إلى مجرد سجل زمني لنوبة شجاعة من نوبات القدرة على التحمل. تلاشى الهلال الذهبي خلفنا، لكننا واصلنا المسير. لم تعد المسافة التي تنتظرنا وتقدر بحوالى خمسة وثمانين كيلو متراً صحراء صديقة حتى نعبرها عبوراً بطيئاً ومريحاً. وأياً كانت الظروف يتعين علينا الوصول إلى سيوة وزيارة طبيب قبل أن تبرز العظمة المكسورة من الجلد وتتسبب في إذلال الجسد. كانت المشكلة الكبرى تتمثل في المرافقين لنا، الذين لم يصدقوا أن "أحمد بك" الذي كان يضحك والذي كان يحثهم على الغناء يمكن أن يصاب بكسر في العظام. قال يوسف وكله أمل "إنه مجرد ملح بسيط. نشعل ناراً وندلكه بشيء من زيت الياسمين وسوف يُشفى". لكنى رحت أستحثهم جميعاً على السير إلى أن بدأت الأرض الصخرية الوعرة الموجودة غربى القصيبة Kusebeya، تتسبب في تعثر الإبل أثناء سيرها في الظلام. كرهت أبا بكر عندما راح يشعل لنفسه ناراً، وراح يدفى رجله على لهبها. وراح يرتل القرآن بصوت عالٍ منفرد.

لم نتمكن من إدخال حسانين التعيس في كيس نومه، ولم نتمكن أيضاً من ابتكار وضع يكون مريحاً لكتفه، الذي بدأ يتحرك بالفعل نتيجة للارتطامات والاهتزازات المستمرة الناجمة عن سير الجمل. تمثل كل ما استطعنا عمله في مجرد تكويم وسائدنا وبطاطيننا كلها تحت حسانين وقمنا بتغطيته بأكياس النوم. تصرف يوسف تصرفاً نبيلاً فى الليلة الباردة التالية، والتي لم ينم أحد فيها سوى أبى بكر، سمعت يوسف عندما جاء مرات عدة استعداداً لتقديم يد العون والمساعدة إذا ما طُلب منه ذلك.

لم يطلع علينا فجرٌ أكثر إشراقاً من فجر ذلك اليوم، لكنني عندما كنت أعاون رفيقى الشجاع على ركوب الجمل، ودون انتظار لتناول الإفطار سوى شيء من القهوة فقط، كنت أسأل نفسى ما إذا كان التحمل البشرى يمكن أن يستمر مدة ثمان وأربعين ساعة على هذا النحو. كان كتف رفيقى قد التهب بالفعل، وازدادت وعورة

الأرض بشكل مخيف إلى حد أن الراكب كان يهتز ويترجرج بطريقة مؤلمة كل بضع دقائق. تجاوزنا بحيرة القصيبية المالحة زرقاء اللون، التي كانت على شكل شريط ملون عن يسارنا، ثم نزلنا بعد ذلك إلى المنخفض المغطى بالعشب، الذي تركنا الإبل ترعى فيه. عثرنا على تجمع من النخيل وطبخنا أرزاً في الظل، وأصبحت ابتسامة حسانين مقتضبة بعض الشيء، على الرغم من الجهد الكبير الذي بذلته في عمل الضمادات وحبال الرفع.

لم أترك المرافقين لنا حتى ينتهوا من شرب الشاي صحت فيهم قائلة: "ما الذي يمكن أن يحدث إذا مرضتم؟ هذه العظمة يتعين ردها ليلة غد" قال يوسف بصوت حزين "المسافة من جغبوب إلى سيوه تقدر بمسير ثلاثة أيام ونصف. سنسير معك طوال الليل، لكن الإبل لا يمكن أن تواصل السير". قلت محددة "لابد أن تواصل الإبل السير؟" لكنني كنت أعلم أن إبلنا مرهقة. فقد قطعت الإبل أكثر من ألف ميل، وكانت في بعض الأحيان تحمل أكثر من حمولتها ولا تحصل على ما يكفيها من طعام. هذه الإبل لم تتل من الراحة على امتداد ثلاثة أشهر، سوى ثمانية أيام في واحة الكفرة، ونحن بدورنا كنا نأمل دوماً في ترك الإبل تتغذى وتسمن في جغبوب. ومن سوء الطالع لم يكن في جغبوب أية دابة من دواب الحمل في الزاوية حتى يمكن الاستفادة بها، وعليه تحتم علينا انتقاء الإبل الأربعة الأقل إرهاقاً وتعباً ثم نترك كل ما عدا ذلك للحظ والنصيب.

كان مساء ذلك اليوم أطول الأمسيات التي أمضيته في حياتي كلها. وعندما رأيت حسانين يستغني عن بوصلته عرفت أن الأمور قد ساءت جدّاً وتحولت التلال الرائعة إلى متاهات مؤلمة كنا نتجول خلالها إلى أبد الأبد! أشار يوسف إلى "الشبكة" Grid. التي هي عبارة عن ثلاثة غرود يمكن أن تستعمل في حمل أواني الطبخ الخاصة بالمردة العمالقة. قال يوسف "سوف نخيم في زيزب Zaizeb". ودعوت الله أن تكون زيزب هذه قريبة منا. قال أبو بكر ونحن نصعد تلاً "الله

وحده هو الذى يعلم المسافة التى بيننا وبين هذا المنخفض". خيل إلى أن زيزب هذه عبارة عن ارتفاع صغير، لكننا لم نر فى الأسفل سوى رمل يميل لونه إلى الاحمرار، من فوق رواب بيضاء، وبأشكال مخيفة أوحى لعمار الخيالى، أنها دواب ومأكولات. كان حسانين آخر من التزم الصمت بيننا.

غربت الشمس دون أن تكشف عن أية علامة أو إشارة إلى المنخفض الموعود. كانت الإبل عاجزة تمامًا عن المضي قدمًا أبعد من ذلك. قال يوسف من باب التعاطف معنا: "لقد سرت مدة سبعة عشر يومًا من الكفرة على هذين القدمين، وها هما الآن متعبتان تمامًا. لكن حسانين لم يقل أى شيء. لم أستطع مقاومة القوة الدافعة التى انتابتنى إلا عندما تسَلَقْتُ تَلًا ضخمًا من الحجارة بجوار المدق الذى كنا نسير عليه ورأيت الأمل مشرقًا فى وجه حسانين وأنا أنظر عبر هذه المساحة الكبيرة من الأرض المموجة. كذبت قائلة: "أنا أرى المنخفض. إنه قريب جدًا". دخل علينا الظلام ونحن ننزل إلى الوادى، وكان كل حجر من الأحجار المستديرة، وكل سقوط مفاجئ يجعلنى أدرك أن تمضية يومين آخرين من هذه الأيام تعد ضربًا من ضروب المستحيل. أدى الظهور السريع للمنخفض إلى تبرير كلامى الذى جاء على شكل نزوة، لكن الجو كان قد أظلم تمامًا عندما برئنا خلف ربوة مناسبة. أصررت على حتمية تناول الطعام على وجه السرعة وأن نستأنف السير إلى أن يغيب القمر. اعترض المرافقون لنا على ذلك اعتراضًا كبيرًا. قال يوسف "يتعين عليكم التخلّى عن بعض الأحمال". أما أبو بكر فقد لف نفسه لفًا محكمًا فى بطاطينه وبطريقة جعلتنى أظن أن هناك نوعًا من التمرد المنظم. يزداد على ذلك، أتى بعد هذه الوجبة البائسة، ونظرًا أيضًا لعجز شجاعة رفيقى عن إخفاء ألمه، رحت أحث المرافقين لنا على النهوض والوقوف على أقدامهم، وأجبرتهم عن طريق قيامى أنا شخصيًا بتحميل نصف الأحمال على الإبل، على الاستعداد للقيام بمسيرة أخرى.

سحب حسانين نفسه فى صمت وركب الجمل التيبى رمادى اللون، الذى لا يزال أقوى جمل فى الحملة(*) كلها، لكنى عندما رأيت الجماعة كلها ترحف مبتعدة عن منطقة التخييم عرفت أنى لن أستطيع تسريع الخطى أكثر من ذلك. وعرفت أيضا أنى فى الغد سوف أنصب الخيمة وأترك رفيقى فيها مع كل من يوسف وعمار. وأخذ معى جمل الكفرة وأبا بكر، الذى هو على استعداد، مقابل حبه للمجديدات الثقيلة، لتولى مسألة إرشادى فى الرحلة الطويلة إلى سيوة التى يمكننى العودة منها ومعى المساعدات المطلوبة. قلت ليوسف: "هذه هى النهاية. استجمع قوتك!" بعد ذلك، وبفضل من الله، اندفع كلب إلى الخارج وراح ينبج، وبدأت تظهر لنا خيالات بعض الأشخاص. جاء الرد على تحدى عمار "صديق". قال لهم يوسف ولى أيضا "الصديق لا يسير هكذا أثناء الليل. جهزى مستدساتك!" لكنى سمعت صوتاً إنجليزياً! واندفعت إلى الأمام غير عابئة بالشال الذى ينبغى أن ألبس به نفسى، وغير عابئة بالتقاليد الإسلامية، ولا بأى شيء آخر فى هذه الدنيا، اللهم باستثناء أيدى إخوانى المواطنين التى تستطيع تقديم العون والمساعدة على نحو لا تستطيعه الأيدى الأخرى فى هذا العالم، التقيت دورية من دوريات الإبل، التى أرسلتها إدارة سلاح الحدود للبحث عنا!

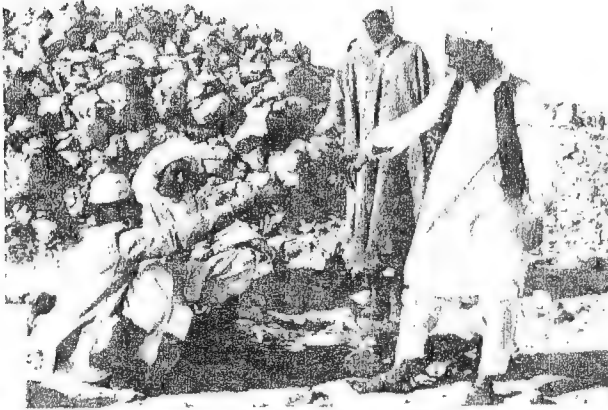
أنا لا أتذكر مطلقاً ذلك الذى قلته لذلك الظل صاحب العينين الهادنتين الذى يرتدى زياً كاكى اللون والذى برز من بين الأشخاص ذوى البشرة الداكنة الذين يرتدون عمائم محكمة اللف، ومن بين صف مزدوج من الهجن الباركة بطريقة أنيقة ومنظمة، لكن أه! أنعم وأكرم بالكفاية الإنجليزية! لقد لُمت انجلترا فى كثير من الأحيان، متوخية فى ذلك كثيراً من العدالة. لقد هربت من سلطات إنجلترا، عندما كنت أريد الاختراق للوصول إلى أماكن مستحيلة وغير مسموح بها، لكنى فى تلك الليلة قيمتها وثمرتها بأكثر من ذى قبل! تغير الموقف خلال دقائق

(*) الحملة: بفتح الحاء وتسكين الميم، هى "الإبل المخصصة لحمل الأمتعة"، وهى من الكلمات العامية الليبية. (المترجم).



MY LONELY PICNIC IN KUFARA WAADI.

رحلتى الخلوية الوحيدة فى وادى الكفرة



A GLASS OF MINT TEA ON THE WAY TO SIWA.

كوب من الشاى المتنعن فى الطريق الى سيوه

معدودات. تراني، تنازلت عن قيادتي أم أنها أخذت مني على غير وعي مني بواسطة بنفسنت خاكي Beneficent khaki؟ أنا لا أعرف ماذا حدث بالضبط، لكن ما أتذكره هو تحول غمغه المرافق لي إلى صمت مخيف أمام القوة التي هبت لملاقائنا. جرى صرف الحملة لتقوم بالتخيم في مكان معلوم وعادت أسرع الإبل إلى سيوة، بلا توقف أثناء الليل، كي تحضر طبيبًا وسيارة إلى جربه Girba، التي تبعد مسير نصف يوم فقط.

كان القدر عنيدًا مع المحافظ الإنجليزي الموجود في سيوة في ذلك الوقت، نظرًا لأن جماعة الإنقاذ خيمت على بعد حوالي مائتي ياردة من المنطقة التي تناولنا فيها عشاءنا الحزين، وضلت الجماعة طريقها، نظرًا لأن الكلب الجوال قد أعلن عن وصولنا، ولولا نباح الكلب لضعنا في غياهب الليل.

وجدت نفسي - قبل أن أتمكن من الوقوف على تغيير الحياة - فوق جمل أبيض يعدو ومن فوقه جلد خروف ضخم يشهد على بعد النظر شديد اللطف، كان بنفسنت خاكي بجواري، ومن خلفي مخيم جرى تقويضه على وجه السرعة، كان وهج رماد النار لا يزال موجودًا، وكان هنا أيضًا طابور من الأشخاص سمر البشرة راكبين الهجن الرشيقة التابعة لسلح الهجانة. بدت لي المسافة التي يتعين علينا قطعها، شيئًا بسيطًا، كما بدت لي أيضًا المسافة الطويلة التي قطعناها وخلفناها وراعنا، وكأنها لا شيء، لأننا رحنا نتحدث عن الحروب العالمية، وعن أمم لا تزال في البؤسة. كنت مشغوفة وأنا أسأل عن الأخبار! لقد سقطت حكومات، وبرزت إلى الوجود جمهورية جديدة، واختفى جنرال شهير مع جيش كبير! وقبل أن أملأ الفجوة كانت أخبار تلك الأشهر الصحراوية قد تناهت إلى المعرفة الصحفية، كنا قد أدركنا الحملة وكان بنفسنت خاكي يبحث عن مأوى مناسب. قال بنفسنت خاكي بصورة قاطعة "اعتقد أن الجانب غير المعرض لهبوب الريح يعد ملجأ مناسبًا. أعتقد أن ذلك الزميل الضخم سيقوم بكل شيء. وهنا قام بنفسنت خاكي بتوجيه جملة الأبيض إلى أسفل التل.

نُصِبَ المخيم على وجه السرعة! أحسست بالخجل من تحميلنا أشياءنا بطريقة غير منظمة، ومن وقفاتنا المتخشبة، عندما جرى تبريك كل جمل من الإبل الطويلة في المكان المحدد له في الصف المزدوج. قال يوسف من باب الغيرة "يا له من أمر طيب، أن ينتمي الإنسان إلى حكومة من هذا القبيل. يا لها من إبل جيدة وتنظيم جيد!" لم تحدث مهمة أو غممة عند عمل الزريه في تلك الليلة. كانت هناك مجموعة من المرافقين الذين كانوا يعملون من تلقاء أنفسهم، بتوجيه بسيط، في الوقت الذي كان فيه بنفسه خاكي يتولى الإشراف على الأمر كله. وبصورة عجيبة وعلى وجه السرعة جرى وضع حسانين داخل كيس من أكياس النوم، كامل الملاءات، وجري وضع مخدة تحت كتفه، وأدت الزريه المحكمة إلى عدم تسرب الرياح، وجرى إشعال نار جميلة أمامنا. وبينما كنت أقوم بنفض ملاءات فراشي سمعت صوتاً يلومني: "يجب ألا تفعل ذلك! تذكرى أن لديك العديد من البشر الذين يمكن أن يقوموا بذلك نيابة عنك". ابتسمت لأنى كنت قد نسيت الأساليب المتبعة في إنجلترا.

قال الصوت نفسه: "شأى ساخن مع الحليب". لاحظت بعد ذلك غلاية كبيرة على النار. وجاءت الأكواب من سلة رحلات كبيرة عامرة بكل أصناف الأشياء الطيبة. وهنا جاءت السجاجيد وجلود الغنم من فوق الإبل الإضافية التى جرى إحضارها لتركب عليها. هل كان هناك أى شيء لم تستطع إدارة سلاح الحدود إحضاره عندما طلبناه؟ ثم نادى شخص آخر "مقائق"، (*) وكان حسانين هو الآخر متحمساً لهذا الشيء. طبخنا المقائق مع صلصة الطماطم على نار حطب ذكى الرائحة، وتناولنا المقائق وهى ساخنة، ومعها خبز أبيض طازج جىء من سلة كريمة ثم رحنا نتحدث بعد ذلك — ويا له من حديث! دخن بنفسه خاكي مستعملاً غليونه، غير مبال بالقوانين السنوسية الصارمة التى حرمتنا من التدخين بضعة

(*) المقائق: السُجُق (المترجم).

أسابيع، ورأينا رؤى، وحلمنا أحلاما مع الدخان أزرق اللون الفاتح عن أول سيجارة ندخنها بعد هذه المدة الطويلة.

لابد أن الساعة كانت قد وصلت إلى الثانية صباحا، عندما دفعنا أنفسنا داخل كيس نومنا، لكن أحدا منا لم ينام، أحسست أن ذلك الذى نحن فيه لم يكن النهاية. كنت أحس أني فى وقت ما، وبطريقة ما، على الرغم من أنى لم أعرف متى أو أين، وبمشيئة الله، سوف أعود ثانية إلى الصحراء، وأن المدقات الغريبة غير الموقعة على الخرائط سوف توصل إبلى إلى الجنوب.

أقول لهؤلاء الذين يودون معرفة النهاية أن الكفاءة التى بملكتنا لم ترفع قبضتها عنا إلا بعد أن أودعتنا حيارى يائسين خارج المكان، فى فندق من فنادق الإسكندرية، بعد رحلة تقدر بحوالى ٤٣٠ ميلاً بالسيارة من سيوة.

كان الشئ الحار إلى جانب كيس نومنا قبل أن يخرجنا الفجر من ذلك الكيس. وبخطى أسرع من خطانا على المدق المؤدى إلى ذاكار، وصلنا إلى المنخفض الموجود فى جربه Girba، حيث جلسنا تحت أكبر نخلة، انتظارا لطبيب ومعه كل التجهيزات المطلوبة المصنوعة من الألومنيوم. وصلت السيارات فى اللحظة المطلوبة والمناسبة. كان الطريق على عكس ما توقعنا، ناعما، ويا إلهى! وكم كان الماء وفيرا وساخنا فى دورة المياه!

فى الحمام بذلت شالى الممزق وأنا أنتهد علامة عن الارتياح، ومع ذلك، وأثناء تجوالى فى سيوة الشبيهة بخلايا النحل، هى ومنازلها المكومة إلى جوار بعضها، ومنازلها المكونة من أنفاق مظلمة، والتى يستعملها الناس استعمال الشوارع، كنت أحس بالخجل وأنا على مرأى من العرب الذين كانوا يطيلون النظر إلى. كنت أرى أن مسألة أن يرى مسلم وجهى بلا حجاب، أمر لا يطاق. كنت بطريقة عزيزية تماما أ جذب حافة قبعتى إلى الأسفل أو أستر وجهى بطرف

عباءتى الفضفاضة، نظراً لأن روح هؤلاء الناس أصبحت هى روحى إلى حد أنى كنت أشعر بالاستياء لاقتنارى إلى الخصوصية إلى أن تذكرت أن الست خديجة لم تعد موجودة بعد!

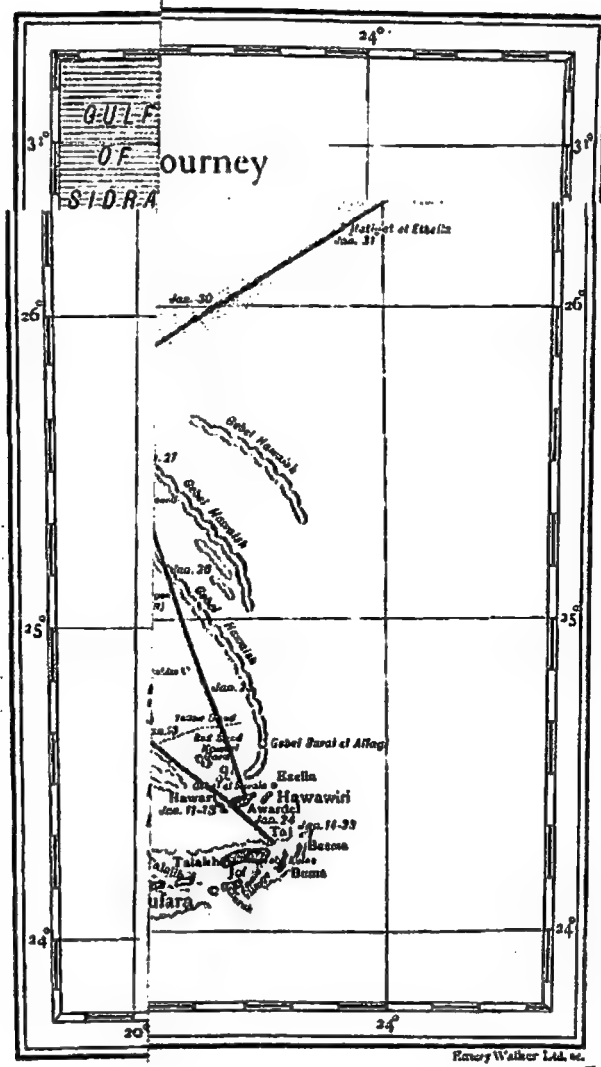
أمضينا ليلة أخرى فى الصحراء، لكن فى حماية مُشمع معلق بين سيارتين، كاننا معدتين لنقلنا إلى مطروح، وهنا بدت الصحراء مستأنسة وفيها قوافل صديقة وخزانات للمياه أنشئت حديثاً تبرهن على المشروع الذى تقوم به محافظتها. ومع ذلك كان القمر الفضى هو نفسه الذى حول لون رمال هوارى إلى اللون الكهرمانى المنصهر، الذى تتخلله ندب من لون النخيل الأزرق الياقوتى، وكنت أنزوى خلف الملجأ وأحس بارتياح وأنا أراقب النجوم التى كان محمد يود دوماً أن "يطفئها!"

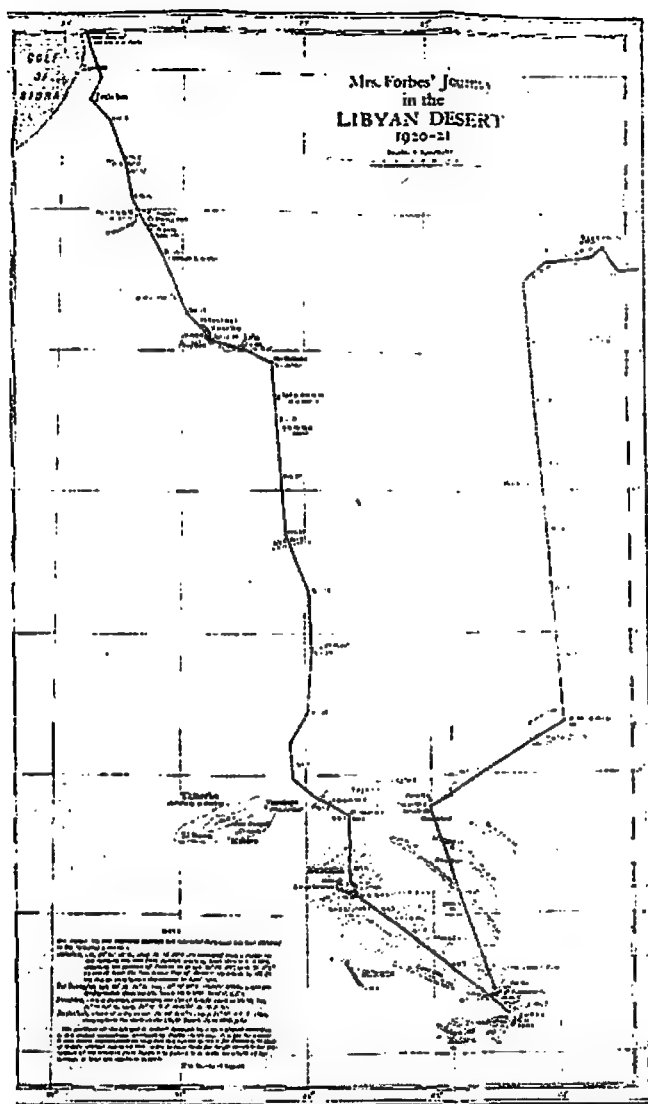
قال المسئولون الكرماء فى كل من سيوة ومطروح، وهم يولونا مزيداً من الترحيب "تهانينا الخالصة بنجاحكم".

قال مواطن على الساحل "لقد زرتم الكفرة. إنها جزيرة، إنها غير ذلك، لكنى كنت أظن دوماً أن هجاءها كورفو! Korfu.

التقيت بعد ذلك امرأة إنجليزية. كان القلم الذى يزيد تنورتها يناسب المعرق الفرنسى الذى ترتديه، وكانت تفوح من بشرتها الوردية رائحة عطر "ميل فليبرز" Mille Fleurs. كانت أظافرى متقصفة، وكان أنفى متقشراً. كان ثوبى الأوروبى الوحيد مخبأ طيلة أشهر فى قاع جوال من جوانات علب اللحم المحفوظ، لكنى كنت صادقة عندما رددت مقولة حسانين "المدنيّة، الحمد لله!" عندما كان يدس كوفيته فى ركن من أركان الحقيبة التى يحملها على ظهره، ويخرج منها طربوشاً!

الضبعة ١٩ فبراير من العام ١٩٢١.





الملحق رقم (١) جدول المسيرة

التاريخ	البداية	الوقفة	المسافة	الاتجاه	الطقس	درجة الحرارة		الارتفاع	المنطقة	الأبار	الوادي والقباب
						الليلي	الصغرى				
٨ ديسمبر	٦ صاها ١١,٣٠ صاها	٩,٣٠ صاها ٢ بعد الظهر	٢١ كم	١٤٠	رياح شرقية باردة قوية. شمس		٢٠,٧٧	٤٠ متر	أرض مستوية - حصى. غشب كثيف	في إحصاها. زلزلية حادثة. التبرج شمال كرم زحولي ٤٠ م الأجوان هناك زائره عمر مستوحدة من روايا عمر زير	
٩ ديسمبر	٨ صاها	٥ مساء	٣٦ كم	١٦٥	مطر عذ الساعه لثامعه صاها. سحب		٢٠,٥٥	٦٠ متر	أرض مستوية. رملية. حشائش كثرة. برفعان حاشان		
١٠ ديسمبر					شمس حارة		٢٠,٨٨				
١١ ديسمبر	في الوادي الغارغ				رياح جنوبية قوية		٢٠,٦٦		الوادي الغارغ	الوادي الغارغ مستوحى طريق يند شرقا وغربا. لا يوجد حاد ملية أو تخل. ذو واحدة كيرة عميقا ١٥ قار. ماء دائم. سماء. الجو حار القصف واد: الظلم دوما إلى حاد.	
١٢ ديسمبر	١,٣٠ مساء	٣ مساء	٨ كم	١٧٠ و ١٧٥	رياح جنوبية صاها. رياح جبلية ساف		٢٠,٥٥	٣٠ متر	أرض مستوية من الشرق إلى الغرب حاد ياتية لادق.		

التاريخ	البيانية	الوقتية	المسافة	الاتجاه	الحققن	درجة الحرارة		الارتفاع	المنطقة	الآبار	الزوايا والقياسات
						الظلي	الصغرى				
٢٠ ديسمبر	٨.٤٠ صباحاً	٢.٤٠ مساءً	٢٤ كم	١٧٠ و ١٧٥	زحمة مطر عند المغائرة صباحاً، متممس. رياح شمالية غربية	٤٠	٣.٨٨	٣٠ متر	أرض رملية مستوية. سلاسل جبلية طفيفة. شرفاً وعرباً لا يوجد إلا شجيرات القصب والكثيرة.		
١٤ ديسمبر	٦.١٥ صباحاً ١.٣٠ مساءً	٨.٤٥ صباحاً ٤ مساءً	٢٢ كم	١٥٥	متممس - لا رياح	٤٢		البر عند مستوى سطح البحر	أرض مستوية سلاسل جبلية رقيقة. لا يوجد إلا شجيرات القصب، أنيقا. نثر السهل على البر رقيقة عند الأفق.	نثر رسام، نثر واحدة في رمل ناعم، حرم عشية، نثر - ماء دائم لإذخ القصب. نثر واحدة في صحال، على بعد ٤ كيلو مترات في الجنوب الغربي، وماء لإذخ القصب.	
١٥ ديسمبر	٧.٣٠ صباحاً	٢.٣٠ مساءً	٢٣ كم	١٥٥	رياح جنوبية باردة، قليلة أثناء الليل.	٢٤		٣٠ متر	رمال متحجرة، حجارة نارية شجيرة، روائن مربعة حارة وصفا روبة الغريشة عند الساعة ٨.٣٠ صباحاً	نثر واحدة، ماء لإذخ القصب، نثر حار، رشح حرق في الشرب، وبعد حوالي ١٠ كم من نثر رسام.	
١٦ ديسمبر	٧.٣٠ صباحاً، ٥.٣٠ مساءً	٣.٣٠ مساءً، ٩ مساءً	٣٨ كم، ١٦ كم	١٦٠	رياح جنوبية باردة، متممس	٢٢	٥.٥٥	٩٠ متر على روبة قريبة من قارة الملح	شديدة الاستواء. لا توجد حجارة نارية إلا في حارة بوزقار، رمل متحجر عند الساعة ٢ مساءً.		

الارتفاع	درجة الحرارة		المقنن	الاتجاه	المسافة	الوقفة	البداية	التاريخ
	المتوسط	القصوى						
٧٠ متر عند أعلى مرتفع	٥	٣٢	رياح جنوبية غربية قوية، مشمس	١٣٥	٢٠ كم	٢٠,٣٠ مساءً	٨,٣٠ صباحاً	١٧ ديسمبر
واحدة مسورة، أبار كثير، ووتر سبيل في الوادي								
رياح عصفية، أرض مسطحة أبار بين اثنين والأخر								
عند رز ٤٠,٣٠ الشبيرة								
عند تقاسم رنة عند الله المياحي كلث عمدة								
عجينة، أبار كثيرة، ماء طيب، حار، أبار، ماء ردي في سروف	٣,٣٣	٤٥	حار جداً، لا رياح				في عجيلة	١٨ ديسمبر
مسموية، حصى صغرى، لا يوجد حشائش	٤,٤٤	٣٢	بارد - سحب	١١٠	٢٤ كم	٢,٣٠ مساءً	١٣,٣٠ صباحاً	١٩ ديسمبر
أبار في الشبيرة، والأبار، رنة- الماء على عمق ١٥٠ قدم تحت سطح البركة في معظم أجراء البركة	٥	٤٢	حار، غائم لرياح					٢٠ ديسمبر
عند لسوسى، عند الإحراق، ٤- يوجد ٧ مساحيد، هناك عمر مهم، بيلى صا، وسيلى عمار، زلابة له، ووسسها بيلى، بر عتيه، ولسيح بن عمر، عند الإحراق، ٨٠ وعاد نطمة، ١٥٠								٢١ ديسمبر

التاريخ	البيدة	الوقفة	المسافة	الاتجاه	الطقس	درجة الحرارة		الارتفاع	الملاحظة	الآبار	الموازي والقياس
						الشمس	السموي				
١٤ ديسمبر	في نطاق	٧,٣٠ مساءً	٤٦ كم	١٨٠	عالم، رياح شمالية غربية، مستقيم	٢٦	٦,٦٦		أرض جافة شديدة أو شديدة رمال متحركة، حقل على بعد ٥ كم شرقاً.		
١٦ ديسمبر	٨,٣٠ صباحاً	٧,٣٠ مساءً	٤٦ كم	١٨٠	عالم، رياح شمالية، مستقيم	٣٩	٣,٨٨		جوداء، مستوية، قفر، قعر، كرف المشقة إلى الشرق من خرب زرع، راحح الملاحقة أو		
١٧ ديسمبر	٨ صباحاً	٧ مساءً	٤٤ كم	١٨٠	عالم، مستقيم، رياح شمالية	٢٨	٧,٧٧		جوداء، مستوية، لأم جوداء لشجيرة الشاي، عملة، زرع الحبيبات باقية الشرق على طريق زرع.		
١٨ ديسمبر	٧,٤٠ صباحاً	٧,١٠ مساءً	٤٦ كم	١٨٠	عالم، مستقيم، رياح شمالية	٣٠	٦,٦٦		أرض، مستوية جوداء، نلا جوداء، شت		
١٩ ديسمبر	١٠,٤٠ صباحاً	٦,٥٠ مساءً	٤٦ كم	١٦٥	حار، رياح شمالية، زحمة غليظة الليل	٣٤	٧,٢٢		أرض مستوية جوداء، الوادي الطارح، محقق، رحي شدة شرقاً وغرباً.		
٢٠ ديسمبر	٧ صباحاً	٦,٣٠ مساءً	٤٦ كم	١٨٠	شديد الحرارة	٤٦	٦,١١	٢٢٠ متر	مستوية، أرواح ريمه طمعة، تقى أبرور باقية الشرق على طريق زرع.		
٢١ ديسمبر	١١,٣٠ صباحاً	٧ مساءً	٤٦ كم	١٩٠	حار، مستقيم، رياح شمالية	٣٦	٦,١١		مستوية نلا جوداء شامخة، مناطق من الخصى أو كود.		

التاريخ	البيانية	الوقفة	المسافة	الاتجاه	الطقس	درجة الحرارة		الارتفاع	المنطقة	الآبار	النباتات والحيوانات
						الشمس	الصغرى				
١ يناير	٧ صاعدا	٧ مساء	٤٨ كم	شمال، غائم ١٨° إلى ٢٠°	حار، غائم	٤٢	٥.٥٥	٢٤٠ متر	مستوية، ربيع من البحر الأسود الكرم.		
٢ يناير	٨.٣٠ صاعدا	٢ مساء	١٨ كم	١٣٠	صالح في الصباح، مشمس، لا توجد رياح	٤٢٠	٤.٤٤		تربة قديمة من الحصى والطين الغرينية من رافق زواي، كركي ورمية صخرة، مستنقع بلانج من، لوز، سدر، قنطريون، حجر رملي، زواي، صوف، قطن من الكرازة على الشجرة شجرة البحر الطويل.	الدراس، عكبي حجر الآبار في الغابات بالقرب من السيارات، مياه جيدة، القمح نادر جدا.	
٤ يناير	١٠.٣٠ صاعدا	٦ مساء	٤٠ كم	١٨٠	صالح في الصباح، مشمس، رياح جوية.	٣٧	٣.٣٣	٢٨٠ متر	رنية لينة، عذ لثا، بومات ورنية غريبة، زواي، حصى عذ لثا، ١٠ صاعدا.		
٥ يناير	١٠.٣٠ صاعدا	٣.٣٠ مساء	٢٨ كم	١٨٠	بارد، ريت جوية، شمس، جارية	٢٦	٤.٤٤	٣٠٠ متر	حجر رملي، بولي أسيون، أكسيد حديد، وصحور عجمية، كثبان رمية، كرمزة	نادر، كرمزة، بولي أسيون، أكسيد حديد، وصحور عجمية، رياح، وله صوم سحبات المسمويع	لا توجد زواي، الشمس عجمية، البولي حجر رملي، أسيون.
٦ يناير	في سميعة				بارد، صحوة، بلا	٣٣	٢.١٧٧	٢٨٠ متر	واحدة بولي، بولي ١٠ كم، جيل، صلب، طويل ١٥ كم، عجمية، واحدة، زواي، كركي، رمية		
٧ يناير	في سميعة				رياح، لا رياح، حار	٤٣	٣.٣٣	(وقوف) الكثبان الرمية)	صخرة، سميعة، مياه، كركي، أقي، سطل، أقي، بولي، حجر رملي (دون)، صوف، قطن من الكرازة على الشجرة البحر الأحمر، بولي.		

الارتفاع	المنطقة	الإطار	الزوايا والفتاب	درجة الحرارة		الطقس	الاتجاه	المسافة	الوقت	البداية	التاريخ
				الصغرى	العظمى						
٨ سابر	كثبان رملية كبيرة، خروجان من البحر الرملي الأسود شرفي الطريق للمسيح نحو سب الغابة، أو منظر الخاقية.	٤٦٠ متر		٣٠,٣٨	٤٥	حار . لا يوجد رياح	١٣٠	٢٥ كم	٥ مساء	٨,٣٠ صباحا	
٩ سابر	كثبان رملية كبيرة، أعلى، رب صحري ويعسمى الشوم،	٥٠٠ متر (على الكثبان)		٣٠,٣٣	٣٠	نزد - رياح شمالية شرقية	١٣٠	٢٥ كم	٣ مساء	٨ صباحا	
١٠ سابر	كثبان صغيرة تندر حفا، حقل يوت في الشوم، الكثبان العرب الكثبان الزمنية	٥٢٠ متر (عنى) الكثبان لرملية)		٣٠,٨٨	٤٥	شديد الحرارة	١٣٠	٤٤ كم	٦ مساء	٦,٣٠ صباحا	
١١ سابر	حقل ارض صحري، (ثوب) الكثبان)	٥٠٠ متر		٥,٥٥	٤٣	حار حاد	١٣٠	٣٨ كم	٤ مساء	٦,٣٠ صباحا	
١٢ سابر	زوايا صغيرة، الصحح مرسى سككهم بر، مسند صحري.	آثار هوارى، ماء جد		٥	١١٢ في الطبيعة	شديد الحرارة					
-	-	-	-	٤٠,٤٤	٣٠	بارد					١٣ سابر

التاريخ	البيانية	الوقتية	المسافة	الاتجاه	الطقس	درجة الحرارة		الارتفاع	المنطقة	الألوان	الزوايا والقياسات
						الصغرى	العظمى				
١٤ من سبتمبر	١١ صباحاً ٣ ح	٤ مساءً الكفرة	٢٠ كم	١٤٠	حار، رياح شرقية، مشمس، لطيف من جنوب آخر رياح جمايلة.	٢٣ متوسط	٥ متوسط	- ٤٥٠ متر في تاج	الكفرة: تاج حتى قمة صخرة تصل على الوادي. يوجد حتى في مناطق بعض طول الوادي إلى ٦٨ كم. يزداد جوده من ١٠, ٥ كم. يتوسطه قصب المصيرية من الشمال والجنوب والشمال. يوجد غرد أيضاً بالحلج - (أشجارها من ١٠٠ و ١٦٠ قدراً). يوجد الوادي إلى أرما السطح في الجهة الغربية والثوية الغربية. توجد بساتين حتى في بوماء ووكار وروكي، الحبوب، طلائع، طلبة، وجد أيضاً بعض الحريمية الطبخ في بساتين وروكي هناك رقاتها إلى ٢٠, ١٥, ١٠ بريرة بعض البساتين والقمح والشعيريات، القصب، والحبوب والكرتون والبن والأكل، وأوسط الشوك الحوري توجد مائة في بوماء والحبوب، وتر الحاراء، ووسطها مائة: كرفس، في كل من البوماء وروما وحاك ألسا القصب البوماء.	توجد زاوية الأسياسة، هذه البنادق، مسند بوماء، وترجد مساحات، حتى مساحات صالحة الحجازي على الشيح يوجد ٣٠ من الأحيوان. توجد زاوية قديرة في الحبوب. الشيح عند المسامدة، قبة مات البهدي، مسند كجر، ٣٠, ٢٠ من الأحيوان.	أما في تاج حتى الزاوية منها ١٢٠ ددة، ماء حديد، لا توجد عينون في الوادي. أكبر زياء عنه حتى عمق ١٥ قدم تحت سطح التربة. أما في كل مكان. في الحرف، بلاتج، روكي، بوماء، بوماء، طلائع، طلبة، مطبقة ري صالحة حتى حتى من السواد حتى والشوكات

الارتفاع	درجة الحرارة		الطقس	الاتجاه	المسافة	الوقت	البدائية	التاريخ
	الصفوى	العظمى						
أرض حرده عذر مستوية، سلاسل من الحجر الرمسي، تضيح وعلا عبد الواحة.	٢٠٧	٣٦	بارد . رياح شمالية	شمالي ترون الى جزوى تربعل شرفي ٣ كم الى أوردن.	قوة على بعد ٣٥ كم الساعة ١١ مساءً	الى جزوير عند الساعة ٥ مساءً	٢٦ يناير	
جبل السرايا وقارة جوزى في الغرب على بعد ٢٦ كم من أجد . ترون أضيق سلاسل حجرية من الحجر والأجر . تاورينا ثلاثة عائلات أرضية على الطرف المؤدية من زعفر الى قارة أيلودنا، وهي وقارة السريص . بلاد صغير.	١١١	٣٠	بارد . رياح شمالية.	٢٤٥	٤٠ كم	٦ مساءً	٨ صباحا ٢٥ يناير	
حسا في جبال هواس كلاص صخرية متجاورة ببرلج ارتفاعها ١٠ ١٠٠ و ١٨٠ قاصد.	٢٠٢	٣٣	بارد . رياح شمالية	٣٤٥	٤٥ كم	٨٠٣٠ مساءً	٧ صباحا ٢٦ يناير	
في جبال هواس أرض مستوية ١ كم من سلسل جص . حتى أورد أرض حجرية	١٠٦٦	٣٢	بارد - رياح شمالية	٣٤٥	٤٥ كم	٥٠٤٥ مساءً	٤٠٣٠ صباحا ٢٧ يناير	

التاريخ	البداية	الوقت	المسافة	الاتجاه	المقصد	درجة العوارق		الارتفاع	المنطقة	الأبار	الزوايا والقياسات
						العملي	الصغرى				
٢٨ يناير	٦ صباحا	٢ مساء	٣٢ كم	٣٤٥	سمسم شمالى عربول	٤٣	١, ١٦	٣١٠ متر	توجد الواح حجرية مسبوكة بخلف مسبوكة حواشى الخيمة الثانية موحات رملية، ثانيا مسبوكة حواشى الخيمة الثالثة فى الشرق.	وفاك، م. جدي عن ١٤٨٩ م عرض لمر ١/٢٣٥ م جدي ريف رمل طائر حرد عود حجرية فى الشمال وخص فى مكان سمير المسبوكة جدي عود ليل مدور من الحجر لخص لرس، و: حجة لخص و لرس طائر لخص رمل لخص ورس لمر.	
٣٠ يناير	٧ صباحا	٧ مساء	٥٠ كم	١٠	بارد - ربيع شمالية عاصمة رمنية	١٢	١, ٦٦	٣٤٠ متر	كثبان رملية عريضة، مسبوكة الظفر ومتحدرة - سلاسل جبلية فيها - يتصل بال تكون امتدادا المكشوف التى دور رمل وحق فاضل، الذى يربط بين كسان مسبوكة إلى رمنية.		

التاريخ	البداية	الوقفة	المسافة	الاتجاه	المقاس	درجة الحرارة		الارتفاع	المضيق	الآبار	الزوايا والقياسات
						الطقس	الصغرى				
١٣ سبتمبر	٧,٣٠ صباحاً	٨,٣٠ مساءً	٥٢ كم ٢٢٤	٦٠	شديد الحرارة. لا يوجد رياح.	٥٠	٢,٢٢	-	كانت رملية صخرية كما تم ملاحظة حفرية غير مستوية، أحجار بر. أخرى والأخرى. شاهدنا كانت مهيبة عند الظهر في الشمال الشرقي.		
١ فبراير	٧,٣٠ صباحاً	٢,١٥ مساءً	٢٨ كم	٦٠	رياح جنوبية غربية	٤٣,٣٣	صفر	٢٨٠ متر	مهممة: مضيق من "الجب" بين كيان رملية كبيرة تمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. حارات فارغة.		
٢ فبراير	١,٣٠ صباحاً	٧,٣٠ مساءً	٥٤ كم	٣٦٠	رياح شمالية غربية	٤٠,٥٥	١,١١		رملية مسطحة بين النيران، حتى صغير، لا يوجد نباتات		
٣ فبراير	١,٣٠ صباحاً	٧ مساءً	٥٢ كم	٣٦٠	شديدة الحرارة	٥٢,٢٢	١٠,٥٥ سرف البارومتر		رملية مسطحة بين النيران، حتى صغير، لا يوجد نباتات		
٤ فبراير	٦,١٥ صباحاً	٦,٤٥ مساءً	٥٠ كم	٣٦٠	شديدة الحرارة. سمة خفيفة	٥٠,٥٥	٣,٣٣	حري قياسي الارتفاعات من أعلى الشاطئ في مضيق البحر، الساعة الرابعة بعد الظهر.	شاهدنا كان ماروول الرملية في اتجاه الغرب عند الساعة العاشرة صباحاً، داخلنا مضيق الكبان الشمالية عند الساعة الرابعة بعد الظهر.		

التاريخ	البداية	الوقت	المسافة	الاتجاه	الحقل	درجة الحرارة		الارتفاع	المنطقة	الابار	الترابيا والقياس
						الصغرى	العظمى				
٦ فبراير	٦ صباحا	٦,٣٠ مساءً	٥٤ كم	٣٦٠	رياح جنوبية شرقية	١,٦٦	٤٦,١١		سلاسل رملية كبيرة تمتد من الشمال للجنوب، مناطق مستوية فيما بين "الطلف" والجوار.		
١٠ فبراير	٦,٣٠ صباحا	٧ مساءً	٤٨ كم	٣٦٠	رياح شمالية شرقية باردة	٢,٢٢	٢٦,٦٦		كثبان رملية قريبة من بعضها البعض - حطب أحضر بين الشجيرات الأخرى.		
٨ فبراير	٦,٣٠ صباحا	٦,٣٠ مساءً	٤٢ كم	٣٦٠	رياح شرقية	٢,٢٢	٣٦,٢٢		كثبان رملية مع حطب "أحضر".		
٩ فبراير	٦,٢٠ صباحا	٦,٢٥ مساءً	٤٨ كم ١٠ كم ٢٨ كم ١٠ كم	٣٦٠ ٤٢ ٨٠	تزايد الحرارة، خالي من الريح	١,١١	٥١,١١		كثبان رملية، حطب كبير، مناطق من الخضر الأسود والتسحور الرمادية، حثبان مسحقات، وصلات هابطة بارتفاعه عند الساعة ٤,٣٠ مساءً، وهابطة بارتفاعه عند الساعة ٥,٣٠ مساءً، قارة الميادى عبارة عن صحرة كبيرة عند الطرف الشرقي من هابطة بارتفاعه	هابطة بارتفاعه أدغال قصيرة وعرة، وعلف، وتير مزدوجة.	

التاريخ	البدائية	الوقوفة	المسافة	الاتجاه	الطقس	درجة الحرارة		الارتفاع	المنطقة	الإبار	الزوايا والقياسات
						المتوسط	الصغرى				
١٠ فبراير	٧ صباحاً	٢٠,٣٠ مساءً	٣٤ كم ٢٩ كم ٥ كم	٨٤° ٤٨°	رياح جنوب شرقية	٤٨,٨٨°	صغير		شوردة من الشجر الزيتوني ونباتات التوت. مستقل صخرة عمر مسبوكة. وصفا هائلة يو طلال، وهما ثلاثت، عند الساعة ١١ صباحاً.	وصفا جعير	زاوية كروية من زوايا سدلي أشبهت من وقياسات أخرى.
١١ فبراير ١٣ فبراير	في جعير في جعير	جعير جعير							واقي جعير الشاور. ثلاث جعير. زراعة أشجار الزيتون. كثر كثرة وقسم عاليه من الشجر الزيتون.	أبرز في وادي جمعيت - ثناء دخ وخرج من السطح. سطوح أخرى فالتزيينات والقنوات الاصطناعية في الحدائق	مسجد كبر. كنائس ومجالات إقامة لعدد ٢٠٠ هائل. شغل الأمام سدلي التيهه وصفت سبح الزاوية.
١٣ فبراير	ساعة السفر واسعة سيرة										

ملاحظات خاصة بدليل خط السير

الملاحظة أ :- يجب عدم النظر إلى الروابي الرملية الثلاثة, كلب المتهمة, الحميمات, والمازول على أنها علامات أرضية محددة , لأن هناك جدلاً كبيراً بين البدو حول هوية هذه الروابي وموقعها .

الملاحظة ب:- تسكن قبيلة - المغاربة Mogharba واحة إجدابيا التي فيها عدد قليل من الزوايين, أما واحة العجيلة فتسكنها قبيلة العجيلة , أما واحة جالو فتسكنها قبيلة المغاربة , أما واحة تيسيربو, وواحة بسيمة هي وريانة والكفرة فيسكنها الزواويون Zouia الذين يتخللهم عدد من التبو. أما الفواخير فيسكنون في واحة زوتينه zuetina؛ وفي واحتي سلوك وغمنيس ghcmynes حيث يعيش الأواغيز.

يقدر عدد سكان الكفرة التيبين وبسيمة بحوالى ٣٠٠٠ من الزوايين وعدد يتردد بين ١٠٠ و ١٥٠ من التبو. يضاف إلى ذلك عدد كبير من العبيد الزنوج من كل من واداي Wadai ودارفور. ولا توجد قبيلة في جغوب وهي مركز ديني لإخوان السنوسى.

الملاحظة ج :- المسافة المسجلة بالميل هي المسافة التي سرناها بالفعل . قد يتحتم فى مناطق الكتبان الرملية إجراء بعض التحويلات الصغيرة التي تمكن من جعل المنطقة التي جرى اجتيازها على شكل خط مستقيم على الخريطة .

الملاحظة د :- يرجع فشلنا فى الوصول إلى تيسيربو فى الرحلة الجنوبية إلى الحقيقة التي مفادها أننا فشلنا فى السماح بحدوث تباین بين الشمال المغناطيسى والشمال الحقيقى , فى الوقت الذي بالغنا فيه فى المسافة التي قطعناها . وفى الوقت نفسه , وبعد مقارنة الخريطة المنشورة فى هذا الكتاب بخرائط المساحة المصرية

المنشورة في العام ١٩١٢ والتي أعيدت طباعتها في العام ١٩١٥ , نجد أننا سرنا خلال المنطقة الخضراء المزروعة وتجاوزنا القصبيّة Kusebeya كما هي موقعة على خريطة العام ١٩١٥ , دون العثور على أية علامة أو إشارة من العلامات أو الإشارات الدالة على تيسيربو . كشفت حركة البوصلة عن خطأ يقدر بحوالي ٢٠ ميلاً في المرحلة الأخيرة من مرحلة الوصول إلي جغبوب - بلغت المسافة التي قطعناها بخلاف الدوران حول وادي الكفرة , حوالي ١٠٠٩ أميال , وعليه فإن الخطأ الذي يقدر بحوالي ٢ في المئة جرى توزيعه على الرحلة كلها .

الملحق ب ملاحظات عن تاريخ الإخوانية السنوسية

ولد سيد محمد بن على السنوسى بالقرب من مستا غانم Mastaghanem فى الجزائر فى العام ١٧٨٧ الميلادى . كان سيدى محمد واحداً من أولاد سيد يوسف , وهم من البربر , لكنهم من نسل النبی ﷺ من خلال إدريس مؤسس الأسرة المالكة المراكشية (المغرب). ومن المسلم به أن بن على أخذ اسمه من رجل طاهر توفى فى العام ١٤٩٠- سيدى محمد بن يوسف بن عمرو بن شات shat السنوسى , من بن سنوسى- لكن يقال أيضا إن الأسم يشير فقط إلى جبل سنوس الذى كانت تعيش فيه عائلته. وبعد أن تشاجر محمد بن على شجاراً خطيراً مع ابن عمه , انتقل إلى فاس Fez فى العام ١٨٢١ ودرس فى جامعة القبروان الشهيرة . كانت مراكش فى ذلك الوقت محلاً لميلاد كثير من الجماعات الدينية , وطوال السنوات السبعة أو الثمانية التى أمضاها محمد بن على فى مراكش , انضم الرجل إلى الطريقة القادرية , والطريقة الشاذلية , والطريقة الجازوية , والناصرية والطريقة الدرجانية , فى الوقت الذى ذاع فيه صيت نقشفه وأنه كان يطمح إلى إقامة مذهب من المذاهب الإسلامية على أساس من الإسلام البسيط الذى يقوم على الالتزام بنصوص القرآن وتعاليمه , وأن يكون ذلك الأساس خالياً من الاستطادات والإضافات الحديثة كلها .

عرض مولاي سليمان , إمبراطور مراكش الترقية على سيدى محمد بن على لكن الرجل رفض هذه الترقية وعاد إلى الجزائر فى العام ١٨٢٩ الميلادى, حيث قام بتدريس النحو والفقه فى لقواط Laquat. تزوج محمد بن على فى مساد Masad امرأة من بني توابة Tuaba المخلصين له, الأمر الذى يدل على أن الرجل أصبح له عدد من الأتباع والمريدين . غادر محمد بن على الجزائر عشية

الاحتلال الفرنسي لها , وقوي تطرف الرجل وتشدده , بلا أدنى شك , عندما وجد وطنه في أيدي الكفار , وعلي الرغم من أن تعاليم الرجل كانت تدّين كلا من الأتراك والمسيحيين , فإن كراهيته الشديدة كانت تنصب على المسيحيين .

بعد أن طلق محمد بن علي زوجته في بوسعاده Bu Saada , راح يتجول في شمال أفريقيا داعيا إلى نظريته الصوفية عن الإسلام الخالص إلى أن وصل القاهرة , التي قرر فيها مواصلة دراساته في جامعة الأزهر . وفي جامعة الأزهر , أكسبه نقشفه , وتشدده وكراهيته للتجديد كثيرا من الأعداء من بين العلماء , وفي العام ١٨٣١ الميلادي أدان الشيخ الحامش El Hamish , ذلك العالم المرموق , تعاليم محمد بن علي .

وعندئذ انتقل محمد بن علي إلى مكة , ليتلمذ على يدى سيدى أحمد بن إدريس الفاسي , العالم الديني الشهير , رئيس الطريقة القادرية , التي لها تأثير كبير في مراکش (المغرب) . وعثر سيدى بن علي في مكة في نهاية المطاف , على عقلية مماثل لفكره . وسافر الأستاذ والتلميذ إلى اليمن , وتوفي الأستاذ خلال هذه الرحلة , بعد أن خلف وراءه لأتباعه تعليمات تقضى بنقل ولانهم لتلميذه الذى وجد نفسه رئيسا لجماعة محررة من المتقشفين المتحمسين - الطريقة المحمدية . لقيت تعاليم سيدى محمد بن علي نجاحا كبيرا بين القبائل البدوية في الحجاز وفي اليمن , وسبب ذلك أن أهل مكة آثروا اتباع تلميذ آخر من تلاميذ إدريس , وهو محمد بن عثمان المرجاني , وهو من الأشراف . بعد أن أسس سيدى بن علي زاويته الأولى في جبل أبو قبيص , قام برحلة ثانية إلى اليمن التي أتصل فيها بالوهابيين , تلك الجماعة التطهرية التي تأسست في العام ١٧٤٦ الميلادي . وفي كل الأوقات كانت كراهيته للمسيحيين , والأتراك على حد سواء ومعارضته للروح الوسطية الحديثة , تروق للقبليين المترحلين أكثر من سكان المدن المستقرين .

وعليه وعندما أضطرته معارضة كبار المشايخ الذين أعربوا عن شككهم في أصولية هذا الرجل، إلى مغادرة مكة في العام ١٨٣٨ الميلادي ، راح الرجل يقيم سياسته بصورة محددة على الابتعاد عن مراكز الحضارة ، وبذلك يمكنه تحاشي الاتصال بتلك الدول الواقعة تحت الحكم أو الحماية الأوربية ، في الوقت الذي راح فيه يوحد مختلف القبائل البدوية على شكل منظمة دينية هائلة يتحتم أن تشمل في نهاية المطاف على أعراف الجنوب الزنجية ، وتمتد على شكل خط مستمر من الحجاز حتى واحات توات Tuat .

وأثناء مروره عبر القاهرة ، قصد الرجل واحة سيوة التي مرض فيها مدة ثمانية أشهر ، ثم ذهب إلى جالو، وإلى سكيخرا Skekherra التي التقى فيها ولأول مرة الزواويين ، الذين كتب لهم أن يلعبوا دوراً هاماً في مشروع محمد بن علي الخاص بتجديد الإسلام ووحدته ، وسبب ذلك هو أن قبيلة الزواويين المحاربة كان الناس يخشونها في سائر أنحاء صحاروات الشمال، وبعد أن غلب الزواويون التبو في واحتي تيسيربو والكفرة ، أصبحوا يشكلون رابطة قوية مع كل من دارفور وواداي .

تأسست في العام ١٨٤٤ الميلادي أول زاوية أفريقية في مدينة البيض El Beda في جبل أخضر، التي ولد فيها أكبر أولاد بن علي في العام التالي ، والتي دخل الإخوان (اتباع الطريقة) منها إلى برقة وطرابلس ، وفزان ، بل إنهم وصلوا إلى تيبستي Tibesti ، التي أقاموا فيها الزوايا وراحوا ينشرون فيها نظرية زعيمهم. ويتحدث الناس في بعض الأحيان عن السنوسيين بطريق الخطأ، على أنهم مذهب، لكنهم لم يحدث في أي وقت من الأوقات أن كانوا أكثر من جماعة متقشفة، تعارض الترف بكل أشكاله والاحتفالات بكل صورها، ولا تتسامح مع أي اتصال مع يهودي أو مسيحي أو كافر. ولما كانت القوة الروحية والقوة الدنيوية في الإسلام مترادفتين بالضرورة، كان الناس ينظرون إلى سيدى بن علي في أواخر

أيامه باعتباره الحاكم الفعلي للمناطق الداخلية من برقة، لكن هدف الرجل لم يزد عن كونه ماسونية مسلمة، دينية في المقام الأول لكنها تعتمد في ثرائها وسلطانها السياسية على تنظيم للطرق التجارية الصحراوية القديمة التي تأتي عن طريقها تجارة السودان إلى موانئ البحر المتوسط في الشمال. من هنا كانت زوايا محمد بن على تبنى دوماً في نقاط استراتيجية يتحتم على القوافل التوقف عندها بغية الإفادة من الآبار. وبينما كانت تسقى الابل كان الشيخ السنوسي يرفه عن التجار، الأمر الذي كان يوفر له أنسب الفرص للدعاية، كانت الزوايا التي هي بمثابة كليات وأسواق في ذات الوقت، تستضيف المسافرين، أيا كان، لمدة ثلاثة أيام مجاناً، ومع ذبوع صيت السنوسي بين القبائل بصورة متدرجة، جرى تعيين الإخوان لمرافقة القوافل المهمة لمنع هجوم البدو عليها. من هنا انتقلت نظرية سيدى بن على فى نهاية المطاف إلى كل من كانو، وبوركو، والي كوماليس Comalis والسنغال وجامبيا بدون وجود تعاليم مكتوبة وفى واقع الأمر، لم تكن هناك أية طقوس سنوسية خاصة، كما أنى لم أسمع أية صلوات غير عادية أو أي طقس غير عادي يستعملونه فى مساجدهم. وكان استعمال الذهب أو المجوهرات أو أي شكل من أشكال الترف كلها أموراً ممنوعة عند السنوسيين وكذلك أيضاً التبغ والمسكرات الكحولية .

تتمثل الأفكار الأساسية التي تقوم عليها الإخوانية فى المساواة والبساطة والانعزال الكامل عن كل التأثير الخارجى، يزداد على ذلك أن الشيوخ الزواويين لهم سلطة دنيوية كبيرة نظراً لأن دعوى سيدى بن على كانت موجهة أصلاً للبدو، الذين تشجعوا على تسوية مشكلاتهم فى الزوايا القريبة منهم، لكنهم كانوا مسئولين أيضاً عن التعليم، وإلى يومنا هذا تعد الشهادة التي يحصل صاحبها عليها من جغوب أو الكفرة، شينا ثمينا فى العالم الإسلامى .

فى العام ١٨٥٢ عاد سيدى بن على إلى مكة حيث استطاع نشر نظريته بين الحجاج الذين يأتون من كل أنحاء العالم، والتي التقى فيها أيضاً عقيل الزواوى.

بعد أن أنشأ سيدى بن على ستة زوايا فى كل من الحجاز وحده، عاد عن طريق مصر والعقبة إلى إيزلات Ezzlat، التى بقي فيها إلى العام ١٨٥٥، ومن إيزلات أرسل بعض الإخوان لبناء زاوية فى جغبوب. واقع الأمر أن ذلك كان من باب التحوط طبقا لسياسته المعتادة، التى تنص على عدم الدخول فى صراع مباشر مع الحكومات القائمة، نظرا لأن تركيا بدأت تستاء من القوة السنوسية فى شمال أفريقيا. كانت تركيا قد ساندت هذه الجماعة فى البداية، بأن أعطتها امتيازات مهمة من قبيل قطع الأرض، وإعفاء الزوايا من الضرائب. ومع ذلك، لم تستطع تركيا كسب ود سيدى بن على ومنعه من إدانة التسيب الدينى التركى، وفي العام ١٨٥٢ الميلادي، أفتى سيدى بن على بعدم تدين السلطات. وأصبح من الضروري جدا ل سيدى بن على أن ينقل مركز رئاسته من الأراضي الخاضعة اسما للولاية العثمانية. انتقل سيدى بن على إلى جغبوب فى العام ١٨٥٦ ونقلا عن دوفيمير، فقد حول الرجل الواحة الصغيرة غير المهمة إلى مركز مهم للنشاط السياسي والتجارى. وقام وفد من الزواويين برئاسة عبد الكريم هلايج Helayig، وجاب الله وعقيل بزيارة سيدى بن على فى جغبوب وعرضوا عليه ولاء القبيلة له. ولابد أن سيدى بن على قد أدرك الأهمية الاستراتيجية للكفرة بوصفها قاعدة للدعاية بدءا من السودان إلى بحيرة تشاد، نظرا لأنه قام على الفور بإرسال أربعة من الإخوان لنشر تعاليمه خلال الواحات الأربعة. الرسالة التى كتبها سيدى بن على إلى واجنجا Wajanga فى ذلك الوقت، والتي أوردناها ضمن الملحق د، تعد واحدة من أساليب الرجل التبشيرية الخاصة.

ومن المحتمل أيضا أن يكون سيدى بن على فكر فى مزيد من الانسحاب من منطقة النشاط التركى، ودليل ذلك أن الرجل أمر ببناء زاويتين بالقرب من غدامس، لكن الرجل وافته المنية بصورة مفاجئة فى العام ١٨٥٩.

كان ولدا سيدى بن على، محمد المهدي ومحمد الشريف صغيرين إذ كان عمر الأول ستة عشر عاما والثاني أربعة عشر عاما، ولذلك أثرت أغلبية الإخوان انتخاب سيدى عبد العلى بن أحمد بن ادريس الفاسى رئيسا لهم. وجرى فى نهاية الأمر إصدار قرار لصالح محمد المهدي لأن الإخوان تذكروا أن سيدى بن على كان قد طلب ذات مرة، من ابنه الأكبر أن يحل محله عقب دخوله مسجدا من المساجد، إذ سلم بنفسه الحذاء الذى خلعه، ولذلك فسّر الإخوان هذا العمل على أن سيدى بن على قد اختار ولده الأكبر ليكون خلفا له.

هناك نبؤة قديمة مفادها أن المهدي الذى سيعزو العالم من أجل الإسلام وأنه سيبلغ سن الرشد فى اليوم الأول من شهر المحرم من العام ١٣٠٠ الهجري، بعد أن يكون ولد من أبوين يدعيان محمدا وفاطمة، وبعد أن يكون قد أمضى سنوات عدة فى العزلة.

فى اليوم الثانى عشر من شهر نوفمبر من العام ١٨٨٢ وبعد فترة قصيرة أمضاها فى رعاية سيدى عمران و سيدى أحمد الريفى، الذى ظل بمثابة مستشاره الأمين، يكون ولد سيدى بن على قد حقق أوليتى كل هذه الشروط.

كانت هناك فى ذلك الوقت ٣٨ زاوية برقة وسرت Syrtc و ١٨ زاوية فى طرابنس كانت هناك زوايا أخرى فى سائر أنحاء الجزائر، وتونس وفزان، لكن مراكش (المغرب) لم يكن فيها سوى خمس زوايا فقط، ويحتمل أن يكون ذلك سبب المعارضة من قبل جماعة أخرى أقوى هى إخوانية أو طريقة المولال الطيب Moulal Tayyeb. وعن طريق الصحراء الغربية وتمبكتو - التى بنى الإخوان فيها زاوية - يكون الإخوان قد أخترقوا السنغال التى ربما وجدوا فيها تربة خصبة لتعاليمهم، نظرا لأن الحجاج السنغاليين قطعوا فى العام ١٨٧٩ الميلادى مسافة تقدر بحوالى ٤٥٠٠ كيلو متر عبر أفريقية لزيارة المهدي فى جغبوب، وعادوا إلى بلادهم دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الذهاب إلى مكة. وهنا يمكن القول - بصورة مؤكدة - إن

النفوذ السنوسي كان سائدا في المنطقة من إير Air إلى جوندا Gonda, ومن بحيرة تشاد إلى واجنجا وأيضا بين الثلاثة ملايين نسمة هم الذين كانوا يعيشون في وادي. كان من عادة سلطان وادي أن يعيد إلى "أخيه ورفيقه الحاكم" سيدى بن على بحماية قوافله المتجهة إلى الشمال , الأمر الذى أدى إلى تقوية هذه الصداقة عن طريق الهدايا الكثيرة من العبيد والعاج .

لم يكن تأثير تلك الاخوانية قويا في مصر تحت أى ظرف من الظروف, وذلك على الرغم من وجود سبعة عشر زاوية في أنحاء مصر باستثناء البيت الرئيسى في جغبوب. فى نفس الوقت كانت هناك زوايا أخرى فى كل من جدة ومكة والطائف وما لا يقل عن تسع زوايا أخرى فى الحجاز واليمن. يقدر دوفيرير Duveyrier عدد الإخوان التابعين للإخوانية بما يتردد بين ١٥٠٠٠٠٠ و ٣٠٠٠٠٠٠ عندما بلغ المهدي سن الرشد. كان كل واحد من هؤلاء الإخوان مبشرا نشطا , وكان كل واحد منهم على استعداد لجعل نفسه , بناء على أوامر من رؤسائه, جنديا لمقاتلة الكافر المكروه. من هنا يمكن القول : إن القوة التى وضعت بين يدى الشاب محمد المهدي كانت قوة كبيرة. ربما يكون قد أعلن حربا مقدسة , وأصبح له مستقبلٌ عمليٌ مدهشٌ وذائع الصيت شأنه شأن النجار المتواضع فى جزيرة أبا Abba فى نيل السودان , ولكن الرجل أثر تقوية مركزه فى جغبوب وأن يواصل سياسة والده التى تقضى بالعزوف عن مراكز الحضارة وتجنب الدخول فى عدااء صريح مع الدول الأوروبية. والذي لا شك فيه , أن سيد بن على كان مسئولا عن المقاومة الصلبة من جانب لغوات Laghuat فى الجزائر فى العام ١٨٥٢ الميلادى, وبقيادة محمد بن عبد الله, الذى انضم إلى الاخوانية أثناء قيامها بالحج إلى مكة, كما يعد سيدى بن على مسئولا أيضا عن قسم كبير من معارضة الاحتلال الفرنسى لكل من نيجيريا والسنغال وجامبيا. ويمكن القول أيضا إن

المهدي كان له من حيث الشكل - أن لم يكن ذلك على المستوى الإمبراطوري - منطقة نفوذ بين الأعراق الزنجية الموجودة في المنطقة ما بين وادي وبحيرة تشاد، وهذا هو السبب وراء استعداده في السر لمعارضة الاختراف الفرنسي لنيجيريا، لكن انسحابه إلى الكفرة في العام ١٨٤٩ الميلادي، يكشف عن تصميم الرجل على تحاشي أي شكل من أشكال العداء المعلن.

كان محمد المهدي أعظم شخصية في الإخوانية، وفي عهده وصل السنوسيون إلى ذروة قوتهم. ولما كانت مسأله قبول تعاليمه تعنى دفع ضريبة العُشور ، فإن زعيم الإخوانية في تلك الفترة كانت تحت تصرفه ثروة كبيرة. وبعد أن أرسى تجارة رابحة في العبيد والأسلحة فيما بين الجنوب والشمال، كان يمتلك أيضا نواة لجيش من الزنوج، ومع ذلك كان يستهدف الاختراق السلمى ولا يركز على الاحتلال العسكرى، كانت زواياه بمثابة أماكن اجتماعات محايدة يجرى فيها تسوية المشكلات سواء كانت قبلية، أو تجارية أو شرعية أو دينية بواسطة سلطات غير منحازة. كان إخوانه قضاة ومبشرين أيضا. كانوا يحددون مناطق القبائل، ويحددون أيضا الحقوق في المياه وفي المرعى، وكانوا أيضا يطبقون العدالة القرآنية على كل من يخرج على قواعد الأسلام.

ليس من العجب في شيء ، في ظل التأثير الموكد والنفوذ الحقيقى لمثل هذه الاخوانية، أن يقوم بعض الرحالة الأوربيين بفعل تأثرهم بالأخطار التى نجوا منها بنقل أفكار مبالغ فيها عن هذه الاخوانية ، وقد غاب عن أذهانهم أن هذه الطريقة لا بد وأن تكون مبنية على الترابط، وأنها انتشرت في بلدان مختلفة الأعراق واللسان والعادات والتقاليد، ونظام الحكم، وأنها مطوقة من جميع الجوانب بدول أوروبية .

بقي المهدي - طوال مدة حكمه التى دامت ثلاثة عشر عاما - في جغسوب بمنأى عن روح التمرد التى نشطت في العالم الإسلامى.

وعندما أرسل مهدي السودان نائبه لطلب المساعدة في طرد الإنجليز من مصر في العام ١٨٨٤، أعرب مهدي جغوب عن استيائه عندما قال: " قل لسيدك إننا ليس بيننا وبينه ما يربطنا به. ويتعين عليه عدم الكتابة إلينا بعد اليوم لأن طريقته خاطئة . ونحن لا نستطيع الرد على هذه الرسالة".

أدى انتقال المهدي إلى الكفرة إلى أن أصبح في وضع شبه حصين يستطيع منه التحكم في نصف الطرق التجارية الخاصة بالقارة . تمثل كبار مستشاري المهدي في أستاذه القديم أحمد الريفى، وولده محمد الشريف، هو ومحمد بن حستان البكاري. وترك المهدي بن أخيه محمد العابد، وكيلا له في جغوب .

أصبحت الكفرة في ظل حكم الزواويين أبرز مركز للعصابات على مستوى الصحراء الكبرى استبدل سيدى المهدي بنظام الجمارك، منظومة جديدة فرضتها على كل السلع والبضائع التجارية التى تمر من خلال الكفرة.

بنى سيدى المهدي بلديتي الجوف وتاج، وبنى زاوية كبيرة في كل منهما، واستطاع في غضون سنوات قليلة تحويل الواحة إلى مركز حضارى مكثف اكتفاء ذاتيا ، ومركز لرئاسة الإخوانية، كان يزوره عدد كبير من " الإخوان" من سائر أنحاء أفريقيا.

ومع ذلك، يجب أن نقر أن شمال أفريقية، لم يكن بصورة مؤقتة، مجالا لنشر وتوسع تعاليم سيدى المهدي. وهذا يعني أن أية محاولة من جانبه لاستعمال القوة مع فرنسا، أو تركيا أو مصر يمكن أن تسبب له مشكلة كبيرة، وعليه ركز سيدى المهدي جهوده على كل من بوركو Borku ووادي وكانم وعربي السودان. أوفد سيدى المهدي إخوانه إلى هذه المناطق ومعهم تعليمات لتسوية المنازعات بين القبائل، وبذلك يمكن إقناعهم بالاعتراف بسلطة السنوسى، وبناء زوايا فى تلك الأماكن، مما يساعد على التحكم فى الآبار والأسواق. وتأسيا باتباعه ومريديه، غادر سيدى المهدي الكفرة فى شهر أغسطس من العام ١٨٩٩ بعد استقباله للنائب

على دينار، الذي حمل له ولاء سلطان دارفور للإخوانية. وبعد مسيرة بطيئة دامت ثلاثة وستين يوماً، وصل سيدى المهدي إلى غيرو Ghiru التي راح منها يوجه المعارضة للاختراق الفرنسي من بحيرة تشاد.

جاءت هذه الخطوة بمثابة خرق مباشر للسياسة التي اتبعتها سيدى بن على، والتي سبق أن التزم بها سيدى المهدي.

تحولت الجماعة إلى قوة عسكرية في غمضة عين، فقد كان السنوسيون يعتمدون في ثروتهم ونفوذهم على استقرار منظماتهم التجارية.

كان الفرنسيون أول الأوربيين الذين هددوا تجارة السنوسيين الراجئة في العبيد والسلاح. جاءت أول شحنة بضائع من أسطمبول وجرى إنزالها في طبرق وبنغازي. ونظر لأن مراكز الاخوانية الرئيسية كانت فيما بين دارفور وكنام، فقد حتم ذلك على فرنسا عدم التقدم إلى أبعد من وادي، التقى الطوارق المتمردون أثناء فرارهم من شمال نيجيريا، سيدى البراني في كنام، وجرى إدخالهم في الحركة السنوسية، وانضموا إلى العرب الذين جاءوا من الكفرة في تحصين الزاوية الموجودة في بير اللاهي BirAllahi.

أدى الانتصار الذي تحقّق في زجلبة Zuglba في اليوم الثالث والعشرين من العام ١٩٠١ الميلادي، إلى تحقّق الضغط على الفرنسيين من ناحية الجنوب، الأمر الذي مكّنهم من تثبيت أقدامهم في مساكوري. ومع ذلك قام الطوارق الموجودون في بير اللاهي بمهاجمة إحدى الجماعات المتقدمة وهزموها، وبذلك بقيت زاوية بيت اللاهي مركزاً للمعارضة والمقاومة إلى أن تم الاستيلاء عليها في العام ١٩٠٢.

أدى هذا الغزو الصريح إلى أن ينذر سيدى المهدي نفسه بشكل واضح لشن حملة محددة على الفرنسيين، لكنه لم يكن لديه جيش نظامي. وكانت سياسته تهدف إلى توحيد القبائل في مواجهة المسيحيين، وكان هو نفسه يقوم بتوريد الأسلحة

والذخيرة والأموال. كانت يوركو خاضعة لحكمه بطبيعة الحال. وكان له وزير فى واداي وزوايا فى نيجيريا والكميرون .

كان محمد السنوسى - وهو من أشهر الإخوان السنوسيين، والذي قام بكثير من الرحلات التبشيرية فى كل من السودان وغرب أفريقية - مستشارا لسلطان واداي، الذى جلب له محمد السنوسى معونات مالية من تجار طرابلس.

أدت وفاة المهدي المفاجئة فى اليوم الأول من شهر يونيو من العام ١٩٠٢ الميلادى إلى فقدان القوة الدافعة عن الإخوانية. ونظراً لأن أبناءه كانوا تلاميذ فى مدارس جغوب، فقد جرى تعيين ابن أخيه سيد أحمد الشريف خلفاً له .

بقي الشيخ السنوسى الجديد فى غيرو Ghiru التى واصل منها معارضته للتقدم الفرنسى، إلى أن نزلت به هزيمة منكرة فى شهر ديسمبر من العام ١٩٠٢ الميلادى، جعلته يتقاعد فى الكفرة.

نقل الشيخ السنوسى الجديد مركز رئاسته بضع سنوات ليكون بين هذه الواحة وجغوب ولذلك تمكن من المحافظة على اتصاله مع الزوايا الموجودة فى الشمال دون أن يقلل ذلك من إحكام القبضة التى كانت للمهدى على الأعراق الزنجية فى الجنوب.

ولما كانت المعاهدة الانجليزية - الفرنسية التى أبرمت فى العام ١٩٠٤ الميلادى قضت بالتنازل لفرنسا عن الطريق الواصلة بين زندر وتشاد، فقد انطوى تحرك القوات الفرنسية بطبيعة الحال على تدهور النفوذ السنوسى فى المناطق المحتلة كلها.

يزاد على ذلك أن قبائل أولاد سليمان الذين كانوا من أشد المناصرين للمهدى استسلموا فى العام ١٩٠٥ الميلادى.

وجرى فى العام التالى احتلال بلما Bilma على الرغم من الهجمات العنيدة من جانب كل من الطوارق وعرب الكفرة .

وفي شهر مارس من العام ١٩٠٧ الميلادي جرى الاستيلاء على زاوية عين ملاكا Malakka في بوركو، وجرى قتل سيدى البرانى شيخ الزاوية والحاكم الفعلى لبوركو .

وفي شهر يونيو من العام ١٩٠٩، جرى الاستيلاء على عيش Abeshe عاصمة واداي.

قامت القوات التركية فى شهر مايو من العام ١٩١٠ الميلادي باحتلال تبستي Tibesti، كما احتلت بوركو أيضا فى شهر سبتمبر من العام ١٩١١، لكن البلدين جرى استعادتهما مع الحرب التركية الإيطالية فى العام ١٩١٢، الأمر الذى أسفر عن ترك السنوسى حراً فى الاستمرار فى دعايته إلى أن جرى إخماده فى نهاية المطاف عن طريق التقدم الفرنسى فى كل من بوركو وتبستي ، فى شتاء العام ١٩١٣-١٩١٤.

فى ذات الوقت - وبعد الاعتراف بكل من برقة وطرابلس على أنها من مناطق النفوذ الإيطالى - كان سيد أحمد مشغولا تماما فى الشمال .

عندما نزلت القوات الإيطالية فى ليبيا فى العام ١٩١١ الميلادي، كانت هناك مملكة داخل المملكة وكانت سيادة الأتراك سيادة اسمية فقط .كان الأتراك محتقرين - شأنهم شأن المسيحيين - من اخوانية سيدى بن على النقشبية، التى كانت تنأى بنفسها تماما عن الحكومة العثمانية .

وعليه وبعد أن تحالف سيد أحمد مع تركيا، راح يبتعد عن المبدأ الرئيسى الذى تقوم عليه جماعته. أقنع أنفر Enver باشا سيد أحمد بالسماح للقبايل بالمشاركة تحت قيادة تركية فى العمليات العسكرية الطويلة فى حرب العصابات التى جرى تنفيذها بنجاح كبير فى العام ١٩١٤ الأمر الذى جعل إيطاليا تسيطر على المدن الساحلية فى طرابلس، وعلى برقة فقط، فى الوقت الذى ظلت فيه المدن الداخلية فى أيدي السنوسيين .

على كل حال، لقد تغير هذا النجاح المادي نتيجة حل الكيان السنوسى. واختفى بذلك مبدأ الانعزال الدينى، الذى هو الأساس الرئيسى فى الإخوانية، وحولت الإخوانية نفسها إلى سلاح سياسى فى يدى تركيا. ومن وجهة النظر هذه، أصبحت المسألة لا تبعد قيد باع عن إعلان الحرب على مصر.

لم يكن سيد أحمد معاديا فى أى وقت من الأوقات، لبريطانيا، لأنه كان يعلم أن ليس لها مصالح فى ليبيا - ي زاد على ذلك أن بريطانيا كانت تسهل تجارة سيد أحمد مع مصر، وتلك نقطة حيوية فى صالح البدو، نظرا لأن الموائى الليبية كانت مغلقة فى وجوهم.

كان كل من ما يتسمان Mannismann ونوري باشا - وهما عميلان المانى وتركى - يقدمان الاسلحة، والذخيرة والنقود، فى الوقت الذى كانا يبديان فيه أمام الشيخ السنوسى فكرة أن البدو المصريين سوف ينضمون إليه، وأنه سيصبح حاكما على مصر، ومع ذلك - وعلى الرغم من التنظيم التينانى، وفكرة الجهاد واسعة الانتشار - فإننا نشك فى قدرة السنوسى على تجنيد أكثر من أربعة آلاف رجل.

أسس سيد أحمد مركز رئاسته فى بير الواعر Bir Wacer وانضم إليه حرس السواحل المصرى ، بقيادة محمد صالح.

كان جعفر باشا - ذلك الجندى المحنك القدير، وهو عربى من بغداد - مدربا على أساليب الحرب الألمانية، ويتولى قيادة القوات السنوسية.

كانت السفينة تارا Tara قد أغرقت فى اليوم الخامس من شهر نوفمبر من العام ١٩١٥، وجرى إرسال طقمها أسرى إلى الصحراء.

جرى فى الشهر نفسه اخلاء السلوم Sollum، التى كانت تحت قيادة العقيد سنو Snow بك، وهو من حرس السواحل المصرى، وأثناء نزول الحامية إلى الشاطئ فى طراد شاهدوا سيدى برانى والنار مشتعلة فيها .

أقيم مركز الرئاسة البريطاني في مرسى مطروح، وفي شهر ديسمبر جرى تجميع القوات الخارجية كلها تحت إمرة مركز رئاسة مطروح.

ويعتبر اسم العقيد سنو بك - هو واسم الميجور (الرائد) رويل بك - شهيرين في الصحراء الغربية، لكن العقيد سنوبك مات بطلق نارى أثناء عملية استطلاع جرت فى اليوم الحادي عشر من شهر نوفمبر.

جرى فى ليله عيد الميلاد إنزال الهزيمة بالسنوسيين فى مدوا Medwa، ثم بعد ذلك فى جراوله Jerawla فى اليوم التاسع والعشرين من شهر ديسمبر، لكن المعركة الحاسمة كانت فى حلازين Halazin، التى كان سيد أحمد قد جمع فيها قوته الرئيسية.

وجرى فى اليوم الثالث والعشرين من شهر يناير الهجوم على سيد أحمد وحقق الهجوم نجاحاً كبيراً، واضطر سيد أحمد إلى الانسحاب بصورة متدرجة إلى السلوم، مخلفاً وراءه ٧٠٠ قتيل فى ميدان القتال.

أسفر الانتصار الذى تحقق فى أجازيا Agazia فى اليوم السادس والعشرين من شهر فبراير عن أسر جعفر باشا وهروب سيد أحمد، مما ترتب عليه فتح الطريق إلى السلوم، التى جرى احتلالها فى اليوم الرابع عشر من شهر مارس.

فى اليوم التالى المصادف لليوم الخامس عشر من شهر مارس، قام دوق وستمنستر باندفاعه الشهير إلى بير حكيم على طريق طبرق - جغبوب، على عمق حوالي ٦٠ ميلاً فى الداخل، وعلى بعد حوالي ١٢٠ ميلاً عن السلوم، مستهدفاً بذلك تحرير أسرى تاره.

وانسحب سيد أحمد عن طريق سيوة إلى الداخلة، فى حين ذهب القسم المتبقى من قوته إلى الواحات البحرية وعلى الفور قام البريطانيون بإخلاء الخارجة، وبعد ذلك وفى وجود جيش ناجح يحتل الموقع، أصبح العدو المنهزم معزولاً عن كل المؤن فى وايتين صحراويتين منعزلتين وهنا راحت برقة الثائرة

الجانعة، تعرب عن استيائها من سياسة حاكمها وتحولت بالفعل ناحية محمد إدريس، الذى كان موقفه الموالى للبريطانيين واضحا منذ البداية، وهنا بدأ مشروع تحصين مصر بتكاليف وصلت إلى حوالى ٦٠ مليون جنيه إنجليزى، حتى تستطيع الوقوف فى وجه عدو يقدر عدده بحوالى ٢٠٠٠ فرد.

جرى على وجه السرعة التخلص من معسكرات أولاد على المسلحين، والتى توجد خلف الخط البريطانى فى مطروح، ولكن صيف العام ١٩١٦ أنفق كله فى تحصين خط وادى النيل، ثم جرى فى شهر أكتوبر طرد السنوسيين من الداخلة والبحرية عن طريق سلاح الإبل وداوريات العربات الخفيفة. وانسحب سيد أحمد عن طريق واحة الفرافرة إلى سيوة، التى ترك فيها محمد صالح لتولى القيادة هناك.

وفى شهر فبراير من العام ١٩١٧ الميلادى، وبعد اشتباك حاد فى جربة، حيث تحملت عشرون عربة مدرعة، كانت موجودة فى شرقي ممر مناسب Munasib، نيرانا كاسحة استمرت أربعاً وعشرين ساعة من حوالى ٨٠٠ فرد من السنوسيين كانوا مختبئين بين الصخور التى كانت تعلو تلك العربات، وجرى فى النهاية طرد السنوسيين من الأراضى المصرية.

أمضى سيد أحمد ثمانية عشر شهراً متأرجحاً فى المناطق الداخلية فى برقة وفى شهر أغسطس من العام ١٩١٨ الميلادى انسحب إلى إسطنبول عن طريق غواصة.

جاءت فى الوقت نفسه، أي فى العام ١٩١٦ بعثة أخرى بقيادة الجنرال (كان عقيداً فى ذلك الوقت) مارشيز دى فيتا والعقيد تالبوت، جاءا إلى سيدى محمد إدريس السنوسى فى كل من طبرق وزوتينه Zuetina بغرض ترتيب حل مؤقت فى برقة.

لم يكن سيد إدريس قد شارك بأي دور فى الحملة التى شنّها ابن عمه على مصر. لكنه على العكس من ذلك، ألقى بكل نفوذه باعتباره ابن المهدى فى الكفة المعارضة من كفتى الميزان.

وعندما قرر سيد أحمد القيام بالهجوم، تراجع السنوسى الصغير هو وأخوه سيد رضا إلى إجدابيا ، التى كتبنا فيها إلى الجنرال ماكسويل يبلغانه أنهما لا يؤيدان سياسة ابن عمهما؛ واصل سيره فى هذا الطريق بشكل حازم، على الرغم من أنه بعد هزيمة سيد أحمد جاء مانسمان غرباً ومعه بعض الأتراك وبعض من حرس السواحل المصرى، محاولاً إقناع سيد أحمد بمواصلة الحرب. رفض سيد إدريس هذا العرض، وقتل مانسمان وهو فى طريقه إلى طرابلس، تلك الرحلة التى قام بها مانسمان معارضاً بذلك نصيحة السنوسى له بعدم القيام بهذه الرحلة.

كان من الطبيعى عندئذ أن تتوجه كل من برقة وإيطاليا إلى الابن الأكبر من أبناء المهدي كيما يساعدهما فى مسألة إعادة التنظيم التى أصبحت ضرورة من الضروريات بسبب السياسة الفاشلة التى يتبعها سيد أحمد.

وفى العام ١٩١٧ الميلادى جرى عقد اتفاق بين الحكومتين البريطانية والإيطالية من ناحية وسيد محمد إدريس ، من الناحية الأخرى ، بوصفه رئيساً للإخوانية ، وجرى الاتفاق على ما يلى :-

(أ) سوف تحتفظ الحكومة الإيطالية بالمدن الساحلية ، وبعض المدن التى جرى احتلالها بالفعل على بعد مسافة قصيرة نحو الداخل ، لكنها لن تنشئ مواقع جديدة .
(ب) يجب عدم حظر التجارة بين الداخل وكل من بنغازى، وطبرق ودرنة.
(ج) سيجري بناء وصيانة الأحواش اللازمة طبقاً للشرعية، كما ستتشأ المدارس لتعليم المواطنين، بواسطة الإيطاليين الذين سيقومون أيضاً بإعادة الزوايا وممتلكات الزوايا التى لا تكون مطلوبة لأغراض عسكرية، ويكون الإيطاليون مسئولين عن رواتب شيوخ الزاوية الذين يعينهم سيد إدريس.

(د) تقوم الحكومة الإيطالية بتقديم المساعدات المادية لمحمد إدريس، على أن تقوم بإمداده بالأسلحة، والذخيرة والمعدات والطعام اللازم لعدد محدود من الرجال،

ويقدر العدد في الوقت الحالي بحوالي ٤٠٠٠ رجل , هؤلاء الرجال يتحتم استخدامهم في مواجهة العدو من ناحية , والمحافظة على الأمن العام داخل برقة .

(د) يتحتم دفع مخصصات شخصية شهرية لعدد محدد من الأسرى السنوسية.

(و) وفي مقابل ذلك , يصبح محمد إدريس شخصياً مسؤولاً عن المحافظة على الأمن الداخلي, على أن يقوم بتشكيل مواقع جديدة, وأن يقوم بنزع سلاح السكان بصورة متدرجة, وألا يضع عقبات أمام الحكومة الإيطالية وهي تقوم بنزع أسلحة الجماعات المعادية عن طريق القوة, وأن يسمح للمندوبين الإيطاليين بالدخول إلى داخل البلاد لتسوية الأمور مع مندوب محلي, في الوقت الذي يحق فيه للحكومة الإيطالية, أن تقوم في أي وقت تشاء, بإرسال ممثل لها لمناقشة أمور معه هو شخصياً.

واعتباراً من ذلك اليوم نشأ تفاهم ممتاز, وذلك بفضل النفوذ الشخصي لصاحب المعالي حاكم برقة, والسيناتور دي ماريتينو والسيد محمد إدريس, الذي تتطلع برقة في ظل حكمه إلى مستقبل تجاري وزراعي زاهر.

بعد موافقة الحكام في شهر نوفمبر من العام ١٩٢٠ أقرت كل من إيطاليا والسنوسى الاتفاق الإيطالي - البريطاني سالف الذكر.

منح سيد إدريس لقب أمير وصلاحيه "حاكم مستقل مناب عن إيطاليا" على واحات الكفرة, وجغبوب, وجالو وعجيلة, وإجدابيا. يجب على سيد إدريس تسريح "قراقولاته", ومعسكراته المسلحة في برقة, ويتحتم على الإيطاليين إيجاد وظائف لمن سيجري تسريحهم على أن يكون ذلك في نطاق قوة الشرطة النظامية. تنص مواد الدستور الجديد الذي منحه إلى ليبيا على أن يكون هناك خمسة أعضاء من بين الأعضاء الأربعة والأربعين الذين يشكلون الجمعية التشريعية , مختارين من الواحات الداخلية . ومن المنتظر بناء ميناء في زيوتينة Zuetina , وأن تمر التجارة العابرة للصحراء والقادمة من وادى ودارفور من خلال كل من الكفرة , وجالو , وإجدابيا وهي في طريقها إلى موانئ البحر المتوسط.

يحكم سيد إدريس حاليًا بواسطة قائمقام فى كل من الكفرة، جالو، وجغبوب، والابيارة وتاكنس Takness، وميراوا Merawa وخلاف. وهناك أيضا محكمة شرعية مكونة من كاتيين، مدير الأموال، وأمين صندوق وكاتب ومأمور تحصيل.

العدالة المعمول بها هي العدالة القرآنية، وضريبة العشور تدفع سنويًا على النخيل وعلى الماشية. تفرض ضريبة جمركية بواقع خمسة فى المائة على كل أنواع البضائع التى تدخل البلاد السنوسية، كما يفرض مبلغ صغير على بيع الجمل أو الخروف أو العنزة، لكن من المنتظر فى ضوء العلاقات الودية القائمة حاليًا بين الحكومة الإيطالية والأمير إدريس، أن يجري وضع منظومة للجمارك لتشجيع التجارة بين الداخل والمناطق الساحلية. وسيكون من المهم فى المستقبل ملاحظة الاتجاه الذى سيتوجه إليه السنوسى.

لقد ابتعدت الجماعة عن العناصر الأساسية التى تأسست عليها. هذه الجماعة التى بدأت كجماعة ريفية منعزلة، توسعت عن طريق النفوذ التجارى والسياسى متحولة إلى كيان ملكى، تحتم عليه رغبته فى الحضارة إجبار نفسه على السير على خطوط هى بعيدة تمامًا عن الخطوط التى أنشأها عليها مؤسسها. من المؤكد أن الأمير إدريس سيحظى بمساندة كاملة من البلاد، فى الطريق التى سيختارها هو للسير فيها، وفى ضوء التعاون التعاطفى الحالى من جانب الحكومة الإيطالية، قد يتولى الأمير إدريس قيادة مسيرة التقدم العربى فى شمال أفريقيا.

الملحق ج

مضمون وثيقة الترحيب التي جرى الحصول عليها في بُسَيْمة

بسم الله الرحمن الرحيم

في يوم الجمعة الموافق ٢٨ ربيع الثاني سنة ١٣٣٩، حضر لبلدنا بُسَيْمة الشريف أحمد بو محمد حسنين المصرى بن الشيخ محمد أحمد حسنين البولاقى العالم بالأزهر الشريف والسيدة خديجة وهما يحملان أوامر الوجيه أميرنا العظيم سيد محمد إدريس، ابن محمد المهدي السنوسي. وقد قابلناهم بالتعظيم والإكرام وهنأناهم على سلامة الوصول إلينا. ودعونا الله سبحانه وتعالى أن يمنحهم النجاح في جهودهم وأن يعيدهم سالمين منتصرين وفي أحسن الأحوال وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التوقيع

محمد على المرديني

سعد بن أحمد فقرون

يونس بن ماحي

عمر بن الجيد

صالح بن أحمد فقرون

وثيقة الترحيب التي جرى الحصول عليها في الكفرة (تاج)

إنه في يوم الجمعة المبارك الموافق الثالث من جماد الأول ١٣٣٩، حضر إلى بلدنا في الكفرة الشريف أحمد بو محمد حسنين المصري بن الشيخ محمد أحمد حسنين البولاقى العالم بالأزهر الشريف والسيدة خديجة وهما يحملان أوامر الوجيه أميرنا العظيم سيد محمد إدريس المهدي السنوسى، وطبقا للأوامر السامية قابلائهم بكل تشريف واحترام وشكرنا الله على وصولهم سالمين إلينا، وندعوه أن يعيدهما سالمين.

التوقيع:

المستشار الثانى للكفرة، أحمد السنوسى، يرحمه الله
القاضى عثمان البراسى، يغفر الله له
المستشار، سيد محمد بن عمر الفاضل، يغفر الله له
وكيل سيد الكفرة، محمد صالح البسكارى، يغفر الله له.

الملحق د

ترجمة مخطوطة الرسالة التي وجهها سيدي بن علي السنوسي، مؤسس الإخوانية السنوسية، إلى أهل واجنجا . اطلعنا على هذه المخطوطة في الكفرة .
بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة على نبيينا محمد وعلي آله وصحبه وسلم، رضي الله عنهم ، هذه الرسالة ممن اختاره ربه محمد بن علي بن السنوسي الخطابي الحساني الإدريسي، إلى العالم الذكي الشيخ فرج الجنغاوي هو وكل أهل واجنجا ، كبارا وصغارا ، ذكورا وإناثا حماهم الله وحقق الله لهم ما يبتغونه في الدنيا وفي الآخرة ! آمين .

السلام عليكم ورحمته وبركاته وعفوه ورضاه .

هدفنا ومبتغانا في المقام الأول هو السؤال عنكم وعن أحوالكم ، أصلحها الله ويسرها لكم طبقا للكتابة وموروث نبيه ﷺ محمد .

ثانيا، نو أن نطلب منكم باسم الإسلام طاعة الله ونبيه . قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول " وقال أيضا " من يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما " وقال أيضا " من يطع الرسول فقد أطاع الله " وقال أيضا " من يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا "

نود أن نطلب منكم أن تطيعوا ما أمر به الله ورسوله، وأداء الصلوات الخمس، وصوم رمضان، وإيتاء الزكاة، والحج الي بيت الله المقدس، والابتعاد عما حرمه الله، وعن الكذب، والنميمة، وأكل أموال الناس بالباطل، شرب الخمر، قتل الناس بغير حق، الشهادة الزور، والأشياء الأخرى التي حرمها الله .

و عندما تتبعون ذلك سيتنون خيرا أبديا ومغانم لن تضيع منكم مطلقا.

طلب منا بعض من رجال بلدكم أن نرسل معهم بعضا من إخواننا لكي يذكرهم بالله ويعلموهم ذلك الذي قال الله ﷻ ورسوله ﷺ ويهدوهم إلى سواء السبيل .وقد قررنا عمل ذلك , لأن هذه هي المهمة التي كلفنا بها الله ﷻ ألا وهي : تذكير المتناسين , وتعليم الجهلة , وهداية الضال . لكننا في ذلك الوقت كنا في " الحرمين " الشريفين . وعندما وصلنا إلى هذه المناطق شغلنا أنفسنا بهداية الناس إلى الطريق المستقيم , ولم نجد أي أحد من بلادنا كيما نرسل معه أولئك الذين سيقومون بتعليم الدين لهؤلاء الناس.

جاء إلينا الآن أبناءنا من الزاوية , أقصد أولئك الذين يسكنون زاوية قازير(*) , وتابوا وندموا وطلبوا منا بناء زاوية في تازير . ونحن ننشئ أن نكون جيرانا لكم , ونعلمكم ونعلم أبناءكم القرآن وحديث النبي محمد ﷺ ونحن ننوي أيضا إرساء السلام بينكم وبين العرب الذين يغزونكم ويأخذون أبناءكم وأموالكم . ونحن عندما نقوم بذلك نكون نتصرف طبقا لقول الله ﷻ " وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما " . وقوله تعالى : " اتقوا الله , واصلحوا ذات بينكم وأصيحوا الله والرسول إن كنتم مؤمنين " . وقوله تعالى : " أعطوا الصدقات واصلحوا بين الناس ومن يفعل ذلك مرضاة الله فسيغفر فوزا عظيما " .(**)

وبهذه الطريقة سيكون هناك تعاون على فعل الخير وعلى التقوى كما ورد في قوله الله ﷻ : "وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان " . قال رسول الله ﷺ " يا عباد الله , كونوا إخوانا وساعدوا بعضكم بعضا في الدين " .(***)

(*) قازير : الاسم القديم لواحة الكفرة.

(**) أوردت المؤلفة هذا الجزء على أنه ترجمة لأية من آيات القرآن، وهو ليس بأية وإنما قد يكون تركيبه من بضع آيات. (المترجم).

(***) هذا معنى حديث وليس حديثا. (المترجم)

وفيما يتعلق بالتمرد والنزاع فلا خير فيهما وقد حرمها الله في كتابه العزيز
 " ولا تنازعوا فتفشلوا , واصبروا فإن الله مع الصابرين " .
 وبمشيئة الله, وإذا ما أطعتم أوامرنا وعمل وعملتم بنصيحتنا, ستجىء نخبه
 صغيرة من أبنائنا ليعلموا الناس القرآن وحديث رسوله الله ﷺ وعندها لن نخافوا
 أحداً وستنزل بكم نعمة الله ورحمته, بمشيئة الله.
 بلغوا تحياتنا وهذه الرسالة إلى المحيطين بكم, الذين يودون طاعة الله
 ورسوله والذين يودون العمل بالقرآن وسنة النبي ﷺ.
 ادعو الله, سبحانه وتعالى أن يجعلكم ممن يهدون ويهتدون , ومن أولئك
 الذين يبتغون الخير ويتبعونه!
 ادعو الله أن يحفظ عليكم أمنكم وصحتكم !

بتاريخ الرابع من محرم من العام ١٢٦٦ الهجرى.

قائمة الصور

صورة الغلاف

- ١- الأمير إدريس السنوسي
- ٢- المؤلفة وهي ترندى زى شيخ بدوى
- ٣- أحمد محمد بك حسنين، زميلى الرحالة
- ٤- سيد رضا السنوسى
- ٥- نساء بدويات بجوار فرن طينى فى إجدابيا
- ٦- المؤلفة على ظهر جمل
- ٧- بدوية فى إجدابيا
- ٨- خيام البدو بالقرب من إجدابيا
- ٩- جنودنا العبيد والمرشد عبد الله
- ١٠- بئر فى إجدابيا
- ١١- مخيمات بدوية حول إجدابيا
- ١٢- سيد رضا السنوسى
- ١٣- المؤلفة ترندى الزى البدوى
- ١٤- التنزيل فى اليوم الثانى من إجدابيا
- ١٥- وادى فارق؛ إبل عند البئر
- ١٦- وقفة لتمضية الليل
- ١٧- مخيم تجارة مجابره عند بئر رسّام

- ١٨- حسانين بك والمجابره يشربون الشاي
- ١٩- القطعان تشرب من بير رسام
- ٢٠- قافلة شيب في طريقها بين الوادي الفارغ وعجيله
- ٢١- قافلتنا تقترب من عجيله
- ٢٢- عجيله
- ٢٣- مسجد عجيله، المدفون فيه كاتب النبي محمد ﷺ
- ٢٤- متفرجون مغرمون في عجيله
- ٢٥- بئر صحراوية في جالو
- ٢٦- المؤلفة مع الأمتين: زينب وحواء Hauwa
- ٢٧- مخيمنا في بطفال
- ٢٨- القافلة في طريق سيرها بين بطفال وتيسربو
- ٢٩- المكان الذي عثرنا فيه على الوقود لأول مرة: "الهاتيا" بالقرب من العطش
- ٣١- المنطقة الجبلية في بُسِيمة
- ٣٢- القافلة في منطقة كثنان رملية بالقرب من بُسِيمة
- ٣٣- أول لقاء بين أسرة فقرون وجماعتنا في بُسِيمة
- ٣٤- المؤلفة تركب جملاً في بُسِيمة
- ٣٥- امرأة زوويه في بُسِيمة
- ٣٦- في بُسِيمة: تعليم أسرة فقرون طريقة استعمال نظارات الميدان.
- ٣٧- تاج، فوق الوادي

- ٣٨- جوف
- ٣٩- الأخوان الأربعة الذين استقبلونا فى تاج
- ٤٠- حسانين بك يتحدث إلى الأخوان فى تاج بينما تقوم المؤلفة بالتقاط صورة لهم.
- ٤١- 'القائم مكان' فى تاج
- ٤٢- منظر الجوف
- ٤٣- بحيرة الجوف
- ٤٤- زاوية البرج فى تاج
- ٤٥- منزل سيد أحمد شريف فى تاج
- ٤٦- وادى الكفرة فى تاج
- ٤٧- قرية تيبو فى الكفرة
- ٤٨- أنقاض قلعة تيبو فى الكفرة
- ٤٩- رجال معه مسيحة
- ٥٠- برأكنج: منزل شديد الانحدار
- ٥١- تناول الغداء فى وادى الكفرة
- ٥٢- رحلة سليمان بو مطر الخلوية فى وادى الكفرة
- ٥٣- تيبى فى أواردل فى الكفرة
- ٥٤- بحيرة بومه
- ٥٥- البحيرة والسمار فى الكفرة
- ٥٦- مخيمنا فى أواردل

- ٥٧- التّحميل في أواردل
- ٥٨- مخيم مهماسا: يوسف محمد وعمر
- ٥٩- المؤلفة نائمة فوق جمل
- ٦٠- المنطقة الواقعة خلف الكتبان الرملية في الطريق إلى جغبوب
- ٦١- جغبوب
- ٦٢- بئر في زاوية في جغبوب
- ٦٣- مسجد وقبة سيدى بن على في جغبوب
- ٦٤- رحلتى الخلوية الوحيدة في وادى الكفرة
- ٦٥- كوب من الشاي المنع في الطريق إلى سيوه
- ٦٦- تسليم وثائق الترحيب في كل من بُسيمة والكفرة (تاج)

المؤلفة في السطور

جوان روزيتا فوربس:

رحالة وكاتبة، تربت ونشأت في لينكون. وتزوجت وترحلت مع زوجها إلى الهند، والصين وأستراليا، وجنوب أفريقيا. قامت روزيتا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بجولة حول العالم؛ انتهت في شمال أفريقية، الذي يعد أول ملئقى لروزيتا بالعالم العربى. عاشت هذه السيدة مع الشخصيات المحلية وخالطتها وكانت تتردد على الأسواق الشرقية وتصادق العرب والأفغان والهنود، والتقت هذه السيدة بعض الشخصيات البارزة في كل من القاهرة، ودمشق، وببيروت، واكتسبت اهتماماً بالعرب دام معها بقية حياتها.

المترجم فى سطور:

صبرى محمد حسن

أستاذ اللغويات غير المتفرغ، له أكثر من عشرين بحثاً ومقالاً نشرت فى المجالات والصحف العربية المحلية والدولية منها:

مقالات وأبحاث نشرت بمجلات الفیصل - الرياض - المملكة العربية السعودية، ومجلة كلية الملك عبد العزيز الحربية - الرياض - المملكة العربية السعودية، والمجلة العربية - الرياض - المملكة العربية السعودية، ومجلة الهلال - القاهرة جمهورية مصر العربية.

وله كتب مترجمة إلى العربية منها:

(أ) كتب نشرتها دور نشر عربية.

١- التفكيكية: النظرية والممارسة، تأليف كرسينوفرنوريس، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٢- الشاعر والشكل، تأليف: جندسون جبروم، دار المريخ.

٣- الاستراتيجية العربية والإسرائيلية وجهًا لوجه، دار المريخ.

٤- الأطفال والمخدرات، دار المريخ.

(ب) كتب نشرتها دار أفاق الإبداع العالمية للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية.

١- الموظف المشاكس.

٢- عمل الفريق الفعال.

(ج) كتب نشرت ضمن كتاب الهلال. القاهرة، جمهورية مصر العربية.

١- هارون الرشيد ، تأليف : فيليبي.

٢- الكاكائين والمرهقين.

٣- بنات مدمنى ومدمنات المسكرات.

(د) روايات مترجمة نشرت ضمن روايات الهلال.

١- حلم ليلة إفريقية.

(هـ) كتب روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة، جمهورية مصر العربية .

١- سبعة أنماط من الغموض، تأليف : وليم أميسون.

٢- وسط الجزيرة العربية وشرقها، تأليف : بالجريف (جزءان).

٣- حركات التحرر الإفريقى ، تأليف : ريتشارد جيسون .

٤- إرادة الإنسان فى علاج الإدمان.

٥- قلب الجزيرة العربية (جزءان).

٦- سيرتى الذاتية، تأليف : أحمد بللو .

(و) روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ، جمهورية مصر العربية.

١- سكين واحد لكل رجل.

٢- نجوم حظر التجوال الجدد .

٣- المهمة الاستوائية.

المراجع فى سطور

أ.د/ يوسف عبد المجيد فايد

أستاذ غير متفرغ بكلية الآداب - ج القاهرة قسم الجغرافيا من أهم

ترجماته : جغرافية المناخ والنبات.

جغرافية المحيطات.

جغرافية الأمريكتين.

رئيس قسم ج بمعهد البحوث والدراسات العربية :

عضو مجلس إدارة الجمعية الجغرافية.

عضو لجنة الجغرافيا بالمجلس الأعلى للثقافة.

التصحيح اللغوي: موسى عجلان

الإشراف الفني: حسن كامل

